يون كالمان ستيفنسن

ضياءُ الصّيف

ثمّ يقبِلُ اللّيل

دار المنى

ضياءُ الصّيف ثمّ يقبِلُ اللّيل

مكتبة 701
سُر مَن قرأ

٢٠٢١٦١ مكتبة
t.me/t_pdf

This book has been translated with a financial support from:

ICELANDIC LITERATURE CENTER

ISBN 9789188863324

Arabic edition © Bokförlaget Dar Al Muna, 2020

Original title:

Sumarljós Og Kemur Nóttin

Text © Jon Kalman Stefánsson 2005

Published in agreement with Copenhagen Literary Agency, Copenhagen

Arabic text: Sukainah Ibrahiem

Arabic text © Bokförlaget Dar Al Muna AB, Stockholm

Typesetting: Joachim Trapp

Bokförlaget Dar Al-Muna AB

Box 127, 18205 Djursholm, Sweden

www.daralmuna.com

يون كالمان ستيفنسن

ضياءُ الصّيف
ثمّ يقبِلُ اللّيل

مكتبة 701
سُر مَن قرأ

النص العربي : سكينة إبراهيم

دار المنى

المحتويات:

1 الكون وثوب مخملي أسود . . . 11.

2 على شكل قوارب التّجديف تُسبك الدّموع . . . 47.

3 أيجب أن نعترف بأننا أبلهان؟ . . . 82.

4 ما الذي يُنسَب إلى عبارة «دمار العالم»؟ . . . 122.

5 في الغابة تعنّ للرجل أفكارٌ شتّى
خصوصًا عندما يجري فيها نهر واسع . . . 164.

6 هناء . . . 202.

7 تيكلا والرجل الذي لم يستطع عدّ السّمك . . . 212.

8 أي نوع من عالم قذر سيكون هذا من دونها . . . 254.

[كدنا نكتب الآن أنَّ ما أدى إلى أن تكون بلدتنا فريدة من نوعها ، أنها ليست فريدة على الإطلاق ؛ لكن من الواضح أن هذا منافٍ للحقيقة كليًا . حتمًا هناكَ بكل تأكيد أماكنُ أخرى ، غير بلدتنا ، فيها منازلُ لم يبلغ عمر معظمها تسعين سنة ، هي قرًى ليس بإمكانها التَّفاخرُ بأيّ فردٍ مميَّزٍ من سكَّانِها ، لا أحد فيها اكتسبَ مهارةً في لُعبةٍ من الألعاب الرّياضيَّة أو السّياسة أو برعَ في قطاع الأعمال أو نظمِ الشّعر أو حتَّى الجريمة . نحن ، على أيّ حال ، يبدو أنَّنا نتميّز بشيءٍ واحد تفتقر له البلدات الأخرى – ما من كنيسَةٍ هُنا ، ولا باحة كنيسةٍ أيضًا . مع ذلك ، جرت محاولات متكرّرة لمعالجة هذه المسألة ، فالكنيسَةُ ستُحدث تأثيرًا مميزًا في مجتمعنا ، لا يمكن إنكاره ، وقرعُ أجراسها الرائق يمكن أن يساهم في إنعاش نفوس أولئك الذين يشعرون بالكآبة ؛ إلى جانب أن ذلك الصّوت يحمل في طياته التبشير بأخبار الخلودِ الطَّيّبة . تنمو الأشجار في باحات الكنائس ، وتغدو/أغصانُها أعشاشًا للطّيور المغرِّدة التي تجثمُ عليها . كانت سولرون مديرة المدرسة الابتدائيَّة قد حاولت مرّتين جمع التّواقيع لتَقديمِ عريضةِ التماس تطلبُ فيها أشياءَ ثلاثةً : كنيسة ، وباحة كنيسة ، وقسِّيس . لكنها لم توفّق إلّا في الحصولِ على ثلاثةَ عشرَ توقيعًا في الغالب ، وهذا ليس بكافٍ لجلبِ قسِّيس ، بل ليسَ بكافٍ لبناء

كنيسة ، وبدرجة أقلّ لباحة كنيسة - نحن طبعًا نموت مثل أيّ أحدٍ آخرَ ، هذا على الرغم من أنَّ العديد منَّا وصلوا إلى سنٍّ متقدّمة ؛ إلى نسب مئويَّة في الواقع ، ويكادُ يندرُ في أيّ مكانٍ في البلاد وجود أناسٍ كُثر تجاوزت أعمارهم الثّمانين . وهذه يمكن ربّما تسميتها ميزتنا الثّانية . لدينا عشرة أفراد أو ما يقارب ذلك يقتربون من المئة ؛ إذ يبدو أن الموت قد غفلت عيناه عنهم ، وفي الأمسيات نسمعهم يقهقهون ، وهم يروّحون عن أنفسهم بمباراةٍ غولف بسيطة في البستان خلف دار الرّعاية . لا أحد استطاع أن يجد تفسيرًا منطقيًا لارتفاعِ نسبة المتوسط العمري لدينَا . لكن سواء كان ذلك يعود إلى طبيعةِ غذائنا ، أو إلى سلوكنا المتّبع في الحياة ، أو مواقع جبالنا ، لطالما كنّا ، بالغريزة ، شاكرين لطول العمر ، لأنه أبقانا بمنأى عن باحة الكنيسة ، وهذا هو سبب تردّدنا في توقيع عريضة سولرون ، مقتنعين ، لا شعوريًا ، أنَّ أيَّ شخصٍ يوقّع إنَّما يوقّع بذلك على وثيقة موته ، أي أنَّه يستدعي الموت مباشرةً . هذا على الأرجح مجرَّدُ هراء ، لكن حتى الكلام الفارغ قد يبدو مقنعًا حينما يكونُ الموتُ متضمّنًا فيه .

ما عدا ذلك ليس هناك شيءٌ مميز نقوله عنّا .

توجدُ في بلدتنا هذه ، بضع دزّينات من بيوتٍ بعضها منفصلٌ عن بعض ، معظمها متوسِّطة الحجم ، صمّمها معماريُّون أو مهندسون يعوزُهم الإلهام ، عجيبٌ كيف نقتصرُ على مطالبَ قليلةٍ من أولئك الذين لهم تأثيرٌ ملحوظ على بيئتنا المحيطة . هنا توجد أيضًا ستّ مجموعاتٍ من ثلاثة صفوفٍ متلاصقةٍ من المنازل ، وبضعُ بيوتٍ خشبيَّة جميلة نوعًا ما من مطلع القرن العشرين ، أقدمُها يعود تاريخ بنائه إلى ثمانية وتسعين سنة خلَتْ ،

بُني في 1903 ، أركانه مهلهلةٌ جدًا لدرجة أنَّ السّيَّارات الكبيرة تمر إلى جانبه بمنتهى التّريث . أكبر المباني هي المسلخ ومعمل الألبان والتّعاونيّة ، وكذلك مؤسَّسة النّسيج ، ولا أي واحد من تلك المباني حسن الشّكل ، لكن من ناحيةٍ أخرى ، لدينا رصيفٌ بحريٌّ صغيرٌ لطيفٌ يتغلغلُ في الماء ، يتميَّزُ بأساسٍ خُرساني شُيّد قبل خمسين سنةً ، ما من سفنٍ أو مراكبَ ترسُو هُنَا ، غير أنَّه من المسلّي التّبوُّل من على الرّصيف ، لنستمعَ إلى صَوتِ رشَّاش البول المضحكِ ، وهو يطرطش في تدفقِه سطح الماء .

تقع البلدة على وجه التّقريب في منتصف المقاطعة ، يحدُّها الرّيف شمالًا وجنوبًا وشرقًا والبحر غربًا . من اللطيف أن يطلّ المرء على الزّقاق البحريّ ، حتى وإن يكاد يخلو من السّمكِ ، ولطالما كان كذلك . في الرّبيع ، يجذبُ الزّقاق البحريّ طيورَ الخوّاضِ المتفائلة البشوشة ، وأحيانًا يمكن أن يعثر المرء على محارةٍ على الشّاطئ ، وبعيدًا عبر المدى ، تنبثقُ من البحر آلاف الجزر والنُّتوءات الصّخريَّة مثل صفٍّ من الأسنان المثلمة – في المساء تنزف الشّمس فوق البحر فتتَّجه أفكارُنا نحو الموت . لعلَّكم من أصحابِ الرَّأي القائل إنَّ التّفكير في الموت ليس صحيًا ، أنه ينحدر بالمرء إلى الأسفل ، يغمرُه باليأس ، سيِّئٌ للدورة الدّمويَّة ، لكنَّنا نرى أنَّنا نحتاج حرفيًا إلى أن نكون أمواتًا لا أن نفكّر في الموتِ فقط . من ناحيةٍ أخرى ، أفكَّرْتم يومًا كم هو عددُ الأشياء التي تعتمد على الصّدفةِ – بل ربَّما كلّ شيء؟ هذه قد تكون فكرةً لعينةً مزعجةً ؛ نادرًا ما تتضمّن الصّدفة أيَّ معنًى عقلانيّ ، ما يجعل حياةَ المرءِ لا تختلفُ إلّا قليلًا عن التسكّع العشوائيّ – في بعض الأحيان يبدو أن حياة المرء هذه تمضي في الاتِّجاهاتِ المختلفة كلِّها قبل أنْ تتوقّفَ ، على الأغلب ، وهو في منتصف جملة – ربّما ذلك بالتّحديد هو السّبب الذي يجعلُنَا نرغبُ في أن نقصَّ

عليكم حكاياتٍ من بلدتنا ، ومن الرّيفِ المحيط بها .

لن نخبرَكم عن البلدة كاملةً ، لن نذهبَ بكم من بيتٍ إلى بيتٍ . ستجدونَ هذا لا يُطاق ، في الوقت نفسِهِ نحنُ حتمًا سنخبركم عن الشَّهوةِ التي تربط النهار بالليل ، عن سائقِ شاحنةٍ سعيد ، عن ثوبِ إليزابيت المخمليّ الأسود ، والرَّجل الَّذي وصل بالحافلة ، عن ثوريذر الطّويلة والمشحونةِ بالرَّغبات الباطنيَّةِ ، عن رجلٍ لم يستطع أن يعدَّ السَّمك ، وامرأةٍ تنفّسَتْ باستحياءٍ - عن مُزارعٍ وحيدٍ ومومياءَ عمرُها أربعة آلاف سنةٍ . سنخبركم عن الأحداث اليوميَّةِ ، وأيضًا عن تلك الَّتي تتخطَّى استيعابَنا - لأنَّه من المحتمل أنَّ ليس هناك تفسيراتٍ لها . سنحكي عن أناس يختفون ، عن أحلام تُغيِّر الحياة ، وأفراد مضَتْ عليهم مئتَا سنةٍ تقريبًا يقرّرون ، على ما يظهر ، أن يعلِنُوا لنا عن حضورهم عوضًا عن اضطجاعهم بهدوء في مراقدِهم . وطبعًا سنحدّثكم عن الليل الذي يخيّم علينا ، ويستجلبُ قوّته من أعماق الفضاء ، عن أيَّامٍ تأتي وتذهب ، عن تغريدِ الطّيور والنّفَسِ الأخير ، هذا على الأرجح قد يسفرُ عن عددٍ لا بأس به من القصص ، وسنستهل الحديث من هنا في البلدة ، وننتهي في فناء مزرعةٍ في الرّيف تُجاه الشّمال ، والآن نبدأ ، ها هي تأتي ، البهجة والوحدة ، التّواضع واللامنطق ، الحياة وحلم - نعم ، أحلام .]

الكون وثوب مخملي أسود

مكتبة
t.me/t_pdf

1

في ليلةٍ ما بدأ يحلُم بلغةٍ لاتينيَّةٍ «أتظنُّ أنَّك قد رأيت كلَّ شيء؟» . استغرقه الأمر وقتًا طويلًا على أيّ حال ليستنتجَ أيَّ لغةٍ كانت ؛ هو نفسُه ظنّ أنَّها ليست إلّا مختلقة من نسج الخيال ، فهناك أشياءُ كثيرةٌ تكمن في الأحلام ، إلى آخر ذلك . في تلك السّنين كانت الأحوال مختلفةً إلى حدٍّ بعيد هُنا في البلدة ، تقدّمنا بشيء من البطء ، والتّعاونيَّةُ جمعَتْ شمل كلِّ شيء . هو ، من النّاحية الأخرى ، كان مديرَ مؤسسة النّسيج ، وقد بلغ مؤخرًا الثّلاثين من العمرِ . كان كلُّ شيء يعمل لصالحه . متزوجٌ من امرأةٍ في غاية الجمال لدرجَةِ أنَّ مجرَّدَ رؤيتها يجعل الخَفَر ينتابُ بعضَ الرّجال على نحوٍ غريب ، أنجبَا طفلين ، ونتوقّع أنَّ أحدهما ، دافي ، سيظهر لاحقًا في هذه الصّفحات . بدا أنَّ المديرَ الشّاب قد وُلِدَ والفوز مقدَّرٌ له ؛ سكنَتْ عائلتُه في أكبر بيتٍ من بيوت البلدة ، قاد سيَّارة رينج روفر ، وفصَّل بدلاته بطريقةٍ خاصَّةٍ حسب طلبه ، كُنَّا كلّنا باهتين مقارنةً به ، ثمَّ فجأةً بدأ يحلُم بكلامٍ لاتينيّ . كان الطبيب المسنّ هو من أفلح في أن يحدِّدَ له أيَّ لغة هي ؛ مع أنه من المحزن القول إنَّه مات بعد فترةٍ قصيرة ، وذلك عندما هاجمه كلبُ غوجون اللّعين وهو يزمجر في وجهه ، فتوقّفَ قلبُه المنهَكُ عن العمل . صرعْنَا ذلك الكلبَ

المشؤومَ بالرّصاصِ في اليوم التّالي مباشرةً ؛ ويا ليتَنا فعلنا ذلِكَ من قبل . هدَّدنا مالكُهُ غوجون بمقاضاتِنَا ، ثمَّ ما لبث أنِ اقتنَى كلبًا آخر ثبتَ أنَّه أسوأ مِن خلَفِه . حاولَ بعضُنا دهسَه بالسَّيَّارات ، بيد أنَّ ذلك المخلوق كان سريعًا في النُّهوض على قوائمِهِ . والطَّبيب المسنّ لم يكن يعرف شيئًا تقريبًا في اللّغة اللّاتينيَّة ، مجرَّد كلماتٍ قليلة وأسماء الأعضاء الحيويَّة في الجسم ، لكنْ عندما استطاعَ المديرُ أن يسترجعَ في ذاكرتهِ العبارةَ الواردة في الأعلى ، كان ذلك ، على ما يبدو ، كافيًا للطَّبيب .

أولئك الذين تبدأ الأحلام باللغة اللّاتينيَّة تراودُهم هم بالكاد يكونون مجبولين من مادَّةِ الحياة اليوميَّة . الإنجليزيَّة ، الدّنماركيَّة ، الألمانيَّة ، نعم ، نعم ، والفرنسيَّة بل حتَّى الإسبانيَّة ، جيّد أنْ يعرف المرء بعضَ هذه اللّغات ، فهي توسّع مداركَهُ ، لكنَّ اللاتينيَّةَ! هذا شيءٌ مختلفٌ كليًا ، فهي أكثرُ بكثيرٍ من تلك اللغات ، بحيثُ لا نكاد نجرؤ على محاولةِ الإسهاب في توضيحهَا . بيد أنَّ المديرَ كان رجلًا عمليًا . أشياء قليلةٌ فقط وقفت في طريقه ، ولطالَما أرادَ أن يبسُطَ سيطرتَه على كلِّ ما يحيطُ به ، وبالتّالي وجد أنَّه من المحبطِ إلى حدٍّ ما أن تتلوَّن أحلامُه بلغةٍ لم يفهمْها مطلقًا . رأى أنَّ هناك شيئًا واحدًا فقط يمكِنُ القيامُ به حيالَ ذلك ؛ الذّهاب جنوبًا إلى العاصمة ، والتَّسجيل في دورةٍ خاصَّةٍ مكثّفةٍ مدّتها شهران ليتعلّم أسرار اللّغة اللّاتينيَّة .

كان أنيقًا جدًا في تلك السّنوات ، إلى درجة الصَّفاقة تقريبًا . ذهب إلى العاصمة وهو يقود سيَّارتَه الرّينج روفر ، اشترى سيَّارةَ تويوتا كورولا أتوماتيكيَّةً جديدة لزوجته ، حتَّى لا تُنهِك ساقيها الرّشيقتين الجميلتين ، وهو بعيد عنها في الجنوب ، على الرّغم من أنَّه لم تكن هناك أي ضرورةٍ لشراءِ سيَّارةٍ لها ، نظرًا إلى وجود أكثر من حفنة من الرجال

مستعدّين استعدادًا تامًا ، وبكلِّ سرورٍ ، لحملها والطّواف بها عبر دروبِ البلدَةِ كلِّها ، بل عبر دروب الحياةِ أيضًا . وهكذا قاد سيَّارتَهُ جنوبًا ببزَّتِهِ المصمّمةِ له خصيصًا ، وعلى وجههِ ترتسم نظرةٌ عازمةٌ ومتلهّفة ، وهدفه الثابت كامن عميقًا في باطنِهِ ، وهذا بطبيعةِ الحالِ ما لم نعرفْهُ آنذاك ، فأحلامُه الهادئةُ كانت تنتشر فيه متحولة إلى ما يشبه بحيرة واسعة ، وعند شاطئها مركبٌ ينتظره .

2

كم كنّا نودّ أن نملك تفسيرًا ، أو ربّما تفسيرات ، للتحوّل الجذريّ ، بل حتّى للانسلاخِ اللامنطقي الّذي طرأ على المدير . ذهبَ إلى العاصمةِ وعادَ رجلًا مختلفًا كليًا ، رجلًا أقرب إلى السّماء منه إلى الأرض . نعم ، عاد من الجنوب ، لسانُهُ طليقٌ باللّغة اللّاتينيّة ، وذلك أصابنا بالذّهول ، غير أننا لم نلاحظِ الانسلاخَ الغريب فورًا ، فهو ما زال يقودُ سيارة الرّينج روفر ، لكنَّ ثيابَه بدأت تبدو مهملةً ، وصوتُه أرقّ ، وحركاتُه أبطأ ، وبدا كما لو أنَّ الرَّجل حصل على عينين جديدتين . اختفَى الوميضُ الحازمُ منهما ، حلّ محلّه شيءٌ رأينا أنَّه من الصّعب تسميته ، ربَّما شرود ذهن ، وربَّما الإبحار في عالم الخيال ، وفي الوقت نفسِه ، شعرنا كما لو أنَّه قادرٌ على أن يسبرَ أغوار كلِّ شيء ، ما تصطبغُ به حياتنا من بلبلةٍ وجلبةٍ وأزيزٍ ، القلق بخصوص أوزاننا ، إيراداتنا ، تجاعيدنا ، السّياسة ، وتصفيفات الشّعر . لعلَّه كان يجدر بنا كلّنا الذّهاب إلى العاصمة لنتعلّم اللغة اللّاتينيّة ، ونحصل على عيونٍ جديدةٍ ؛ حينها من المحتملِ أنْ تقتلع بلدتنا نفسها من الأرض وتطفو نحو السّماء . غير أنّنا لم نذهب إلى أيّ مكانٍ طبعًا ، فأنتم

تعرفون كيف هي الحال ، كنّا عالقينَ بقوّةٍ في حقل العادةِ المغناطيسيّ . في الحقيقة ، كانتِ العادةُ ، روتين الحياة اليوميَّة المخدّر ، ما دفعنا إلى أن نألف بسرعةٍ مدهشةٍ العينَين الجديدتَين كلّ الجِدّة ، الثِّياب المجعَّدةَ ، والسّلوكَ المختلف . النّاسُ ، على أيّ حالٍ ، يتغيَّرون دائمًا ، يجدون هواياتٍ جديدةً ، يصبغون شعرَهم ، يخونون أزواجهم ، يموتون ، ومتابعةُ ذلك كله ما هو إلّا محاولةٌ يائسةٌ ، هذا إضافةً إلى أنّنا كنّا مشغولين بما يكفِي في بذل الجهد لاستيعاب الطّنين الذي ينز في رؤوسنا . ثمَّ ، بعد ما يزيد عن سنة بقليل من دورة المدير في اللّغة اللّاتينيَّة ، وصل إلى مكتب البريد طردٌ من الخارج ، صندوقٌ كُتبَتْ عليه كلمةُ «هشّ» بتسع لغاتٍ . أوغستا ، موظفة مكتب البريد الوحيدةُ شوَّشها هذا كثيرًا جدًّا ، لدرجة أنّها لم تتجاسر على فتح الطَّرد ، واضطررنا إلى الانتظار عددًا لا بأس به من الأيَّام قبل أن نعرف ما كان فيه . ما عليكم إلّا أن تتخيّلوا التّخمين والتّكهن الذي سبّبه هذا الطّرد ؛ ظهرت نظريَّاتٌ مختلفة ، وكلّها ، على أيّ حال ، أسفرت عن كونها بعيدةً جدًّا عن الصّواب ، لأنَّ الطّرد لم يكن فيه إلّا كتاب ، كتاب قديم ، وعلى وجه التَّأكيد ، كتاب مشهور عالميًا : «رسولُ النّجوم» ، تأليف غاليليو غاليلي . كان الكتاب في طبعته الأولى ، وهذا ليس بالأمر التّافه ، نظرًا إلى أنَّه نُشِرَ قبل ما يزيد على أربعمئة سنةٍ خلَتْ . وهو مكتوب باللّغة اللاتينيَّة ، ويتضمّن هذه العبارة : « . . . من دون مراعاة استخدامه للأجسام الأرضيَّة ، أكرّس نفسي لرصد الأجرام السّماويَّة .»

ليس هناك ، في الواقع ، وصفٌ أفضل للتغيُّرات التي حدثت لمديرنا ، من تسميته بالفلكيّ ، كما لقّبه أحدُهم بعد أن أصبحت محتوياتُ الرّزمة معروفةً ، وذلك تيمّنًا بلقب رجلٍ مسنّ غريب الأطوار مات منذ سنوات

عديدة ، وربَّما فعل هذا مع نيّةٍ مبيّتة للسخرية من المدير ، بيد أنَّ اللقب التصق به فورًا ، وسرعان ما فقد حدّه التّهكميّ . في الحقيقة زوجته هي التي أخبرتنا عن الكتاب ؛ بدا أنَّها بحاجةٍ ماسّة إلى أن تخبرَ أكبر عددٍ ممكن من النّاس عن الاختلاف الكبير الذي طرأ على زوجِها ، وعليكم أن تصدِّقونا بأنَّه كان هناك الكثير جدًا من المتلهّفين إلى الاستماع إليها . هي غالبًا ما درجت على وضع أحمر شفاهٍ أسودَ ؛ ليتكم فقط رأيتموها ببلوزتها الخضراء ، جميلة جدًا ، جذّابة جدًا ، ولطالما سكنَتْ أحلامنا ، وبعضنا ، مثل سيمي العازب الذي كان بلا جدالٍ مفتونًا بها ، فكرّ في أحيان كثيرة أن يرحل بعيدًا عن البلدة ليستعيد شيئًا من التّوازن في حياتِه . كان سيمي آنذاك يقترب من سنِّ الخمسين ، هو خيّالٌ ماهر يملك اثنَي عشر حصانًا ، ودرج على امتطاء أحد أحصنته يوميًا ، وغالبًا ما يُرى وهو يمرّ من أمام بيتها على أمل أن تلتقط عيناه لمحة منها ، ولو فقط في ظرف جزء من الثّانية . وفي أحد الأيَّام أسرج سيمي حصانه الأحمر ، وانطلق به ثمَّ شاهدها تحثُّ الخطى بعيدًا عن بيتها .

قام بالتفافةٍ واسعة كي يتسنى له أن يقود حصانه نحوها مباشرةً ، وعندئذٍ التقيا ، التقى بها ، بشفتيها السَّوداوين ، بملامح وجهها الدّقيقة ، والشّعر الأحمر ، وأنفٍ كالدَّمعة ، وعينين في غاية الزُّرقةِ . وتحت معطفها المرفرف تلبس بلوزتها الخضراء ؛ جميلةٌ ، بل ملهمةٌ ، ولا أحد يعلم كيف حدث ما حدث ، فسيمي ذلك الخيّال الخبيرُ جدًا ، كبا عن صهوة حصانِه . الجمال انتزعني عن السّرج ، راق له أنْ يقول في وقت لاحِقٍ ، بيد أنَّ بعض النّاس زعمُوا أنَّه ببساطةٍ ألقى نفسَه من على ظهرِ الحصان ، بدافع من اليأس أو الجنون المؤقَّت . كُسِرَ عظمُ فخذه ، وتحطّمت ذراعه ، وهناك انبطحَ . لم يكن لدينا طبيبٌ في البلدة ، الطّبيب القديم مات قبل

ثلاثة أيّام ، بسبب ذلك الكلب المنحوس - اللعنة على غوجون - وما من طبيب آخر متوقّع حضوره إلّا بعد أسبوع ، نُصِحنا أن نبقى أصحّاء في هذه الأثناء ، وعلى أولئك الذين يعانون من مشاكلَ في القلب أن يلزموا الهدوء ، ثمَّ سقط سيمي عن حصانه . أسرعَتْ إليه ، اهتمَّتْ بالمسكين الأحمق ، عيناها أشدّ زرقةً من أيّ لون أزرق . جرى بيننا كلام عن إرساله إلى مستشفى في العاصمة ، لكنَّنا لا نحبّذ حقًا إثارة الضّجيج أو البلبلة ، لذا تدخّل البيطريّ وقام بعملٍ عظيم ؛ أصيب سيمي الآن بعرَج طفيف فقط . وتلك الدَّقائق التي انحنَتْ خلالها فوقه ، وتنفّست في وجهه ، بعبير أنفاسِها الحلو الدّافئ ، هي الأروع والأغلى في حياته ، دقائق يحلو له أن يسترجعها مرارًا وتكرارًا . لكن ، من ناحية أخرى ، كان من المستبعد أن تكترث هي باسترجاع هذه الحادثة في ذهنها ، وقد اكتشفَتْ مؤخّرًا أنَّ زوجَها قد باع سيارة الرّينج روفر والتويوتا أيضًا ، كي يشتريَ كتاب رسول النّجوم لغاليليو . بالنِّسبة إليه ، كان إقدامه على فعل ذلك لا يحتاج إلى التوضيح ، ولم يشعر أن عليه مناقشة الأمر مع أحد ، وهذا بالتأكيد الجزء الأسوأ في الموضوع كلّه ، وبالتّالي اقتحمت طريقها خارج البيت وهي تغلي غضبًا ، يائسة جدًا ، ولا تكاد تقدر على التّنفس ، فالعالم قد بدأ يتقوّض من حولها ، ثمَّ ظهر هذا الخيّال .

لا بدّ من أن يتمزّق شيء في داخل المرء ، وتتقطع أوتار قلبه ، عندما ، على سبيل المثال ، يتبيّن له أنَّ الشّخص الذي يعتقدُ أنَّه يعرفه ظاهرًا وباطنًا ، الشّخص الذي وقع في غرامه ، تزوَّجه ، وأنجب منه أطفالًا ، وبنى معه بيتًا وذكريات ، يكتشف فجأة في أحد الأيام أنه غريب ، لا يمت له بصلة . طبعًا ، إنَّه هراء صرف أن يعتقد المرء أنه يعرف أحدًا ظاهرًا وباطنًا ، هناك دائمًا زوايا مظلمةٌ ، بل أحيانًا تكون بواطن بأكملها

متوارية في الظلّ – لكن ، أيًا ما كانت الحال ، كانت مقترنةً برجلٍ في ريعان الشّباب نسبيًا ، يتمتّع ببعض النّفوذ في مجتمعنا ، ونرى أنّه حجر أساس في البلدة . رجلٌ له تأثير حقيقي على حياتنا ، بتوليه الاهتمام بمؤسّسةٌ متواضعة ازدهرت تحت إدارته ، وجنى منها بعض الرّبح ، كان قُدوةً يُحتذى بها ، كان أملَنا ومرساتَنا ، وبعدئذٍ بدأ يحلُم بكلماتٍ لاتينيّة ، قاد سيّارته إلى العاصمة ليتعلّم اللّغة ، عاد بعينين جديدتين وباع سيّارتَيه بعد سنة ليدفع ثمن كتبٍ قديمة . بالمقارنة مع هذا كلّه ، سقوط رجلٍ من على ظهر حصانه يُعتَبرُ شيئًا تافهًا – مع أنّنا نتكلّم فقط عن البداية فحسب . توالى طلوع النّهار في الشرق ، وتوالى اختفاؤه غربًا ، والفلكيّ ما عاد يُرى في مؤسّسة النّسيج ، وأغوستا قامت برحلاتٍ عديدة من مكتب البريد إلى بيت الزّوجَين ومعها رزمٌ جديدة ، بعضُها مُعلّمٌ بكلمةٍ هشّ بتسع لغات .

بعد ثلاثة أو أربعة أسابيعَ من استيلاء غاليليو الإيطاليّ على سيارتَي الزّوجين ، تسلّم الفلكيّ كتابًا أقدمَ من السّابق ، «حول دوران الأجرام السّماويّة» تأليف كوبرنيكوس ، طُبع سنة 1543 . كلّف ثروةً ، أكثرَ بقليل من ثمن بيتِهما ، لكنّ صبرَها الذي غفل عنه بعض النّاس حقيقةً ، نفدَ أخيرًا عندما تسلّم ثلاثة كتبٍ في طبعتها الأولى ، صدرت في القرن السّابع عشر من تأليف يوهانز كيبلر ، وهي «الجداولُ الرّودلفية» ، «الوئام العالميّ» ، و«الحلم» ، أو «علم الفلك القمريّ» الذي نُشر بعد وفاتِه . قبل وصول هذه المجموعة إلى مكتب البريد ، حاول الكثيرون مناقشةَ الفلكيّ بالمنطق ؛ مديرُ المصرف ، المفوّض ، مديرةُ المدرسة ، وممثّلٌ عن الموظفين في مؤسّسة النّسيج . سأله هؤلاء النّاس : ماذا تفعل بحياتك وحياة زوجتك يا رجل ، وأنت تبدّد هذه الحياة في شراء الكتب ، وأنت

تفرغ حساباتك المصرفيَّة ، تفقدُ بيتك ، وتهدر سنين عمرك ، سيطرْ على نفسك يا رجل! غير أنَّ ذلك كلّه ذهب هباءً ، بلا جدوى ، اكتفى بالنّظر إلى هؤلاء النّاس بعينيه الجديدتين ، ابتسم كما لو أنَّه شعر بالأسف عليهم وقال شيئًا باللّغة اللّاتينية لم يفهمْه أحد . لا داعي لأن نخبرَكم بالباقي ؛ مرَّت حوالي خمس عشرة سنةً ، والآن لديه تقريبًا حوالي ثلاثة آلاف كتابٍ وهي تزداد عددًا ، تغطّي حيطان بيته الصّغير ، العديد منها باللّغة اللّاتينيَّة ، شأنُها شأن معظم تلك الكتب السابقة التي حرمَتْه من الجمال والرّفاهيَّة والحياة العائليَّة .

بعد فترةٍ قصيرة من قيام أوغستا بتسليم الرّزمة التي تحتوي كتب كيبلر ، انتقلَتْ زوجته إلى العاصمة مع ابنتها ، أمَّا دافي ، فبقي مع أبيه الذي اشترى هنا البيت الخشبيّ المؤلَّف من طابقين ، والذي يقع بعد مركز البلدة الاجتماعيّ تمامًا . بقي ذلك البيت شاغرًا منذ أن توفِّيت العجوز بوغا فيه على سريرها ، ولا أحد عرف شيئًا عن ذلك إلى أن تغيَّرت وجهةُ الرّيح ، وهبَّتِ الرّائحة الكريهة من البيت نحو معمل الألبان – نعم الوحدةُ حاضرةٌ في البلداتِ الصّغيرةِ أيضًا . بدا ذلك البيت عندما اشتراه الفلكيّ مثل حصان عجوز ، نصف أعمى وعلى حافة النّفوق ، لكن الرّجل عمل على تغيير الألواح الخشبيَّة المتعفِّنة ، إلى أخرى جديدة ، ووضع زجاج نوافذ سليم عوضًا عن الزجاج المكسور – تخيّلوا فقط لو أنَّ تغييرَ منظرِ عالمٍ متعفّن يجري بمثل هذه السّهولة ، تغيير حضارة تحتضر – بعدئذٍ طلى البيت بدهان أسود فاحم باستثناء بضع نقاطٍ بيضاءَ على السّقف وعلى ثلاثة جدران . تلك النّقاط تمثّل المجموعات الشّمسية الأربعة التي يفضِّلها أكثر من غيرها ؛ الدّبّ الأكبر ، الأخوات السَّبع ، الثّريا والرّاعي . أمَّا الجدار الرّابع فأسود بأكمله ، وهو قبالة الغرب ناحية

البحر ، ويرمزُ إلى نهاية العالم . هذا ليس على وجه الخصوص مبهجًا ، لكنَّ الجدار الغربيّ ، على أي حال ، لا يواجه الطريق . بيت الفلكيّ هو أوَّل بيت في البلدة يمكن رؤيته عند المجيء إليها من جهةِ الوديان الجنوبيَّة ، وفي ضوء النّهار يبدو كما لو أنَّ جزءًا من سماء اللّيل قد سقط على الأرض في البلدة . يحتوي سقف البيت على نافذةٍ كبيرة يمكن فتحها ، وفي وقت متأخر من المساء ينتأ منها منظارٌ ، عينٌ تمتصّ المدى ، ترشف الظّلام والضَّوء . هو الآن يسكن هناك وحده - ابنُه دافي انتقلَ إلى وسط البلدة عندما بلغ السّادسةَ عشرةَ من العمر- وفي أحيان كثيرة يستمع إلى صوت ظلمة الشّتاء ، وهي تضغط على نوافذ البيوت .

3

عندما كانت الأوضاع في أوجها ، عمل عشرة أشخاص في مؤسَّسة النَّسيج ، وهذا شيءٌ مهمّ حقًا في بلدةٍ من أربعمئة روح . بُنيت المؤسَّسة في غضون ثلاثة شهور صيف 1983 ، بمساحة 380 مترًا مربّعًا ، ومن طابقين . نافذة الطّابق العلويّ تشرف على سقف المسلخ والزّقاق البحريّ . شُيّدت هذه المؤسسة من قبل الدّولة ؛ مثلُ هذه الأبنية ترتفع عادةً ببطءٍ شديد ، وبتردّدٍ كبير ، كما لو أنَّ مشروع البناء قابلٌ للإلغاء في أيّ يوم ، وشيئًا فشيئًا ينسى النّاس الهدف من إنشائه . لكنَّ الحياة تعجّ بأشياء كثيرة جدًا تعتمدُ على الصّدفة ؛ مثل ألوان الجبال ، البرد الذي يحلّ على المرء في شهر آذار ، السّرعة التي تُشيَّد بها الأبنية ؛

وعضوا برلمان ينتهي بهما المطاف إلى تعاطي المشروب الكحولي معًا . أحدهما تقدّميّ ، والآخر عضو في الحزب الاشتراكيّ الدِّيموقراطيّ القديم . وهذان الرَّجلان خلال وقتٍ ما ، في فترةٍ متأخرة من اللّيل شرعا يراهنان أيُهما سيكون أسرع في إنشاء مؤسَّسة يشغلها عشرةُ أشخاص ، من أجل ضمان تسهيلاتٍ جديدة في دائرته الانتخابيَّة . وعلى هذا النَّحو ظهرت مؤسَّسة النّسيج إلى الوجود . بدأت إنتاجها في خريف 1983 تحت إدارة مديرها الشّاب المفعم بالحماسة والتّصميم ، الشّاب الذي كان في طريقه إلى السّفر ليغزو العالم ، عندما عَرض عليه المنصب عضو البرلمان التّقدميّ . كانت السّنوات العشرة التّالية مزهرة وعامرة بالهدف والطّموح . في الطّابق الأرضيّ طنَّتِ الماكينات ، وفي الطّابق العلوي غرفةُ الاستراحة ، والمرحاض إضافة إلى حوض للاستحمام أيضًا ، إلى جانبِ غرفةٍ خُصّصتْ لتكون مقرًا لجمعيةِ شبّان البلدة . كانت تلك سنوات طيّبة ؛ شعرنا كما لو أنَّ هذه كانت بداية لشيءٍ كبير ، اقتنعْنَا بأنَّ بلدتنا لن تنزف حتى الموت مثل بلداتٍ أخرى عديدة ، وكلَّما نظرنا إلى المدير طغى علينا شعورٌ بالأمان . طنَّتِ الماكينات ، ومنها تدفَّقت جوارب ، بلوزات ، قبّعات ، قفّازات . ويمكن أن يكون الذهاب إلى التعاونية شيئًا جميلًا ونحن نشاهد خمسةَ مزارعين يدردشون معًا ، يلبسون جميعًا ثيابًا من إنتاج مؤسَّسة النّسيج . حينذاك كان هناك جمالٌ وانسجامٌ في الدّنيا ، ونحن نفتقد تلك الأوقات . لكن لكلِّ شيءٍ نهاية ، النهاية التي كما يبدو ، أنها الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعوّل عليه في هذه الحياة . «أتظنّ أنَّك قد رأيت كلّ شيء» يحلم المدير بكلماتٍ لاتينيَّةٍ ، يتحوّل إلى فلكيّ ، يضحّي بسيَّارتيه وبيته وزوجته وحياته العائليَّة ومستقبلٍ باهرٍ من أجل السّماء وبضعة كتبٍ قديمة . ثم في أحد الأيَّام في منتصف

تسعينيات القرن الماضي ، حُمِّلَتْ ماكيناتُ الطّابق الأرضيّ في شاحنةٍ ضخمة ، وتبعَتْها عدّةُ شهور ثقيلة ، والشّمس والقمر شعّا من خلال النّوافذِ على المبنى الفارغ .

سنكون ظالمين إذا لُمنا أحلام رجل واحد على هذه التغيرات القاسية المحبطة ؛ من المحتمل أن تجنحوا إلى فقدان الثقة بإنصافنا بل أيضًا بمصداقيتنا ، وعندئذٍ ماذا ستكون الفائدة من الاستمرار بروايتِنا؟ أُخِذت ماكينات الحياكة إلى بلدةٍ أخرى شرقًا ، حيث الحاجةُ إليها أعظم ، حيث كانت أعداد العاطلين عن العمل ، وأعداد النّاخبين المترددين أكبر . على الرغم من أنه كان سيحدث هناك فرق بالتأكيد لو أن المدير تدخّل بحزم ، فعندما تُبدي مثل هذه الموهبة العظيمة الاعتراض مع سيّارة جديدة وبدلات مصمّمة حسب الطّلب لا ريب في أنها ستخلّف أثرًا كبيرًا . لا نستطيع أن نتذكّر بدقّة ما المدّة التي بقي فيها الطّابق الأرضيّ فارغًا ، لكن نعرف أنه لسنةٍ كاملة ، استمرّ الفلكيّ يتسلّم راتبه الضّخم بصفته مدير مؤسّسة شبحيَّة . على أيّ حال دُحر عمّال المؤسسة خارجها إلى البرد ؛ تسعة موظّفين : سبع نساء ، ورجلان . قام الرّجلان بترتيباتٍ أخرى ، تحدّثا إلى أصدقائهما أسواء من فريق كرةِ القدم والمدرسة أم نادي الروتاري ، فهذا عالم الرجال . أحدهما غونار ، وقد أصبح مساعد سيمي ، عامل الكهرباء في بلدتِنَا . أمّا الرّجل الآخر ، أوسغرير ، ويُدعى عادةً أوسي ، فأصبح مساعد السّبّاك والبنّاء والنّجار ، موزّعًا عمله الأسبوعيّ بينهم ، وانتهى به الأمرُ مع مرور الوقت إلى أن يمتلك مواهبَ متعدّدة ، ويصبح مطلوبًا لأنواع مختلفة من الأعمال . يبدأ أوسي يومَه بشكرِ العناية الإلهيَّة التي أرسلَتْ ماكيناتِ مؤسّسة الحياكة إلى الجهة الشرقية ، أقرب إلى حدٍّ كبيرٍ من مشرق الشّمس .

من بين النّساء السَّبعة ، خمسةٌ منهنَّ ما زلْنَ عاطلاتٍ عن العمل بعد تلك السّنوات كلّها . خمسُ نساءٍ عاطلاتٌ عن العمل ؛ هذا يعني ما مجموعه عشر أيدٍ . أمَّا الامرأتان الأخريان فكانتا أسعدَ حظًّا . إحداهما اسمها إليزابيت ، وسنخبركم المزيد عنها لاحقًا . المرأة الأخرى اسمها هيلغا ، تعمل على الهاتف من 8 صباحًا إلى 5 بعد الظّهر ، خمسة أيّام في الأسبوع .

في أغلب الظّن كانت سولرون مديرة مدرستنا هي التي أمَّنت هذه الوظيفة لهيلغا . لفترةٍ لا بأس بها تملّك سولرون القلق من الشّدائد التي تربك الإنسان العصريّ : وتيرة الحياة السّريعة ، الإجهاد ، أسلوب الحياة المقلق . فمارست بعض وسائل الضغط على النّظام ، كتبت رَسائل ، تحدّثت إلى أناسٍ ذوي نفوذ ، وفي النّهاية تولّت هيلغا وظيفة عاملة هاتف ، وما زالت على هذه الحال منذ ذلك الحين . لسنا متأكّدين جيّدًا من وصف تلك الوظيفة بدقّةٍ ، فهي نوعٌ من مشروعٍ تجريبيّ أو ربّما إبداعيّ ، إذ تتضمّن الاستماع إلى الشّخص الذي يتّصل ، مع التّدخّل من جانب هيلغا بكلمةٍ أو اثنتين ، وربَّما بجملةٍ أحيانًا ، مع المحافظة على رباطةِ جأشها مهما استجدّ . إنَّها بهذه البساطة ، وفي الوقت نفسِه ليسَتْ على تلك الدّرجة من البساطة . يتّصل بعض الرجال للدردشة فقط ، نتيجة شعورهم بالوحدة ، ورغبتهم في سماع شخصٍ يتنفّسُ . في حين يتّصل آخرون ليتخلّصوا من أعباء عدم قدرتهم على التّحمُّل ، من اضطرابهم كلّه ، وقلقُهم من أن الحاضر بأنفاسه المتقطّعة لا ينفك يدوّم في داخلهم . اعتقدت سولرون أنَّ وظيفة هيلغا ستخفّف شيئًا من توتّر النّاس ، ستلّطف لدغة الشّعور بالوحدة لدى آخرين . وبخصوص الإجهاد كتبت في إحدى رسائلها : « . . . إنَّه ظاهرةٌ تتراكم في باطننا ، وبالتّالي

تحتاج إلى التَّنفيس من حين إلى آخر .»

هيلغا في الأربعين تقريبًا ، عزباء لديها طفلةٌ واحدة ، وذات عنقٍ ناعم وجميل . والد ابنتها ، مزارعٌ من الرِّيف في الجنوب يفكّر فيها كثيرًا جدًا ، يفكّر في عنقها الذي غالبًا ما يقبّله في خياله ، وهذا ربَّما ما نفعله نحن أيضًا . هي تحبّ عملها ، تُغرق نفسَها في مجلَّداتٍ سميكة تتحدّث عن علم النّفس ، تقرأ الكتب التي تحاول تعريف العصر الحديث ، العديد من تلك الكتب باللّغة الإنجليزيَّة ، وتشعر دائمًا بالامتنان لأنَّها فقدت عملها في مؤسَّسة النّسيج . بعض أيَّامها صعبةٌ بالتَّأكيد ، فثمَّةَ أشخاص من المتّصلين يكونون مربكين من الإجهاد بحيث لا يفعلون شيئًا سوى الصّراخ ، وأحيانًا هم غاضبون حقًا ، وبالتّالي يكتسحون أذنَي هيلغا بوابلٍ من الإهانات ، وهذا له تأثير مطهّر بالنِّسبة إليهم ؛ إذ يشعرون بالتّحسن بعد ذلك ، لكن أحيانًا تواصل أذنا هيلغا وخزها وهي تحضّر المائدة لنفسِها ولابنتها في المساء . شخص أو شخصان اعتراهما ندمٌ شديد بسبب خروجهما عن طورهما على الهاتف ، لدرجة أنَّهما أرسلا لها أشياءَ يُفترض أنْ تبرهنَ على أسفِهما ، على العرفان بالجميل ، على أفكارهما اللّطيفة عنها : أنتون سائق سيارة الأجرة في البلدة ، يواظب على إهدائها الأزهار والنَّبيذ الأحمر ، صندوق ستة قوارير جعةٍ ، قنينة فودكا ، كتابًا ، وجروًا ، ومرَّة أهداها حملًا زعفرانيَّ اللّون بعينين تعكسان لون السّماء . كبر الجرو وأصبح كلبًا مثاليًا ، والحمل أصبح خروفًا يقضي ساعاتٍ هنيئةً في حديقة هيلغا . من الممتع رؤيتها تمشي في أنحاء البلدة ؛ ونحن نتذكّرها في صلواتنا المسائيَّة ، ونقول رجاء يا رب احمِ رأس هيلغا الجميل من الانفجار تحت ضغط الإهانات الكريهةِ .

نحن لا نعني بالإهانات الشّتائم فقط التي يوجهها النَّاس لهيلغا

عبر الهاتف أو يزعقون بها ، متعثرين ومضطربين بسبب الحداثةِ ، فنحن الآن وليس بدرجة أقل نفكّرُ في النّساء الخمسة ، الأيدي العشرة التي لم توفق في العثور على عمل . هؤلاء النّساء يجتمعنَ مرّتين في الأسبوع ، وقد فعلن ذلك منذ أن حُمّلَتْ ماكينات مؤسسة النّسيج في الشّاحنة ، متمسّكات برفقة بعضهن بعضًا ، حيث يتساعدنَ في ملء الفراغ الذي يأتي مع البطالة . عشرُ أيدٍ في غرفةِ جلوسٍ ، عشرُ أيدٍ عاطلة عن العمل كانت مرّةً جزءًا من سلسلة إنتاج تركت بصمتها في الحياة اليوميّةِ ، ثمّ انظروا إليهنّ الآن ، يا لها من مضيعةٍ لتلك الأيدي ، والزّمن يمرّ . هنّ لا يأتين دائمًا على ذكر هيلغا بالحُسنى ، فهنّ يرينَ أنّهنّ يمكن أن يشغلن مركزَها بشكلٍ أفضل ، متخطّياتٍ التّهريجَ كلّه ، وكتبَ علم النّفس ، والخروفَ الزّعفراني ، وارتداءَ قمصان حمراء وجينز أسود ، ثم ترتفع تلك الأيدي العشرة في الهواء مثل نحل غاضب . ويتابعْنَ ، وها هم الرّجال الآن قد بدأوا يتّصلون بها ليناقشوا أحوال زيجاتهم ،ليتذمّروا من نسائهم ، من عدم وجود حياة جنسيّةٍ كافيةٍ . أرامل ومطلقون وعزّاب يتّصلون بها ويتحدّثون عن شعورهم بالوحدة . نعم ، ينبغي علينا أن نعترض على هذا لدى وزارة الشّؤون الاجتماعيّة ، تقول إحداهنّ ، أو هل يصنّف هذا النّوع من العمل ضمن نطاق وزارة الصّحة – هنّ لسن متأكّداتٍ ، والشهور تأتي وتروح . معًا ، تتفرّج النساء الخمسةُ على برامج تصميم البيوت من الدّاخل والخارج ، الدّراما التّلفزيونيّة ، برامج الطّبخ ، البرامج الحواريّة ، هذا في الواقع عملٌ بدوامٍ كامل ، أي متابعة جدول برامج التّلفزيون ومتابعة حياة البلدة ، على الرّغم من أنّه في السّنوات الأخيرة غدا التفريق بينهما أكثر صعوبة . لكن ، هناك عشرُ أيدٍ عاطلةٌ عن العمل ، وطاولة قهوةٍ مُثقلة بالكعك ، وآنية أطايب مخبوزة بالفرن ، أباريق قهوة ، وصَفَات

طبخ ، كتب عن المساعدة الذّاتيّة ، روايات شعبيّة ، إنّه الصّيف ، إنّه الشّتاء ، إنّه ضوء الصّيف المشعّ ، إنّها الليالي ذات السّواد الحالك .

4

من الصعب أن يكون المكان هنا عند حافة العالم صالحًا للفلكي كي يسكن فيه ، لو لم يكن الشّتاء طويلًا جدًا ، ولم تكن السّماء حالكة السواد . ففي أمسياتِ الشّتاء ولياليه يتجوّل الفلكيّ في أرجاء البلدة وعيناه على السّماء ، وفي بعض الأوقات يتزوّد بمنظارٍ جيّد ، وإذا لم يكن في الخارج ، يجلس أمام التّلسكوب الضّخم الذي يشفط المسافات نحو البلدة ، يتمعّن في الكتب ، بعضها بتلك اللّغة القديمةِ ، اللّاتينية ، يحدّق في شاشة حاسوبه ، ويستغرق في تفكيرٍ عميق . شعره مكتسٍ بالشّيب وهو في غاية الذّكاء ، يستوعب الكثير عن أمورٍ تتعلّق بالكون ، أشياء لا يمكن أن نفهمها مطلقًا . وكثيرًا ما تساءل بعضُنا ما إذا كان الرّبُّ قد ظهر له في التّلسكوب ، لكنَّ الفلكيَّ لا يأتي على ذكر الرّبّ ، لعلَّ الحصولَ على السّماء واللّغة اللّاتينيّة كافٍ بالنّسبةِ إليه ، فالنُّجوم لا تتخلّى عنّا أبدًا ، وهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يقال عن الرّبّ . النُّجومُ قريبة دائمًا ، على الرّغم من أنّنا نحن المقيّدين بروتين الحياة اليوميَّةِ نجدُ أنّه من الصّعب نوعًا ما التّحدث عن القربِ والنجوم في الوقت نفسه ؛ العاصمة ريكيافيك بعيدة إلى حدٍّ كبير ، وسيدني أبعد بكثير ، ومع ذلك تعتبر على مرمى حجر فحسب مقارنة بالمريخ ، الكوكب الأقرب الذي يبعد عنّا 230 مليون كيلومتر ، وهذه مسافةٌ طويلة جدًا بالنّسبة إلى الفلكيّ

ليقود سيارته المازدا القديمة إليه . السّيَّارة التي يمكن أن تصل سرعتها إلى 110 كيلومتر في السّاعة وهي تهبطُ المنحدراتِ الطّويلة . لكن بالطَّبع ، كلّ شيءٍ مقلوب رأسًا على عقب ونسبيّ ، معظم الكلمات لها جوانب متعدّدة يمكن أن تجعل رؤوسنا تدوّم ، الشّخص الذي يعيش معه المرء ، على سبيل المثال ، قد يكون أكثر بعدًا عنه من كوكب المرّيخ ، ولا يمكن أن تسدَّ أيّ سفينة فضائيَّة أو تلسكوب الفجوة بينهما . إنَّما لا أحد يقتات من السّماء وحدها ، مضَتْ سنوات منذ أن أُغلِقت مؤسَّسة النّسيج ، وما يقارب تسع سنوات منذ أن فقد الفلكيّ راتب إدارته للمؤسسة ، ومن أي مصدر ينفق الآن؟ المعيشةُ غالية ، حتى وإنْ لم يكن لدى المرء أي اهتمام بآلات الغسل ذات الضغط العالي ، بتلفزيوناتٍ أكبر ، بتجهيزاتٍ مطبخيَّة أحدث ؛ نحن نفكِّر في هذا قليلًا بيد أنَّنا نتهيّب سؤالَ الفلكيّ عن ذلك مباشرةً ، هو الذي يطوف فوق وجه الأرض ؛ طويل ، نحيل ، بشعر كثيف رماديّ ، وأولئك الذين في حضوره يخفضون أصواتهم غريزيًا ، يحاولون تجنّب الأفكار التّافهة . نسأله عن النّجوم ، والسّماء ، عن كوبرنيكوس ، وليس الكثير ما عدا ذلك ، وحتمًا ليس عن المال . حتى لورا العجوز لا تجرؤ على مضايقته بقصصها ، ليتنا فقط كنّا محظوظين مثله . مشاهدتها من مسافة تبدو للعين أشبه بكتلة ، أشبه بحرفٍ أبجدي صغير ، تتحرّك ببطءٍ شديد ، غير أنَّها ماهرة بطريقة جدّ مريبة في احتجازنا في التّعاونيَّة والمصرف وعيادة الصّحة ، وبلا سابق إنذار تنطلق في روي قصصها عن حياتها ، ويبدو دائمًا أنَّها تبدأ من منتصف الجملة . حياتُها امتدَّت زمنًا طويلًا ، ولو تسنَّى للمرء أن يفرد سنوات حياتها ، كما قد نفعل بشريط القياس ، سيكون من السّهل الوصول إلى كوكب المشتري ، طبعًا مع صعوبة العودة منه ثانيةً . لكن لماذا يجب

علينا ، نحن الجاهلين والعاجزين ، الغارقين إلى آذاننا في رتابة الحياة اليوميَّة ، أن نهتمَّ برجلٍ يحمل السّماوات في رأسِهِ ، ويتسلَّم في السّنة عشرات الرّسائل من جميع أنحاء العالم وكلّها مكتوبة باللّغة اللّاتينيَّة .

5

ما زال هناك أشخاص يتكلَّفون عناء كتابة الرَّسائل . وبهذا نعني الطّريقة التّقليديَّة القديمة : كتابة الكلمات على ورقةٍ ، أو استخدام جهاز الحاسوب لكتابتها ثمَّ طباعتها على الورق ، ووضع الرسالة في مغلَّف وأخذها إلى مكتب البريد ، حتى وإن كان المرسَل إليه لن يتسلَّمها قبل اليوم التّالي ، في أفضل الأحوال ، وفي أحيان كثيرة وإلى حدٍّ كبير بعد وقتٍ لاحق . أليس التّشبُّثُ بعالمٍ مفقود ، رجعيَّةً ؛ أليس كالنّفخ على فحم بارد؟ لقد أصبحنا معتادين على السّرعةِ ، يكتب النّاس الرّسائل باستخدام جهاز الحاسوب ، يضغطون زرًا ، فتبلغ وجهتها . ذاك ما ندعوه خفّةً . فلماذا إذًا تُرسلُ الرَّسائل بالبريد العاديّ؟ نحن بالكاد نتحلّى بالصّبر إزاء هذا البطء – لماذا نستخدم عربةً تجرُّها الأحصنة ما دمنا نملك سيَّارة؟ طبعًا ، الكلمات في الحاسوب تميل إلى الاختفاء ، إلى أن تصبحَ لا شيء ، تُحجز في البرامج القديمة ، تُمحى عندما يتعطَّلُ جهاز الحاسوب معرّضة أفكارنا وأعمالنا إلى التّبخر في الهواء ؛ وفي غضون مئة سنة ، ناهيك عن ألف ، لن يبقى لنا أثر في الوجود ، ولن يعرف أحد أننا كنّا هنا في يوم . بطبيعة الحال ، ليس علينا أن نهتمَّ ، فنحن نعيش هنا والآن ، ولن نكون بعد مئة سنةٍ ، لكن في يومٍ ما قد نصادف رسائل قديمة فيتأجَّج شيء غريب

في داخلنا ، نستشفُّ خيطًا يمتدّ من ناحيتنا ويرجع القهقرى إلى دُجى الماضي ، ونفكّر : هذا هو الخيط الذي يجمع شتات الزّمن معًا :

لندن ، 28 أيار ، 1759

هيّا أسرع الآن في الرّجوع من هذه الحرب السّخيفة ، عُدْ فورًا ودفِّئ نهديّ . أنا لا شيء ، أنا تائهة من دونك .

الرسائل التي نتبادلها عبر البريد الإلكتروني تتحوّل إلى لا شيء خلال بضع سنوات ، والفكرة ، الشّعور بأنّنا قطعنا الخيط تنخر فينا ، قد يصلُ إلينا الخيط بيد أنّه لا يمضي إلى ما هو أبعد منّا ، ونخلق بذلك فراغًا لن يُملأ أبدًا . نريد ، أوّلًا وقبل كلِّ شيءٍ ، أنْ نظهِر الولاء لزمننا ، وليس لمستقبلٍ محتملٍ ، وفي الوقت نفسِه نحن عالقون مع الشّعور بالذّنب الذي ينخرنا ، كما لو أنّنا نرتكب جريمةً . نحن بارعون جدًّا في مراكمةِ شعورنا بالذّنب . نشعر بالذّنب لأنّنا لا نقرأ كما ينبغي أن نفعل ، لأنّنا لا نتحدّث إلّا قليلًا جدًّا مع أصدقائنا ، نقضي وقتًا جدّ قصير مع أطفالنا ، مع أهلنا من كبار السّن . نحن في حالة حركةٍ دائمة ، عوضًا عن الجلوسِ والاستماع إلى المطر ، احتساء كوب قهوةٍ ، وتدفئة النّهود . وأبدًا لا نكتب الرّسائل .

مع ذلك يحدثُ من حين لآخر أنّنا نحن القاطنين هنا ، بعيدًا عن الطّريق السّريع رقم واحد ، أن نجلسَ ونكتب رسالة ونأخذها إلى مكتب البريد . هذا يسعدُ أوغستا ، يمنحها هدفًا لوجودها ، ويمنحنا شعورًا جميلًا يجعل الرَّعشة تسري في أجسامنا ، يشبه ما يعتمل فينا عندما تسترجع ذاكرتُنا روعةَ ارتشاف المياه الغازية عبر قشّة عرق السّوس ، يشبهُ ما نشعرُ به عندما نقصد المتحف الوطنيَّ أو نزورَ عمّة عجوزًا ؛ وفي نهاية المطاف نكون قد أظهرنا للماضي إخلاصنا له .

6

في سالف الزّمان ، كان مكتبُ البريد أحدَ محاور البلدة ، تتدفّق إليه الرّسائل والطُّرود ، وكانت فيه أيضًا مقصورتا هاتفٍ لأولئك الذين احتاجوا إلى إجراء اتِّصالات خارج المحافظة ، غالبًا ما كانت تتشكل أمام هاتين المقصورتين طوابير النّاس أيّام الثّلاثاء - الموعد النّهائيّ لطلب المشروبات الكحولية من الجنوب ، المشروبات الكحولية التي يُفترض أن تُشرب خلال عطلةِ نهاية الأسبوع . أمّا الآن فقد أُلغيَتِ المقصورتان ، وولّت تلك الأيّام عندما كان يتسنّى لأوغستا أن تتنصَّتَ على المحادثات . حاليًا لدى البلدة رخصتها لبيع الكحول ، يفتحُ المتجر من السّاعة الواحدة بعد الظّهر إلى الثّانية والنّصف عصرًا ، في يومي الثّلاثاء والخميس ؛ وعلى هذا النحو يتغير كل شيء .

قبل ثلاثين سنة ، عملت أربع نساء في مكتب البريد ، كانت أوغستا آنذاك في ريعان الشّباب ، ودرجت على الإفراط في وضع أحمر شفاهٍ في غاية الحمرة ، بحيث بدا شبيهًا بإشارة التّوقف ، ربّما لهذا السبب ما زالت عزباء ، على الرّغم من أنّها الآن في متوسط العمر . أربع نساء قبل ثلاثين سنةً ، والآن لا أحد سوى أوغستا فقط ، إلى جانب سعاة البريد ، أحدهم يهتم بتوزيع الرسائل في البلدة ، وأربعةٌ يوزِّعون البريد في الرّيف . في شهر كانون الأوّل على أيّ حال ، جلبَتْ أوغستا بنتَين من بنات أختِها لمساعدتِها ، بنتَين يافعتَين جدًا ، لدرجةِ أنّ كلّ شيءٍ من حولهما يرتعشُ . يأتي الفتيانُ برسائلَ وبطاقاتٍ بريديّةٍ ، يرسلون أي

شيء لأيّ أحد ليتمكنوا فقط من الذهاب إلى مكتب البريد ليملّوا أعينهم منهما . أوغستا ومكتب البريد كيانٌ واحدٌ ، مثل الذّراع والكُمّ . تتعامل مع سعاة البريد بانضباطٍ حديديّ ، هي قصيرةٌ نحيلة وخفيفة كريشَةٍ ؛ من الخطر لها أن تكون في الخارج عندما تصبح الريح أشدّ من 12 مترًا في الثّانية ، بشرتها مجعدة ، وصوتها خشن ، كخشونة الأصوات التي يتميز بها المدخنون الشّرهون فقط . ويداها تشبهان في معظم الأحيان كلبَين صغيرين فضوليَّين .

نحن نضع بعض الاعتبار في هذه المقارنة مع الكلاب ، لأنَّ أوغستا فضوليَّةٌ جدًا ، وتطفّلها أوصلها لما يكاد يكون مسافة عرض إصبع من خسارتِهَا لعملها وسمعتها . دُعيَتْ أوغستا بألقابٍ سيِّئة ، هُدّدت ، بيد أنّها بقيت صامدةً طوال الوقت ، رفضت أن تُضلّل ، وحافظت على وفائها لطبيعتها . لكن هذا بدأ كلّه في منتصفِ سبعينيات القرن الماضي ، كان العالمُ مختلفًا حينذاك ، كان أعضاء فرقة البيتلز ما زالوا أحياء كلهم ، وكان النّاسُ يستقلُّون الطّائرات من دون التّفكير في الإرهابيّين ، والطُّرقات أكثر تعرّجًا وأقلّ سهولةً للسَّفر ، والمسافات بين المناطق أعظم إلى حدٍّ كبير ، بدا العالمُ أكبر ، ومكتب البريد كان ما زال أحد نقاط التّفاعل المهمَّة في البلدة . عملَتْ أوغستا في مكتب البريد مدّة ثلاث أو أربع سنوات ، كانت محبوبةً وكفؤةً جدًا ، إلّا أنَّ باطنها ما انفكّ يغلي بتململٍ معيَّن ، بسخطٍ ما ، لم تشعر بالرّضا كليًا ، شعرت أنّها تفقد شيئًا ما في حياتها . وذات يوم فتحت رسالةً مرسلةً من البلدة وقرأَتْها . خالجَها شعورٌ جيّد جدًا ، مثل استنشاق دخان سيجارة بعد انقطاعٍ طويل الأمد ، شعور بالصحة انتشر في أنحاء جسدها كافة ، تنهّدت أوغستا ، وتصرّفَ واحد أدّى إلى آخر . فتحَتْ رسالةً ثانية ، فتحَتْ طردًا ، فتحَتْ رزمةً ومع

مرور الوقت أصبحَتْ واحدة من أهمِّ مصادر الأخبار في البلدة ، تجلبُ لنا الأنباءَ كبيرةً كانت أو صغيرة ، معلِمةً إيّانا بالتّوقعات والإحباطات ، كشفَتْ لنا مرَّتين عن العلاقات العاطفيَّة ، ثلاث مرَّات حذّرت الأهالي عندما لمّح المراهقون لأصدقاء المراسلة أنّهم يسلكون الطَّريق الخطأ في درب الحياة . قد تستغربون كيف أغمض النّاس عيونهم هنا عن كون يدَي أوغستا مثل كلبين فضوليَّين يعبثانِ بأكوام الرّسائل والرّزم ، يعرفان مَن يحصل على ماذا ، مَنِ المشتَرِكُ في المجلّات الخلاعيّةِ ، أو منشوراتِ الأعضاء السُّفليَّةِ كما دعتها ، لكن يجب ألّا تنسوا أنَّ الشّتاء يمكن أن يكون طويلًا ومظلمًا ، يمكن أن يكون بطيئًا وبلا أحداث تُذكرْ ، ونحن قلّة ، وهناك ثلجٌ يغطّي الطُّرقات ، والرِّيح تعصف بين بيوتنا . وبالتّالي ليس سيِّئًا كثيرًا أن يتذرَّعَ المرء بسببٍ ليقصد مكتب البريد ، يقول شيئًا لائقًا لأوغستا ويعود من هناك محمّلًا بالأخبار ، ببعض المقتطفات ، ببعض الإشاعات لمضغِها ، لتداولها أثناء تناول القهوة ، لجعل الوقت يمرّ . لكن كما قلْنَا غدت أوغستا قاب قوسين أو أدنى من خسارتها لعملِها وسمعتِها ، اتُّهمت بانتهاك حرمة أسرار النّاس ، بخيانة ثقتِهم ، سُمِّيت نمّامة ، وثرثارة ، وأفعى وساحرة . حينذاك ارتفع مستوى تدخينها للسجائر مما هو أقلّ من علبة في اليوم إلى ما هو أكثر بقليل من علبتين . وبقي إفراطها في التدخين على هذا المنوال منذ ذلك الوقت ، ما يجعل من الآمنِ القول إنَّ الاعتداءاتِ الشَّفهيَّةَ ، الانتقاد والافتراء قد قصَّرَتْ كلّها حياة أوغستا عدة سنوات – وبعضنا لديه شيء أو اثنان بحقّها يثقل ضميره . غير أنّها لم تُفصَلْ من وظيفتها . إذ بهتَتِ القضيَّة فحسب . ومع مرور الوقت تعلّمت أيضًا كيف تصبح أشدّ مكرًا ودهاءً ، لتعدّل ما تذيعه كما لو أنّها حصلت على الأخبار من الآخرين ، وهذا في الواقع لم

يخدع أحدًا ، بيد أنَّ المرء يمكن أنْ يعتاد على أيّ شيء ، فيصبح ذلك كلّه أمرًا روتينيًا وطبيعيًا في النّهاية . بلا أيّ شكٍّ ، كانت المعلومات التي تمدّنا بها مفيدةً ، فضول أوغستا أنقذَ زيجات ، أنقذ الناس من علاقاتٍ ميؤوس منها ، والآن بتْنَا نستخدم هذا الأمر لمصلحتنا ، كثيرًا ما عمدنا إلى إرسال الرّسائل لمجرَّد أنْ ننشر أخبارًا معيَّنةً ،لكن الزّمن يتغيَّر ، فعدد مكاتب البريد يتضاءَلُ باستمرارٍ ، إمَّا أن تُغلق أو تُنفى في إحدى زوايا مخازنِ البقالَةِ ، وعلى هذا النّحو تفقد فرادتَها ، هذه تُدعى الانسيابيَّة ، والبريد الإلكترونيّ يقلّص باستمرار عدد سعاة البريد . تضاءلَتْ أهميَّةُ أوغستا في مجتمعِنَا ، ما عادَتْ هي مركز الأخبار المزلزلة ، ما عادَ الوضع هكذا إلى أنْ بدأَتِ الطّرود تتدفّق على الفلكيّ ، حينها أدركْنَا كم نحن تابعون لأوغستا ، تابعون لفضولِها ويقظتِها . وما عليكم إلّا أن تتخيَّلوا انزعاجها حينما فتحَتِ الرّسائل الأولى ، واكتشفت أنَّها مكتوبةٌ باللُّغة اللاتينيَّة . كانت أوغستا ماهرةً في حرث طريقها عبر الرّسائل باللغتين الإنجليزية والاسكندنافيّة ؛ فقدِ امتلكَتْ قواميسَ ممتازةً . ما العمل الآن؟ فكّرت أوغستا ، وهي تقلّب الرسالة الأولى بين أصابعها المبقَّعة بالتّبغ . في اليوم التّالي وصلت رسالة ثانية ، ثمَّ ثالثة ، وخلال أسبوع أصبحَتِ الرّسائل ستَّةً . هذا أجهد أوغستا ، تشكّلت دوائر سوداءُ تحت عينيها ، أصيبت بالكآبة . لاحظْنَا ذلك ، قلْنَا لعلّها مصابةٌ بالسّرطان ، ولعنَّا ولعَها بالسَّجائر . غير أنَّ أوغستا ليسَتْ من أولئك الذين يستسلمون ، هي صاحبةُ تصميم ، مقاتلة ، تواصلت مع ياكوب ، سائق الشّاحنةِ ، وبعد أيَّام قليلة ، أحضر لها معجمًا لاتينيًا أيسلنديًا . وواجهت وقتًا عصيبًا في فكِّ رموز تلك اللّغةِ ، وما زاد البلّة طينًا هو كون تلك الرسائل مكتوبة بخطّ اليدِ ، وبدا أنَّ المرسلين كانوا يتنافسُون لاكتشافِ مَن هو

صاحبُ الخطّ الأسوأ ، تبًا ، أولئك الأوغاد اللقطاء ، قالَتْ أوغستا . هذا خيّبَ آمالنا ، شعرْنَا كما لو أنَّ أوغستا خذلتْنَا ، وهي خمَّنَتْ ما يدور في أذهاننا ، بدت أحيانًا بائسةً من غير سبب واضح . ووصلَ المزيد من الرّسائل ، وشيئًا فشيئًا توقّفت أوغستا عن فتحها ، وانتشرَ الصّمتُ فوق تلك الرّسائل ، صمتٌ غامض .

7

ما الذي يمكن أن يفكّر فيه ، ما فتئنا نتساءل ما بين آن وآخر ، نعني الفلكيّ ، كيف يشعر ، ماذا يجري في خُلدِ أولئك الذين ضحُّوا بكلِّ شيء ، الذين أدارُوا ظهورَهم للنَّجاح ، للعائلة ، للحياة اليومية؟ كُنّا متلهِّفين لنعرف ، وكان ذلك موضوع نقاشات لا ينضبُ في أمسياتِ الشّتاء الطَّويلة ، عندما يبدو أنَّ العالم قد نسينا ، ولا شيء يحدث ما عدا أنَّ السّماء لا تكفّ عن تغيير ألوانها . ولذلك استقطبَ جلّ اهتمامنا الإعلانُ الذي علّقته إليزابيت في التّعاونيَّةِ ، في البقعة نفسِها حيث دَرَجَ كلّ من غاير الهَرِم ثمَّ كِدي من بعده على الإعلان عن عروض الأفلام طيلة ثلاثين سنةً :

ما الجدير بالاهتمام

ابتداءً من مساء الأربعاء القادم ، سيلقي الفلكيّ محاضرةً شهريَّةً في المركز الاجتماعيّ عن ما هو الجدير بالاهتمام . سيبدأ المحاضرة في تمام السّاعة التّاسعة مساء ، والمحاضرة

مدعومةٌ بعرضٍ لشرائح ، ستستغرق 40 دقيقة . المحاضرات برعاية مجلس وزراء دول الشّمال . وسيجيب عن الأسئلةِ في نهاية كلّ محاضرةٍ . ستكون القهوة متاحةً للجميع .

كانَتْ صالةُ المركز الاجتماعيّ مكتظّةً بالحضور ، بدا الإقبالُ يماثل تقريبًا التَّهافتَ على أفضل عروض أفلام كِدي ، مثل أفلام جيمس بوند و «موت قاس» . شُغل دافي وإليزابيت للغايَةِ . قهوة ، كعك ، مقبِّلات ، إرشاد النّاس إلى مقاعدِهم ، وأخذ معاطفهم . كانت ليلة مهمَّة ، وشعرنا أن في بطوننا فراشات تتطاير ، لقد حانتِ اللّحظة الكبيرة ، سرعان ما سنعرف ما الذي كان يفكّر فيه الفلكيّ ، وما المكتوب في تلك المجلّدات . احتسينا القهوة ، قضمنا الكعك ، بتردّدٍ تذوَّقنا المقبّلات ، استمتعنا ، وقال كل واحد فينا لنفسه : ما يهمّ هو أنْ تربح فرقةُ أرسينال البطولة ، ما يهم أن أحصل على انتصابٍ اللّيلة ، وأن لا تنتشيَ غوجي بسرعة ، ما يهمُّ هو أن أشرب حتى الثّمالة ، وأصل إلى حدٍّ كاف من الطّرب في نهاية هذا الأسبوع . طوال الوقت وقف الفلكيّ هناك على خشبة المسرح ، وراء المنصّة ، يحدّق في الفراغ ، ويبدو عليه ظاهرًا أنه غير مبالٍ بأي شيء ، بثرثرتنا ، بترقّبنا ، بذلك المساء ، ومحاضرته ، كما لو أنَّه كان يمعن النّظر في سماء المساء عبر حيطان المبنى وسقفه ، السماء التي غدت أشد حلكةً بين النّجوم خلال مرور الخريف . هو أسمى من ذلك كلّه ، فكّرنا ، إنَّما ليس من دون إعجاب ؛ إنَّه حكيم . لكن ما كان يحدث حقًا هو أنَّ الفلكيَّ اضطرَّ إلى إحكام تشبُّثه بالمنصَّة كي لا ينهار ، لن أنجو من هذا ، فكّر . وما بين تارة وأخرى ، ألقى ابنه دافي نظرةً جانبيَّةً تُجاه المسرح . لن ينجو من هذا ، همس لإليزابيت التي كانت تلبس ثوبًا مخمليًا أسود

يعانق جسدها ، وبعض الأشخاص قضموا أظافرهم ، عضّوا مفاصل أصابعهم ، وقالوا في سرّهم الجدير بالاهتمام هو ثوب مخمليّ أسود . لعلّكم تتذكّرون أنَّ إليزابيت عملت في مؤسَّسة النَّسيج ، إنَّما ليس لمدَّةٍ طويلةٍ ، خلال السّنتين الأخيرتين فقط ، ومع أنَّها لا تكاد تكون إلّا أكثر من طفلةٍ بقليل ، سرعان ما أصبحَتِ المساعدة غير الرّسميّة للمدير ، الكلبة الدّاعرة ، فكّرتِ النِّساء الخمسة اللاتي جلسْنَ في القسم الأماميّ من الصّالة وتتبَّعنَها بعيونهنَّ ، كما لو أنَّ النّظرات لا يمكن أَن تقتلَ . خفضَتْ إليزابيت ضوءَ مصابيح الصّالة لكنها شغَّلَتِ الأضواء الكشّافَةَ المسلّطة على المسرح ، ثمَّ جلست هي ودافي في الصّفّ الأماميّ ، الأقرب إلى خشبة المسرح ، وأضواء المصابيح الكشّافة حطّت عليهما مثل غمام رقيق . قصف قلبُ الفلكيّ كقلبِ حيوانٍ صغير علق في فخٍّ ، ارتعدَ جسمه ، ارتجفَتْ يداه . شخصَتْ عيونُنا نحو المسرح ، مرّتِ الدّقائق ، لم يقلْ شيئًا ، اكتفى بالتّحديق في الفراغ ، وبعضُنَا بدأ يفكّر أنَّ الفلكيَّ قد جمعَنَا هناك ليحدّثنا عن الصّمت ، وأنَّ الصّمت هو في الواقع ما يهم ، وأنَّ كتبَهُ ، في هذه الحال ، لا بدّ من أنَّها تعجّ بالصّمت . نعم ، صحيح طبعًا ، وهراؤنا وثرثرتنا وهذرنا كلها تثير اشمئزازه ، نحن نثرثر يوميًا ، في النهار وفي الليل عن أشياء عديمة الفائدة ، مثل طول السَّتائر ، وحجم الإطارات ، وبعد ذلك نموت .

في الصّمت يُدّخَر الذّهب ؛ ذاك الذي يبقى صامتًا يلتزم بنفسِه ، يمكنه اكتشاف أمورٍ مختلفة . الصّمتُ يتسرّب تحت الجلد ، يُسكِّن القلب ، يخدّر القلق ، يغمرُ الغرفة التي يشغلُها المرء ، يملأ البيت ، وفي الخارج يهدر الزّمن الحاضر ، فهو عَدّاء سريعٌ ، سيَّارة سباق ، كلب يطارد ذيله ولا يمسكه أبدًا . لكنَّ الصَّمت ، لسوء الحظّ يخشى النّاس ، لا يدوم طويلًا في

الحشود ، يهرب بسرعةٍ . كحّ شخص ما ، ابتلع شخص آخر ريقِهِ ، همس أحدهم وأخفى ضحكته وراءَ يده . أغمضَ دافي عينيه وفكّر ، ما عدْتُ أحتمل ، أنا لسْتُ هنا . إلّا أنَّ إليزابيت وقفت على مهل ، استدارَتْ وتفحّصتِ الصّالة شبه المعتمة ، لعلَّها نوَتْ قول شيء ما ، نظرت إلينا ، ربما فكرت فقط في أن تقول شيئًا ، فتضاءل الهمس عندئذٍ ، ، بهت الضّحك ، تلاشى ، حدّقنا فيها لأنَّها هناك وقفت ، لا تتجاوز من العمر أربع وعشرين سنة . وقفت بثوبها المخمليّ الأسود ، بشعرها الداكن الطّويل المسدول على كتفيها ، بعينيها البُنيتين العميقتين ، ليست جميلةً بالضّبط ، لكنَّها تتميّز بشيء ما . تبًا ، اللعنة ، قلْنَا بيننا وبين أنفسنا ، هذا مع أنَّها حتمًا ليست مجرَّدةً من الملابس الدّاخلية تحت ذلك الرداء – وسرعان ما هدأتِ الأجواء . التحفَتِ السّماء فوق المركز الاجتماعيّ بالصّمْتِ ، تراخى جريان الدّم في عروقِنَا ، ما عاد أيّ شيء يهمّ غير تلك المرأة . بدا أنَّ أضواء المسرح تتسلّط عليها ، تحتويها مثل أيدٍ شفَّافةٍ ناعمة تقريبًا ، بدا ثوبها المخملي الأسود كأنَّه محمولٌ بنهديها فقط ، أو بوساطةِ التّيار الكهربائي اللّطيف بين حلمتَيها والمخمل . اللّعنة على أشدّ جحيم حرارةً ، فكّر أحد الحضور متصارعًا مع قلة حيلته ، لن يلبثَ الثّوبُ أن ينزلق ولن يتوقَّف عن الانزلاق إلّا بعد وصوله إلى وركَيها ، يا ربّنا ، اجعل هذا يحدث ، اجعلِ الثّوب يسقط ، اسمَحْ لعيني أن تبصِرَا شيئًا جميلًا ، لأنَّ هناك شتاءً طويلًا بانتظارنا . العاهرة الملعونة ، الدّاعرة ، ملتهمة الرجال ، غمغمت النّساء الخمسة في ما بينهنَّ ، ثمَّ فتح الفلكيّ فمه ، قال : ثمَّةَ متَّسعٌ لكلِّ شيء في نفَس السّماء .

تصريح كهذا يتضمّن كلَّ شيء أو لا شيء على الإطلاق ، ولم نعرف أيّهما هو . ومع إليزابيت تقف هناك ، كان من المستحيل علينا أن

نفكّر ، مستحيل أن نستوعب الكلمات ، غير أنّها ما لبثت أن جلسَتْ وقال الفلكيّ ، بروِيَّةٍ ، وفي الوقت نفسِهِ بحماسةٍ بالغةٍ جعلَتْنَا نتذكّر أيّام عظمة مؤسسة النّسيج : هائل اتساع السّماء ، هي تطوّق بدايتنا ونهايتنا . كان صوته رقيقًا وقاتمًا ، مثل ثوب مخمليّ .

وعلى هذا النّحو بدأ الأمر .

مرّةً كلَّ شهرٍ على امتدادِ عشر سنواتٍ أو ما يقاربها ، كان من المؤكّد أن نجدَ الفلكي واقفًا وراء المنصّة على خشبة المسرح في المركز الاجتماعيّ . تسع سنوات ، هكذا يجري الزّمن ، وما بين فترة وأخرى نصحُو على النّداء السّوداويّ الذي يطلقُه صائد المحار في هدأة الصّباح ، ننظر إلى الخارج ، ونرى أنَّ هناك صقيعًا يغلّف السّماء .

لكن ، على الرّغم من أهميَّة مساء تشرين الأوّل ذاك ، قبل تسع سنواتٍ ، المشتمل على اتساع نطاق الكون والمتضمِّن ثوبًا مخمليًا أسود ، تقلّصت أعدادُ الحضور بسرعةٍ في حين واصل الشّتاء المظلم تقدّمه . ومع حلول فصل الرّبيع كان يمكن أن يمثِّلَ حضورُ عشرة أشخاص ليستمعُوا إلى دقّاتِ السّاعة الكونيَّة في محاضرات الفلكيّ خبرًا جديرًا بالاعتبار ، وبقيَتِ الحال على هذا المنوال . نظنُّ أنَّه كان ينبغي علينا أن نحسِنَ الاستماع ، فنحن نشعرُ أنّنا مذنبونَ قليلًا في هذا الشّأن ، إنَّه شيءٌ آخرُ لعينٌ يضاف إلى العديد من الأمور التي تؤرقنا ونشعر حيالها بالذّنب ، غير أنَّ أحدًا لا يستطيع أن يتغافل عن حقيقة أنَّ هناك الكثير مما يتطلَّب الاهتمام به ، هناك الثّلج المتساقط الثّخين جدًا ، والمستنقعات المتشكلة ، وعلينا أن نضع الأطفال في الأسرّة ، نرتِّب البيت ، نتصفّح المجلات ، نطلي بابًا ، ندقّق تحت السّيارة ، نتّصل بأحدهم ، وقد يكون هناك برنامج ديكور منزليّ خارجيّ وداخليّ في التّلفزيون ، أو ربّما مباراة في دوري

أبطال كرة القدم ، وهناك بلا شكّ حياةٌ لدى لاعبي كرة ريال مدريد أكثر من محاضرات الفلكيّ . ثمَّ نحن على أي حال ، نعرج على المركز الاجتماعيّ عندما لا يوجد أي شيء آخر يشغلنا ، لا مباريات ، إحدى أرجل طاولة البينغ بونغ انكسرت ، القهوة في المتجر بائتة ، قد قدْنَا السّيارة حول البلدة ثلاثين مرَّة ، أشبعنا أحدث الإشاعات ثرثرة ، حسدنا أولئك الذين لديهم تقنيات الاتّصال اللاسلكيّ السّريع ، أخذنا حمَّامًا ساخنًا ، انتهينا من انتقاء أفلام دي في دي جيّدة ، وبعد ذلك لا يبقى أمامنا سوى أن نحشر أنوفنا في الصّالة ، نستمع إلى أنفاس السّماء من خلال كلمات الفلكيّ ، نشرب القهوة ونأكل الكعك وكل ما تقدّمه إليزابيت ، نتأمَّلها ونتساءل أهي عارية النّهدين تحت بلوزتها ، سترتها ، ثوبها أم لا ، ثمَّ نعاودُ النّظر إلى وجهِ الرَّجلِ الشّاحب الشّبحيّ وهو يلقي محاضرته ، الوجه الذي أصبح على مرّ السّنين ضامرًا ، الأنف الحادّ غدًا أكثر حدّةً ، وتأمّل رأس الرّجل من الجانب يبدو للنّاظر أشبه بفأس . أمَّا بالنّسبة إلى الأيدي العشرة فقد توقّفَتْ عن الحضور نهائيًا ، لأنَّ الكواكبَ بعيدةٌ جدًا ، ونحن نريد أن نُعمِل رؤوسنا في أشياء أكثر قربًا منّا ، هذا ما يقلْنَه ، إضافة إلى إصرارهن بأن الرِّجال لا يأتون إلى المحاضرات إلّا ليحملقوا في نهدَي إليزابيت ، أن الرجال يأملون أن تلاحظ تحديقهم وتقوم بإقحام رأس لسانها من بين شفتيها النّديتين ، تلك العاهرة ، ليست سوى مخلوقة مخادعة ، تدرك جيّدًا أنَّ الطريق إلى إرادة الرّجل يكمن بين ساقيه .

لم يؤثِّر الحضور الضَّعيف على الفلكيّ ، إذ يبقى متحمّسًا سواء أحضر خمسون شخصًا أم حضر شخصان ، وعلى الرّغم من تقاعسنا غير المبرر عن الحضور ، ما زلْنَا سعداء ، نعم ، ما زلْنَا فخورين بمحاضراتِه ، فهي تمنح

بلدتنا أثيرَ سعة الاطِّلاع ، وهي إضافة مرحّب بها للحياة الاجتماعية فيها . إذ يمكن أن يكون من الصَّعب نفخ روح الحياة في أمسياتِ بلدةٍ من أربعمئة شخصٍ ، فنشاطاتُها تقتصر على إقامة سبع أو ثماني حفلاتِ رقصٍ في السّنة ، إضافة إلى مناسبات لعب الورق ، وليالي مباريات البينغو ، إلى جانب عروض أفلام كِدي .

8

في بعض الأيَّام الطّيِّبة ندعوه نجمنا السّينمائيّ كِدي ، إذ سبق له وهو في ريعان الشّباب أن حظي بدورٍ صغيرٍ في فيلم فريدريك «الحيتان البيضاء» ، ولذلك يعرف أسرارَ العمل السّينمائي باطنًا وظاهرًا . تُقام عروضُ الأفلام في أوّل وثالث ثلاثاء من الشّهر ، ابتداءً من شهر أيلول إلى نهاية شهر آذار ، ويُعلَّق ملصق الفيلم الذي سيُعرض يوم الأحد ، والنشرة المتعلّقة بالفيلم المصمّمة من قِبل كِدي نفسه يمكن شراؤها من المتجر مقابل 300 كرونر . فيها تعريف بالمخرج والممثلين ، وأحيانًا المصوّر أو مسؤول المونتاج ، إضافةً إلى موضوع الفيلم . حوالي سنة 1990 ، تولّى كِدي المهمَّةَ من غاير المسنّ الذي كان في تلك الآونة يتولّى عرض الأفلام لنا لأكثر من عشرين سنةً ، ودائمًا يستخدم جهازَ العرض نفسه الذي ركّبه عند صفّ المقاعد الخلفي ، تجاه آخر الصّالة ، كان في الواقع جهازًا مستهلكًا جدًا ، يكحّ مثل جرَّارٍ في أيّامه الأخيرة ، صاخبًا كثيرًا لدرجة أنَّ ضجيجه يغمّ على المشاهد الهادئة في الشّاشة ، ومشاكله لا نهائيَّة في تركيز بؤرة العدسةِ ، وألوان الفيلم لطالما نزعت إلى الاندماج في ما بينها . مات غاير

خلال عرضٍ كوميديٍّ هزلي رائع ، جعلنا ننفجر ضحكًا . إنَّ الضّحكَ أمرٌ حسن ، الضّحك الصّادق هو مزيجٌ غامض من النّعمة والسّلوى ، نتبخّر فيه ، يحوّم فوق شخصيَّاتنا ، نصبح بشرًا أكثر من مجرَّد رموز . مؤسفٌ أنّنا لا نتذكّر عنوانَ الفيلم ، لكن ، حدث أنَّه قبل الاستراحة ، وبعد انفجار ضحكٍ مدوٍّ جلجلَ في القاعة ، بدأ الجالسون الأكثر قربًا من جهاز العرض يتساءلون لماذا بدا غاير في غاية الهدوء والجدّية ، هو الذي كان دائمًا فخورًا جدًّا بأفلامه ، وكثيرًا ما ضحك ببهجةٍ طفوليَّةٍ كلما ضحك الجمهور . هايذا ، الحاصلة على تراخيص أنواع اليانصيب كلّها ، وشركات التّأمين والصّحف في هذا الجزء من البلاد ، مالت نحو غاير ، جذبَتْه وهمسَتْ بصوتٍ مسموع نوعًا ما ، ما هذا يا رجل أأنت ميت أم ماذا؟ وتلك في الواقع كانت الحال – توقّف غاير المسنّ عن التّنفّس ، مات قبالة جهاز العرض ، وبالتّالي ما عاد قادرًا على الضّحك أكثر . منذ ذاك الحين ، غدت هايذا حذرةً بما تقوله من كلمات .

كان حلول كِدي محل غاير أشبهَ بالهبَّة ، النّجم السّينمائيّ بلحمه وشحمه ، والذي ، إضافة إلى ذلك ، ساعد الرّجل المسن عدّة سنوات . قام كِدي بدايةً بشراء جهاز عرض جديد ، قائلًا إنَّ غاير كان يعشق جهازه القديم كثيرًا ، وسرعان ما أخذ يكتب برامجه الخاصّة أيضًا ، وفيها يستطيع أن يجعلَنا نشاركه أفكاره وآراءه واطّلاعه على حبكات الأفلام ، وبسرعة أصبح ماهرًا في تلخيص تلك الحبكات ، ويمكن أن تُعدّ أفضل ملخَّصاته وحدها قصصًا قصيرة لطيفة . زوجته ستينن زيّنت نشرات البرامج برسومٍ إيضاحيَّة رشيقة ، متّصلةٍ موضوعيًا أو ذاتيًا بمادة الأفلام . تزوَّج كِدي وستينن خلال أحد عروض أفلام غاير الأخيرة . كانت قدِ انتقلت إلى البلدة من العاصمة ريكيافيك لتعمل بصفتِها

مدرِّسة بديلة . هي قصيرة ، منمنمة التكوين ، بشعر أشقر كامد طويل ، ومشية سلسة بطريقة خاصّة ، انتباهنا تركّز على نمط لباسها بثياب ذات تصاميم باهظة الثّمن ، كما قال أولئك المطّلعون على مثل هذه الأشياء . ظهرت في القاعة خلال أحد عروض الأفلام بجينز أزرق باهت ، على ركبته اليمنى رقم 6 وعلى ركبته اليسرى رقم 8 . كانت لدى كِدي قارورةُ مشروب ، وجرت عادة أشبه بتقليدٍ أن يرتشف المرء قطرةً أو قطرتين أثناء العرض ، حسنًا ، بعض النّاس يشربون أكثر من اللازم ، ويتقيَّؤون في المرحاض . لم يكن كِدي خجولًا قطّ ، فهو رجلٌ مشهور ، ممثِّل سينمائيّ وما إلى ذلك ، وهكذا تقدّم نحو المعلِّمة التي ما زال شيء من الحياء يمنعنا من الاقتراب منها ، أتراكِ تستلطفين المكان هنا حيث لا شيء يحدث؟! ثمَّ عرض عليها قارورته : شراب البراندي . أخذت رشفة ، بحذر بالغ ، فابتسم كِدي ثمَّ بدأ الفيلم . تناولَتْ رشفة أخرى خلال فترة الاستراحة ، دردشَا ، أخذ كِدي يتأمّل ركبتي بنطلونها ، الموسومتينِ برقمي 6 و8 . ماذا؟ استفسرَتْ ، مضطربةً قليلًا عندما رأت كيف راح يحدِّق في ركبتيها . عندئذٍ رفع كِدي رأسه ، نظر مباشرةً في عينيها وسألها ، أيمكنني أن أصبح رقم 7؟ مثل هذا السّؤال هو إمَّا حياة أو موت ، إمّا صفعة على الخدّ أو قبلة . فوّتا النّصف الثّاني من الفيلم ، لديكَ مرآة فوق سريرك ، قالت . ألا تعجبكِ؟ سألها . لا ، كم أودّ لو أنَّها كانت تحيط جوانبَ السّرير كافَّةً .

مكتبة
t.me/t_pdf

9

هذا ما جرى ، لكن لن يخطرَ على بال أحدٍ مطلقًا أن يعاقر المشروبَ خلال محاضرات الفلكيّ ، على الرّغم من كون ذلك مرغوبًا ، ربَّما ، لتخدير المشاعر قليلًا أمام القوى الخطرة ، تلك التي يحدّثنا عنها ؛ الثّقوب السّوداء المترصّدة في الفضاء مثل عناكب شّيطانيَّة تهرع إلى ابتلاع كلّ شيء على مقربة منها . النيازك ، المذنّبات ، الأقمار ، الكواكب ، الشّموس ، كلّها تختفي في جوف الفراغ الأسود النّهم .

الثّقوب السّوداء هي شموسٌ ميتة ، قال الفلكيّ ، وهذا أيضًا مذكور في الكُتيّب الذي تنشره إليزابيت ستَّ مرّات في السّنة ، وفيه مقتطفات من محاضراتِه . أحد تلك الكُتيّبات يتطرَّق قليلًا إلى الحديث عن يوهانز كيبلر ، وهو من الأشخاص المفضَّلين لدينا . اتُّهمَتْ أمّه بممارسة السّحر ، عُرف عنها أنَّها كانت تضرب الرّجال بقماشٍ مبلَّل ، غير أنَّها تعهَّدت ابنها برعايةٍ جيّدة ، الابن الذي ألّف كتاب الحلم ، أو عمله الأخير الذي نشر بعد موته عن علم الفلك القمريّ ، الكتاب نفسه الذي كلّف الفلكيّ نفاد صبر زوجته . أصابعنا ترتعش بعض الشّيء حينما نفكّر فيها . هذا الكتاب عن أناسٍ يسافرون إلى القمر من أيسلندا . ترجم الفلكيّ وقرأ جهرًا الفقرة التي تأخذ مجراها في هذه البلاد ، عاش كيبلر في القرن السّابع عشر ، عندما كانت أيسلندا تقع عند حافَّةِ العالم المعروف ، وغالبًا ما اقتربت من السّقوط من على الخرائط . وقد جعلت مديرة المدرسة سولرون الأطفال يقومون بمشاريع مستمدّة من هذا الوصف ، وفي الرّبيع

نظّمت معرضًا لرسوماتهم . على أي حال لم تجعل سولرون الأطفال يقومون بمشاريع عن الثّقوب السّوداء ، فهذا لم يعتبر مناسبًا للأطفال على وجه الخصوص ، فالثّقوب السّوداء أسوأ من الليبراليّة ، أسوأ من الولايات المتحدة الأمريكيّة ، أسوأ من مفعول البيوت الزّجاجيّة ، الثّقوب السّوداء شموسٌ ميتة كانت في زمانها أكبرُ بكثير جدًا من شمسنا - وكانت ، على أي حال ، تُدعى عين الرّب . أنارتِ العوالم لملايين السّنين ، ثمّ تداعت إلى نقاطٍ صغيرة ولكن مذهلة بكثافتها ، وتحوّلت إلى ثقوبٍ سوداء . وتاريخ الثّقوب السّوداء كما يَرِدُ في الكُتيِّب :

> . . . بلا أدنى شكّ يستدعي إلى الأذهان حكاية إبليس ، الملاك المتألّق الذي طُرِح في الجحيم ، وما كان متألّقًا أصبح مظلمًا ، المجد غدَا شيطانيًا . لعلّ الثّقوب السّوداء أدوات الشّيطان ، الأسلحة الأكثر ترويعًا في الحرب الأبدية ضدّ الرّب ، الرّب الذي ألحف في الابتعاد عنّا حتى غدا من العسير علينا تفادي اليأس المطلق .

مرحى! ينبغي أن يقولَ المرء ، ابتعد عنّي يا إبليس! وإلّا فمزيد من النّور!

[البحر عميقٌ ، هو يغيّر ألوانَه ويبدو أنّه يتنفّس . من الجيّد أن نحصل على البحر على هذا القرب البالغ منّا ، لأنَّ الأيَّامَ أحيانًا تمرّ من غير حدوث أي شيء ، وحينها يمكنُنَا أن نطلَّ على الزّقاق البحري الذي يصبح أزرق ، يصبح أخضر ، ثمَّ يعتّم ، مثل نهاية العالم . لكن إن صحّ أن الوقوف بلا حراك هو حلم السّرعة ، ربَّما علينا عندئذٍ تأسيس مصحة لسكّان المدينة الذين يعانون من الإجهاد ، والآن نحن لا نفكّر فقط في

عاصمتنا ريكيافيك ، بل أيضًا في لندن وكوبنهاغن ونيويورك وبرلين : تعالوا إلى المكان الذي لا يحدث فيه شيء ، المكان الذي لا يتحرّك فيه شيء ما عدا البحر ، والغيوم ، وأربع قطط أليفة . لن يكون الإعلان صادقًا كليًا ، لكن ما هو الإعلان؟ أولئك الذين يعملون في الإعلانات ينبغي أن يكونوا قادرين على إقناعنا بأنَّ ما لا فائدة منه مهمّ ، وهذا ، كما يبدو ، يسيرُ معهم بشكلٍ جيّد جدًا ، لأنَّ حياتنا تكتظّ رويدًا رويدًا بأشياءَ عديمةِ الجدوى ، ولحظاتٍ لا قيمة لها ؛ وسائل الراحة تتكوّم من حولنا ، ورؤوسنا بالكاد تبرز من بينها .

في الأيام الماضية ، ما خشيه النّاس أكثر من غيره هو الحاجة ، والبؤس : الجوع والفاقة والبرد ؛ حلموا بأسباب الرّاحة ، حلموا بكدح أقلّ ، مشقّة أقلّ ، والحصول على وقت وافر لأنفسهم . استنزفوا أنفسهم حتى العظام ، عاشوا في الظّلام ، وأحيانًا في بيوت رطبة ، كانَتِ المسافة إلى الطّبيب طويلةً ، وأطول لارتياد المدارس ، ماتوا قبل أوانهم ، اختبروا القليل جدًا من اللحظات البهيجة ، قُضيت الحياة في شقّ طريقهم عبرها بصعوبة شديدة . أمّا اليوم فأنتم تعرفون كيف هي الحال ، لدينا كلُّ ما حلم به أسلافنا ، نعمّر أكثر منهم إلى حدّ كبير ، نتمتع بصحّة أفضل ، لا نختبر مرارة الجوع ، لا نشعر به إلّا عندما نتبع حميةً ما ، أو عندما نعلق في ازدحام مروريّ سيِّئ ، نقلق بخصوص بُنية أجسامنا ، نكبّر أو نصغّر أثداءنا ، نجاهد لئلّا تصبح رؤوسنا صلعاء ، نذهب إلى صالونات تسمير البشرة ، نحلم بأسنانٍ مستقيمة ، ودائمًا نبحث عن وصفاتٍ جديدةٍ ، معظم النّاس يعملون أكثر ممّا تستدعي الحاجة ، وبالنّسبة إلى الرّجال ، لا بدّ من أن يتناغم حجم القضيب مع طول الوقت الذي يصرفونه في العمل . نلْنَا ذلك بمنتهى السّهولة ، ومع ذلك لا نشعر أنّنا بخير ، إذ ما الذي

يفترض بنا أن نفعلَه بهذه الأيام كلها ، أن نفعله بالحياة نفسها ، صعبٌ أن نكتشفَ لماذا نعيش . لكن على الأقل شاطئنا جميل ، متعرّج ، وطوله أقصر قليلًا من كيلومتر ، مريحٌ الوقوف هناك ومدّ النّظر نحو شيء أعظم من أنفسنا . المحيط أبديّ ، هذا ما يقال في مكان ما ، وهو لسوء الحظّ هراءٌ مطلق ، فكلُّ شيء يتغيَّر ، الشّمسُ تموت ، البحار تجفّ ، النّاس العظماء يطويهم النّسيان ، لكن بالمقارنة مع الحياة الإنسانيَّة ، البحر حتمًا أبديّ . ومنذ أقلٍ من ثلاثين سنة ، اعترانا شعورٌ أيضًا بأبديَّة الاتِّحاد السّوفيتيّ ، وأبدية اتِّحاد الجمعيَّات التَّعاونيَّة الأيسلنديَّة ، أمّ التَّعاونيَّات كلّها . كانتِ التّعاونيَّة مركزَ الكون بالنسبة إلينا ، أدارت مخزن البقالة ، والمستودع ، ومحطة البنزين ، ومركز التّسوق ، والمسلخ . أودع المزارعون منتجاتهم كلّها فيها ، واستردُّوا عوضًا عنها حاجاتهم من البقالة ، مكمِّلات الحيوانات الغذائيَّة ، البنزين ، مواد تشييد السّياجات ، هدايا عيد الميلاد ، وبيض الفصح ، لم يروا قطّ أي نقود ما عدا حينما يضطرُّ أحدهم إلى الذّهاب إلى العاصمة ليعود طبيبَ الأسنان . كان زمن ركود ، كان سكونًا لعينًا خانقًا ، ووراء ذلك كلّه كان هناك الحزب التّقدميّ ، بدايتنا ونهايتنا ، اعتقدنا أنَّ الأمور لن تتغيَّر أبدًا ، وقد كنّا مخطئين كثيرًا في هذا بالتَّأكيد . عجيب كيف يتغيَّر كلّ شيء في النّهاية ، السّتار الحديدي ، التّلفزيون بالأبيض والأسود ، الآلات الكاتبة ، متى سيتوقّف هذا التَّطوّر ، ليس عليكم أن تجيبوا عن هذا ، نحن نفكّر بصوتٍ عالٍ فحسب لأنَّ الآن كلّ شيءٍ يتغيَّر بسرعةٍ فائقةٍ ، لدرجة أنَّكم إذا طرفتم عينًا ينقطع اتِّصالكم بالعالم . مع ذلك ، نحن لم نستوعب حقًّا مدى سلطة التّعاونيَّة الخارقة إلّا بعد انهيار اتِّحادها المتعفّن من الدّاخل ، مثل الولايات المتّحدة في أيّامنا ، برائحتها الكريهة النتنة التي تهبّ فوق المحيط مع رياح الغرب

التي لا تعرف الهوادة . فقط عندما تتكسّر السّلاسل يدرك المرء فعلًا كم كانت ثقيلةً .

لكن هنا في البلدة يعيش شابٌّ لا يعنيه مرور الزّمن كثيرًا ، ولا كيف يتغيَّر معه شيء ، اسمه يوناس ، وهو من طلى بالدّهان بيت الفلكيّ المكسوّ بالحديد المموَّج . يستطيع يوناس أن يغيّر بفرشاته معالم الدنيا كلّها ، وهو مَن حوّل بيتًا مكسوًا بصفائحِ الحديد المموَّج إلى قطعةٍ من سماء اللّيل .]

على شكل قوارب التّجديف تُسبك الدّموع

1

يوناس أثيري وضاوي الجسم ، متوسط القامة تقريبًا . هو هشٌّ ، لا يطَأُ الأرضَ القريبة منه بقوّةٍ خشية منه أن يتهشّم . كبرَ يوناس ببطءٍ بالغ وبهدوءٍ لدرجة أنّنا نسينا ترقّب تدرّجه في النمو لفترات طويلة من الزّمن . لم ينبس مطلقًا ببنت شفةٍ ، ولم يتفوّه بكلمةٍ إلّا إذا وُجّه كلامٌ ما إليه ، وفي واقع الأمر ما أجاب قطّ إلّا بكلمات من مقطع صوتي واحد ، بصوت يشبه خيطًا صوفيًا ، صوت ضعيف ولكن شابته منذ وقت مبكر مسحة ظلام ، ويمكن أن يُبتر بمنتهى السّهولة . كان أداؤه في المدرسة سيّئًا للغايةِ ، نادرًا ما اهتمّ معلّموه أو اكترثوا بتوجيه أي سؤال إليه في الصّفّ ، ناهيك عن استدعائه إلى اللوح . قليلًا ما نام في الأسابيع التي تسبقُ الامتحانات ، تقيّأ مرّتين على طاولة الامتحان ، وفي إحدى المرّات غاب عن الوعي . لم يكن ليوناس يومًا أيّ أصدقاء ، ولا أيّ أعداء أيضًا على أي حال . قلّما حاول زملاؤه الأطفال مضايقته ، ربّما يعودُ ذلكَ لأن هانز أباه ؛ ذلك الرجل الضّخم كالعمالقة ، وشرطيُّ البلدة ، لكنَّ السَّببَ المرجَّحَ هوَ كونُ يوناس منطويًا جدًا على نفسه ، وهذا وضعَ حاجزًا حال بينه وبين الأطفال الذين كثيرًا ما شعروا بالحرج في حضوره – ثم مرّت السّنوات . ويوناس مكتفٍ فقط بالجلوس مستندًا إلى حائط المدرسة ، يراقبُ الأطفال الآخرين وهم يلعبون ؛ كان هذا في

السّبعينيّات والثّمانينيّات ، وما بين فينة وأخرى يتأمّل يدَيه اللّتين كانتَا في غاية النُّحول والشّفافية بحيث يمكن أن ينفذ الضَّوءُ من خلالهما .

ترك المدرسةَ وهو في الرّابعةَ عشرةَ من عمره .

في تلك الآونة بدأ رفاق مدرسته يختبرون المرور بمراحل النّمو المختلفة عمومًا ، أمَّا يوناس فبقيَ على حاله . كبرَتْ أثداءُ البنات ، وتميّزَتْ خصورهنَّ بمنحنياتٍ لطيفة ، اهتاجَتْ هرموناتُ الفتيان ، تحوّلوا إلى قطيع مجنون من ثيران تخورُ ، خبطُوا الحيطان ، نبحُوا على السّماء وحصلُوا على انتصابٍ كلَّما كحَّتْ بنتٌ أمامهم فحسب . لم يبدُ أنَّ يوناس يختبرَ أيَّ شيء من قبيل هذا ، اكتفى بالإلحاف في الالتصاق بحائط المدرسَة ، ثمَّ توقّف عن الذّهاب إليها ، وأغلقَ على نفسه بابَ غرفته . اضطرَّ أبوه هانز إلى خلعِ الباب ليقتحم عليه خلوته ، حاول رشوتَه ، توعّد ، شتمَ ، توسّل ، غير أنَّ ابنَه لم يَعُدْ قطّ إلى المدرسة . قال بعضُ النّاس إنَّ الفتى بليدٌ ، تحدّث هانز مع رئيس العمَّال في معمل الألبان ، فقد كانا صديقَين ، وفي تمام السّاعة التّاسعة من صباح أحد أيّام الاثنين في شهر شباط ، ظهر يوناس في معمل الألبان . التزِمْ المكنسة ، هذا ما قاله له رئيس العمَّال ، وتلك كانت المهمَّة الوحيدة الموكلة إليه . أخذ هذا مجراه في أواخر الثّمانينيَّات ، ولن يلبث جدار برلين أن يُهدمَ ، وتباع شظاياه باعتبارها تذكارات ؛ يتمتَّعُ الإنسان بموهبةٍ استثنائيَّة في تحويل التَّهديدات والموت واليأس إلى عملة صلبة باردة .

لطالما كانت بشرةُ يوناس باهتةً جدًا بطريقة استثنائية ، مثل لمبة إضاءةٍ في ظلام حالكٍ ، قِف إلى القربِ منّي لأتمكّن من القراءة ، قال له أبوه مرَّةً عندما انقطعت الكهرباء في ليالي الشّتاء ، خلال السّنين التي ما فتئ الطقس المجنون يهيمن عليها ، مضطرًا القرى إلى أن تنام ملتحفةً

ببطانيات من الثلج . مع ذلك ، على الرّغم من حيائه الذي لا يُطاق ، ما شوهد يوناس مطلقًا يتورّد حياءً ، وعندما يُحرَج يغدُو أكثرَ شحوبًا فقط ، وكم كان يعترينا خوفٌ شديدٌ من أنْ يبهتَ كُليًا في ضوء النّهار ويختفي . ثمَّ بعد شهرين من التحاقه بعمله في معمل الألبان ، شوهد يحمرّ من الخجل لأوّل مرّةٍ ، وبلا أيّ سببٍ ظاهرٍ ؛ بعض الفتيات ، بل حتّى النّساء كذلك ، غضضْنَ أبصارهنَّ واحتفظْنَ بأفكارهِنَّ لأنفسهِنَّ . تحمّس رئيس العمَّال كثيرًا من هذا التّحول في مجرى الأحداث لدرجة أنَّه استدعى هانز ليطلعه على ما حدث . في المساء شوى هانز دجاجةً للعشاء ، وقلى شرائح البطاطس ، ثم ناول ابنَه نصف قارورة جعةٍ ، وشربَ هو خمس قوارير جعةٍ ونصف القارورة . نحن الآن نحتفل! قال . لم يفهم يوناس ما عناه أبوه ، بيد أنّه رشف جعته وثمل ، أنت خفيفٌ الوزن بخفة عصفور ، قال هانز ضاحكًا ، عندئذٍ ظهر تعبيرٌ جميل غير عاديّ على وجه الفتى ، فتح فمه وبدأ يتكلّم عن طيور أيسلندا البرّيّة . تكلّم بلا انقطاعٍ لساعةٍ كاملة ، بحماسَةٍ لم يسبق قطّ أن ظهرَتْ عليه سابقًا . استمع هانز ، مندهشًا في البداية ، ثمَّ غدا مأسورًا من الوصف الدّقيق وأحيانًا المرهف ، مقتنعًا بأنَّ المحاضرةَ التي يلقيها عليه ابنه كانت دلالةً على يقظة الدّوافع ؛ الآن سيصبح ابنُه رجلًا أخيرًا . في اليوم التّالي جازفَ رئيس العمَّال بعد ما لاحظه ، وخصّص ليوناس مهمّةً جديدةً : جدار في المعمل يحتاج إلى طلاء - على الرّغم من أن ذلك الجدار كان طبعًا محجوبًا دائمًا وراء أكوام من السّلع ، ونادرًا ما ظهر للعيان . غير أنَّ رئيس العمَّال كان شخصًا فطنًا ويعرف أنَّ ما هو محجوب بحاجةٍ أيضًا إلى الاهتمام به . قاد الفتى إلى الحائط ذي الثّلاثة أمتار بثلاثة أمتار ، أشار إلى دلو طلاءٍ وفرشاة ، قال موضحًا نحن بكل تأكيد نحتاج أيضًا إلى الاهتمام بالأشياء التي لا

نراها ، وهذه مهمّتك لهذا اليوم ، أضاف ، متحرّكًا برويَّةٍ منقطعة النّظير بسبب حياء الفتى . ماذا عن المكنسة؟ ما عليك إلّا أن تسندها إلى الحائط هُناك . أينبغي أن أدهنَ الحائط بأكمله؟ لا تترك شبرًا واحدًا ، قال رئيسُ العمّال ، هناك مزيدٌ من الدّهان في المخزن إذا احتجت إليه ، لكنَّ هذا الدَّلو سيَفي بالغرض . ربَّتَ كتف الفتى بمودَّةٍ ، مضى خارجًا بقدر ما استطاع من بطء ، فالحركات الجلفةُ تربكُ يوناس . يتّم مكتبه ودخله ، جفّف العرقَ الذي رشح من جبينه . أتظنُّ أنَّه قادرٌ على التّعامل مع هذه المهمة؟ سأله أحدُهم ، نعم ، نعم ، الفتى في طريقه إلى أن يصبحَ رجلًا ، سرعان ما سيبدأ في النّظر إلى الفتيات ، لكن علينا ألّا نزعجَه .

كان الوقتُ بعد الظّهر تقريبًا عندما غامر رئيس العمَّال وذهب ليتفقّد يوناس . وجدَ الفتى واقفًا هناك بهدوءٍ جدّ بالغٍ ، تحيطُ به مجموعةٌ من دلاء الطّلاء ، ويحدّقُ إلى الأمام . تسمّر رئيسُ العمال فترة طويلة وهو يرمق الجدارَ ، ثمَّ دنا من يوناس الذي كان متورّد الوجنتَين ، ومن عينيه يشع وميضٌ . بعد هذا العمل الرائع ، لا أحد فكّر أبدًا في تكديس أي شيءٍ أمامَ ذلك الجدار . طلب رئيس العمال أن توضع طاولتان هناك وبضعةَ كراسي . ودأب النّاس على الجلوس أمام الجدار خلال استراحات القهوة ، أو حينما يرغبون في التّفكير ، في تهدئة نفوسهم ، واستعادة توازنهم ، يرشفون القهوة ويتأمّلون اللوحةَ الجداريَّة ؛ شمس مائلة إلى الحمرة تمتدّ على طول النّصف العلويّ للجدار ، وحوالي ستين طيرًا بريًا أو ما يقارب ذلك ، بدت كأنَّها في سبيلها إلى اختراقه والنّفاذ منه ، أشكالها جامدة بعض الشيء ، ومع ذلك يراها النّاظر ممتلئة حيوية لدرجة أنَّ المرء وسط السّكينَة المطلقة يمكن أن يتهيأ له أنه يسمعَ أجنحتَها تخفقُ في قلب الجدار .

2

في يوم من الأيّام كان العالم في منتهى البراءة إلى حدّ أنّه كان من المنطقي بالنّسبة إلى رجال الشرطة هنا في البلدة أن يعملوا بدوام جزئيّ ، آنذاك كان الطّريق إلى السّماء أقصر ، والطّريق المؤدي إلى الجحيم أطول . سيطر الحزب التّقدميّ على المناطق الرّيفية ، باسطًا هيمنته على التّعاونيّات التي ضمّت المجتمعات الرّيفيّة معًا ، وحصرت السُّذج في أماكنهم . فكّرَ عنّا ، وبذلَ أفضلَ ما يمكنه القيام به ليحافظ على كلّ شيء بالوتيرة التي درج عليها . في ذلك الحين كان من الأسهل دائمًا تدبُّر أمور أولئك الذين لا يأتون بحركةٍ أبدًا . لكن ربّما قُلب هذا كلّه رأسًا على عقب ، إذ خلال السّنوات القليلة الماضية اختبرنا تحوّلات عظيمة في حياتنا بحيث ما عدنا قادرين على التّفكير بوضوح ، وطاقتُنا كلّها أصبحت تُستهلك بالحفاظ على أنفسنا لئلا نُقذف نحو الخلاء . لكن أتُراكم لاحظتم أنَّ جوهرَ الإنسان يبقى في الغالب مختفيًا عن الأنظار ؛ أنّه يبقى متواريًا تحت السّطح ، وربّما لا يظهر أبدًا في ضوء النّهار؟ ولا في أي فقرة مُدرجة في السّجل العام ثمّة من أخبرنا أنّه على الرّغم من أن مهنة هانز الأساسيّة هي النّجارة ، كان زيّ الشّرطة الرّسمي حياته وبهجته . هذا ليس أنا ، دأب هانز على التّفكير في ذلكَ كلّما وضع حزامَ عدّة النّجارة صباح أيّام الاثنين ، ومدّ يده إلى منشاره ، وهو يلعن إذعاننا للقانون ، تاركًا العنان لنفسه لتحلمَ بزمنٍ أشدّ ظلمة وأكثر جنوحًا ، عندما يتاح له أن يقذفَ

حزام عدّة النّجارة بعيدًا ، ويرتدي زيَّ الشّرطيّ يوميًا .

كان هانز أضخمَ من معظم أهالي البلدة ، طوله 193 سنتيمترًا ، عريض الكتفَين ، غليظَ اليدَين ، ولا أثر لأي ذرة من الدّهون في جسمه ، طريقةُ مشيه تجعل المرء يفكّر في إحدى القطط الكبيرة . لطالما كانت له الأفضليَّةُ في العراك ، بدا أنَّ ذراعيه مصنوعتَان من الفولاذ ، احتسى المشروبَ أكثر من أيّ أحدٍ منّا ، فعَلَ ذلك منذ أن كان مراهقًا ، وهذا لم يُعدّ غير عادي ؛ ففي نهاية المطاف ينتمي ذلك الرّجل إلى جنس العمالقة . انجذبَتِ النّساء إلى هانز ، مفتونات بنظرته الثّاقبة المميزة التي تسقط على ما حوله من أشياءَ مثل شعاع منارةٍ . وقلْنَ لأنفسهنَّ ، أنا مستعدَّةٌ أن أهجرَ زوجي وأطفالي من أجل ليلةٍ واحدةٍ معه . لاحقتْهُ شقيقتان ، امرأتان جميلتان ، لاحقتاه بلا هوادةٍ ، عدّة سنوات ، يمكنُكَ الحصول علينا معًا ، قالتَا له ، تعيش معنا نحن الاثنتين ، وجود امرأتين في حياتك سيكون مناسبًا لك ، نحن مبدعتان للغاية ، ولسْنَا هنا نتحدّث عن الطَّبخ . لكن ، كم كانت دهشتنا عظيمة عندما تزوَّجَ باورا ، باورا التي كانَتْ في غاية الرّقة ، بشعر رأسٍ كثيف ولامع ، وجسدٍ مثل ساق زهرة ، هذا ما قاله الرّجال المسنّون عنها . غادرَت البلدةَ لتلتحقَ بالجامعة في ريكيافيك ، ليس على أيّ حال لتدرس عن كلّ ما يتعلّق بالنّباتات الهشّة ، كما توقّعنا ، لكن لتتخصص في حقل الجيولوجيا ، أرادَتْ أن تطّلع على مختلف ظواهر الزّلازل والبراكين والقوى المهدّدة . كانت تلميذةً نجيبةً ، وكانت ستصبح عالمةَ جيولوجيا بارزة ، غير أنَّها في حفلة عيد الفصح في المركز الاجتماعيّ رأت هانز في عراك . إنه بركان ثائر ، قالت في سرّها ، وبعد سنتين ولد يوناس . آنذاك كانت باورا قد حصلَتْ للتوّ على شهادة بكالوريوس في العلوم عندما ولدَ ، ورأت أنَّها

يمكن أنْ تعلّم في مدرستنا مدّة ثلاث سنوات ، وبعد ذلك تتابعُ دراستها ، تتخصّصُ في علم البراكين ، سأتخصّص فيكَ ، قالت في بعض الأحيان لهانز ، ثمَّ في أحد الأيَّام لاحظْنَا أنَّ الضَّوء فوق رأسها بدأ يخبو . الطَّبيب الهَرمُ ، ذاك الذي يعرف اللّغة اللّاتينيَّة معرفةً سطحيَّةً ، عجزَ عن فعل أيّ شيءٍ حيالَ ما ألمَّ بها ، كان ما أصابها سرطان القولون ، زهرة الشّيطان تلك . ذبلت باورا بسرعةٍ فائقة ، ذوَتْ ، تحوّلت إلى لا شيء . تمسّك بها هانز بكلّ ما أوتي من عزم ، لكنَّنا بلا حول ولا قوَّة أمام الموت ، انطفأ ضوء العالم وفقد هانز زوجته ، أمّ ابنهما ذي الأعوام الثّلاثة ، والذي كان واحدًا من بين أكثر الأشياء التي وقعت عليها عيوننا في يوم رقّةً وهشاشة . هناك دائمًا متّسعٌ لمزيدٍ من العدالة في الدّنيا .

وبعدئذٍ لم يبقَ سواهما .

بدا الصَّبيّ كثير الشّبه بأمّه ، وهذا ما جعل هانز لا يجرؤ على لمسه ، ولدي ، درجَ أن يقولَ وهو يحشرُ يدَيه في جيبَي بنطلونه . وعلى هذا النّحو مضَت السّنوات . عاش الأب والابن كلٌّ في عالمه الخاص ، قليلًا ما تبادلا الحديث ، غير أنَّهما أحبّا التّفرج على التّلفزيون معًا ، وجلسَا سويَّةً إلى طاولة المطبخ يستمعَان إلى المذياع أو صوت المطر ، ويمدّان نظرهُما نحو الزّقاق البحريّ . عاشا في أحد البيوت الخشبيَّة القديمة التي تقوم فوق الشَّاطئ المتعرّج . من وقتٍ إلى آخر ، في فترةٍ متأخّرة من المساء عادةً ، في يوم الخميس ، أو كلُّ سادس أو سابع يوم من الشّهر ، يستقرّ هانز على أريكته ، ينادي ابنه ويقول ، أحضر لي «هالغريم» المُبارك . حينها يدركُ يوناس أنّه سيكون شاهدًا على إفراط أبيه في احتساء المشروبات الكحولية طيلة أربعة أو خمسة نهارات تالية ، وما يماثلها من الليالي .

كم مرّةً راقب يدَيه تمتدّان لتصلا إلى قصائد «هالغريم بترسون» من

على رفّ الكتب الثّقيل الدّاكن : تراتيل وقصائد في مجلّدَين ، من 1887 إلى 1889 ، وقصائد وأشعار من سنة 1945 في مجلدٍ واحدٍ ، سيرة الشّاعر في المجلّدين كتبَها «ماغنوس يونسن» . في بادئ الأمر يناديه صوت هانز الجهوريّ ، ثمَّ تمتدُّ يدَا يوناس نحو رفّ الكتب ، إنَّ ذكرياته متخمة بصورة يدَيه وهما تمتدَّان . فهو قد استغرق وقتًا طويلًا في نموّه ، أقلّ بكثير من عمره الفعلي ، واحتاج بالتّالي إلى الاستعانة بكرسيّ كي يصلَ إلى الرّف ، وبعين خياله يرى يديه المنمنمتين تقبضان على ظهور المجلّدات ، وبعد ذلك يعبر أرضيَّة الغرفة بجهدٍ ليصل إلى هانز الجالس على أريكته ، وثمَّة بطانيَّة تغطّيه ، وعلى الطَّاولة الصّغيرة إلى جانبه صحنٌ من خبز الجاودار مع سجق كبد الخروف وسمك مجفّف وقنينة فودكا . مشهدٌ تكراره لا نهائيّ في ذاكرة يوناس ، مثل ألبوم صورٍ أو شريط فيلم يبدأ عرضُه في رأسه . وينمو جسمه وتشتد يداه ، ولا يحتاج بعد إلى الاستعانة بكرسيّ لكنَّ الكتب تبقى ثقيلةً كعهدها دائمًا ، والمكابدة لقطع المسافة عبر غرفة الجلوس لا تغدو أخفّ وطأة ، وهانز يجلسُ هناك في الزَّاوية ويزداد تقدّمًا في السّنّ . العديد من النّساء يتمنَّينَ الحصول على يدَين مثل يدي يوناس اللتين تشبهان جناحي فراشةٍ ، والضَّوءُ ينبعث من خلالهما . كان الصَّبيّ رقيقًا كرقّة باورا ، غير أنَّه يفتقر إلى عزيمتها وشخصيَّتها اللامعة ، فهي رقيقةٌ وقويَّة ، أمّا يوناس ففي غاية الهشاشَة بحيث خشينَا ألَّا يتمكَّن من تحمُّل أعباء الحياة التي تأخذُ أشكالًا غريبةً حقًا . يبدو أنَّ لدى بعض الأشخاص ألمًا عميقًا منسوجًا في وجودهم – لكن ، مهما اختلفت الحالات ، لا تُحدِث الأذرع القويَّةُ أيَّ فرقٍ ، مهما بلغ ما يقوم به المرء من تمارين ، أو رفعٍ للأثقال أو الجري خمسةَ عشرَ كيلومترًا ، لأنَّ أحدًا لا يستطيع مصارعة الظَّلام ، وإرغامه على الركوع

على ركبتيه ، لا أحد يستطيع الهروب من الظّلال ، لا أحد يمكنه الفرار من الحزن الأسود الكئيب والعنيد . وفي مساء يوم من الأيام ، يقول هانز لابنه : سيسعدني كثيرًا إذا ارتديتَ مثلي زي الشّرطة الرّسمي بعد رحيلي وتحليت بالرجولة ، نعم ، لا شيء سيسعدني أكثر ، حينها لن تكون حياتي قد ذهبت هباءً ، وهذا سيسكّن أحزاني التي يسرّ ربّ الملائكة والسّماواتِ أنْ أعانيها .

كانت تلك أمسية من أمسيات شهر تشرين الثّاني ، بعد خمسة أيّام وليالٍ من إحضار يوناس مجلّدات «هالغريمر» المباركة إلى أبيه ، وثمّة قنينتا فودكا فارغتان في المطبخ ، وثلاث دزينات من صفائح الجعة ، وهانز قد نال قسطًا قصيرًا من النّوم ، وكالمعتاد ، كان قد قرأ قصائد «هالغريمر» ، واستمع إلى أغاني «ميغاس» و «كات ستيفنس» ، و«ألفيس بريسلي» ، وألقى محاضرةً على ابنه بلغةٍ نابضةٍ بالحياة ، ويوناس آنذاك ما زال يشتغلُ في معمل الألبان ، العمل الذي جرى بسلاسة مثالية ، حيث التزم المكنسةَ ، ومن حينٍ لآخر بهرج البيئة بلوحاتٍ عن الطّيور ، متمتعًا بوقت كافٍ للشرود مع أفكاره . ثمَّ بعد العمل يلازم غرفته في البيت ، ويقرأ عن الطّبيعة ، عن الطّيور ، أو يرسم . وغالبًا ما أغلق بابَ غرفته ، لكن ، أبدًا لا يفعل ذلك عندما يعاقر أبوه الكحول - في تلك الحال يترك باب غرفته مفتوحًا ، فتفعم تمتمةُ هانز الخافتة غرفتَه .

هذا سيسعدني كثيرًا ، كرّر هانز ، والوقت يشيرُ إلى منتصف اللّيل تقريبًا . فرك يوناس أسنانَه بعنايةٍ فائقةٍ ، كالمعتاد ، تبوّل ، غسل يديه ووجهه ، مضى إلى غرفة الجلوس ليلقي تحيَّة المساء على أبيه ، نظر هانز إلى الأعلى ، رفع يدَه ، رفع رأسَه الصّلب غير المصقول ، تُصبح على خيرٍ يا ولدي ، تصبح على خيرٍ إلى الأبد ، لا تسمح للظّلال أبدًا أن تمسكَ

بخناقكَ . لا ، يا أبي . ثمَّ غادر يوناس إلى غرفته ونام على وقع التَّمتمة الآتية من غرفة الجلوس . كان يلبس بيجامته الحمراء . استيقظ باكرًا في الصّباح التّالي وغرفة نومه ما زالت باهتة المعالم . نظر إلى ساعته التي أشارت إلى السّابعة ، ورأى أن أمامَه ساعتين قبل أن يكون عليه الذّهاب إلى العمل ، ما يعني أن لديه متَّسعًا من الوقت للقراءة من كتاب سيرةٍ ذاتيَّة لعالم حيوانات أمريكيّ اعتاد على مدى ثلاثين سنة من حياته أن يقضي شهرًا من كلّ سنةٍ وهو يتجوّل في منطقة معيَّنة ، غابات أمريكا ، جبال روكي في كندا ، براري ألاسكا ، الأمازون ، الهند ، مدغشقر ، لكنه مرَّةً غيّر عادته وقام بالإبحار بين جزر المحيط الهادي على متن زورقٍ شراعيّ صغيرٍ . وصل يوناس بالقراءة إلى ذلك المقطع . «البحرُ أحيانًا في منتهى الزّرقة ،» كتب عالمُ الحيوان . «بحيث تتملَّكني القناعة بأنّني ميت وأنَّ جؤجؤ القارب يشير إلى السّماء .» ابتسم يوناس بتشوّف ، مدّ يده إلى المصباح ، أضاءَه ولاحظ أنَّ باب غرفته قد أغلق خلال الليل ، وثمَّة مغلّفٌ كبيرٌ قد أُلصِق تحت مقبضه . قام يوناس من السرير ، انتزعَ المغلَّف ، عليه كُتبت كلمات : إلى ولدي . جلس على طرف السّرير ، وقلبه في حالة اضطراب ، مزّق المغلف وقرأ :

ولدي الحبيب ، رجاءً لا تدخل إلى غرفة الجلوس . إذا كنت تكنّ لي أيّ احترام ، أو كنتَ تحترمني في يوم من الأيّام ، رجاء راعِ طلبي الأخير هذا . لقد حاولت بأقصى ما أستطيع من جهد ، لكنّني الآن استسلمت إلى الظّلال التي في رأسي . بالنّسبة لي ، جمال العالم قد تلاشى .

تداعتِ الغابة التي وقفتْ يومًا باعتداد ،
باهت حصاد المحراث ،لم يبق ما ندّخره سوى الحزن .
المنُح السّخية غدت نادرةً الآن .
اختفت مسرّاتنا ، في منتهى البعد يتهيَّأ لي
مُذ سمعت آخر مرّة ولو أغنية طير واحد
حلوة –
الافتراء الآن ، والخوف يشحنان الهواء .
ترتجف الأشياء الحيّة من رؤية غبش المساء ،
قاتمة هي الدّروب التي اعتاد ذهني الهيام فيها .

لقد هزمتني الظّلال يا ولدي . قاتلتُ ، بذلْتُ في محاربتها قوّتي كلّها ورجولتي ،لكنَّ الحرب ما فتئت تستمر مدّةً طويلة جدًا ، وأنا الآن منهكٌ .لم أكن قطّ صالحًا بما فيه الكفاية معك ، سامحْني ، ما أردت إلّا الأفضل لك . لا تدخل إلى غرفة الجلوس ، لأنّني اللّيلة سأشنق نفسي . يجب ألّا تجدني هكذا ، فظيعة مشاهدة رجل مشنوق ، وأفظع منها إذا كان المشنوق أباك . المشهد سيتأجج في وعيك ، ويشتعل فيه طوال حياتك ؛ وهذا ما لا أريده – لذا رجاءً لا تدخل إلى غرفة الجلوس . اخرج من البيت فورًا ، لكن تذكّر أن تضع عليك ثيابك أوّلًا – لا ينبغي أن يُرى المرء ببيجامةٍ حمراء . السّاعة الآن تشير إلى الرّابعة وعشرين دقيقة ، مضت خمس ساعات منذ أن احتسيتُ آخر قطرة مشروب ، الضعفاء فقط مَن يقدمون على إنهاء حياتهم وهم سكارى . أنا صاحٍ الآن . وأنت تنام بسلامٍ في غرفتك ، فمُك مفتوحٌ قليلًا . الآن بالتّحديد

وقفْتُ هناك وقتًا طويلًا أنظر إليك ، قلْتُ لك وداعًا . أنت صبيٌّ جميل ، مع أنّني ودْدتُ لو أنّك كنت رجلًا . لكنّك ولدي . أنا راحلٌ الآن ، وأنت كلُّ ما أتركه ورائي في عالم الرّجال . كن قويًا! لا تنحني أبدًا! عندما تشعر بالرّغبة في البكاء ، وهذا بالتأكيد سيحدث ، وهو أمرٌ لا يدعو إلى الخجل منه ، ما عليك إلّا الذّهاب وممارسة رياضة الجري . لا شيء هناك أفضل من ذلك لتنقية فكرك وتهدئة أعصابك . إنّما تذكّر أنّك يمكن أن تجري لتتخلّص من الدّموع ، لكن ليس من الظّلال . اقرأ الآن وداعي الأخير هذا إلى نهايته ، ثمّ ارتدِ ملابسك ، ضعْ عليك شيئًا محترمًا (ليس القميص البرتقاليّ) وبعدئذٍ اذهب فورًا إلى المفوّض غودمندر وزوجته سولرون . تركْتُ رسالةً لهما في الدّهليز ، خذْهَا لهما لكن أخبرهما أوّلًا بما حدث ، كن واضحًا وتجنّب الانفعال ، فهذا يحرمك من ضبط نفسك والحفاظ على كرامتك . سيعرف غودمندر وسولرون ما عليهما فعله ، يمكنك الوثوق بهما ، لكن عليك التأكد من أنّ الحبل الذي استخدمته سُيتلف . الاحتفاظ به أو استعماله لأيّ شيء آخر فألٌ سّيئ . فالظّلال تتشبّث به وربّما الموت .

أنا ذاهب الآن للقاء أمّك . ما عرفت في حياتي قطّ شخصًا أروع منها ؛ استحقّت ما هو أكثر بكثير ، لكن ما من أحدٍ يستطيعُ الوقوف في وجه جبروت القدر . قبل لقائها يجب أن أذعِنَ للعقاب على تخاذلي . سأحاول قبول الحكم عليّ بأسلوبٍ محترم . لا أدري ما سيكون عقابي أو كم سيدوم ؛ يومًا واحدًا ، أو ألف سنةٍ؟ خطر في ذهني أن أقود السّيّارة جنونًا لأسأل القسّ يوهانس عن

هذا ، إذ لا يمكن أن تُناقش أمور كهذه عبر الهاتف ، لكن فاتَ وقتُ الذّهاب إلى أي مكان . اتّخذْتُ قراري . وفي الأحوال جميعها سأكتشف قريبًا . كن قويًا ، وكُن أفضل منّي .

أبوك ، هانز يوناسن

قرأ يوناس الرّسالة بتأنٍّ ، تلمَّس خفايا كلَّ كلمةٍ مثل شخص يتحسّس معلمًا ما في الظَّلام أو الضّباب القاتم ، قرأ قصيدة «هالغريمر» عدَّة مرّات ، توقّف مدة طويلة عند جملةِ «أغنية طير واحد حلوة» ، شعر بالدّفء يتدفّق منها ، ثمَّ وقف ، فتح باب غرفته الواقعة في مؤخّر البيت ، وواجه الرّواق ، واجه نفقًا بطول ألف كيلومتر ، غرفة الطّعام تبعدُ عنه مسافةً هائلةً وإلى أحد جدرانها رفّ الكتب العالي . استغرق اجتيازُ الطّريق كلّه من يوناس نصف حياته .

بعد ساعةٍ غادر يوناس البيت ليذهب إلى غودمندر وسولرون . كان قد شاهد أباه متدلّيًا من الحبل ، رأسه مائل إلى الجانب ، وقف هناك ببيجامته الحمراء والبول الدّافئ يجري بينَ ساقيه الهزيلتين نزولًا إلى سجّادة غرفة الجلوس المنقّطة ذات اللون الفاتح . ما كان هانز سيتقبّل أيًا من هذا برحابة صدر ، لا من البول ولا من البيجامة الحمراء ؛ لا تحتاج الآن إلّا إلى دبدوبك ، قال هانز مرَّةً ليوناس لمّا رأى ابنه بهذه البيجامة الحمراء للمرّةِ الأولى . حاول يوناس تجفيفَ البول عن السّجّادة ومسح اللطخة ، حضَّرَ القهوة ، أكلَ شريحةَ خبزٍ مدهونةٍ بلحم الخروف ، ابتلع كوبين من الحليب ، شرب فنجان قهوةٍ واحد ، ووضع فنجان قهوةٍ آخر في غرفة الجلوس ، ذهب إلى الحمّام ، بلّل قماشةً قطنيّةً ، لفّها حول قطعة صابون ونظّف أعضاءَه التّناسلية وساقيه ، جلس فترة من الوقت على

حافَّة حوض الاستحمام وحدَّق في السّقف ، ثم قام ، حلق ذقنَهُ بشفرة حلاقة هانز ، ارتدى ثيابَهُ ، لكن ليس القميص البرتقاليّ ، عاد إلى غرفة الجلوس ، نظر مدَّةً طويلة إلى أبيه المتدلّي من السقف فوق أرضية الغرفة ثقيلًا وبلا حياة ، مثل شمسٍ انطوت على نفسها وتحوَّلَتْ إلى صخرةٍ مظلمَةٍ .

3

نحن نُدفنُ هنا وهناك ، أينما اتفق ، بطريقةٍ عشوائيَّةٍ نوعًا ما ، في محيط المنطقة الرّيفيَّة ، تتذكّرون طبعًا بأنّه ليست لدينا باحة كنيسة هنا ، ولم يسبق أنْ كانَتْ هناك واحدةٌ في أي يوم ، ومن غير المؤكّد أين يمكن أن ينتهي بنا المطاف ، هذا يعتمد على أي قسّ يتسنى لنا العثور عليه . الأسوأ من كل شيء ، أن يموت المرءُ في منتصف فصل الصّيف ، لا يعودُ سبب ذلكَ إلى تغريد الطّيور وانتشار الضوء ، إنّما لأنه يصادفُ وقت حصاد التّبن ، فالقساوسةُ هم مزارعون أيضًا ، ويجب أن يهتمّوا بأعمال الزّراعة إضافة إلى تعهّد أبرشيّاتهم ؛ هم في الواقع لا يحبُّون تفويت الأيّام الجافّة الجيّدة بسبب الموتى من القرويين . غير أنَّ هانز غادر عالمَ الظّلالِ والضّوء هذا في أوائل الشّتاء ، عندما غطّى الجليد كلَّ شيءٍ ، وغدت الأرض بيضاء كجناحَي ملاك ، والعثور على قسّ شكّل مشكلةً صغيرةً فحسب ، كان في وسع يوناس أن يتّجه شرقًا أو جنوبًا أو شمالًا ، إنّما ليس إلى الغرب حيث ينبسط البحر . اتّصل هاتفيا بالقسّ يوهانز في الرّيف الجنوبيّ ، طبعًا فعل ، فقد كان هو وهانز صديقَين قديمَين . حضر

إلى الجنازة العديد من النّاس . كان يومًا جميلًا ، السّماء سبيكة قصديرٍ مصقولةٌ ، الجبال في منتهى البياض بحيث تلاشَتْ في الأحلام . يومٌ جميل ، وجنازةٌ رائعة . ألقى القسّ يوهانز كلماتٍ تأبينٍ مؤثّرةً راثيًا فيها صديقه . الآن تبدّدت الظّلال من ذهنكَ ، اختفى ألمك ، وأنتَ مغمورٌ في كثير من الضّوء لا يمكن أن تصفه أي لغة دنيويّةٍ . ذلك الضّوء هو أيضًا العناية الإلهيّة بحدّ ذاتها . ذلك الضّوء هو الحياة الأبديّة . نحن الّذين هنا ونشعر بغيابكَ ، نعم ، نحن الّذين نواصلُ مسيرتنا في وميض الحياة الدّنيويّة الباهت ، نصلي كي لا يُحكمَ على خطيئتك بكثير من القسوةِ . ألمك كان هائلًا ، والظّلال قاتمة . علينا أن نثق بالرّحمة الأزلية . نعم يا صديقي ، ربّما الآن في هذه اللحظة بالذّات ، أنت مستلقٍ على منحدرٍ معشوشبٍ في دار الخلود ، تلتقط التّوت مع حبيبتك باورا ، ولسان حالك يقول : ما تخيّلت في يومٍ أنّ هناك شيئًا يمكن أن يكون بهذه الخضرة .

كان يوناس يجلس وحيدًا في صفّ المقاعد الأماميّ ، وحده ، بلا يدٍ يضغط عليها ، ظلامٌ من ناحية ، وظلامٌ من النّاحية الأخرى ، أحكم تشبّثه بالمقعد ليمنع نفسَه من التّهاوي في الفراغ . لكن حفلة التأبين كانت جميلةً ، كثيرٌ من الحضور واجهوا لحظاتٍ عصيبةً في كبح فيضانِ دموعهم ، وبعضهم عجزُوا عن كبحها ، ثمَّ انتهَتْ مراسمُ التأبين . هانز يوهانسن ، النّجار ، ولكن أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ الشُّرطيّ ، أُنزِلَ إلى الأرض الباردة ، وُرِي تحت الجليد ، جسدُه مفعمٌ بالكحول وأشعار «هالغريمر بترسون» ، قعقع التّراب على غطاءِ التّابوت ، وعمّات الرّجل العجائز بكيْنَ ، بكى رجلان متوسّطا العمر ، وكذلك ستُّ شابّات . على شكل قوارب التّجديف تُسبَك الدّموع ، والألم والحزن يجذبان المجاديفَ . أولئك الذين يبكون في الجنازات يبكون وليس بدرجة أقلّ

على موتهم ، وفي الوقت نفسه على نهاية العالم بأسره ، لأنَّ كلَّ شيءٍ يموتُ ، وفي النّهاية لا يبقى أيّ شيء .

4

مضى ما يقارب عشر سنوات منذ أن وُري هانز في ظلام الأرض ، عشرُ سنوات لا تُعدّ وقتًا طويلًا ، هي مجرّدُ فكرةٍ واحدة ، ردُّ فعلٍ واحد ، مع ذلك يمكن أنْ يقومَ العالم بقفزةٍ هائلة في فترةٍ أقلّ ، يمكن أن يتغيَّر المناخ ، يمكن أنْ تستقرَّ أنواعٌ جديدة من الطّيور في بلدٍ ما ، وأن تصلَ إحدى الإمبراطوريات إلى حافَّة الاندثار . نعم صحيح ، يمكن أنْ يهتزّ العالم في حين نحن جالسون إلى طاولة المطبخ .

بعد فترةٍ قصيرةٍ من موت هانز ، فقدْنَا مديرَ تعاونيَّتنا ؛ بيرغفين ، الرجل الّذي رافقنا على مدى ثلاثين سنةً . كان قد مضى على بيرغفين زمنٌ طويلٌ منذ أن أصبح واحدًا مع الجبال المحيطة بنا ، كان في الثّمانينات من عمره تقريبًا ، بشرتُه رماديَّةٌ شاحبةٌ ، ظهره منحنٍ ، استُهلكت طاقتُه كلّها وتركيزُه في التّنفس وطرف عينيه . خلال السّنتَين الأخيرتَين الماضيتَين ، كان على ثورغريمر ، رئيس العمّال في المستودع أنْ يحملَ بيرغفين إلى الطّابق العلويّ في التّعاونيَّة كلَّ صباح ، ثم يعود ويحمله نزولًا في نهاية اليوم . كانت السَّلالم مثل جبال هملايا بالنّسبة إلى قدمَي بيرغفين الكليلتَين . جلس طوالَ النَّهار إلى مكتبه ، يداه بلا حراكٍ على سطح المكتب ، يرمشُ عينيه بحذرٍ جدّ بالغ حتَّى لا يحمّل قلبه الضعيف ما يفوق طاقته ، في حين نَما شعر أذنَيه بسرعةٍ لا تُصدّق ،

وفي النّهاية ملأ أذنَيه كليًا ، بدا ذلك كما لو أنَّ قزمَين كثيفي الشّعر حُشِرا فيهما . لسنتَين ، اضطرَّ ثورغريم إلى حمل بيرغفين صعودًا ونزولًا مستنشقًا رائحتَه التي بدَتْ أشبه برائحة شظيَّةِ خشبٍ رطبةٍ ونتنة ، وطوال تلك الفترة دارَتْ عجلة التّعاونيَّة الضّخمة كما لو أنَّها تدور من تلقاء نفسها . لكنَّ كلَّ شيءٍ يتلاشى في النّهاية ، كما يُقال في مكانٍ ما ، وهذه الكلمات ناسبَتْ بيرغفين الهَرم جيّدًا ؛ إذ حدث ما حدَثَ في نهاية يوم عملٍ .

بعنايةٍ ، حمل ثورغريم شظيَّةَ الخشَب القديمةَ المتعفنة ونزل بها على السّلالم ، محاولًا حبسَ أنفاسه في الوقت نفسه ، ثمَّ بمجرَّد أنْ خطَا نحو الخارج ، هبَّتْ عاصفة هوجاء من المنطقَة الشّماليَّة الشّرقيَّة ، محمّلةً برياحٍ عاتيةٍ انتزعَت الهَرم بيرغفين من بين ذراعَي رئيس العمَّال وطيّرته على طول مبنى التّعاونيَّة ، ثم عبر موقف السّيّارات وبعيدًا فوق الأرض البور المحيطة بالمنطقة . هناك تأرجَحَ ، على علوّ بضعة أمتارٍ فوق الأرض مثل ورقة شجرٍ عملاقةٍ ، إلى أن تفككتْ عظامُه البالية وفقدت قدرتها على التّماسك معًا ، وبيرغفين الهَرم مدير التّعاونيَّة لثلاثين سنةً ، وعمودٌ من أعمدة المنطقة ، تمزّق أشلاءً وتبعثر فوق الأرض البور . باستثناء ثورغريم الذي ما انفكّ يشخر بازدراء كلما أتى أحد على ذكر الحادثة في حضوره ، كان هناك شاهدان غيره ؛ بنتان في السّنة الرابعة من عمرهما . وقد وصفتا ما جرى في البيت ، كلُّ واحدةٍ منهما بأسلوبها الخاصّ لكنَّه متوافقٌ جوهريًا : نفخَت الرّيح على الرَّجل المسنّ وقذفته في الهواء ، بعيدًا بعيدًا جدًا إلى حيث توجد بُسط الأعشاب ، والكلب أنوذري تبعَه وهو يعوي بجنونٍ ، ثمَّ بعدئذٍ تمزَّقَ الرّجل إلى أشلاء ، انفجر وأصبح طعامًا للطّيور ، لكنَّ أنوذري فرّ لا يلوي على شيءٍ لأنَّه كان خائفًا كثيرًا .

طعام طيور ، وأنوذري اللائذ بالفرار ، على هذَين التّعليقَين تعيش القصَّة وترفضُ أنْ تموتَ .

كان أنوذري أحد كلاب البلدة هنا . مخلوقٌ ظريفٌ وودود ، أسود الفراء بصدرٍ أبيضَ ، محبوب من الجميع ، طبعًا كان سيجري وهو ينبحُ وراء مدير التّعاونيَّة ، معتبرًا ذلك أشبه بلعبة ، أو لعلَّ القدَر في الحقيقة يتسلى بالعبث معه ، ويمكن أن يكون عبثًا مؤذيًا ، لكن عندما تمزّقَ بيرغفين إلى أشلاء ، أطلق أنوذري قوائمَهُ في اتّجاه الشّرق ، وهو يئنُّ ؛ ثمَّ في وقتٍ متأخّرٍ من ذلك المساء ، والمخلوق المسكين ما زال يجري بأقصى سرعة ممكنة ، دهسَهُ مزارعٌ ، على بعد خمسين مترًا من هنا .

بعد أسابيع قليلةٍ ، جاءنا مديرُ تعاونيَّةٍ جديدٌ - ولم يكن مجرّد شخصٍ عاديّ ، بل لا أحد سوى فينور آسغريمسون الذي نجحنا في جذبه إلينا أخيرًا! كما ستتذكرون حتمًا اجتماع عضوي البرلمان الذي أسفرت نتيجته عن إنشاء مؤسسة النّسيج . كان فينور قد أنهى مؤخّرًا مسيرتَه المديدة والبارزة بصفته عضوًا في البرلمان ، وكذلك احتلّ في أغلب الأحيان مقاعد وزاريَّة . عرفنا وجهَه جيّدًا من الصّحف والتّلفزيون ، وصوته من المذياع ، رجلٌ قام بدور مهمٌّ في تشكيل مجتمعنا ، وتميّز بتأثيره على أمور كبيرة وصّغيرة هنا ، بما في ذلك حياتنا اليوميّة ، والآن كما لو أن لا شيء طبيعيًا أكثر من ذلك ، أصبح هنا في بلدتنا . وما عليكم إلّا أن تتخيلوا حماستَنا! لسوء الحظّ رفض فينور أيَّ منصبٍ عرضه عليه المجلس ، لكنَّه وافق على أن يكون راعيًا لجمعيَّة الشّبّان ، وأن يلقي خطابًا في 17 حزيران : يوم أيسلندا الوطنيّ ، وأن يكتب عمودًا قصيرًا في صحيفةِ المنطقة الرَّسميّة التي تصدر عشر مرّات في السّنة . تكيّف بسرعةٍ مع مهمَّة إدارة التّعاونيَّة ، أمَّا المحاسبةُ وكلُّ الأمور المتعلّقة بنموذجيَّة الطّابق

الأرضيّ ، فكانت طبعًا بيدي سيغريذور ، وقال فينور إنَّ بيرغفين المسنّ اتَّخذ القرارات الصّائبةَ من البداية إلى النّهاية ، كما هو متوقّع منه . وهذا أدّى بنا إلى التّوقف قليلًا للتّفكير في ما قاله .

بعد أن انتهى فينور من استكشاف التّعاونيّة وبارك عمليّاتها ، قضىَ بضعة أيّام وهو يطوف في أنحاء البلدة ، يصافح النّاس ويدردش معهم . أظهر قدرًا لا بأس به من الاهتمام بحكاية الفلكيّ ، وثمَّة من رافقه إلى البيت الأسود ، بيد أنَّ الفلكيَّ لم يفتح الباب ، مهما كثر القرعُ على بابه أو تتابع رنين الجرسُ . لكنَّ فينور لم يكن أقلّ افتتانًا بهيلغا وعملها ؛ دعته إلى زيارتها متى أراد ، نهارًا أو ليلًا – وهذا جعل فينور يتلوّى كما لو أنَّ أحدًا دغدغه . في نهاية المطاف زار فينور مرآب المفوَّض وزوجته حيث كان يوناس جالسًا مرتديًا زيّ الشرطة الرّسمي .

5

تسلك مصائر الناس دروبًا غريبة – هذا إذا تقبّلنا فكرة أنَّ لها وجودًا ، أنَّ وجودَنا ليس مرهونًا بسلطةِ الصّدفة الفظيعة . ينهار هانز رازخًا تحت وطأةِ ثقل الظَّلام ، تصطادُه الظّلال ، يشنقُ نفسه ، يتركُ رسالةً لابنه وأخرى إلى غودمندر وسولرون ، وفيها يطلبُ من صديقَيه أنْ يسعيَا إلى منح يوناس وظيفةَ شرطيّ دائمةً : «أعتقدُ أنَّها الطّريقة الوحيدة لحثّه على التّحلي بالرّجولة . سيكون تدريبُه صعبًا ، لكنْ هذه هي الحياة ؛ عظامُه تمتلك القدرةَ على التّحمل ، تحت وداعته تكمن قوّةٌ غير متوقّعةٍ وغامضة .» من المرجح أنَّ هانز وحدَه لديه وجهة النّظر هذه ، وهي في

أحسن الأحوال ، لا تعدو كونَها منافيةً للعقل ، لا تعدو كونها مجرّد أمنيات . بطبيعة الحال قالَتْ سولرون لا ، إطلاقًا ؛ لا مجال . والمفوّض وافق معها ، إنّما بتردّدٍ ، فالأشياء التي تفوق بأهميتها أهمية آخر أمنيات صديق ميت قليلة جدًا . ما رجّح كفّة الميزان كانَ اندفاع يوناس المفاجئ ؛ أراد الحصول على المنصب ، لعلّه كان في حالة ذهول ، في حالة صدمةٍ من انتحار أبيه ، أو لعلّه شعر بالمسؤوليّة ، وهذا بصراحة كان مُستبَعدًا ، بيد أنَّ العقل البشريَّ يتّجهُ إلى طرق دروبٍ ليست أقلّ غرابةً من تلك التي يسلكها مصيره المقدّر له . بسبب هذا التّصميم الصّاعق لم تمرّ سوى أسابيع قليلة إلّا وكان يلبس الزّيّ الأسود ، شاحبًا وهزيلًا ، كما لو أنّه تائهٌ في عتمة اللّيل . حوّلت سولرون المرآب إلى مركز شرطةٍ مؤقّت ، مانحةً يوناس نذرًا ، ولو يسيرًا ، من الأمان في أدنى الأحوال . أُضيفَتْ إلى المرآب منضدةٌ ، خزانةُ ملفّات ، حاسوبٌ ، وأزهار . طُليت حيطان المرآب بألوانٍ هادئة ، وعلّقت سولرون ملصقًا يُظهر الطّيور المحليّة . غير أنَّ أمنيةَ هانز الحاسمة والقاسية والخالية من المنطق لن تلبث أن تسفر عن عواقبَ وخيمةً ، أو كما يُقال : يشنقُ رجلٌ نفسه فيتغيَّر العالم .

شغل يوناس المنصب وحدَه لسنةٍ . حاول معظمُنا أن يجعل فترات النّهار تمرّ بيسر بالنسبة إليه ، كي يكون في وسعه أن يتحمّلها . لكنّنا لم نأخذ على عاتقنَا أيّ مسؤوليّةٍ بخصوص الليالي ، ولن نفعل أبدًا . الليالي غير قابلةٍ للمساءلة . ففيها قد يزداد طولنا بضعةُ سنتمترات ، أو ينقص أربعةَ عشرَ سنتمترًا ، والعيون البُنيّة قد تصبح صفراء . ويمكن أن يهاجم فأرٌ قطّة ، ويتحوّل كلبٌ إلى طائر شنقب ، ونحن قد ننزع إلى تقبيل شفاه يجب ألّا نقبّلها مطلقًا . نصحت سولرون يوناس أن يسبحَ في البحر ، هذا يقوّيك ، يجعلُك أصلب ، يمنحك ثقةً بالنّفس ،

يكسبك احترام الأنذال الذين يوجدون بكثرةٍ في عالمنا ، صدّقني ، ربَّما ليس في النّهار ، لكنَّ الليل يجلبُ أشياء عديدةً لسْنَا على وعي بها في النّهار . اكتفَى بالابتسام ، وذاك كان الجواب الوحيد الذي استطاعَ استقطابه ، والحياء وعدم الشّعور بالأمان ما زالا يشلّانه كلما وجد نفسه في حضرة مديرة مدرسَته السّابقة . تقترب سولرون من الأربعين ، لديها هي وزوجُها المفوّض طفلان ، سولرون طويلةٌ ، أطول من يوناس ، بشعرٍ أحمر طويل إلى حدّ ما ، ترفعُه عادةً على شكل كعكةٍ تشبه قبضةً مكوّرةً ، درسَت الفلسفة في الجامعة ، ذكيّة جدًا لدرجة أننا لا نملك دائمًا الجرأة على التّحدّث إليها ، وتسبح في البحر مرّتين في الأسبوع ، في أي جوّ . سولرون جسيمة البدن ، مثل فقمةٍ أو حوريَّة بحر ، تنزلق في البحر الذي يكون أحيانًا باردًا كبرودة الموت ، والجلدُ بين أصابع قدمَيها مثل شريطِ التّنجيد . توغلُ في السّباحة بعيدًا ، وتبدو مثل شعلةِ لهبٍ وسط الأمواج ، والمفوّض لا يجرؤ على مراقبتها ، لكن نحنُ نفعل ، نلاحقها من البداية إلى النهاية بوساطة المناظير ، منذ أن تخرج من السّيارة ، تخلعُ معطفَها ، تمشي قدمًا بلباسِ السّباحة الأزرقِ كزرقةِ السّماء ، ترفعُ ببطءٍ ذراعَيها ، تحلّ عقدةَ شعرها ، فينسدل الشعرُ ويتنهّد الرّجال . في بعض الأوقات تغوص إلى قاع البحر ، وهو عالمٌ مختلف كليًا ، يشبهُ بلوغ المرء أعماق أحلامه ، ورؤية الدّنيا من خلال عيون السّمك والقواقع . لا يأخذ يوناس بنصيحتها ، إضافةً إلى أنَّه بطبيعة الحال قد تغرقُه أوَّلُ موجةٍ ، وصقيعُ الماء قد يشلّه ، ولن يعتقَهُ قاعُ البحر . في المقابل ، أظهر يوناس حرصًا على القدوم في تمام السّاعة الثّامنة خمسة أيَّام في الأسبوع ، يشغّل مصباح منضدته ، يقرأ كتبًا عن الطّبيعة ، يقرأ مخطوطَته عن الطّيور البريَّة التي يراجعها باستمرار ، يعيدُ ترتيبها ، يضيفُ معلوماتٍ إليها ، يعيدُ

كتابة فصولٍ لأنَّ الطّبيعة متغيّرة دائمًا ، لا تتوقّف عن فعل ذلك أبدًا . ما بين تارة وأخرى يرنّ جرس الهاتف ، مباغتًا يوناس ، مزارعٌ يشتكي من خرافِ جاره ، بعضُ الأطفال لطّخوا حائطًا بالرّسومات ، هناك لوحُ نافذةٍ مكسور ، سيَّارة مبعوجة ، روث حصان في وسط الطَّريق ، فالأشياءُ تحدث ، على الرّغم من أنَّ العديد منّا ما زالُوا يحاولون حمايَته ، قُدْنَا سيَّاراتنا بمزيدٍ من التّنبه ، تعاملْنَا بطريقةٍ أفضل مع شغبِ الثّمالة ليلًا ، أصبحْنَا أسرع في إرداء الكلاب ودفنها بلا ضجّة لا داعي لها ، لكنَّ بعضَ الأمور لا يمكن الحؤولُ دونَها . اللّيل طويلٌ وحالك الظّلمة ، يحرمنا من بصيرتنا - وأحيانًا لا يكون العالم لطيفًا ولا مثقال ذرّةٍ .

6

في وقتٍ ما ، يجدر بكم أن تأتوا إلى حفلات الرَّقص هُنَا في المركز الاجتماعيّ ، فنحن نتطلّع بشوق كبير إليها ، لأنَّها تمدّنا بشرارة حياةٍ . تفوح البلدة برائحة مستحضرات ما بعد الحلاقة ، والعطور ، ومثبّتات الشّعر ، هذه الحفلات نعمةٌ من الرّب خلال فصول الشّتاء التي يمكن أن تكون طويلةً جدًا وفي منتهى الهمود ، ما من جديدٍ فيها إلّا القليل ، نهبّ واقفين على أقدامنا كلّما مرّت طائرةٌ فوقنا . حفلاتُ الرّقص مناسباتٌ رئيسةٌ هنا ، ترسِلُ لجنةُ المركز الاجتماعيّ جدول برنامج الشّتاء في أوائل شهر أيلول ، ونحوِّطُ تواريخ أيَّام الرّقص بدوائرَ حمراء ، نرتّب الأمور مع حاضنات الأطفال في الوقت المناسب ، نقصدُ متجر بيع الكحول قبل بضعة أيَّام ، نكوي ملابسنا يوم الخميس ، نتململُ بقلق يوم الجمعة ،

ويمضي نهار يوم السّبت في الانتظار . عندما يحلّ المساء ، نكون في قمة الابتهاج لدرجة أنّنا نعجزُ عن ضبط أنفسنا أكثر ممّا فعلْنَا ونزعقُ جذلًا يجلسُ يوناس في سيَّارة الشّرطة خارج المركز الاجتماعيّ ، كما تقتضي التّقاليدُ وهو يتصبّب عرقًا باردًا ، قلقه كأزيزٍ في داخله لا ينفكّ يتزايد صخبًا طوالَ الأسبوع ، يستمع إلى الصّياح والصّراخ اللّذين يحوِّلان البلدةَ إلى مستشفى للمجانين . في إحدى المرّات اضطررْنَا إلى تحرير يوناس من أرجوحةٍ خارج المدرسة ، بعد أنْ مضَتْ عليه ساعتان على الأقلّ وهو مقيّد إليها ، نظرًا إلى كميَّة الثّلج المتكوّمة عليه ، هذا إضافة إلى اختفاءِ سيَّارة الشّرطة التي يقودُها ، عثرْنَا عليها في اليوم التّالي إلى جانب بيتٍ ريفيّ مهجور خارج البلدة . كان الجناةُ قد تغوّطوا على مقعد السّائق وتبوّلوا على لوحة العدّادات ، النّاس ليسُوا دائمًا لطفاء ؛ هم أحيانًا في غاية السّوء . في إحدى ليالي الصّيف انتُزِع يوناس من سيّارته ، في حين كانت فرقة «روح يون الغالي» تعزف في قاعة الرّقص ، كانَتْ ليلةً ناضحةً بالعرق ، قيّده ثلاثةُ أشخاص بشبكة أحد أعمدة كرة اليد خارج المدرسة ، أنت ذبابةٌ ، برّروا له ببرودٍ ، ثمَّ أشاروا إلى امرأتين وأضافوا ، وهما عنكبوتان . ليلة طائشة حتمًا ، لكنَّها مضيئةٌ جدًا . ولياليِ الصّيف المضيئة تطلق العنان لبعض التّصرفات المعيّنة ؛ قامت العنكبوتان بتقطيع زيّ يوناس الرّسمي بسكّين جيبٍ حادّة ، ونزعتاه عنه . لا تتلّوى هكذا ، وإلّا سنؤذيك عن غير قصد ، قالتا له ، وهما تتنهدان بعمق عندما شاهدَتا كم هي بشرته ناصعة البياض تحت زيّه الرّسمي الأسود . كم يبلغ كبر حجم عضوِه ، استفسر أحدُ الشّبان وهو يمطّ رقبته ليرى جيّدًا ، تعني كم هو صغير الحجم ، ردّ آخر ضاحكًا . حشرت إحدى المرأتين السّكين تحت لباسه الدّاخلي ، لم يصدر يوناس

أيّ صوت ، بعض فصائلِ الحيوانات لا تقوم أبدًا بأي ردّ فعلٍ أمام العدوان ، وتلك وسيلة دفاعها .

هم لم يفعلوا هذا بك أنت شخصيًا ، بل فعلوه لزيّ الشّرطة الرسمي ، قالت له سولرون وهي تحرّره من الشّبكة ، لكن أخبرني من هم على أيّ حال ، وسأجعل الأرض تحترق تحت أقدامهم . هزّ يوناس رأسه ، لم يقلْ شيئًا ، ولم يحتجْ إلى ذلك في نهاية المطاف . امرأةٌ في الثّلاثين من العمر ، من البلدة هنا ، اعترفَتْ بكلّ شيءٍ قبل أنْ ينبثق نهار يوم جديد من ضوء اللّيل . أقرّتْ بالأسماء كلّها ، بما فيها اسمها . شعورها بالذّنب بدأ يطلّ برأسه ويؤرقها بعد أنْ أفاقَتْ من السُّكر ، بل حتّى بعثَتْ رسالةً إلى يوناس معترفةً بشدّةِ ما اعتراها من خجل ، وكم هي آسفة بمرارةٍ على تصرّفاتها .

لكن ما اجتُرح قد اجتُرِح ، ولا يمكن إلغاؤه ، إنّه يغيّر طبيعة المرء الدّاخليّة بطريقة تكون فيها الكلماتُ بلا فائدةٍ تُذكر . كمنَ يوناس في المرآب ، قرأ كتبًا عن عالم الحيوان ، رسمَ طيورًا ، ارتعشَ رهبةً كلّما رنّ جرس الهاتف ، في بعض الأحيان أغمضَ عينيه ، غير راغب مطلقًا في فتحهما ثانيةً . عندما يتعلّق الأمر بيوناس ، لدينا كلّنا تقريبًا ما يثقلُ كاهل ضمائرِنَا ، من غير أنْ ندركَ ذلك ، إذ بدأْنا نرى أنَّ إغاظته في مناسبات حفلات الرّقص جزءٌ من المرح ، وكما سبقَ أنْ قلْنَا ، نحن لا نتحمَّل أيَّ مسؤوليَّة في اللّيل ، غير أنَّ حادثةَ شبكةِ كرة اليد روّعَتْنَا ، وهناك استحالةٌ في إلقاء ملامة ما جرى على اللّيل . ولعلّنا في محاولةٍ منّا لتبرئَة أنفسنا جررنا إينزي ، مبتكر محرّك الحفّارة الدّقيق ومُبيد الحشرات ، والذي هو بكلِّ أمانةٍ بيضةٌ فاسدة حقيقيَّة ، جررناه خارج بيته ومزّقْنَا ثيابه . في البداية فكّرنا أنْ نرحّله إلى سيليا الذي يربّي

العجول في الصّيف ، ونجعل أحدها يمصّ قضيب إينزي ، إلّا أنّنا جَبُنّا وتراجعنا عن فعل ذلك ، ثم استقرّ قرارُنا على طليه بدهانٍ أحمر ، من أصابع قدميه إلى أطراف شعر رأسه ، نعم ، هيّا ازعقْ ، قلْنَا له . وقامَ ثورغريمر بزيارةِ الجانيين الآخرين ، كانا شابَّين في العشرين من العمر ، فعل ذلك باكرًا جدًّا في الصَّباح ، بحيث لم يكن هناك مجالٌ لهما للتمييز بين ما هو حلم وما هو واقع ، زجّهما في سيَّارته الجيب ، قاد بهما إلى قمة أعلى مرج ، دفعهما خارج السّيارة وقال ، درسُ ملاكمةٍ سريع ، كوِّرا قبضاتكما ودافِعا عن نفسيكما ، ثمَّ عاد إلى سيَّارة الجيب وتركهما يمشيان عائدَين إلى بيتهما . مسيرةَ سبع ساعات ، سيخفّف المطر من كدماتكما ورضوضكما المؤلمة ، قال من نافذة السَّيَّارة المفتوحَة ، وقد أمطرَت السّماء فعلًا ، امتزجت السماء بالأرض واتحدتا معًا . وفي حين انهال عليهما المطر ، وقفَتْ غريتا العنكبوتُ الثّانية أمام رئيستها سيغريذور ، ولكانَت فضَّلَت قبضتَي ثورغريمر القاسيتين ، ومطر العالم كلّه على التَّوبيخ الذي وجهته لها سيغريذور . من ناحيةٍ أخرى يمكن أن تكون السباحة والمطر ينهمر لطيفة جدًّا ، لأنَّ المرء حينذاك لا يكون متأكّدًا تمامًا ما إذا هو طير أو سمكة . سبحَتْ سولرون في البحر ، غاصَتْ نزولًا إلى السّكينة المتراصّة ، فكّرت في يوناس ، ثمَّ فكّرت في ثورغريمر .

7

أيّ شعورٍ لعين بالفخر اعترانا بعد أن انضمَّ إلينا هنا في البلدة شخصٌ بشهرة فينور آسغريمسون ، بدا ذلك كما لو أنَّ الرّب سمح لشرارة أملٍ أن

تسقط علينا من السّماء . تعرفون كيف هو فينور : تلك الحركات الوئيدة التي تكاد تشبه قليلًا ما يبدو كما لو أنَّ المرء يخوض طريقه خلال الثّلج المتراكم . هو متوسّط الحجم ، ممتلئ لكنه ليس بدينًا ، وجهه جهم وريّان وخال من التّعابير نهائيًا ، نظرته الجوفاء تلك لطالما كانت علامته المميّزة وعملت لصالحِه في السّياسة ، برهنَتْ على التّصميم ورباطة الجأش . جاءَ إلينا والسّلام في قلبه ، مقتنعًا بأمجاده ، بكونه جزءًا مهمًا من التّاريخ ، بكونه أحدثَ فرقًا ، فالشّمس قد أشرقَتْ عليه ، أما نحن فبقينا نعيش في شبه ضوء روتين حياتنا اليوميَّة ، قراراتُنا قد تحرِّكُ الحصى ربما ، إنَّما ليس الصّخور ، ناهيك عن الجبال . وبسبب هذا كلّه ، ارتدينا أفضلَ ملابس أيَّام الأحد حينما جاء فينور إلى البلدة . خبزَتْ جمعيَّةُ النّساء الكعك المحشوّ بالكريما النّخينة البيضاء المائلة إلى الصُّفرة مع فاكهةٍ معلّبة متنوّعةٍ ، كانت هناك شطائر كعك ، ومخبوزاتٌ مقلّمة ، وكريَّاتُ فطائر الزّبيب المحلاة . رزحت المائدة في المركز الاجتماعيّ تحت ثقل هذه الأطايب كلّها ، وسال لعابُنا ، فهذا الآن ما يمكن أن يطلقُ عليه اسمُ العيد . كوَيْنَا ربطات أعناقنا وأثوابنا ، ألقى المفوّض خطابًا ، وكذلك فعل رئيس نادي الرّوتاري وحزب المنطقة التّقدميّ . ورئيسَة جمعيَّة النّساء ألقت هي أيضًا خطابًا ، هلّلنا صحنا مرحى وابتسم فينور . وقفَ هُناكَ بيننا وشعرْنا كأننا في حكايةٍ خياليَّةٍ ، كما لو أنَّ نقطة مجتمع البلاد المركزية قد انتقلت إلى بلدتنا ، شعرنا أنَّنا كنّا مهمين . وما ازداد اشتعال الجوّ الاحتفاليّ حماسةً إلّا بعد أنْ أعلن فينور عن عزمه على كتابة مذكّراته إلى جانب إدارة التّعاونيَّة ، عن تدوين ذكرياته على الورق ؛ هلّلنا مرَّةً أخرى ، عدَّلنا ربطات أعناقنا ، سوَّينا أثوابنا وغنّينا النشيد الوطني «أيسلندا منحوتةٌ بالخلجان» ، فعاد فينور إلى المنصّة

وقال ، لقد تأثّرْت - غناؤُكم الجميلُ الحيويّ سيتردَّد صداه حتمًا في سيرتي الذّاتيَّة .

ألمْ تغيِّر السّماء لونها ، ألم تبدّلِ الجبال وقفتها من قدمٍ إلى أخرى عندما بدأ فينور يتصارعُ مع مذكّراته؟ الجملة الأولى جاءَتْ بسرعةٍ وبثقةٍ : «كنت في الحادية والثّلاثين من العمر عندما التحقْتُ بالبرلمان ،» وضع فينور فاصلةً بعد كلمة «البرلمان» ، وليس نقطة ، ثمَّ مدّ يده إلى ورقةً أخرى وكتب عليها العنوان بخطٍّ كبير : الأعوام التي شكّلت فرقًا . رجع بظهره إلى الوراء ، مرَّر يدَه على سطح المنضدة الثّقيلة الدَّاكنة ، تلفَّتَ ينظرُ إلى المكتب الفسيح من حوله ، ابتسم لأنَّه توصَّل إلى النّغمة الصّحيحة ، ونحن تحرَّكنا في البلدة بهدوء أكثر من المعتاد لئلّا نبلبل تسلسل أفكاره . «كنْتُ في الحادية والثّلاثين من العمر» ، كتب فينور بقلم الحبر السّائل ، لأنَّ الحبرَ سميكٌ ، هو مثل الليل الذي ينشر عباءته على العالم . «كنْتُ في الحادية والثّلاثين ،» مِرفقاه على المنضدة الخشبيَّة الثّقيلة ، إلى يساره كومةٌ من خمسمئة ورقةٍ بيضاء فارغة ، لأنَّ هذا ما يفترض أنْ يكون عليه حجم الكتاب . عجيب كم هي قصيرة حياة المرء . على يمين المنضدة ثلاثة ملفّاتٍ سميكة مكتظّة بقصاصات صحف ، رسائل ، خطابات قديمة ، وصور . «كنت في الحادية والثّلاثين ،» تنهّد فينور ووضع القلم جانبًا . واحد وثلاثون والآن ثمانية وستون ، يقوم الزّمن بخطواتٍ جدّ واسعة . نظر إلى الورقة أمامه ، إلى شبه الجملة التي كانَتْ مثل غيمة مطرٍ في أعلى الصّفحة ، مُثقلة بالذّكريات ، مُثقلة بالسّنوات السبعة والثّلاثين ، حياة رجل ، فكّر فينور ، عاد ورجع بظهره إلى الوراء ، ومرَّت الأسابيع . توسّع القمر ، تقلّص القمر . ضوء القمر

أبيض ، وفي بعض الأحيان شفّاف ، وهو يوقدُ الأفكار ، يوقدُ المشاعر التي نواجه صعوبةً في التّعامل معها ، بعضُنا يسدلون على أنفسهم ستائرَ من الظّلام حتى لا يفقدُون رؤوسهم ، وآخرون غيرهم يُنبِتون أجنحةً . لا كلمات انهمرَت من الغيمة التي جفّت شيئًا فشيئًا هناك عند رأس الورقة . والشّمس أشرقَت مرسلة شعاعها عبر النّافذة وبهتَ الحبر ، بهتَتْ حياة الرّجل .

اتّصل النّاشر هاتفيًا ، شابٌّ يلبس بنطلونًا جلديًا ، شعرُه أسود ، نحيل لكن يميلُ إلى اكتساب مزيدٍ من الكيلوغرامات بسهولةٍ ، يبدو وجهه أحيانًا مزيّتًا قليلًا . فينور الذي أراد أن يتواصل مع الشّباب ، مع حيويّتهم ، اختارَه من بين ناشرين آخرين . ادعُني يوني فقط ، كان الناشر قد قال له في لقائهما الأوّل ؛ أريدُ أن أنشر لأناسٍ مثلك يا فينور . نحنُ معًا تقع على عاتقنا مسؤوليات يجب أن ننجزُها ، مسؤوليتك تقتضي أن تروي ما يجري في الخفاء ، أن تروي عن دوران عجلة القدر ، والقرارات التي غيّرت حياةَ الأمّة ؛ ومسؤوليتي تقتضي أن أنشر قصّتك ، هيّئ سيرتك الذّاتيّة بدقّة وسلّمها إلى القرّاء . لكن تذكّر فقط يا فينور ، أنّه في هذا العمل ليسَتْ هناك إلّا قاعدةٌ واحدة ، أن تكون صريحًا تمامًا ، نزيهًا بما فيه الكفاية . يجبُ أن يكون الكتاب مهمًا ، يجب أن يؤثّر في النّاس . يجبُ عليك أن تحكي عن النّزاعات الّتي واجهْتها ، عن المعارك التي تخصّ القضايا الاجتماعيّة المعقّدة ، عن المعارضِين السّياسيّين ورفاق السّلاح ، وينبغي ألّا تتردّد أبدًا في البوح عن المصاعب الشّخصيّة ، حتى لو كانت بعيدة جدًا عن هدفنا الأساسي ، كتبٌ قليلة تبيعُ أفضل من كتبٍ فيها قدر لا بأس به من الأسى ، سأكون منافقًا لو قلتُ غير هذا . كلّنا واجهْنا سوءَ الحظّ ، فما الدّاعي للسّكوت عنه؟ وفينور ، يجب عليك أيضًا أن

تجلبَ القرّاء إلى سريرك الزّوجيّ ، عليكَ أن تذرف الدّموع ، وعليك أن تحتدم بالكراهيَّة وأنت تكتب . كن سخيًا ودافئًا وصادقًا . هذا هو ثالوث الكتب الجيّدة الذّهبي كلّها .

والآن ، عاد يوني الناشر واتصل به مجدّدًا .

ماذا يجري يا فينور؟

حياة الرّجل ، قال فينور .

نعم ، بالضَّبط ، لا شيء أصدق من هذا ، لكن أرسِلْ لي ما كتبْت ، لنقرّرْ معًا ما أفضل طريقة للمضيّ قدمًا . نعم ، حتمًا ، وافق فينور . ولا تهملْ أيّ شيءٍ يا فينور ، تذكّر الأمانَةَ ليست فضيلةً فقط ، بل تلقى رواجًا في بيع الكتب أيضًا . أوافق بالكامل! أجابَ فينور وهو يشعرُ بتفجّر حماسةٍ مفاجئ . بلا مماطلةٍ يا فينور ، نحن قادران على ذلك! نعم بلا مماطلةٍ! كرّر فينور ، وأنهى الاتّصال ، انتزع قلمَه ، الصّوت الذي حمله الهاتف عبر المروج والجبال جرف بعيدًا أيّ سُبات . «كنت في الحادية والثّلاثين من العمر عندما التحقْتُ بالبرلمان ، والسّنوات التي تلت أحدثت فرقًا .» أفضل بكثير ، قال فينور لنفسه بصوتٍ عالٍ ، ثمَّ فتح ملفَّ قصاصات الصّحف : هو يقف عند المنصّة ، هو يقحم مجرفةً في الأرض ، هو في البرلمان ، هو مع ضيوفٍ أجانب ، هو في مقابلة ، صورٌ له هو وعائلته ؛ أطفاله الثّلاثة وزوجته آنَّا التي توفِّيت قبل ثلاث سنوات ، نعم ، الحياة تأتي وتذهب . جلس فينور هناك إلى منضدته ، واسترجع في ذهنه الأشياء التي كانت مهمّةً ، تذكّر بضعة خطابات ولكن بالكاد المناسبات التي ألقاها فيها ، كتبَ ، والأيّام مرّت ، تكوّمت إلى أسابيع ، إلى شهور ، ونحن عشْنَا حياتَنا الكئيبة في حين وضع فينور سنواتِ حياته المجيدة على الورق . تحوّلَ الصَّيف إلى خريفٍ أصفرَ وأحمرَ ، أظلمت السَّماء ثمَّ

جاء الشّتاء . رفض يوناس بشكلٍ قاطع التّخلّي عن زيّه الرّسميّ الأسود ، مع أنَّ مكنسته بقيت تنتظره في معمل الألبان ، والجدران أيضًا انتظرته ليلونها . قصدَ المرآب في السّاعة الثّامنة تمامًا بحرصٍ دقيق ، جلسَ إلى منضدته ، نظر بعصبيَّةٍ إلى الهاتف . ذلك لم يكن جيّدًا ، لا بدّ من القيام بشيءٍ ما ، فكّرَتْ سولرون ، وهذا هو سببُ نزولها بسيَّارتها إلى الشّاطئ ، كما سبق أنْ قلْنَا .

ترجّلَتْ من السَّيَّارة ، تركَتْ معطفها ينزلقُ عن كتفَيها ، ارتعشَتْ ثلاثة أو أربعة مناظير قليلًا ، باشرَت السّباحة ، أصبحَتْ شعلةً مرفرفةً وسط الأمواج ، تحوّلَتْ إلى فقمةٍ وحوريَّة بحر ، غاصَتْ عشرة أمتار ، حيث الزّمن يمرّ أبطأ وأيّ أحد يلمسُ قاع البحر يرى كلَّ شيءٍ بعينَين جديدتَين .

بعد بضعة أيَّام ، إذا بثورغريمر رئيس العمّال في المستودع ، يقف في مكتب فينور .

كانَتْ قد مضَت شهور منذُ أن سمع فينور آخر مرّةٍ من النّاشر ، وشيئًا فشيئًا بهتَتْ حماستُه ، والسُّبات أرخى عليه ظلاله ، نظرَ إلى الهاتف ، فكّر ، أحتاجُ إلى الاتّصال بيوني . مع ذلك لم يتصل فينور بأحد ، والآن ها هو ثورغريمر يقفُ أمامه ، بكتفَيه العريضتَين ، وعينَيه البُنيَّتين اللتين نظرتا إلى العالم من على ارتفاع 190 سنتمترًا ، إحدى يديه تحكّ أنفه الضّخمَ باستمرار ، فهذا ما درج على فعله كلَّما اضطرَّ إلى الحديث عن نفسه أمام الآخرين . إذًا تريد أن تغادر المستودع؟ سأله فينور . نعم ، أرعدَ ثورغريمر ، فطبقةُ صوته الجهير في غاية القوَّة لدرجة أنَّ جفونَنَا ترتجف عندما يتنحنحُ ، هناك من يلحّ علي لأصبح موظَّف شُرطة ، أضاف ،

بالتّأكيد هذا ليس قرارًا سهلًا بالنّسبة لي . . . رفع فينور إصبعًا ، رجع بظهره إلى الوراء ، ضيّق عينيه الصّغيرتين اللوزيّتين . قرارات ، قال ، لا بدّ من أن أتّخذ قرارات - وليست قرارات تافهة أيضًا!

وقف ببطءٍ ، مضى إلى النّافذة وقال مخاطبًا النّهار في الخارج : عندما كنت وزيرًا .

لبث ثورغريمر ينتظره كي يكمل جملته ، بقليلٍ من الانفعال ، على الرّغم من يديه القويّتين وعينَيه اللتين على ارتفاع 180 سنتمترًا . فثورغريمر رجلٌ صبور ، وهكذا انتظر وقتًا طويلًا . تكتكت ساعة الحائط فوق الباب ، تقدّم العصر بتؤدةٍ نحو البلدة ، تدفّقَ الغسق عبر النّافذة جاعلًا كلَّ شيء في الغرفة أقلّ وضوحًا ، أكثر غموضًا . تنحنح ثورغريمر ثلاث مرّاتٍ خلال عددٍ مماثل من السّاعات ، غير أنَّ فينور لم ينظر قطّ إليه . طرف ثورغريمر بعينَيه ، لاقى صعوبةً في تمييز معالم فينور عندَ النّافذة حيث وقف . تراجع على أقلّ من مهله ، متلمّسًا مقبض الباب من خلفه ، فتح الباب بهدوءٍ ، نظر تُجاه النّافذة ، ضيّق جفنيه لكنَّه ما عاد يميِّز بين ما هو غسق وبين ما هو رجل ، أغلق الباب وراءه بتروٍّ .

8

بصعوبةٍ بزغَت الشّمس فوق الجبال إلى الشّرق ، وأضرمت لنا يومًا جديدًا . أطفأ الفلكيّ حاسوبَه ، أكلَ طبق عصيدةٍ وذهبَ للنّوم ، هبّت ريحٌ من الشّمال ، وكان الثلج يتساقط على قمم الجبال . لبسْنا جواربنا الصّوفيّة وجالت في رؤوسنا أفكارٌ عن المعجنات الدّانماركيّة الدّافئة ،

ومعاناتنا ، وإبريق القهوة . غادر ثورغريمر بيته وتوجه إلى حيث المفوّض وزوجته ، مسيرة عشر دقائق بالنّسبة إلى رجلٍ بمثل تلك الخطوات الواسعة . كان يرتدي زّيّ الشرطة الرّسميّ ، سدّ جسمه فرجة الباب وهو يدخل إلى المرآب . كان يوناس جالسًا إلى منضدَته ولم يدرِ أعليه أن يبتهجَ أم عليه أن يخاف . نظر أحدهما إلى الأخر مباشرةً ، غير أنّهما لم يتمكّنا من تبادل التّحيّة ، لأن سولرون وصلت في تلك اللحظة وهي تحمل قالب كعكٍ ، وزوجُها يرافقها وبيده أربعة صحون وسكّين تقطيعٍ . قصّ لثورغريمر قطعةً وقال ، أنتمَا الآن معًا ، وعليكما أن تشكرا سولرون على هذا . تعاملَت أصابع ثورغريمر الثّخينة مع الشّوكة بسلاسة غير متوقّعة ، تلك الأصابع الغليظة القوية تمتلك رهافة مذهلة ، وفي وسع أربع أو خمس نساءٍ هنا في البلدة أن يشهدْنَ على ذلك ، فالدهشة لا تفتأ تصيبهن من تلك الخفّة والرّقة التي يمكن أن تكون عليها أصابعه ، ومن براعتها في تلمّس طريقها في الظّلام . تناولوا الكعك ، تبادلوا الأنخاب بأكواب القهوة ، يقول ثورغريمر شيئًا ما بنبرة صوته العميقة جدًا فترتعش جفون الآخرين ، ولا كلمة أمكن استخراجها من يوناس ، بيد أنّه شرب أربعة أكوابٍ من القهوة السّوداء ، وهو عادةً لا يحتسي أبدًا أكثر من كوبٍ واحدٍ في اليوم ، ثمّ تغادرُ سولرون إلى عملها . يتنهّد ثورغريمر بينه وبين نفسه ، متنفسًا الصعداء ولكن مغمومًا أيضًا ، ففي حضور سولرون يشعرُ بالحياء البالغ والحمق والقلق ، بسبب دماغها ذاك ، وثوب السّباحة الذي بزرقة السّماء ، والشّعر الأحمر الطّويل . بعدئذٍ يأتي دور المفوّض ليغادر ، المكتب يستدعيني يا ولديَ ، يقول ، العمل الكتابيّ اللعين ينتظرني . وفي النّهاية لا يبقى أحد سواهما . جيّد ، قال ثورغريمر بحذرٍ شديد ، نحن الآن زميلان ، من الآن فصاعدًا نتكاتف معًا ، نتكاتف كأننا رجل

واحد . وقفا وتصافحا ، عملاق وقزم ، وما لبثت أن انطلقَتْ سيَّارة الشّرطة ، ومضت خارج البلدة . ثورغريمر وراء المقود ، ويوناس يرتعش في مقعد الرّاكب ، إمَّا من الإفراط في تناول كمية كبيرة من القهوة أو من السَّعادة .

[يمرُّ الزمن ، يمهّد طريقَه عبرنا ، يتغلغل فينا ، ولهذا نكبر في السّن . في غضون مئة سنة سنكون مستقرين في باطن الأرض ، لا شيء سوى عظام وربَّما برغي تيتانيوم أقحمه طبيب الأسنان في لثتنا العلويَّة ، ليثبِّتَ حشوة الأسنان في مكانها . الرّجل لا يدوم بقدر دوام معدن التيتانيوم ، ويمكن أن تلخّص حكايته كالتّالي : ما لديه في قلبه ، ما لديه في عظامه ، ما لديه في دمه ، ثمَّ حركة يديه في إحدى أمسيات شهر تشرين الأوّل . من المحتمل أنَّ يوناس لا يفكّر كثيرًا ضمن هذه الخطوط ، ولعلّه لذلك لا يبدو أنَّه يشيخ أبدًا ، جلده ناعم وأملس ، ومن اللطيف رؤيتهما معًا ، هو وثورغريمر . بعد بضعة شهورٍ من جلوس يوناس مرتعشًا في مقعد السّيّارة ، باع بيته ، بيت أبيه ، وانتقل إلى بيت ثورغريمر ، حيث هو بأمان هناك ، وباكرًا في الصّباح في الرّبيع والصّيف يذهب إلى الرّيف المحيط بالبلدة ، يتنزَّه على التّلال والأراضي البور ومعه منظاره وقلم ودفتر ملاحظات ، ويراقب الطّيور ، يحبّ طيور الشّنقب والبقويقة أكثر من غيرها ، وأقلّ درجة النّوارس التي تتزحلق فوق مساكن طيور الأرض البريّة وتتأفّف من الموت . لدى يوناس سكينة أثيريّة ، كما لو أنَّه غير متأثرٍ بالأشياء كلِّها التي تعذّبنا ، بوتيرة الحياة السّريعة ، بالاضطراب ، بحاجتنا إلى تلفزيونات أكبر ، وإلى هواتف نقّالة جديدة ، في حين لا يحتاج هو إلّا إلى إعمَالِ ذهنه بالتَّفكير في

انحناءات أجنحة طيور البراري . تُرى ماذا نحتاج أن نفعل لنصل إلى تلك المرحلة؟

يريد بعض النّاس هنا أن يروا شيئًا مريبًا في إقامة هذين الاثنين معًا ، هذين الرّجلين ، وذلك في أغلب الظّن لأنّنا نميل إلى ربط كلّ شيء بالجنس . أنتم تعرفون كيف هو الزّمن الآن . نادرًا ما تُنشر مجلةٌ بلا مقالةٍ أو مقالاتٍ عن الجنس : علاقاتٌ خارج الحياة الزّوجيّة ، استطلاعات عن حياتنا الجنسيّة ، تخمينات تخصّ حجم العضو الذّكريّ ، بحوث حول أدوات المساعدة الجنسية . في مكان ما نقرأ أنّ الفجور والجنس العنيف واكبَا سقوط الإمبراطوريّة الرّومانيّة جنبًا إلى جنب - لكن هل الإنسان في الواقع أيّ شيءٍ آخر إضافة إلى اللحم والعظم ، وربّما مع برغي تيتانيوم أو برغيين؟

في وقت ما ، كان الإيمان مخدّرًا ، كان الهدف والأمل معًا . في وقت ما ، كان هناك علم ، في وقت ما كان هناك حلم بعالم أفضل ، والمسافة بين النّاس أقلّ . ثم وبلا سابق إنذار تغيّر كلُّ شيء . تمرّ الأيّام ، تمرّ القرون ، واليوم لا يكاد الإيمان يتعدّى كونه أكثر من قدّاس يوم الأحد ، والعلم أصبح ملكيّة محدودة بالعلماء فقط ، والحلم بعالمٍ أفضل نائم على الأريكة الأحدث . وسائل الرّاحة تحاصرنا ، بشقّ النّفس تتركنا قادرين على رفع رؤوسنا فوقها ، نغفو ، نحلم ، وأحلامنا تندمج مع كراريس وكالات السّفريّات بألوانها الزّاهية ، تنحدر إلى جداول برامج التّلفزيون ، يُعاد استخراج نسخ منها عبر الإنترنت . لقد قيل إنّ أبطال كلّ عصرٍ يعكسون مجتمعهم الخاصّ ، بطريقتهم الخاصّة ، هم وصفٌ للحظة التي يعيشونها . لعلّ أولئك كانوا روّاد الفضاء في منتصف القرن الماضي ، من خلالهم رأينا عظمةَ الرّوح الإنسانيّة ، والجرأة ، كانوا يمثلون بالنسبة إلينا

قوّةَ العلوم ، وكشفوا لنا عن عوالم جديدة . نحن لا نزعم الآن أنَّ هذه الأشياء فقط ميّزت تلك الحقبة ، حتمًا لا ، فالرّموز هي دائمًا تبسيطٌ هائل الضّخامة . مع ذلك - إنَّ أبطالَ كلّ عصر هم بطريقتهم الخاصّة وصفٌ لمجتمعهم ، لأفكار ذلك المجتمع وأحلامه وآماله . البطل هدفٌ ، منارة ليسترشد بها النّاس ، مواساةٌ في أوقات الشّدة ، يحتاج الإنسان إلى أبطال ، هذا متأصّل في كيانه ؛ فهل الصّحفيّون هم أبطال زماننا ، وكذلك مصممو الدّيكور وكبار الطّهاة؟

يمرّ الزّمن ، نعيش ثم نموت ، لكن ما هي الحياة؟ الحياة هي يوناس ، يوناس الذي يمعن التفكير في انحناءات أجنحة طيور البراري . يوناس الذي يستغرق في النّوم على صوت أنفاس ثورغريم العميقة . هذا صحيح قطعًا ، إنّما ليس كلّ شيءٍ . إذ كم يبلغ اتّساع الهوّة بين الحياة والموت؟ - أم ، أهناك هوّة أصلًا ، وإذا صحّ هذا فماذا تُدعى؟ أتُقاس بالكيلومترات أو بالأفكار ، وهل ينتقل بعض النّاس من هذه إلى ذاك - يذهبون إلى هناك ثم يعودون إلى هنا ثانية؟]

مكتبة
t.me/t_pdf

أيجب أن نعترف بأننا أبلهان؟

1

تدفَّقَ هواء الصّباح البارِدُ الملتحفُ بظلامٍ جزئيّ نحو المستودع عندما فُتحَ بابُه ؛ دخلَتْ سيغريذور وأغلقَت البابَ وراءها على صباح يومٍ من شهر كانون الثّاني . كان دافي وكيارتان يجلسَان بخمولٍ إلى طاولة القهوة . دافي يحاولُ استرداد المزاج الذي تخلّلَ أحلامه اللّيليَّة ، وكيارتان يمضغ مكعَّب سُكَّرٍ ليبقي النُّعاس بمنأًى عنه . في تلك السّنوات دُعيَت التّعاونيَّة في معظم الأحيان مملكة النّساء : في الطّابق العلويّ تحكَّمت وصاية أوستيلدر الأموميَّة ؛ السّكرتيرة التي أعدّت القهوَةَ وحرصتْ على عدم إزعاج بيرغفين ثمّ فينور من بعده . وكانت كثيرًا ما تميلُ إلى إلغاء الاجتماعات مع المدير بمبادرةٍ شخصيّةٍ منها ، كما يحلو لها تمامًا . أولئك الذين رغبوا في عرض قضاياهم اضطرُّوا أوّلًا إلى ضمان صفاء نيّتها واستحسانها . الطّابقُ الأرضيّ – متجر البقالةُ ومحطّةُ الوقود – يخضعُ لقبضة سيغريذور الحديديَّة التي بلغتْ لتوّها الخمسين من العمر بالضَّبط عندما دخلتْ إلى المستودع في صباح كانون الثّاني ذاك في أواخر التّسعينيَّات ، والمذياع يلعلعُ بأنغام فرقة «الهجومُ الهائلُ» البريطانيَّة ، ودافي يرافقُ الإيقاع بنقرٍ خفيف .

في يومٍ ما ، حينما كانتْ سيغريذور في ريعان الشّباب ، والعالمُ ما زال مقتصرًا على اللونين الأبيض والأسود ، حام الفتيانُ من حولها ، وبعضُهم

تعاملتْ معهم بطريقةٍ جلفة ، تلك كانتْ لحظات لا تُنسى بالنّسبة إليهم ، أدَّت إلى ترك قلوبهم خرابًا . في الثّامنة عشرَ من عمرها تُوِّجتْ ملكة جمال المنطقة الغربيَّة ، فارعة الطّول ، نحيلة ، بشعرٍ أشقر طويل ؛ لكنَّها ما لبثت أن تخلّت عن اللقب ، والجبالُ غيّرتْ معالمها . بدأتْ بعدئذٍ تعملُ موظّفة استقبالٍ في التّعاونيَّة . اشترينا الحليب والبسكويت والبطاطس وأعربْنا عن إعجابنا بشعرها ، عبّرنا لها عن مدى استلطافنا وجهها الجميل ، بيد أنَّ سيغريذور اقترنتْ بمزارعٍ من خارج البلدة ، اسمُه غودمندر ، وكثيرًا ما نلقّبُه بـ «غودمندر أنا منطلقٌ» .

حمل غودمندر رقم المنطقة القياسيّ في الجري مسافة 400 – 800 – و1500 مترًا ، وعادةً مضى على قدميه ليسترجع الماشية من الجبال . كان أقوى من معظم الخيول . كلّما أشار شخصٌ إلى خروفٍ شارد في أعالي قمَّة جبلٍ ، درج غودمندر على القول ، أنا منطلقٌ – من هنا جاء لقبُه . هو رجلٌ كادحٌ ذو جَلَدٍ ، بينما أنفُ سيغريذور منمنمٌ جدًّا ، ذراعاها في غاية البياض ، وكتفاها في منتهى الدّقَّة ، وخلال فترةٍ من الوقت تراءى لنا أنَّها أرقّ بكثيرٍ من أن تقوى على تحمّل مشاق تلك الحياة الصَّعبة . ولكن كما يحدثُ في أغلب الأحيان ، ما عرفْنا إلّا القليل ، وما لاحظْنا شيئًا ، بل حتَّى أدركْنا ما هو أقلّ ، فوراء عينيها الجميلتين اللتين أرّقتا بعض الأشخاص هُنا ، وحرمتا أجفانهم من النّوم ، كمنَتْ إرادةٌ حديديَّةٌ ، تصميمٌ ثابت لا يتزعزعُ . وبسرعةٍ شقّتْ سيغريذور طريقها صعودًا ، لتصبح في سنواتٍ قليلةٍ فقط سلطانةَ الطّابق الأرضيّ ، بل حتَّى كان مديرُ التّعاونيَّة نفسُه يضطرُّ إلى الإذعان لما تمليه عليه . مضتْ سنواتٌ منذُ أن صعقتْنا بأعوامها الثَّمانيةَ عشرَ ، عندما نثرتْ بسخاءٍ ابتسامتها من حولها مثل غبار الذّهب ، هذا مع أنَّ شعرها ما

زال في غاية الشّقرة اللعينة ، ومازال جسدُها ليّنًا ، يشبه جسد ظبي ، وأحيانًا يبدو كما لو أنَّ هناك توتّرًا غامضًا يسري فيه مترقّبًا الانفلاتَ والتّحرّرَ . لا تخفّفُ سيغريذور من رقابتها مطلقًا ، لكن ، على الرّغم من حزمها ، غالبًا ما تجدُ نفسها محاصرةً في حفلات الرّقص ، من الرّجال الّذين احتسوا نصف قنينة فودكا ويريدون فقط أن يخبروها أنّها ما زالتْ تبدو صامدةً على نحوٍ فائق الرّوعة ، أفضل من نظيراتها كلهنّ ، وأنَّ الشّابّات لا يتفوّقن عليها بأيّ ميّزةٍ ، يسارُرها أحد الرّجال بأنّه يشعر دائمًا بالاضطراب في حضورها ، رجلٌ آخرُ يسألها ما إذا كانت تفكّرُ فيه ، وثالثٌ يريد استعادة الأيّام الخوالي ، عندما تبادلا قبلةً في الخفاء ، أتراك تتذكّرين يا سيغريذور ، تبادلْنا القُبل طوال الليل ، تبًا ، ليذهبْ كلُّ شيءٍ إلى الجحيم ، لم نفعلْ شيئًا سوى تبادل القُبل آنذاك ، ولن أنسى مطلقًا كم كان لسانُك مرنًا ورشيقًا ، وما زلْتُ أحلم به ، أيمكنني أن أقبّلكِ الآن؟ أوه يا سيغريذور ، فلنلق كلَّ شيءٍ إلى الرّيح ، العالم وأي أحدٍ غيرنا ، ونتبادلُ القُبل كما فعلْنا يومها - حينها يمكن أنْ نقول بصدقٍ إنّنا قد عشْنا . نعم يا سيغريذور أنا متزوّجٌ ، عندي أطفالٌ ، أنا سعيدٌ في حياتي ، لكن الآن أشعرُ ، وبقوّةٍ رهيبةٍ ، كيف أنّي لم أتوقّف قطّ عن حبّك ، تعالي معي لنخرج إلى اللّيل .

لكن ، لا يهمّ كم يجهَد الرّجال في المحاولة ، وأيّ أسلحةٍ يستخدمون ؛ ذكرياتٍ قديمة ، استهتارَ اللّيل ، نارَ الرغبة ، كل ذلك يذهب سدى . تكتفي سيغريذور بالنّظر إليهم بحزم ، فيدلفُون خارجًا إلى سيّاراتهم ، يخرجون قنينة الفودكا من تحت المقعد ، يسكبُون المزيد من الشّراب المُسكر في أجوافهم ، يفكّرون ، أوه أيّتها الحياة! - ويبقون كذلك إلى أن يهبّوا إلى فتح باب السّيّارة على عجلٍ ، يتقيّؤون ثمَّ يغفون .

تغلقُ سيغريذور باب المستودع ، تقصدُ منضدة البيع ، تحدجُ الزّميلين ببصرها ، يعتريهما الذّهولُ ، يهجرُ النّعاسُ كيارتان ، تتبخّر الأحلامُ من رأس دافي ، هو تقريبًا أصغر بثلاثين سنةً من سيغريذور ، في نظره هي امرأةٌ متوسّطة العمر ، ومستبدّةٌ عديمة الرّحمة ، وهو لا يفهم أولئك الرّجال الذين يستطيعون المجيء على سيرتها بعذوبة حُلمٍ ، برغبةٍ جيّاشةٍ . أرى أنّكما غارقان في العمل حتّى آذانكما ، تقولُ سيغريذور وهي ترفعُ لوح منضدة البيع المفصليّة وتتقدّم خلفها . كُنّا ننظّم يومنا يا سيغريذور ، يجيبُ كيارتان ، بصوتٍ مكدّر قليلًا ، وبين أصابعه يمسكُ مكعّب سكّر يتحرّق شوقًا كي يحشره في فمه . تُنقّلُ سيغريذور عينيها من أحد الزّميلين إلى الآخر ، ثمّ تضيّق جفنيها مسبّبةً الاضطراب للرّجلين . وبعد ذلك تُعلمُهما أنّ ثورغريم قد استقال ، وهما على الأرجح سبق أنْ سمعا الخبر ، وأنّه في هذا الصّباح بالذّات بدأ عمله الجديد بصفته شُرطيًا ، وأنّ ذلك حدث بسرعةٍ مفاجئةٍ ، وقد يستغرقُ الأمر أيّامًا أو ربّما أسابيع ، قبل أنْ يتولّى الرّجل الذي في ذهنها وظيفة ثورغريم ، فهذا الرّجل الجديد بعيدٌ كثيرًا عن هنا ، وثمّة إشكالٌ في التّواصل معه . لذا في الوقْت الحاضر يتحتّمُ على دافي وكيارتان أنْ يعملا على تقاسم مسؤوليّات ثورغريم في ما بينهما ، عليهما أن يُثبتا مقدرتهما ، أنْ يُظهرا ما المادّة القويّة التي جُبلا منها ، بحيثُ يمكن الاعتمادُ عليهما . يضعُ كيارتان مكعّب السّكر جانبًا ، ينفخُ صدره العريض ويقولُ بأعمق صوتٍ لديه ، يمكنكِ الوثوقُ بنا! تواجهُهما سيغريذور بابتسامةٍ مقتضبةٍ ، من العسير القولُ أودودةٌ هي أم ساخرة ، تهزُّ رأسها ، تستدير ، تغادر ، ترتفع حرارة المستودع ثلاث درجات . يركّز الزّميلان عيونهما على الباب عدّة لحظات ، ثمّ يمدّ كيارتان يده إلى مكعّب السّكر ، يدسّه في فمه ، يتقدّم

نحو منضدة البيع ، ينزّلُ اللوح المفصليّ ، يتّكئ على المنضدة ويقول : لا بأس . ويحذو دافي حذوهُ ، يتّكئ على المنضدة ويقول : لا بأس ، وهناك يقفُ الزّميلان ؛ طولُ كيارتان يزيدُ قليلًا على المعدّل الوسطيّ ، لكنَّه بدينٌ جدًا ، ولذلك يبدو أقصرَ قامةً ؛ هو مزارعٌ سابقٌ انتقل إلى البلدة قبل سنتين . أمَّا دافي فهو طبعًا ابنُ الفلكيّ ، يبدو للعين أقصر قليلًا من كيارتان ، نحيلٌ مثل قصبةٍ ولكن مع بطن في بداية الظهور ، كما لو أنَّه ابتلع بشكلٍ عرضي قبعة رامي كرة ، في بعض الأوقات يقفُ أمام المرآة في البيت الخشبيّ الصّغير ، يمسّد بطنه ، ويلعنُ وجبات غداء كيارتان الشّهيّة . هناك يلبثان واقفين إلى أنْ يقول كيارتان ، نحتاجُ الآن إلى التّفكير ، وبالتّالي يعودان ليجلسا إلى طاولة القهوة ، يستسلمُ دافي إلى إغفاءةٍ لأنَّ الإغفاء متعةٌ ، فالمرء خلالها ينسحبُ إلى ما وراء ستارةٍ ثقيلةٍ نحو عالمٍ يخصّه . يفتح كيارتان شطيرته ، يحشرُ شريحة اللّحم في فمه ، يضعُ مكانَها فطيرةً دانماركيّةً دافئةً ، يعيد ضمَّ شريحتي الخبز معًا ويتناول قضمةً ، الأكلُ متعةٌ يقول بينه وبين نفسه ، إنَّهُ يجعل جسم المرء يشعر بكثيرٍ من الامتنان ، ولا يعودُ العالم شائكًا كما يبدو ، ولا تلبثُ أن تخطر على بال كيارتان أفكارٌ لطيفةٌ . ثمّ تنتهي الشّطيرةُ ، فيسترجعُ في ذهنه الألمَ الذي يشعرُ به أحيانًا خلف عظام قفصه الصّدري ، على مقربةٍ من قلبه ، هي آلامٌ معتدلةٌ تأتي وتذهب ، إنَّه بلا شكّ ليس إلّا الألم المتأصّل في كيان الوجود ، على الرّغم من أنَّه من الآمن حتمًا تحديدُ موعدٍ مع الطّبيب أوربيورن . يكزُ دافي بمرفقه فيصحُو الأخيرُ من أحلامه مذعورًا . اكتفينا من التّفكير ، يعلنُ كيارتان ، يتثاءبُ دافي ، يصبّ لنفسه كوب قهوة ، يحاول حصر ذهنه بالمسؤوليّات التي سيواجهانها ، لكنَّ الشّيء الوحيد الذي يتبادرُ إلى ذهنه هو لحن بيانو معيَّن ، نغماتُه وحدها فقط من دون غيرها قادرةٌ على استدعاء القبلة

التي طبعتْها امرأةٌ من البلدة على شفتيه قبل نصف شهرٍ تقريبًا ، نغمةٌ يمكنها أن تستحضر دفء لسانها ، امرأةٌ متزوّجة في الثّلاثين من العمر ، بنهدين مكتنزين ، وأمٌّ لطفلين ، ورائحتُها فاحتْ بالتّبغ والفودكا . يهبّ دافي على قدميه قبل أن تسبّب له الذّكرى الانتصاب ، إلى العمل ، يقولُ وهو يصفّق . يتنهّد كيارتان ، يبقى جالسًا في مكانه بكيلوغراماته الـ 110 كلّها ، أنتَ طفلٌ حقيقيّ من السّماء ، يقول ، ولهذا أنتَ خفيفٌ جدًا ، أمّا أنا فولدْتُ من الأرض وفي جوفي بضعةُ غرامات من الجحيم ، ولذلك أنا مفرطُ الثّقل ، ساعدْني على النّهوض ، عيناك جميلتان ، أضاف في ذهنه ، ففي تلك اللّحظة ، انسحبتْ غيمةٌ متربّعة في السّماء كاشفة عن القمر ، فتسلّل شعاعٌ أبيض من خلال النّافذة الكبيرة فوق الباب ، وحطّ على وجه دافي ، جاعلًا عينيه السّوداوين تبدوان متوهجتين بنارٍ غامضةٍ . وتنهّد كيارتان . نعم ، قال دافي ، وتنهّد هو أيضًا ، لن يكون تولّي أمر هذا الهراء ، والحفاظ عليه كما ينبغي نزهةً في حديقةٍ . لم يعلّق كيارتان بشيءٍ ، قام ببطءٍ ، ثقيلًا بكتل اللحم ، إنّما أثقل أكثر بحزنٍ مفاجئ بخصوص حياته ، بخصوص نفسه ، وزوجته ، بخصوص اختباره مثل ذلك الشّعور القويّ جدًا وهو يرى عيني دافي تشتعلان . وجنبًا إلى جنبٍ انطلقا نحو عنبر البضائع ذي المساحة الهائلة .

2

نحنُ متأكّدون من أنّكم متآلفون مع حوادث كهذه التي سنسردُها ؛ كأنْ تلتقطُوا ربّما لمحةً من حركةٍ في بيتٍ شاغر ، أو أنْ تسمعوا صريرًا

في العليّة حيث لا أحد أبدًا يصعد إليها ، بيانو يعزفُ وحده في غرفةٍ خالية . حوادث كهذه يمكنُ أن تتسلّل خلسةً إلى جهازنا العصبيّ ، فنبدأ بالتّصبب عرقًا بلا سببٍ ظاهر ، نخترع قصصًا مبهمةً تقلقُ نومنا وتجعل الظّلام يعجّ بالتّهديدات . في الوقت نفسه هذه القصص إيجابيّةٌ جوهريًا ، فهي تتضمّن التّسليم بوجود عالمٍ يتجاوز عالمنا . مَن يؤمن بهذه الأشياء ، هو على الرّغم من كلّ شيءٍ ، مجهّزٌ بطريقةٍ أفضل للتّعامل مع العزلة البشريّة ، وأقلّ اكتراثًا بمنحدرات الشّكّ وعدم اليقين ، بل حتّى هو مباركٌ بطريقةٍ ما . كيارتان شخصٌ واقعيّ ويدركُ أنّه في معظم الحالات الغامضة ، يمكنُ العثور على تفسيراتٍ منطقيّةٍ لها ، إن لم تكن علميّةً ، وذلك بخصوص أي أشباحٍ مزعومة : صفير الرّيح ، تقزّح ألوان الغلاف الجويّ ، اضطراب في العصب البصريّ . بصفته مزارعًا سابقًا ، كثيرًا ما اضطرّ كيارتان إلى جرّ نفسه خارج البيت نحو مرافق المزرعة في ظلام الشّتاء الأشدّ حلكة ، وفي دربه أنّت الرّيح ، والألواحُ الحديديّة المتموّجة قعقع بعضُها على بعضٍ ، وهي كلّها شروط مثاليّة لظهور الأشباح ، مع ذلك لم يواجهْه شيءٌ مطلقًا ، ربّما لأنّ كيارتان على الأغلب رجلٌ عقلانيّ . ودافي أيضًا لا يفتقرُ إلى الدّماغ السّليم ، في المدرسة الثّانوية نال أعلى العلامات ، وكذلك في دورات اللغة الأيسلنديّة التي تلقّاها في الجامعة ، بيد أنّه من النّوع العصبيّ ، يقضمُ أظافره ، ولا يكفّ عن هزّ ساقه اليمنى وهو جالسٌ ، يعيشُ جزئيًا في عالم الأحلام ، يشعلُ أضواء بيته كلّها في ليالي الشّتاء عندما يبدو أنّ البلدة ترزح تحت أنفاس الفضاء الأسود التي تمتصّ كلّ شيءٍ ، ذلك السّواد الذي لا قعر له . والآن ها هما يغادران معًا طاولة القهوة ليدخلا إلى المخزن ، ربّما هي مسافةٌ لا تتجاوز عشرين مترًا ، يفتحان الباب الكبير المنزلق ، يشعلان مصابيح الإضاءة

فينكشفُ أمامهما المخزن ؛ أكوامٌ لا تُحصى من المنصّات النّقالة ، ردهةٌ رئيسةٌ للرّافعة ، وعدَّة مسالكَ ضيّقة تتفرّع منها ، وفوق ذلك كلّه عشرون لمبةً عاريةً معلَّقةً بأسلاكٍ طويلةٍ على علوّ ثمانية أمتارٍ . يتفحّص كيارتان قائمة الطّلبات التي أحضرها معه ، ويشرعان في العمل . ما من شيءٍ جديد طبعًا ما عدا أنَّ ثورغريم قد استقال ، وهكذا تمرّ الأيّام .

في بادئ الأمر لا يحدث شيءٌ ، لا شيء على الإطلاق ، باستثناء أنّهما معًا تراود مخيّلتيهما تهيّؤاتٌ بأنَّ هناك خطبًا ما ، من غير أنْ يلمّح أحدهما للآخر عن ذلك . يشعران بحضورٍ غير مرئيّ ، وهناك شيء ما يثيرُ أعصابهما ، يجعل أنفاسهما سطحيّةً . يتهيّأ لكيارتان كما لو أنَّ أحدًا يقف خلفه ، يستديرُ ، ولا يجد أحدًا هناك . من زاوية عينه يلتقطُ دافي حركةً ، حركةً غير واضحة ، ويسمعُ صوت حفيف ، ينظر إلى الجانب ولا يلمح شيئًا ، ولا يعود يسمع شيئًا ، ما عدا الرّيح في الخارج وهمهمة كيارتان في المقدّمة .

في أحد الأيّام ، على أيّ حال ، تسقطُ بعضُ أكياس محسّنات الأعلاف من إحدى المنصّات التي يبلغ ارتفاعها ستَّة أمتار ، ستَّة أكياس وزن كلّ منها 25 كيلوغرامًا ، اثنان منها تمزّقا من أثر ارتطامهما بالأرضية ، وكُريّات محسّنات العلف البُنيّة تبعثرتْ متناثرةً على أرضيَّة المخزن ، وبعضها ارتطم بجزمةٍ سوداءَ مقاس 45 .

يصاب كيارتان بذهولٍ رهيبٍ ، وقف حيث هو متسمّرًا لدقيقةٍ أو دقيقتين ، وهو يتنفّسُ بصعوبةٍ من خلال فمه الفاغر ، نبضاتُ قلبه تتسارع ، والدّم يطارد عروقه . إذ قبل ثانيتين أو بعد ثانيتين ربَّما ، كانت الأكياسُ ستحطّ على رأسه وتقتلُه . يأتي دافي جريًا وهو يصيح ، ماذا

حدث؟ يشيرُ كيارتان بوجهه الممتقع إلى الأعلى ، إلى الفجوة المتخلّفة في أكوام المنصّة . يكنسُ الزّميلان محسّنات العلف المبعثرةَ بصمتٍ ، وبين فينةٍ وأخرى يجليان ببصرهما أكوام الأكياس في الأعلى ، هذه الحادثةُ غير قابلةٍ للتّفسير ، يقول كيارتان أخيرًا . ماذا تعني ، يسألُه دافي بنبرةٍ متحيّرةٍ ، أتعني أنّه . . . أعني ماذا؟ يستفسر كيارتان وقد لاحظ خفوت صوت زميله .

دافي : أنتَ تعرف .

كيارتان : لا أعرف سوى اللعنة على كلّ شيء .

دافي : بلى ، أنتَ تعرف ، أعني ، أنّ هناك . . . *شيئًا ما* .

كيارتان : هناك شيءٌ ما دائمًا .

دافي : لا ، أنتَ تعرفُ ، تلك الحكايات عن المرأة وما إلى ذلك . . . ألم يراودْك شعورٌ بشيءٍ غريب في هذه الأيّام القليلة الأخيرة؟

كيارتان : راودني شعورٌ بشيءٍ؟! لا ، ما ذاك الذي يجب أن أشعر به؟

دافي : هيّا الآن ، أنتَ تعرف ، إنّ هذا كما لو أنّنا لسْنا الوحيدين هنا ، كما لو أنّ أمرًا ما يجري هنا ، كما لو أنّ ثمّة من يراقبنا و . . .

كيارتان : هيّا ، لا تكن سخيفًا . لا يوجد شيءٌ من هذا القبيل ؛ حتمًا لا .

دافي : أتعني أنّهُ لا يوجدُ شيءٌ مثل الأشباح؟ ينطقُ بكلمة «الأشباح» كما لو أنّ هناك إصبع ديناميت في فمه ، ويمكن أن ينفجر من أدنى تشويش . ينخرُ كيارتان ، يذهبُ إلى الرّافعة ، يقودُها ، يثبّتُها في المكان المناسب ، وينزّلُ رفّ محسّنات الأعلاف ، يكوّمان فيها الأكياس التي سقطتْ منها ، يعملان بجدٍّ وعناية ، ثمّ يعيدان المنصّة إلى مكانها ، بعد ذلك يذهبان ويجلبان مصباحًا كشّافًا ويقضيان السّاعة التّالية وهما

يجولان في المخزن ، يمضيان عبر المسالك ، ويسترقان النّظر إلى المنصّات المكدَّسة بالأكياس ، بعضُها في غاية الارتفاع لدرجة أنّها تختفي فوق حدود الضّوء إلى حيثُ ينتشر الظّلام الذي يطغى على فضاء السّقف . في اليوم التّالي لم يحدثْ شيء يستحقّ الذّكر .

ولا شيء حدث في اليوم الّذي تلاه . ثمَّ تبدأُ الكوابيس في مطاردة كيارتان ، تطاردُه أحلام بأنّه وحده في المخزن ، أنّه يسمع أصواتًا مبهمةً ، ويرى أشياءَ تسقط عليه من بين أستار الظّلام ، ثمَّ يفقد القدرة على الرّؤية . يواسي نفسه بالتّفكير في أنَّ الليل شيءٌ والنّهار شيءٌ آخر . وياكوب ، سائق الشّاحنة ، يسلّم البضاعة الجديدة المحمّلة في شاحنته الكبيرة ، حيثُ تُنقل إلى المخزن ، ويغادر ومعه بضاعة أخرى . ويأتي النّاس للحصول على أكياس محسّنات العلف ، والمجارف ، والدّراجات وألواح التّزلج . ثمَّ ، في صباح يوم باكر ، بعد أسبوع تقريبًا من نجاة كيارتان العجيبة من الموت لو أنَّ أكياسً محسّنات العلف سقطتْ عليه ، يسمعُ حسًا يبدو مثل وجود شخص في المخزن الخالي من النّاس ، بل حتّى كما لو أنَّ هناك أطفالًا يجرون حفاةً في الممرّات الضّيقة . أنا لا آكل جيّدًا ، يفكّر ، تلك هي المشكلة ، وأنام قليلًا جدًا ، هذه ليستْ إلّا أعصابًا مرهقةً .

بعد الغداء ، يقفان معًا عند باب الطّوارئ وصدّ الحرائق في المخزن ، كيارتان يعبث مازحًا مُقلّدًا سائقَ الشّاحنة ياكوب وهو وراء عجلة القيادة ، ودافي يضحك وهو متكئ على منصّةٍ ، عندما ، من دون سابق إنذارٍ ، تنطفئ لمبةٌ في زاوية المخزن الشّماليّة الغربيّة . يصيب الذّهول الرجلين ، ويهزّ كيارتان كتفيه بعصبيّةٍ كما لو أنّه ينفض عن جسمه قشعريرةً ، ثم لا تلبث أن تنطفئ لمبةٌ أخرى ، ثمَّ ثالثة ، ورابعة وخامسة . . . على

مراحلَ تفصل بين كلٍّ منها خمس ثوانٍ تقريبًا . يحبسان أنفاسهما ، يتلفّتان حواليهما بصمتٍ تامّ . ينطفئ مزيدٌ من اللمبات ، السّادسة ، السّابعة ، وبسرعةٍ يلحف الظّلام في الاقتراب منهما من الاتّجاهات كلّها ، يقترب الظّلام ويمعنُ في الضّغط عليهما ، يشرعان في تلمّس طريقهما خارج المخزن ، وما كادا يصبحان في المستودع إلّا وكان ظهراهما ينضحان بالعرق . يصبّ كيارتان كوبين من القهوة ، ترتعشُ يد دافي قليلًا وهو يحمل كوبه . توصيلاتُ أسلاكٍ لعينةٌ ، يقول كيارتان عندما يشعر أخيرًا أنّه قادرٌ على النّطق بأيّ كلمة . في الخارج يُطبق غسقُ أواخر العصر على البلدة .

3

لقد قيل إنَّ الحياة والموت يسيران جنبًا إلى جنبٍ ، إنَّه ليس هناك إلّا فاصلٌ هزيل يفرّق بينهما ، ولهذا السّبب نرى أحيانًا أطيافًا من مملكة الموتى . نأتي على ذكر الموت ، فيجنح بنا الخيال إلى التّفكير في الأشباح ، لأنّه في زمنٍ ما ، حيث يقوم المستودع الآن كانت هناك مزرعةٌ ، وثمّة أحداثٌ أخذتْ مجراها فيها . غادر صاحبُ المزرعة إلى شبه جزيرة سايفيلسنيس سعيًا وراء موسم صيد السّمك ، وعاد في إحدى اللّيالي ليجد زوجته بين أحضان رجلٍ غريب ، رجلٍ أسود الشّعر ووسيم بطريقةٍ مرعبة ، وقيل إنَّ المُزارع ، ذلك الشّاب النّاري ، انتزع سكينًا ، وحزّ بها عنق الرّجل الآخر ، ثمَّ قتل زوجته كذلك ، مقحمًا نصل السّكين في قلبها ، بعدئذٍ أضرم النّار في المزرعة واحترق كلُّ ما فيها عن بكرة أبيه : المُزارع ، الجثتان ، الأطفال

الثّلاثة ، كلبان وعشرات الفئران . نما العشبُ شيئًا فشيئًا فوق أنقاض المزرعة ، لكنَّ سوء الحظّ واللعنة بقيا جاثمين فوق ذلك المكان مثل كابوسٍ ، قال النّاس إنَّهم شعرُوا بشيءٍ ما ، وبعضهم اختبر ظهور أطيافٍ شبحيّة ، ولا أحد تجرَّأ على بناء مزرعةٍ إلى القرب من تلك البقعة . لاحِقًا ، بعد سنواتٍ لا حصر لها ، هي على أي حالٍ مئة وخمسون سنةً أو ما يقاربها ، بنينا المستودع فوق تلك الأنقاض ، المستودع الواقع عند نهاية الزّاوية الشّماليّة الغربيَّة . كان أيضًا عصرًا مختلفًا ، فالظَّلام قد هُزم في وقتنا الحاضر بالكهرباء وأصبح تلقّي العلم إلزاميًا ، وما أهميَّة الحكايات في نهاية المطاف ، هي إلى جانب كونها مجرّد حكاياتٍ ، ليست إلّا وسيلةً لتمضية الوقت ، يمكن أن تهزّ مشاعرنا أحيانًا طبعًا ، تحرّضنا كي نغيّر تصفيفة شعرنا ، مساكننا ، طريقة مشينا ، لكن ، أيّ منها لا يملك القدرة على التّأثير في قوانين الحياة والموت ، لا يمكنُها أن تغيّر مواقع الكواكب في السّماء ، ولا أي قصّة شعبيّة في وسعها أن تشقّ الأرض ، وتفلتَ عنان الأشباح وسوء الحظّ وظلامًا عمره 150 سنةً .

أو ، مهما يكن . على أي حال . . . مرّت اللّيلةُ على دافي وكيارتان ، وتلاها صباحٌ قاتم .

وصل دافي مبكرًا قليلًا ، كانا في اليوم السّابق قد نسيا أنْ يشعلا ضوء الباب الأماميّ . أخرج المفاتيح من جيب بنطلونه ، ثمَّ أعادها إلى مكانها ، سأنتظرُ كيارتان ، قال في نفسه ، نظر إلى ساعته ، أشارتْ إلى الثامنة والنّصف . من المفترض أن يكونا هناك معًا في هذا الوقت ، ولا بدّ حقًا من أن يكون أحدٌ ما مستيقظًا في البلدة في هذا الوقت ، بيد أنَّه لم يكن أي شخصٍ في الخارج باستثناء إليزابيت التي لمحها تمرّ قرب المستودع في وقتٍ سابق وهي تمارسُ نزهتها الرّياضيّة اليوميَّة ، ما عدا ذلك لا شيء

سوى الظّلام وأضواء أبواب البيوت الأماميّة في أعماق ذلك الظّلام . بدأ دافي يصفّر لحنًا لنفسه ، في البداية صفّر نغمًا عشوائيًا ، ثمَّ سرعان ما تحوّل إلى نغم مألوف ، صفّر لحن «القبلة الأولى» الخاصّ بفرقة يومار الشّعبيّة . طبعًا فعل . أنا في الرّابعة والعشرين من العمر ، فكّر دافي ، وثمَّةَ امرأة قبّلتني . مات اللحن على شفتيه ، أراح جسمه على زاوية المستودع ، ومدّ نظره نحو البلدة .

قبل ستةَ عشرَ يومًا ، في ليلة رأس السّنة ، عزفتْ في حفلة الرّقص فرقةُ دافي وكيارتان . فالفرقةُ من العاصمة ريكيافيك ألغتْ موعدَها قبل يومين ، وهذا خلق رعبًا في البلدة ، وأدّى إلى استدعاء فرقة دافي في اللّحظة الأخيرة ، كانت الفرقةُ تُدعى «الأبناءُ الطّيّبون» ، يعود أصلُ الاسم إلى أسطوانة الأسترالي نيك كيف ، بعنوان «الابنُ الطّيّب» . تتألّف الفرقة من خمسة أعضاءٍ ، وهؤلاء يجتمعون مرّتين ، أو ثلاث مرّات في الشّهر ، في حظيرةٍ مهجورةٍ خارج البلدة ، حيث يعزفون كالمجانين طوال ثلاث ساعاتٍ . أحدُهم ليتخلّص من الإجهاد ، آخرُ لينسى خيبات أمل الحياة ، ثالثٌ ليهرب من الذّكريات ، والاثنان الأخيران من منطلق الولع بعزف الموسيقى في أغلب الظّن ، ولم يخطرْ قطّ على بالهم العزف في أيّ حفلة رقصٍ ؛ القيام بهذا يتطلّب ذخيرةً فنيّةً ، وتنظيمًا ، وأنغامًا تحثّ الأقدام على الحركة ، بيد أنّهم ببساطةٍ لم يملكوا خيارًا آخرَ . جاءت الأمسيةُ المنشودةُ ، وارتعشوا مثل الأغصان . دافي عند البيانو ، كيارتان على الغيتار ، ثمَّ باقي الأعضاء ؛ أوزي على الطّبول ، أورذر على الغيتار الثّاني أو البوق أثناء عزف المقطوعات الحزينة ، وأخيرًا إنغفيه أو لعلّه إنغفار على الكمان ، لسبب ما لا يمكننا أبدًا تذكّر اسمه ، فلنكتف بأنْ

ندعوه إنغفار . في أي حالٍ من الأحوال ، كانت بلا شكّ ليلة دافئ ، أشعلها حماسةً ، حافظ على تماسك الفرقة بإيقاعه ، غنّى الأغاني الهادئة ، صوتُه فتيّ وفيه مسحةُ ظلام ، شعرُه الأسود تهدّل متناثرًا فوق عينيه ، كانت مهارتُه ضعف مهارة الآخرين مجتمعين ، تلاشى حياؤُه ، وتقريبًا لم يعاقر أي مشروبٍ ، بخلاف كيارتان ، الذي كان قد أفرغ نصف قنينة ويسكي في جوفه بحلول منتصف اللّيل ، وما زالت أمامه ثلاثُ ساعات من العزف . حوّله الويسكي إلى ما يشبه يومًا ماطرًا كئيبًا ، عمد رفاقُه إلى جعله يستندُ إلى الجدار ليبقى منتصب القامة ، ومهما كان ما عزفوه ، ألحانًا حيويّة ، أنغامًا سعيدة ، بل حتّى أغانيَ بسيطة لـ «غيرمندر فالتيسون» ، أو مؤلّفات فرقة «السترانغلرز» بعذوبتها الفائقة ، أو أجمل أعمال بريسلي صاحب الملابس الجلديّة المشدودة ، واصل كيارتان عزف نغماتٍ كئيبةً . القبلة الأولى! صاح إنغفار عبر مكبّر الصّوت ، لكنَّ إيقاعَ غيتار كيارتان نشج : «يمكن أن أموت من هول شعوري بالوحدة» . في جميع الأحوال نجحوا في تفادي رصاصة كيارتان ، إذ خفضوا صوت غيتاره ، ورفعُوا صوت غيتار أورذر الذي عزف على أوتار غيتاره بحماسةٍ مستخدمًا سبع أصابع ، وترك عينيه قصيرتي النّظر تومضان فوق ساحة الرّقص ، ثمَّ توقَّفَ الرّقص . الصّالةُ المتشبّعة بالدّخان فاحتْ برائحة العرق والمشروبات الرّوحيّة ، كان قد مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن أنهى كيارتان قنينة الويسكي ، لأن جسمه قادر على تحمّل كميّاتٍ كبيرةً من المشروب ، نظرًا إلى كتلته الضّخمة ، وبينما راح يلتهم رقائق البطاطس في مطبخ المركز الاجتماعيّ ويستمع بوجهٍ تعيسٍ إلى توبيخ كلٍّ من زوجته وإنغفار ، وجد دافي نفسه محبوسًا في زاوية المسرح من قِبل هاربا ، امرأة متزوّجة في الثّلاثين من العمر وأمّ لطفلين ، دفعته أمامها إلى أن أوقفهما

الجدار ، والسّتارة السّميكة ذات اللون الأحمر القاني فصلتْهما عن بقيّة الصّالة .

بإحكام قبضت بيدها على رقبة دافي من الخلف وقبّلته فمًا لفم ، قبلةُ دافي الأولى ، كانت على وجه اليقين قبلةً محمومةً ، مذاقُها فودكا وتبغ ، ضغطت شفتيه بشفتيها ، ونهداها الضّخمان ملتصقان بصدره ، خصرُها إزاء قضيبه المنتصب . وهو قد أغمض عينيه . ماذا ينبغي أن أفعل الآن ، فكّر بذهولٍ ، أتراها ستغضب إذا مسّدتُ نهديها ، وهل الأجدر بعدئذٍ أن أربّتهما بلطف أو بقوّة ، أو ربّما أقرصهما ، وماذا عن مؤخرتها ، أيجبُ أن ألمسها ، أريد لمسها بجنونٍ ، ما سبق أن عرفت أنّ ألسنة النّساء بمثل هذه الليونة . بقيتْ يد دافي اليسرى ساكنةً بلا حراك على ورك المرأة ، واليد اليمنى تحسّست بارتباك ظهرها صعودًا وهبوطًا ، مثل ذبابةٍ طيّارةٍ دائخةٍ ، تساءل إنْ كانا سيتبادلان القبل مدّةً أطول ، تساءل ما إذا كان لسانُه بدفء لسانها ، ما إذا كانت قد استمتعتْ هي أيضًا بقبلاته ، وبلسانه ، وماذا يجبُ عليه أن يفعل بيديه؟ لا شيء سوى ستارة مخمليّة سميكة تفصلُ بينهما وبين العالم ، لكنّ السّتارةَ المخمليّة هي أحيانًا أثقلُ من الليل ، أوسعُ من المحيط ، ويدُ دافي اليمنى تخبّطَتْ في الهواء ، ستلمسين الآن نهديها ، أو مؤخّرتها ، أمرَ يده اليمنى ، غير أنّ هاربا بدأت آنذاك تحلّ حزامه ، بتأنٍ ولكن بعزم . فكّت أزرار بنطلونه ، أنزلت السّحّاب ، ويدٌ أنثويّةٌ انزلقت تحت بنطلونه ، تحت لباسه الدّاخلي الأزرق ، أمسكتْ عضوه الذّكري الذي جعله انعدام الشّعور بالأمان يرتخي ، ثمّ سرعان ما تصلّب في راحة يدها ، اتّسعت عينا دافي ، تيبّس فمه مفتوحًا ، ضع يديك على صدري ، همستْ ، لا ، من تحت قميصي ، فكّ أزراره ، ربّاه ، يا لروعة أصابعك هذه ، أخرج ثديي من حمالة الصّدر ، يمكنُكَ الحصولُ

عليهما ، أتحبّهما؟ نعم ، تمتم بصوتٍ متكسّر . قبل سنواتٍ قليلة كانا أجمل ، أكثر صلابة . إنّهما رائعان ، همس ، فهو في أغلب الظّن ما رأى من قبل قطّ أي شيءٍ بهذا الجمال . ربّاه ، يا لروعة طريقتكَ في الكذب ، أحكم قبضتيكَ عليهما ، لا تكتف بالدَّغدغة ، نعم ، شددّ قبضتيكَ ، أنت في غاية الأمان إذا فعلتَ ، نعم هكذا يا حبّي ، أمَا سبق لك قطّ أن قمتَ بهذا؟ لا ، يهمس وهو متضرّج بحمرة التّوق ، حمرة الحياء . ألم يسبقْ لك مطلقًا أنْ كنْتَ مع امرأةٍ من قبل؟ يهزّ رأسه نفيًا وفي عينه تترقرق دمعة . أوه ، كم هذا جميل ، تنهَّدتْ هاربا ، ارفع تنورتي ، انزع كلسوني . على مضضٍ تخلّى دافي عن نهديها وشعرتْ يداه بفراغٍ كبير ، انحنى ، تلكّأ ، رفع عينيه نحوها ، حرَّك يديه المرتعشتين تحت تنورتها ، أنزل كلسونها ببطءٍ ، رفعتْ قدمها اليمنى بعض الشّيء ، ثمَّ قدمها اليسرى ، ضعه في جيب سترتك ، همسَتْ . دفعته مسافةً أبعد إلى الأجنحة الجانبيّة ، إلى طاولةٍ صغيرةٍ في الزّاوية ، كان يتنفّس كما لو أنّه يكاد يهمّ بالبكاء أو على وشك أنْ يغرق ، وهي تركتْ تنورتها تنزل على خشبة المسرح ، استلقت على الطّاولة ، فتحت ساقيها ، جذبتْه نحوها ، وجَّهت قضيبَهُ إلى فرجها ، وهو مطلقًا ، مطلقًا ، مطلقًا لم يتوقّع أن يكون في الدّنيا أي شيءٍ بمثل هذا البلل ، بمثل هذه النّعومة ، بمثل هذا الدّفء ، مسّدت وجهه ، مصّت شحمة أذنه ، ولعقتْ جفنيه ، بدأ يحرثُ فيها بينما راحت تندُّ عنها تأوّهات خافتة ، تشبه الأنين ولكنَّها ليست أنينًا ، همس بكلامٍ ما بصوتٍ مبحوحٍ ، مفعم بالقنوط ، مفعم بالسّعادة . يا حبّي يا حبّي تنهّدتْ ، أكمِل ، لا بأس بهذا ، أكمِل فقط ، وحشرت رأس لسانها في أذنه اليسرى وبعد ذلك ما عاد هناك شيء في العالم إلّا أنفاسها .

الذّكرياتُ ليستْ مثل الملابس التي تصبح باليةً من كثرة الاستعمال ؛ ما توقّف دافي تقريبًا عن التّفكير في ذلك طوال ستةَ عشرَ يومًا ، والتّأثير كان دائمًا نفسه ، تتفجّر عاطفته وينتصب قضيبه . أحيانًا اعتراه الخجل من التّأثير الأخير ، وحاول حينئذٍ أن يركّز أفكاره على عيني هاربا اللتين كانتا سوداوين ، على الرّائحة الحلوة التي هبّت من فروة رأسها ، على الابتسامة التي أضاءتْ وجهها حينما قابلها في التّعاونيّة . كان هناك حياء في تلك الابتسامة ، عبث ، تحرّش ، مودّة ، كان هناك شغفٌ . وإذا لم يأت هذا بأي مفعولٍ ، يذهب إلى مكانٍ خفيّ ليبقى فيه وحده ، حيث يختلي بنفسه مع ذكرياته الحميمة ، ولذلك عندما ظهر كيارتان من المنعطف ، كان متواريًا وراء جرّار الفورد القديم . أنا أتبوّل هنا وراء الجرّار ، صاح دافي ، كان قد كاد ينتهي ، غير أنّه توقّف عن متابعة ما يفعله حالما رأى زميله ، لأنَّ هناك بضعةَ أشياء في هذه الدّنيا يفضّل المرء أن ينهي القيام بها بلا أيّ إزعاجٍ من أحد .

جلسا قرب ماكينة إعداد القهوة إلى ما بعد الظّهر . دردشا قليلًا ، أنهى كيارتان ما أحضرهُ للغداء قبل السّاعة العاشرة ، وتسلّط على غداء دافي الذي بدأ بتناوله في السّاعة الحادية عشرة والنصف وما زال يشعر بالجوع . حاول دافي أن يغفو وهو على الكرسي لأنَّ ذاك الذي ينام يفقد الوعي بمحيطه ، يصبحُ حرًا من قيود الوقت ، يمكنه أن يطير ، يمكنه أن يموت ، يمكنه أن يقوم بأفعالٍ يمنعه وعيه من القيام بها وهو صاح . لحسن الحظّ ، لم يطرق باب المستودع أي زبائنَ . كان يومًا غائمًا جدًّا ، تخلّله تساقطُ ثلوجٍ خفيف ، والحرارةُ تقارب الصّفر في شهر كانون الثّاني . في بعض الأحيان تبدو الحال كما لو أنَّ صباحات كانون الثّاني تعبثُ في الأرجاء وتحبكُ الشّراك ، في مثل هذه الأحوال يُفضّل أن يبقى المرءُ في

البيت ، ألّا يذهب إلى أي مكانٍ ، يكتفي فقط بالاسترخاء على مقعدٍ والتّمني بأنْ ينساه العالم . مضغ كيارتان مكعّب سكّر ، تركه يتفتّتُ بين أسنانه ، تلفّظ بشتيمةٍ مباغتًا دافي خلال نومه الضّحل الخالي من الأحلام ، هذا لن يصل بنا إلى أي مكان ، قال كيارتان لحظة رأى عيني صديقه تنفرجان قليلًا ، لا ، وافق دافي . وبالتّالي وقفا ، ذهبا وأحضرا سلّما طويلًا مطواعًا ، يزداد طوله حسب الطلب . فتحا الباب المنزلق ، أخذا أنفاسًا عميقةً ، ثمَّ غاصا في الظّلام ، كان الوقتُ يشارفُ تقريبًا الواحدةَ بعد الظّهر . تقدّما بضعةَ أمتار ، بالكاد يقدران على تمييز شيءٍ في بادئ الأمر ، انتظرا إلى أنْ تتأقلم عيونهما مع الظلام ، ثمَّ جهّزا السّلم ، بدا الضّوء في منطقة الاستقبال بعيدًا جدًا جدًا ، مثل وميضٍ باهتٍ من عالمٍ آخر . أنت متأكّدٌ من أنّنا تحت لمبة الإضاءة تمامًا؟ استفسر دافي . متى يمكنُكَ أن تكون متأكّدًا حقًا من أي شيء؟ قال كيارتان وأخرج من جيب سترته لمبةً جديدة . من منّا سيصعد؟ لنقترع ، أتختار صورةً أو كتابة؟ اقترح دافي وهو يمسك قرشًا معدنيًا ، صورة ، أجاب كيارتان ، هزّ دافي القرش بخفّة بين يديه ، ثمَّ صفقهُ فوق ظهر إحداهما ، نظر إلى القرش وقال ، أنا آسفٌ يا صديقي ، ثمَّ عاد وأردف لكنّي سأثبّت السّلم . أنا لا أحبّ المرتفعات ، تمتم كيارتان ومع ذلك بدأ يتسلّق السّلم متقدّمًا نحو الظّلام الذي أخذ يشتدّ حلكةً مع كلّ خطوةٍ صعودًا ، كان من الآمن له أكثر أن يغلق عينيه ، ليمنع ذلك الظّلام من التّدفق نحو عصبه البصريّ واجتياحه ، طاغيًا على كلّ فكرةٍ ، على كلّ ذكرى . ثبّت السّلّم جيّدًا أيّها الأبله اللعين ، صاح مخاطبًا دافي . أنا أحاول! تحاول؟ ماذا تعني ، صاح كيارتان وهو يفتحُ عينيه ، لم يلمح شيئًا ولا حتّى السّلّم . كيارتان ، أنا أسمع شيئًا! صاح دافي بصوتٍ مضطرب . أطلق

كيارتان لسانه بالسّباب وتحسّس طريقه هابطًا السّلّم ، تبع دافي خارج المخزن ، رميا جسديهما على الكرسيّين أمام طاولة القهوة ، وكان كيارتان قد باشر توبيخ دافي بسبب أعصابه الخائرة عندما ظهرتْ لهما ببطءٍ نهايةُ السّلم الفضيّ العليا من الظّلام ، وبدا أنّه يقف بلا حراكٍ عدَّة ثوان ، ثمَّ سقط أرضًا بالسّرعة التي تشترطُها قوانين الفيزياء . ذهل الزّميلان عندما انهار السّلم وارتطم بالأرضيّة . هناك بالتأكيد تفسيرٌ منطقيّ لهذا ، قال كيارتان .

مرّ اليوم ، وفي السّاعة الخامسة غادرا متوجّهين إلى البيت .

4

في الصّباح التّالي عرج دافي على دار كيارتان وتوقّف هناك ، انتظره بينما أنهى تحضير غداء أطفاله ، ونظّف طاولة الفطور ، وقبّل آسديس مودّعًا . لم يستعجلا الوصول إلى العمل ، مشيا ببطءٍ شديد ، ماذا برأيك كان ذلك؟ سألهُ دافي للمرَّة المئة ، وكيارتان هزّ رأسه للمرَّة المئة ، أتعتقد أنَّ له علاقةً بأنقاض المزرعة؟ هزّ كيارتان رأسه مجدّدًا ، فكّر في تلك المرأة والمتجوّل الغامض وهما في السّرير معًا ، وقد اتّخذت المرأةُ في خياله وجه إليزابيت . يموت النّاس ، ثمَّ ينتهي كلّ شيء ، قال أخيرًا . أتعني أنَّ هذا ليس إلّا في رأسينا؟ نخر كيارتان . أيجبُ أن نرسل وراء هيلغا؟ أنا لسْتُ جبانًا ، تبًا ، وهي ستنصحنا فقط بأن ننزل إلى الشّاطئ ونحدّق ببلاهةٍ في البحر . يمكنُها أن تعيرنا كتابًا عن . . . أعني ، كما تعلم ، عن أشياء مثل التخيّلات ، عن تشوش الذّهن . لكن أليستْ كلّها بالإنجليزيّة؟ نعم

في أغلب ظنّي . أتستطيعُ قراءة الإنجليزيّة؟ ليس ربّما ما يتعلّق بأعمال علميّةٍ مثل تلك ، لكن لديّ قاموس . لا يوجدُ أي خَطْبٍ في رأسي ، اللعنة ، تشوّش الذّهن ، أين تجدُ كلماتٍ كهذه ، هيّا افتح الباب اللعين ، قال كيارتان بما أنّهما قد وصلا ، حتّى على الرّغم من أنّهما مشيا ببطءٍ لا يوصف لدرجة أنّ أي حلزون كان سينفجرُ من نفاد صبره لو رآهما . سنغيّر لمبات الإضاءة ، وسنملأ الطّلبيّات ، تشوّش ذهنٍ أو أشباح أو لا شيء ، أنا لا أعيرُ أيَّ اهتمامٍ لَعينٍ لمثل هذه الأمور ، أردف كيارتان ، ودخل . حسنًا أنا أفعل ، غمغم دافي وهو يتبعه على مضضٍ .

كانا في اليوم السّابق مربكَين كثيرًا بحيث تركا باب المخزن مفتوحًا ؛ أمعن دافي النّظر في الظّلام بينما حاول كيارتان الاتّصال بسيمي - بلا جدوى . علينا أن نخبر أحدًا عن هذا ، قال دافي عندما توقّف كيارتان بصورةٍ مؤقّتةٍ عن محاولة الاتّصال بسيمي . نخبرهم عن ماذا؟ أنتَ تعرفُ ، عن أكياس محسّنات العلف ، عن الكهرباء ، بل ربّما عن السلّم ، وأنّنا معًا شعرْنا . . . لا أدري ، شعرْنا بشيءٍ ما .

كيارتان : بمعنًى آخر قلْ إنّنا لا نكاد نجرؤ على دخول المخزن خوفًا من لمبات إضاءةٍ محترقة؟ ونعترف بأنّنا أبلهان؟

دافي : لقد شعرْتُ بشيءٍ ، وأنتَ شعرْتَ بشيءٍ ، إنّ هذا يتلاعب برأسينا ، لأبسّطَ لك التّعبير . ولماذا يجبُ ألّا نطلع أحدًا عليه ، يتحتّم عليكَ أن تتحلّى بشجاعةٍ كافيةٍ لتواجه مخاوفك .

كيارتان : سيسخرُون منّا .

دافي : اسمعْ . . .

كيارتان : كفى ، لن نقول أيّ شيءٍ لأحد ، ولا مطلق شخص واحد ، تبًا ، إلّا ربّما عن أسلاك الكهرباء التّالفة . لا أنوي أن أجعل من نفسي

أضحوكةً! وهبّ قافزًا بانفعالٍ بحمله من الكيلوغرامات كلّه ، حدج بغضبٍ زميله الذي كان يوازنُ جسمه على ساقَي كرسيّه الخلفيّتين ، رأسُه مستندٌ إلى الجدار ، وساقا الكرسي الأماميّتان في الهواء ، مُشرفًا في الوقت نفسه على كلٍّ من المخزن والباب الأماميّ . لطالما اعتراني الخوفُ من العتمة ، أعلن دافي . شخر كيارتان ، واندفع غاضبًا قاصدًا المخزن ، شنّج كتفيه ثمَّ تلكّأ على بعد بضعة أمتارٍ من الباب ، بسبب الهواء العكر الذي بدا أنّه يهيمنُ على فتحة المدخل . لماذا أنا في غاية العصبيَّة اللعينة ، فكّر ، مغتاظًا من نفسه ، مغتاظًا من دافي الذي جلس بهدوءٍ يرشفُ قهوته ويراقبُ زميله ، ومن حينٍ لآخر يلقي نظرةً على الباب الأماميّ . حطّ شيءٌ ثقيلٌ على سطح المستودع ، من المحتمل أنّهُ غرابٌ ، وهذا ليس شيئًا غير عاديّ ، بيد أنَّ كيارتان تشبّث بقوّةٍ بصدره ، ودافي دلق القهوة الدّافئة على فخذه اليمنى . غرابٌ منحوس ، تمتم كيارتان بعد أنْ هدأَتْ سريرته ، استدار ، تقدّم بخطواتٍ بطيئةٍ وبرويّةٍ نحو دافي ، وجلس على كرسيّه .

دافي : لقد دلقْتُ القهوة على ساقي .

كيارتان : وهل أحرقْتَ نفسك؟

دافي : قليلًا ، لكن لا شيء ذي بال .

كيارتان : مع ذلك عليكَ وضعُ شيءٍ باردٍ عليها ، تحسّبًا فقط .

أنتَ على الأرجح محقٌّ ، قال دافي ثمَّ وقف ، خلع بنطلونه ، مضى بسرواله الدّاخليّ الأحمر إلى الحمّام ، بلّل قطعة قماشٍ بماءٍ بارد ، عاد وجلس إلى الطّاولة ، وضع القماشةَ على فخذه . لا بأس ، أحتاج إلى الاتّصال بسيمي ثانيةً ، وإذا كنْتُ مصيبًا سيستغرقُ الأمرُ وقتًا طويلًا قبل الوصول إليه ، قال كيارتان كما لو أنّهُ يخاطبُ نفسه ، قبل أنْ ينظر

إلى دافي ويضيف ، اللعنة ، إنَّ ساقيك نحيلتان . ثمَّ بعد نصف ساعة ، وصل أوَّلُ زبون في هذا اليوم .

مزارعٌ من الرّيف ناحية الشّمال ، شابٌّ طويلٌ بارزُ العظام ، أسود الشّعر ، بفم ناتئ قليلًا ، ورائحةٍ واهية عالقة به من حظيرة الخراف . أتراني أزعجُكما ، قال مبتسمًا وهو يميل بجسمه على منضدة البيع – اسمه بنيديكت . اكتفى الرّجلان بالنّظر إليه ، وعاد دافي ولبس بنطلونه . هذا واحد من تلك الأيّام الهادئة ، قال بهمَّةٍ وهو يواصل الابتسام ، لا بأس ، يمكنُكما يا فتيان فعلُ ما يحلو لكما كما يحلو لكما ، لكنَّني بحاجةٍ إلى ستَّة أكياس من محسّنات الأعلاف ، و . . . أمم ، لقد ركنْتُ السّيارة عند باب صدّ الحرائق . . . نعم ستَّة أكياس ، إن لم يكن في هذا كثيرٌ من العناء ، أم أتظنَّان أنَّكما تحتاجان ربَّما إلى دفعة تحفيزٍ منّي؟

تفرّس الزّميلان في بنيديكت كما لو أنَّهما بصدد أخذ وزنه ومقاسه ، ثمَّ تبادلا النّظر ، أومأ كيارتان برأسه ، نهض بفتور ، تقريبًا كما لو أنَّه يفعل ذلك غصبًا عن إرادته ، اقترب من منضدة البيع ، رفع ذراعه اليسرى الثّقيلة وأشار تُجاه المخزن ، تتبَّع بنيديكت الإصبع بعينيه . لا أدري ماذا أقول ، قال كيارتان بأناةٍ ، بتردّدٍ ، وبصوتٍ جدُّ منخفض ، بحيث اضطرَّ بنيديكت إلى المبالغة في الانحناء إلى الأمام غريزيًا . لا يسعني أن أقول سوى أنَّ الظروف هنا ليست كلّها كما ينبغي أن تكون ، انظر كم المكان هناك مظلم . . . نعم ، يجب أن تضيئا المصابيح ، اقترح بنيديكت . تأمّله كيارتان محرجًا وقال ، ليت هذا كان بمثل هذه السّهولة ، إنَّني أحاولُ الاتّصال بسيمي وأنتَ تعرف كيف هو ، أسلاك الكهرباء اللعينة مهترئةٌ وعديمة الفائدة ، لا يمكننا حتَّى أنْ نستخدم الرّافعة ، بل حتَّى لا يمكننا أنْ نجعلها تشتغلُ ، و . . . تعال معنا ، بما أنَّك هنا ، وألق نظرةً على المخزن .

نقل بنيديكت عينيه من أحد الزّميلين إلى الآخر ، كيارتان خجل من نفسه ، ودافي مستقرّ على كرسيه المائل ، عيناه نصفُ مغمضتين ، ثمَّ نظر تُجاه باب المخزن ، أنتما مضحكان بشكلٍ جنونيّ ، قال أخيرًا وتثاءب .

تثاءبَ ، بنيديكت تثاءب ، مزارعٌ سنّه تزيد على الثّلاثين بقليل ، يعيش وحده ، هجرتْهُ زوجتُه قبل ثلاث سنوات ، شابَّةٌ من آكرانيس اسمها لوا ، ما عادتْ تطيق العيش في رتابة الرّيف ، آه يا ربي ، قالتْ ، إن ورود اتّصالٍ هاتفيّ هُنا مثل أبرز عناوين الأخبار ، وظهور سيَّارةٍ من خارج المنطقة حدثٌ هائل الضّخامة يجعلنا كلّنا نهرعُ إلى النّافذة ومعنا المناظير . لا أستطيع التّحمل . وما كانت تبالغ أيضًا ، إذ حتّى لو كانت الحياة سهلةً ، لم يكن الوضع على تلك الدّرجة من السّهولة بالنّسبة إليها . أحيانًا يتسنّى لها تأمّل بنيديكت لفتراتٍ طويلةٍ من الوقت ، أحبّت طريقة قيامه بخطواتٍ كبيرة ، وجدتْ أشياء قليلةً بجمال صدره الضّامر ، لكنَّ مشيته كانت خرقاء ، فهو ببساطةٍ في غاية النّحول ، ومن العسير عليها أنْ تريح رأسها على صدره ، ومن تحت ذلك الصّدر القلب الذي يمكن أن تسمعه يخفقُ بوضوح ، ولكن من غير أنْ تجد منفذًا للولوج إليه . لم يرغبْ بنيديكت قطّ في الذّهاب إلى أيّ مكان ، وفي بعض اللّيالي جلس على الأريكة ولم يسمحْ لأحد بالاقتراب منه ما عدا الكلب ، وتأمّلها عن بُعد ، كما لو أنّه على مسافةٍ جدّ هائلة منها ، بل حتّى كأنَّهُ في كوكبٍ آخر . وفي يوم ما ، خلال أوائل شهر تشرين الأوّل ، قاد بها بنيديكت السّيّارة إلى آكرانيس ، ومعهما أربع حقائبَ في الصّندوق ، ومقطورةٌ وُصلتْ بمؤخّر السّيَّارة محمّلة بكلّ الأشياء التي نميلُ إلى تكديسها من حولنا مع مرور الوقت . منحتْ لوا زوجها السّابق عناق وداعٍ ، اعتن بنفسكَ الآن ، قالتْ

بحيويّة ، غير أنّها واجهتْ صعوبةً في ابتلاع دموعها عندما عاد إلى السّيّارة ، وحيدًا جدًا ، منبوذًا جدًا ، وعيناه السّوداوان تبدوان بشكلٍ كبيرٍ كما لو أنَّ شيئًا قد انكسر في داخله ، ومع ذلك رفع يده محيّيًا ، ابتسم ، أو حاول الابتسام ، وانطلق بالسّيّارة مبتعدًا . مرّت ثلاث سنوات ، وما زالتْ ترسل له جواربَ صوفيَّةً في الخريف ، وبطاقاتٍ بريديّةً في عيد الميلاد ، وفي ذات ربيع أرسلتْ له قميصًا أبيضَ من ماركة «بوس» . بين الحين والآخر يتّصلُ بها بنيديكت هاتفيًا . عليكَ أن تحاول العثور على امرأةٍ صالحة ، قد تقول له لوا ، لا أعتقد ذلك ، يجيبُ عندئذٍ ، إنَّما ليس لاستدرار الشّفقة ، بل لأن لا شيء يحدث بذلك الخصوص ، واضح أنَّ القدر قرّر أنَّ عليه قضاءَ حياته وحيدًا . نادرًا ما يشارك بنيديكت في المناسبات الاجتماعيَّة ، غير أنَّه أقنع نفسه بالذّهاب إلى حفلة رقص رأس السّنة الأخيرة . كانت فرقة «الأبناء الطّيبون» تعزف عند خشبة المسرح ، وفي وقتٍ متأخّرٍ من تلك الليلة شدّته ثوريذر التي تعمل في عيادة الصّحة إلى ساحة الرّقص ، رقصا مدَّةَ نصف ساعة ، وداس على أصابع قدميها عدَّةَ مرّات ، ثمَّ قبّلته وهي تمسكُ نقرته ، ربَّما لتضمن ألَّا يحاول الإفلاتَ منها بسبب حيائه . ثمّ ابتعدا عن ساحة الرّقص وذهبا إلى باب البهو الفسيح ، وقفا هناك بضع لحظات وجهًا لوجه ، دوّت الموسيقى ، وكانت ساحة الرّقص بحرًا هائجًا ، وثمَّةَ رجلٌ انبطح مغميًا عليه أمام حوض الأزهار الكبير ، ولا مجال لأنْ يسمع أحدهما الآخر من دون الإمعان في الاقتراب ، وهذا ما فعلتْهُ ثوريذر ، دنتْ منه ، التصقتْ به ، لامستْ شفتاها أذنه اليسرى وتنفّستْ ، قالت : عيناك جميلتان لكنَّهما حزينتان يا بنيديكت . وماذا يمكن أن يعلّق على ذلك؟ لكن كان من اللطيف جدًا أن يشعر بها بهذا القرب ، ثمَّ أقبل الطّبيب أوربيورن واختفتْ ثوريذر

معه في ساحة الرّقص الهائجة ، تاركةً بنيديكت وحيدًا وضعيفًا . تلوّى خارجًا ، نزل درجَ المركز الاجتماعيّ ، دخل سيّارة أجرة البلدة ، خذْني إلى البيت قال للسّائق ، من غير أنْ يفكّر في الأمر ، من غير اتّخاذ قرارٍ واعٍ . اسمُ سائق سيَّارة الأجرة أنتون ، اجتمع مؤخّرًا بامرأةٍ بولنديَّةٍ في فلاّتيري ، وأرسل لها رسالةً نصيَّةً بينما هو ينتظرُ في سيَّارته خارج المركز الاجتماعيّ ، كانت تجلسُ وقد جفاها النّومُ عند الزّقاق البحريّ الغربيّ وردّتْ على الرّسالة . اسمها إستر ، قال أنتون لبنيديكت الذي جلس في المقعد الأماميّ وعيناه تستشفّان الليل ، من غير أن يدري كيف ينبغي أن يشعر . بيد أنّه في اليوم التّالي ، فكّر كثيرًا في ثوريذر ، في شفتيها ، في أنفاسها الدّافئة ، في صوتها . كنّا ثملَين ، وفعلتْ ما فعلَتْهُ بدافع الشّفقة ، قال لكلبه ، وأظنّ أيضًا أنّ هناك شيئًا ما يجري بينها وبين الطّبيب .

بعضُ الأشخاص ، على أيّ حال ، يفضّلون أن يعيشوا وحدهم ، يجدون الرّفقة في أكواب القهوة ، في التّلفزيون ، في مطالعة كتابٍ ما ، أو في الصّمت ، ولا يحتاجون إلى أيّ شيءٍ آخر في الحقيقة . لكنّ هذا الشّيء نفسه لا ينطبق على بنيديكت ، إلّا إلى حدٍّ معيّن . لا ندري كيف نوضّح هذا ، لا نفهمه حقّ الفهم ، فهو أحيانًا يرى أنّ ذلك عظيمٌ ، أنّ البقاء وحده مع الكلب أفضلُ من كلّ شيء ، في الوقت نفسه هو وحيدٌ جدًا ، بحيث نرى أنّه من المستحيل وصف ما يخالجه من مشاعرَ بالكلمات ، يمرّ الزّمن ، ولا شيء على طاولة المطبخ سوى يديه . أو كما تقول القصيدةُ : «هناك جروحٌ تستقر عميقًا جدًا ، قريبًا جدًا من القلب ، بحيث يمكن أن يكون حتى قرع المطر على النّافذة مهلكًا .»

والآن هو في المستودع مع دافي وكيارتان ، ويتظاهرُ بالتّثاؤب ليخفي

الانزعاج الذي كثيرًا ما يستحوذ عليه في حضور أناسٍ آخرين ، إنَّهما يسخران منّي ، يفكّر . ويقول كيارتان أخيرًا : هذا كما لو أنَّ شيئًا مريبًا يجري هناك . ماذا تعني؟ يسأله بنيديكت بخشونةٍ . يأخذ كيارتان نفسًا عميقًا ، ويقول بخجلٍ بالغ ، أتؤمنُ بالأشباح؟ يشخرُ بنيديكت . الأشباح للأطفال والسّيّاح ، يجيب . يخبط كيارتان يده على الطّاولة ، مباغتًا دافي بحيث كاد يسقط عن كرسيّه تقريبًا . أنت مصيبٌ قطعًا ، يرعدُ كيارتان ، مأخوذًا بالحماسة ، بل بالبهجة ، هذا ببساطةٍ مجرّد نوعٍ من التّشويش العاطفيّ اللعين ، كنْتُ أعرفُ! أخشى أنَّ ما تقوله غيرُ صحيح ، يعترض دافي وهو يتنهّد ، بينما يرفعُ كيارتان لوح المنضدة المفصليّ ، وعمليًا يجرّ بنيديكت خلفه ، يفعل ذلك باندفاع هائل . أنت شابٌّ عقلانيّ يا بنيديكت ، يقول كما لو أنَّه يضع فيه ثقته كاملةً ، ثمَّ يحتجز بنيديكت بعناقٍ كعناق الدّببة ، فيقاوم الأخيرُ ، محاولًا تحرير نفسه من ذراعي كيارتان الثّقيلتين ، وهو ما زال مقتنعًا بأنَّ الزّميلين يسخران منه . لكنّ كيارتان يشدّد التّمسك به ، ليس لديك حصًى في رأسك مثل دافي هنا ، ولا خطايا قاتمة تثقلُ ضميرك مثلي ، أنتَ تعيش وحدك وتألف الظّلام ، تعرف أنَّ ذلك الذي نشير إليه لا شيء سوى هواء بلا ضوء ، وتدرك بأنَّ ما هو ميتٌ ميت ، ولا يمكن أن يعود إلى الحياة ، ولن يتحرّك ثانيةً أبدًا . أنا بطبيعة الحال أدركُ هذا أيضًا ، غير أنَّ أعصابي ما فتئتْ تتلاعب بي مؤخّرًا ، لعلّي لا آكل ما يكفيني ، أو على الأقل لسْتُ أنوّع في الطّعام كما ينبغي ، وكنْتُ أعاني من مشاكلَ في المعدة ، شيء كهذا يمكن بالتّأكيد أنْ يثير أعصاب المرء ، كما تعلم يا بنيديكت ، هذا ما يخبرُنا به العلمُ . لكن حتَّى وأنا أدركُ ذلك كلّه ، بل حتَّى وأنا أصدّقه ، يبدو كأنَّ شيطانًا ما يتسكّع هنا ؛ الرّافعةُ لا تعمل ، ونسمعُ أصواتًا ، ونلمحُ طيف مخلوقٍ

ما ، وفي الأيّام القليلة الماضية ، بدا كما لو أنَّ كلَّ شيء أصبح أسوأ . . . على أي حال ، أنا لم أحتَجْ إلّا إلى رجلٍ مثلك يؤازرُني ويقفُ إلى جانبي ، رجل بقدمين ثابتتين على الأرض ، ليساعدني في السّيطرة على الأشياء ، قال كيارتان – ثمَّ صمَتَ وأفلت بنيديكت . لا بأس ، تنهّد بنيديكت ، لن يضيرَ في شيءٍ أنْ أدخل معك إلى هناك . هيّا ندخل إذًا ، هتف كيارتان ، بصوتٍ ليس عميقًا تمامًا بعمق صوته المعتاد . همس بنيديكت بكلام ما ، واختفيا في قلب الظّلام .

حدّق دافي في ناحيتهما عدّةَ لحظاتٍ ، ثمَّ وقف ومضى إلى المكتب الواقع خارج غرفة الاستراحة مباشرةً ، المكتب شاغر الآن بعد أن أفرغه ثورغريم من أغراضه كلّها ، غير أنَّ الهاتف ما زال هناك ، رفع دافي السّماعة واتّصل برقم السّاعة النّاطقة . عندما يشعرُ المرء بالضّيق ، بالوحدة ربَّما ، أو ربَّما هو خائفٌ من العتمة ، تبدو فكرةُ الاتّصال بالسّاعة النّاطقة فكرةً ممتازة ، حينئذٍ يسمع على الأقلّ صوتَ أحد ما ، بل أيضًا يطمئنه هذا بأنَّ الوقت ما زال على حاله ، على الرّغم من كلّ شيءٍ آخر ، بأنَّ الزّمن باقٍ في مساره ولم ينحرفْ عنه ، وبالتّالي لا سبب يستدعي القنوط . يجبُ أن يخبر دافي بنيديكت هذا ؛ مع أنَّ بنيديكت قد يفضّلُ الاتّصال برقم خدمات الطّوارئ ، أو ربَّما يعمدُ إلى إطلاق شعلةٍ ضوئيّة . ولو أنَّ ذلك سيكون عديمَ الفائدة ، فهو سيتلقّى التّوبيخ فحسب ، وقد يُصفَع بغرامةٍ ماليّةٍ كبيرة ، سيقال له إنَّ رقم خدمات الطّوارئ يقتصرُ على أشخاصٍ في خطرٍ مُهلك ، على أناس يواجهون مشكلةً في البحر ، أناس يعانون من ضيق في التّنفس ، أو محتجزين تحت سيَّارةٍ ، أو تائهين بلا أملٍ في البراري الموحشة ، بينما أنت تجلس مسترخيًا في مطبخ بيتك ، فما هو الخطر المهلك في هذا؟ أنهى دافي الاتّصال وعاد إلى طاولة القهوة ، جلس

في مكانه يراقب السّاعةَ المعلّقة إلى الجدار ، مرّت سبع دقائق منذ أن اختفى الرّجلان في المخزن . الدّقائق طويلة جدًا ، فكّر دافي ، ولو حوّلتها إلى حبل يمكن أن تصل إلى القمر . جلس على كرسيه ، رجع بظهره إلى الوراء ، أغمض عينيه تمامًا تقريبًا ، شعر بالسّكينة تهيمن عليه ، كأنَّ الضَّباب غلّف وعيه ، كأنّه هو بحدّ ذاته تحوّل إلى نوتةٍ وحيدة في الوجود ، في اللانهاية ، مجرّدُ نوتةٍ وحيدة ولا شيء أكثر ، ثمَّ ما لبث أنْ خرج الرّجلان . كان كيارتان يسندُ بنيديكت الذي تعثّر بشيءٍ وكشط جبهته ، كان يشعر ببعض الدّوار ، والدّم يقطر من تحت شعره الأسود ، ينبوع الحياة الأحمر ذاك . قام دافي وأحضر عدّة الإسعافات الأوليَّة ، نظّف الجرح ، وبقي بنيديكت معهما لساعةٍ أخرى . كتبَ دافي «مغلقٌ حتى الظُّهر» على قطعة ورقٍ وألصقها إلى الباب . صبّ كيارتان القهوة للجميع ، وحمل بنيديكت كوبه بيديه من غير أنْ يشربَ منه ، شاعرًا به يبردُ شيئًا فشيئًا . دردشُوا ، لم يقلْ بنيديكت كلمةً واحدةً عن الوحدة ، على الرّغم من كونها أشبه بطائرٍ ينقرُ قلبَه بلا توقّف ، وبين حينٍ وآخر انقطع عن متابعة الحديث ، وحملق بذهنٍ شارد في الفراغ ، وقد لانت تعابير وجهه ، والنّظرة في عينيه بدتْ مرهفةً ، أو متحسّرةً . تحدَّثُوا عن المخزن ، تبادلوا رواياتٍ عن الأنقاض ، فهناك نسخٌ مختلفةٌ تدورُ حولها . قال كيارتان إنَّهُ قد يكونُ من الصّعب التّفكير بوضوح في الظّلام الحسّيّ ، إذ يبدأ المرء في تخيّل أشياء ، وبمجرَّد أنْ يبدأ في فعل ذلك يبدو كأنَّه يفقدُ التّحكم بزمام الأمور . ألستُ أعرفُ ذلك؟ قال دافي ، ما سبق لي قطّ أنْ لاحظْتُ أو شعرْتُ بشيءٍ خارجٍ عن المألوف في البيت ، غير أنَّني لا أكاد أجرؤ على الذّهاب إلى غرفة الجلوس ليلًا ، دائمًا أتوقَّعُ رؤية رجل ميتٍ يجلسُ على الأريكة – ولهذا السّبب أترك دائمًا المصابيح مضاءةً في اللّيل .

بنيديكت : كانت أمّي مستبصرةً ؛ وغالبًا ما رأت أقزامًا يمشون في المرعى حول البيت ، وآمنَت أنَّ جدّي الأكبر كان الرّوح الحارسة لأبي .

كيارتان : وأنتَ أمَا حدث ورأيت أيَّ شيءٍ مطلقًا في السّابق؟

بنيديكت : لا ، ما شعرْتُ بشيءٍ على الإطلاق . قال أبي إنَّنا نفتقر إلى المخيّلة الواسعة ، لكن أُمّي قالت دائمًا إنَّ هذا يعتمد على موقف المرء ، أي عليه أنْ يكون منفتحًا على أبعادٍ أخرى . لا أدري ، ولم أمنح هذا أيَّ تفكيرٍ جديّ في يوم من الأيَّام ، ما عدا ربَّما وأنا في غاية السّأم ، لأنَّ بعض الأمسيات تكونُ كئيبةً جدًا لدرجة أنَّني قد أرحّبُ بسعادةٍ برفقة الأشباح! ضحك بنيديكت ، على الرّغم من أنَّ الحبور كان طفيفًا جدًا في عينيه . بعد أنْ غادر قال دافي : إنَّه ليس على ما يرام .

كيارتان : ينبغي علينا أن ندعوه إلى هنا كثيرًا ، يعجبُني هذا الرّجلُ ، ودعوته إلى هنا قد تساعدُه ربَّما .

دافي : صحيح ، معك حقّ .

صمت .

دافي : أوقعَ هناك فحسب؟

كيارتان : بئس الظّلام اللعين .

5

يمكن أن يكون الظّلام ودودًا ، فهو يزخرفُ لنا السّماء بالقمر والكواكب ، ويطمئنُنا بأضواء البيوت المجاورة ، ويتحفُنَا ببرامج التّلفزيون ، والجنس ، وقنينة ويسكي ، لذا يجب علينا ألّا ننتقص من قدر الظّلام .

نجح كيارتان أخيرًا في التّواصل مع سيمي الذي ظهر في المستودع بعد يومين من زيارة بنيديكت ، الإشاعات عن الظّروف التي هناك كانتْ قد انتشرت وأصبحتْ قيد التّداول ؛ كخدمة الزّبائن البطيئة على غير المُعتاد ، الرّافعة التي لا تعمل ، والعتمة المستهجنة ، يمكنكم التّأكّد من أنَّ مثل هذه الأخبار تنتشر بسرعةٍ بيننا هنا . وفي أغلب الظّن أنَّ بعض النّاس في بلدتنا يخشون الظّلام مثلهم مثل سيمي ، ولعلّ هذا هو السّبب الذي أدّى به إلى اتّخاذ قرارٍ بأنْ يصبح كهربائيًا . أوضح سيمي أنَّ أسلاك المبنى مضروبةٌ كلّها . ما دام الأمر كما تقول ، أيمكن أن تُسدينَا معروفًا وتصلحها بأسرع وقتٍ ممكن ، هتف كيارتان ، إنّنا لا نستطيع تمييز أيّ شيءٍ في المخزن ، وطلبيّات الزّبائن تتكدّسُ . سيستغرق هذا بضعة أيّام على أقلّ تقدير قبل إعادة الأمور إلى نصابها ، أجاب سيمي . من غير الممكن أن أباشر العمل في الحال . تبًا ، زمجر كيارتان الذي بدأ صبرُه ينفدُ ، إنّها حالةٌ ملحّة . أنا أحتاج إلى طلَب قطع الغيار من ريكيافيك ، ردّ سيمي وعلى وجهه ابتسامةٌ سخيفة ، بينما هو يلقي نظرةً خاطفة نحو المخزن ، ثمَّ سأل بصوتٍ هامس : أصحيح أنّكما أحسستما ، أممم ، بوجود شيءٍ ما؟ إلى ماذا ترمي؟ شيء ما ماذا؟ هزّ سيمي رأسه ، هذا لا يفاجئني مطلقًا ، من الحمق ، ببساطة ، إقامة بناء على الأنقاض من غير اتّخاذ إجراءات مناسبة ، الآن هي قضيّةُ انتقام ، وهذا في الحقيقة ما توقّعْتُ أن يحدث . ما عليك إلّا التّركيز على الأسلاك فقط . نعم ، هذا ما سأفعلُه حالما تصل قطع الغيار ، لكنّني أعتقدُ أنَّ الوضع أكثرُ جدّيّةً من مجرّد تغيير أسلاك ، أعتقد أنَّ شيئًا جسيمًا جدًا يجري هنا ، قال سيمي وهو يحثّ خطاه مقتربًا من الباب الأماميّ على عجل ، من غير أنْ يزحزح عينيه عن المخزن ، صرفُ الأشباح ليس مزحةً ، وكذلك طريقة

صمود الأشياء في وجه محاولات التّخلص منها . إصلاح الأسلاك لن يكون كافيًا ، علينا أنْ نعقد الصّلح مع أولئك الأشخاص . أنتَ لستَ إلّا دجاجةً مسعورةً ، هدر كيارتان ، وتقدّم خطوةً من سيمي الذي اندفع خارج باب المستودع بطريقةٍ أسرع تقريبًا ممّا يمكن أن تلاحظه العين . لعلّ هناك شيئًا حقيقيًا في ما قاله الرّجل ، علّق دافي وهو على كرسيّه ، هذا طبعًا سيكونُ جنونيًا ، غير منطقيّ قطعًا وحتمًا ، إنّما قد يفسّر كلّ شيء ، الشّعور الّذي يهيمن علينا هناك ، عدم الاطمئنان ، أكياس محسّنات العلاف ، العلف ، والسّلم . . .

كيارتان : لا نحتاج إلّا إلى ليلة نوم هانئةٍ لنصفّي أذهاننا .

ربّما نعم ، قال دافي مغلقًا عينيه ، أو ربّما لا . نظر إليه كيارتان عدّة لحظاتٍ ، راقبه بينما تغيّرت ملامحُ وجهه ، غدتْ أكثر رقّةً ، غدت حالمةً ، أأنت نائمٌ ، سأله كيارتان بنبرةٍ غير متيقّنة . لا ، أنا فقط أستمعُ إلى الطّنين في رأسي .

كيارتان : أيّ طنينٍ منحوس؟ آمل أنّكَ لسْتَ على حافّة الجنون ، وأنّك لن تقودني إلى الجنون كذلك .

دافي : أظنّ أنّنا معًا أصبحْنا مجنونَين قليلًا .

كيارتان : لا شيء غير صائب بي .

دافي : ما دامت الحال كذلك علينا أنْ نروّض أنفسنا لنتقبّل هذا – أشار برأسه تُجاه المخزن – باعتبار أنّهُ وضعٌ عاديٌّ وطبيعيّ تمامًا .

حدّق كيارتان بصمتٍ في الفراغ ، ثمّ هزّ رأسه : أكره النّاس الأذكياء . لنبدأ مجدّدًا : أيّ طنينٍ تعيس؟

دافي : أعتقدُ أنّ لهذا علاقةً بالأعصاب أو الأحلام ، لكن أحيانًا ، خصوصًا إذا لم تكن هناك مقاطعاتٌ ، يتحوّلُ الطّنين إلى صورٍ في

أحلامي ، مثل الأفلام . أعجزُ عن تفسير هذا كما ينبغي ، أفلام ، ليست الكلمةُ المناسبة ، لكن ، مهما كان كنهه يجلب لي السّعادة أو المتعة ، نعم يجلبُ لي قدرًا عظيمًا من المتعة .

لا يعجبُني ما تقوله ، علّق كيارتان ، أنا بكلّ صراحةٍ لا يعجبُني بتاتًا ، مدّ يده إلى صندوق غدائه وأخرج شطيرةً ، في تلك اللّحظة فُتحَ البابُ ودخل راعي أبرشيَّةٍ في الرّيف الجنوبي ، رجل في أوائل السّتينات من عمره ، بسالفَين شائبَين تحت قبّعة البيبسبول الحمراء التي يعتمرُها ، وبحاجبين في غاية الكثافة على نحوٍ غير عاديّ ، منحا وجههُ سماتٍ عنيفةً ، يتحرّك بشيءٍ من التّثاقل والصّلابة ، ولديه بطن كبير . وكان قد باشر الكلامَ حتّى قبل أنْ يغلق الباب خلفه ، قال إنّهُ قد سمع عن القضيَّة ، وقذفَ حقيبةً جلديّةً بنيَّة ومهترئةً على منضدة البيع ، ربَّتها ، انظرا هُنا يا فتيان ، تابع ، غير ملقٍ بالًا إلى صمتهما أو إلى التّعبيرات الحائرة التي ارتسمتْ على وجهيهما ، في السّنوات الأخيرة شغلْتُ نفسي بجمع ونسْخ الحكايات من هذه المنطقة ، والحكاية عن الأنقاض هذه تحتلُّ مكانةً عاليةً بينها ، هي جوهرة التّاج ، يمكن أن أصرّح بثقةٍ . ولماذا أقولُ ذلك ، نعم ، الحكايةُ رائعةٌ حقًا ، وما كان يمكنُني أنْ أكتبها بطريقةٍ أفضل . غير أنّني ما اضطررت قطّ إلى القيام ببحثٍ موسّعٍ ومسهبٍ عن المصادر ، إذ سلكت دربًا واحدًا ، فتفرّع إلى دربين ، والدّربان تفرّعا إلى أربعةٍ ، أيمكنُ أنْ أزعجُكما بكوب قهوةٍ؟ سألهما ، واستغرق الزّميلان بضع ثوانٍ قبل أنْ يدركا أنَّ القهوةَ غيرُ مرتبطةٍ بمجموعة الرّجل من المصادر والدّروب المتفرّعة . وقف دافي وصبّ كوب قهوةٍ لراعي الأبرشيَّة الذي رشفَها بعنايةٍ ، أربع مرّات ، محدّقًا ، وهو يفعلُ ذلك في وجهَي الرّجلَين الآخرَين من تحت حاجبيه الكثيفتين . تأمَّلَ كيارتان الشّطيرة

التي ما زالتْ بيده ، ثمَّ نظر إلى راعي الأبرشيَّة وفي نيَّته على الأرجح أنْ يقول شيئًا ، لكنَّ الأخير وضع كوبه فجأةً ، وفي الحال التقط طرف خيط كلامه من حيثُ انقطع : بحثي الشّامل الموسَّع سلَّط الضَّوء على كثيرٍ من الأمور العجيبة . ذلك الرّجلُ الغريبُ ، على سبيل المثال ، لم يكُنْ مجهولًا بالنّسبة إلى المزارع ، بل كان في الواقع أخاه غير الشّقيق ، نصف إسباني ، كما تنصُّ بعضُ المصادر ، بما أنَّه كان أسمر البشرة ، أو ، كما ينصُّ أحد المصادر ، يتميَّزُ بسيماء وجهٍ سلافيّة . تعودُ أصولُ الأخوَين الأولى إلى الزّقاق البحريّ الشّرقيّ ، انتقل المزارعُ إلى هنا وهو ما زال شابًا ، وقضى أخوه عدَّةَ سنواتٍ خارج المنطقة ، في البحر ، وعلى وجه الدّقّة اشتغل بصيد الحيتان ، ولم يرهُ أحدٌ مطلقًا في هذه الأنحاء ، و . . . أمم المرأة ، أعني زوجةَ المزارع ، المرأة كانتْ شبقة ذات شهواتٍ جامحةٍ لم يستطع المزارع قطّ أن يشبعها ، نعم يا ولديَّ الشّهوات مظلمةٌ ومن الصّعب التّحكم بها ، قال راعي الأبرشيّة بصوتٍ واطئ متلمّسًا بإحدى يديه جيب سترته بحثًا عن نظّارته ، ورافعًا يده الأخرى كما لو أنَّه يأمرُ كيارتان ودافي بالبقاء هادئَين . وضع نظّارته ، وبدأ ينقّب في حقيبته ، نعم حكاية الأنقاض هي حكايةُ غيرةٍ ، حكايةُ شغف ، وحكايةُ نار ، نار يا ولديّ . نارٌ تمتدُّ إلى ما وراء القبر والموت! أخرج بعض الأوراق من حقيبته ، تنحنح وبدأ يقرأ . تبادل كيارتان ودافي النّظرات ، كلاهما يبتسمُ قليلًا ، عاد دافي وجلس ، وتابع راعي الأبرشيَّة القراءة بتأنٍ ، وعلى الأرجح بدأ القراءة تقريبًا ، والمفوّض يصعد في الوقت نفسه إلى طابق التّعاونيَّة العلويّ ، حيث تكلّم مع أوستيلدر ، سائلًا إيَّاها ، أَحدثَ أنْ لمحْت فينور صدفةً في أي مكان؟

لا ، أجابتْ . معلنةً أنَّها قد بحثتْ عنه في الأمكنة كلّها ، هنا في

الطَّابق العلويّ ، وفي منزله ، لكن بدا كما لو أنَّ الرّجل تبخّر في الهواء الأثيريّ . كان ثورغريمر آخرَ من رآه ، وتملّكَه شعورٌ غريبٌ بأنَّ فينور كان يلتحم بالظَّلام . نخر المفوّض ، وقف أمام منضدة فينور الضّخمة ، تمتم ، هل كلّ مَن هنا في طريقهم إلى الجنون ، ثمَّ مرّر يدهُ فوق كومةٍ سميكةٍ من الأوراق ، قرأ العنوان ، السّنواتُ التي أحدثتْ فرقًا ، سيرة فينور آسغريمسون الذّاتيّة ، تحرّق شوقًا ليبدأ في مطالعتها ، لكن هناك وقفتْ أوستيلدر ، عيناها الزّرقاوان تتابعان حركاته ، تنشّق بعمقٍ رائحة عطرها ، كانت تضعُ نوعًا من عطر المسك ، الكثير منه ، وفي أغلب الأحيان وجّه لها فينور كلماتٍ لطيفةً مثنيًا على ذلك العطر . فجأةً هيمنتْ على المفوّض رغبةٌ جامحةٌ في أوستيلدر ، لهث ، فكّر ، سأعاشرُها هنا على المنضدة ، أفكّ سحّابَ بنطلوني ، واللعنة على كلّ شيء ، نعم ، سأضاجعُها على المنضدة . كانت أوستيلدر تقولُ شيئًا عن فينور ، تنفّس المفوّض بثقلٍ ، محاولًا ضبط نفسه ، فكّر في سولرون ، كافح ليصدّ الرّغبات الشّهوانيّة المتلاطمة في أعماقه ، شرع يحثّ الخُطى مبتعدًا ، حطّتْ عيناه على اللوحة الكبيرة ذات الإطار الذّهبيّ الثّقيل التي تصوّرُ جرفًا ينبثق باعتزازٍ من بحرٍ هائج ، عضو ذكريّ في مهبلٍ مائج ، فكّر ، هذه لوحةُ رعشة جماعٍ ، تبعته أوستيلدر وهي تثرثر ، فينور هذا وفينور ذاك . قال المفوّض نعم ، نعم ، وهو نصف راكض نزولًا على الدّرج ، غير ملقٍ بالًا إلى الذّهول الذي ألمَّ بأوستيلدر .

هل أعاني من أزمة منتصف العمر ، تساءل المفوّضُ في سرّه وهو يقف على الرّصيف محاولًا أن يهدّئَ من روع نفسه . كيف لي بأي حالٍ أن أفكّر في هذا مع أوستيلدر! أوستيلدر من بين جميع النّساء ، وهي تشبهُ البرميل ، وتضعُ ذلك العطر المثير للغثيان ، ماذا يحدث لي؟ ثمَّ التفت

كي يدخل إلى المتجر وكاد تقريبًا يصطدمُ بسيغريذور التي واجهتْه بنظرةٍ سريعةٍ - عينان بُنيّتان! راقبها المفوّض تقطع الطّريق على طول المبنى ، تعبر المجاز بين التّعاونيَّة والمستودع ، تفحَّصَ منحنيات جسدها ، الوركين اللذين تمايلا يمينًا ويسارًا تحت سترتها الطّويلة . تبًا ، قال لنفسه ، مهتاجًا ومحبطًا ، نظر إلى ساعته ، نصف ساعةٍ حتى يبدأ صفّ سولرون التّالي ، انطلق مسرعًا في اتّجاه المدرسة .

لم يكن راعي الأبرشيَّة قد وصل ولا حتَّى إلى نصف حكايته عندما فُتح الباب ودخلتْ سيغريذور . تقدّم كيارتان إلى منضدة البيع ، ترك دافي كرسيَّه ينزل على الأرضيَّة وفتح عينيه على وسعهما ، هزّ راعي الأبرشيَّة رأسه ، نافد الصّبر ليكمل حديثه . رفعت سيغريذور اللوح المفصليّ وقالت : أحضِرا لي كشّافًا ضوئيًا . امتثل كيارتان لطلبها فورًا مقتربًا كثيرًا من سيغريذور بقدر ما واتته الجسارةُ ، إنَّما ليس بالقرب الذي اشتهاه . شعرُها أشقرُ معقودٌ على شكل كعكةٍ عند مؤخّر عنقها ، وجهها رقيقُ التّقاطيع مع تجاعيدَ باهتةٍ ممتدَّةٍ من زاويتَي عينيها ، شذى عطرها زكيّ ولا يزكم الأنوف ، ونهداها مثل نصفَي بطيخةٍ تحت سترتها . ناولها كيارتان المصباح ، تلامستْ يداهما ، تدفَّق فيه شعورٌ بالبهجة الممتزجة بالطُّمأنينة . أمَّا هي فلم يخالجْها أي شعور ، عمدَتْ فقط إلى إضاءة المصباح الكاشف ، نظرَتْ إليه ببرودٍ وقالت : وثقْتُ بكما ، منحتكُما فرصةً . تمتم كيارتان بكلامٍ ما عن اللمبات المحترقة ، عن الأسلاك المهترئة ، عن شعورٍ مبهمٍ ، نخرتْ سيغريذور واختفتْ في المخزن حاملةً المصباح الكشّاف . أخذ راعي الأبرشيَّة نفسًا طويلًا ، خلع قبّعته ، مرّر يدهُ على شعره الخفيف ، تنحنح وقال اللعنة .

بعد دقائقَ قليلةٍ ، اندفعتْ سيغريذور خارجةً من الظّلام ، كم كانت رائعة رؤيتها تخطُو نحو الضّوء ، بوجهها ذي الملامح الدّقيقة لكن الحازم أيضًا ، بشعرها الأشقر ، بعينيها البُنيَّتين وجسدها الأهيف ، اهتزّ وترٌ في قلب كيارتان ، خلع راعي الأبرشيَّة قبَّعته مجدّدًا ، وضعها أمام قلبه كما لو أنَّه يفكّر في طلب يدها ، في تلاوة قصيدة حبٍّ لها ، أو حتَّى في غناء النّشيد الوطني ، في حين أنَّ سيغريذور لم تلتفتْ لا يمينًا ولا يسارًا ، أعطت كيارتان المصباح الكشّاف ، وقالت ستسمعان منّي قريبًا وخرجتْ بخطواتٍ متماسكة ، فتح راعي الأبرشيَّة فمه ، بيد أنَّها كانت قد ذهبتْ وأُغلِقَ الباب من جديد .

مضتْ سيغريذور إلى المتجر ، إلى مكتب رئيس العمَّال ، حجرة صغيرة بُنيت على منصَّة ، على مسافة درجتين صعودًا . تحتوي على منضدةٍ وكرسيين وخزانة ، وثمَّة صورة جويَّة كبيرة للبلدة معلَّقة إلى الحائط وراء المنضدة ، الحيطانُ الثّلاثة الأخرى تتألف من الزّجاج ، وعندما تجلس سيغريذور إلى منضدتها يكون في وسعها أن ترى المتجر بأكمله تقريبًا ، برفوفه العامرة بالبضاعة ، ومنضدتَي البيع . غير أنَّ سيغريذور لم تجلس في هذه المرَّة ، ارتدتْ معطفها الأخضر ، خرجتْ ، ركبتْ سيَّارتها ، قادت ببطءٍ شديدٍ في طريقها خارج البلدة ، مرورًا ببيت الفلكيّ الأسود . ثمَّ ضغطت بمزيدٍ من القوَّة دوَّاسة البنزين ، ولمَّا خرج غودمندر من حظيرة الخراف ورأى سيَّارة زوجته تتقدّم بسرعةٍ جنونيَّة ، قال لنفسه ، لا بدّ من أنَّ هناك خطبًا ما ، وشعر بالخوف يشتعلُ في داخله ، عميقًا في بطنه ، اتقد في البداية على شكل شرارةٍ صغيرةٍ جدًّا ، لكن سرعان ما راحتْ الشرارة تتفاقم بسرعةٍ ، وتملأ تجويف صدره ، تنتشر في ذراعيه ، ثمَّ تنحدر نزولًا إلى ساقيه . مرّ ما يقلّ عن ثلاث دقائق منذ أن رأى غودمندر

السّيّارة إلى أنْ ضغطت سيغريذور على المكابح في فناء المزرعة ، وما يمكن أن يخطر على بال المرء ويتخيّله خلال تلك الفترة من الوقت ، يقتصرُ على أمورٍ محدودة . لديهما ثلاثة أطفال ، كلّهم في العشرينات من العمر تقريبًا ؛ بنتان ، إحداهما طالبة في جامعة آكريري ، الأخرى متزوّجة من مزارع في الرّيف الشّمالي ، وابن هو الآن يكاد يقترب من سنّ الثلاثين ، يشرف على إدارة ورشة نجارةٍ في آكرانيس . وهناك أربعة أحفاد ؛ لدى سيغريذور شقيقان ، ولدى غودمندر أربعة أشقاء ، ما يعني ثلاثة عشر روحًا ، وإلى هذا العدد يُضاف والداه وأمّها ، ليصل المجموع إلى ستة عشر روحًا ، والكثير من الخطوب التي يمكن أن تطرأ . احتمالاتٌ لا تُعدّ ولا تحصى ، أشياءُ رهيبة يُستحسن ألّا تُناقش عبر الهاتف . ضغطتْ سيغريذور على مكابح السّيّارة في فناء المزرعة وترجّلت منها ، مشت نحو زوجها ، محرّك السّيّارة ما زال دائرًا ، وبابها مفتوحًا ، وفي رأس غودمندر احتشدتْ صور الحوادث ، أورام مفاجئة ، جلطات ، فيروسات دماغيّة ، بل حتّى ربّما محاولات انتحار ، لكن سيغريذور تقدّمت صوبه ولم يسبق لها قطّ أن نظرت إليه على ذلك النّحو . تتميّز عينا سيغريذور بلون بنيّ عميق جدًا ، غير أنّهما كانتا خاليتين من أي حزن ، ما يعني أنّ مكروهًا لم يصبْ أي واحدةٍ من تلك الأرواح السّتة عشر ، ولذا يمكن أن يتنفّس غودمندر الصّعداء ، وهذا على أي حال لم يستطع القيام به ، منوّمًا مغناطيسيًا كما كان بالنّظرة التي في عينَي زوجته . كان قد مضى على زواجهما ثلاثين سنةً ، عرف ضحكتها حقّ المعرفة ، تعابير وجهها ، كيف تنام ، كيف ترشفُ قهوتها ، كيف تفتحُ فمها عندما ترفع بوق الآيس كريم نحوه . ثلاثين سنةً ومع ذلك بدت في هذه اللحظة أشبه بغريبة ، لم يرَ من قبل قطّ هاتين العينين البُنيّتين هكذا . أخذت سيغريذور زوجها من

يده ، وقادته إلى البيت ، كادا تقريبًا أن يقعا في الرّدهة عندما انحنى ليخلع جزمته ، بينما استمرَّت في جذبه إلى الدّاخل ، ولم يفلح إلّا في البقاء على قدميه . وصلا إلى المدخل المؤدّي إلى غرفة النّوم الرّئيسة . كانت دائمًا مهووسةً بالنّظافة ومتمسّكةً بها . غودمندر هو أوّل مزارعٍ بدأ في تلك المنطقة يلبس بدلة عمل في حظائر الماشية ، وعلى مدى بضع سنوات كان موضوع سخرية الآخرين ، أمّا الآن فها هي جزمته تترك آثارًا موحلة في المدخل ، وهي تدفعه نحو سريرهما ، وهو ببدلة العمل وبجزمته . ثمَّ تفتح سحّاب معطفها ، تنزع عنها بلوزتها الحمراء الطّويلة ، تقتلع أزرار قميصها ، ليست هناك طريقة أخرى لوصف ما فعلته . تترك الأزرار تمطر فوق غودمندر ، ولا يفكّر في أي شيءٍ ، يستلقي هناك على السّرير فحسب ، لا يدري شيئًا ، لا يستوعب شيئًا ، في غاية الذّهول لدرجة أنّه لم يختبر أي انتصابٍ إلى أن فكّت له سحّاب بدلة العمل ، وأنزلتْ سحّاب بنطلونه ثمَّ انحنت فوقه بفم ناعم للغاية ودافئ للغاية .

بقيا في السّرير طوال اليوم ، ما عدا الإسراع خارجًا لإطفاء محرّك السّيارة ، وجلب بعض الوجبات الخفيفة من المطبخ ، وقنينة فودكا كانت عندهما منذ سنة ونصف ، لم يشربا منها خلال تلك الفترة أكثر من حدود نهاية عنقها ، بيد أنّهما أنهياها في تلك الليلة ، كان ذلك لا يُصدّق ، فتلك ليست حياتهما أبدًا ، في بعض اللحظات شعر غودمندر كما لو أنّه في فيلم ، كما لو أنّه مع امرأةٍ غريبةٍ عنه ، وكان ذلك مثيرًا جدًا ، على الرّغم من أنّ الخيانة الزّوجيّة لم تخطر مطلقًا على بال غودمندر .

دخلتْ سيغريدور إلى المخزن في يوم الأربعاء ، ولم تعد إلى العمل إلّا يوم الجمعة ، وحتى ذلك الوقت ، منذ عشرين سنةً ، لم يحدث أن تغيّبت يومًا عن العمل . في يوم الجمعة ذاك عادتْ إلى طبيعتها مجدّدًا ، واثقة

من نفسها ، باردة نوعًا ما ، شغّلت المصابيح في طابق التّعاونيّة الأرضيّ ، بينما في الوقت نفسه ترنّح غودمندر خارجًا إلى حظائر الماشية ، مستنزَفًا ، محرومًا من النّوم ، أهذا بسبب سنّ اليأس ، تساءل بينه وبين نفسه وهو يدهن قضيبه المتقرّح ببلسم الضّروع .

سنّ اليأس؟

لدينا شكوكنا بخصوص هذا الموضوع . لكن من ناحيةٍ أخرى ، نحن ندركُ أنَّ المسافة بين الجنس والموت لا تتعدَّى أحيانًا طول ذراع ، وهذا له علاقة بفقدان الأمل مع عطشٍ مجنونٍ للحياة ؛ ونحن نتكلّم عن الموت لأن ، على الرغم من حداثتنا البرّاقة ما زلْنا نخاف من الظّلام ، ما زلْنا نخاف من الأشباح ، من الإبهام الذي يكمن في ما بعد الحياة . ويوم دخلت سيغريذور المخزن ، راود لولا ليلتها حلمٌ - لولا امرأةٌ تعيش في البلدة ، تتنبَّأ بالمستقبل برواسب القهوة وأوراق اللعب ، متزوّجةٌ من لاكي أوسكار الذي قبل بضع سنوات ربح مليون كرونر في اليانصيب ، مرّتين ، فتخلّى عن عمله وتدهور منحدرًا إلى رجلٍ بدين وخامل يتسمّر أمام أفلام الفيديو وألعاب الحاسوب - نعم لا بأس ، حلمتْ لولا أنَّ المرأة في تلك المزرعة من الحكاية جاءتْها وقالت لها إنَّ الأمور كلّها ستعود إلى وضعها الطّبيعي حالما ينقلون المستودع من فوق الأنقاض ، يضعون صليبًا هناك ويكرّسون الأرض وقفًا . لكن حتى لو أغرانا تصديق الأحلام ، وأغرانا عدم تجاهل إملاءات امرأة ، سيكلّف نقل مثل ذلك المبنى الضّخم ثمنًا باهظًا ، سيكلّف الملايين في الواقع ، ومن أين نحصل عليها؟ في إحدى الليالي حاول الزّوجان ليكي وبيغا اللذان ترعرعا هنا في البلدة إحراق المستودع ، بعد أنْ تقاسما بينهما قنينة فودكا كاملةً ، غير أنَّ ما انتهى بالاحتراق كان فقط شعر ليكي كلّه تقريبًا ، وأحد قفازي بيغا .

في اليوم الذي تلا هذه الحادثة ، قال دافي لكيارتان ، سيكون من المسلّي أن نرى ليكي بلا شعر . أنا ما بدا لي مطلقًا أنَّ رؤية ليكي مسلية ، ردّ كيارتان ، سواء هو بشعر أو من دون شعر . من ناحية أخرى سأكون في قمّة السّعادة إذا أكثرت سيغريذور من زيارتنا . قلتَ سيغريذور! نعم ، هي تملكُ القدرة على أن تجمّد الرّجل من النّظر إليه فقط! تأمّل كيارتان صديقه وتابع ، أنتَ في ريعان الشّباب ، قال ، ولا تفهم . لا أفهم ماذا؟ لا تفهم ما المقوّمات التي تتمتع بها . هي في الخمسين من العمر يا هذا! اعترض دافي وهو يهزّ رأسه مستنكرًا . بل هي امرأة يمكن أن تصيبك بالجنون من غير أن يرفّ لها جفن . أخشى ألّا أستطيع ضبط نفسي إذا منحتني أدنى إشارة . أتقول إشارة؟ نعم ، أترى ، إذا منحَتْني بعض التَّشجيع . استمرَّ في أحلامك! علّق دافي ضاحكًا . بانتظارك الكثير لتتعلّمه يا دافي ، قال كيارتان ، وربَّما ينبغي أن أحسدَك على ذلك . وأنتَ لا شيء سوى كتلٍ من اللحم . لعدّة لحظات حدّق كيارتان إلى الأمام ، وقد اكتستْ تعابير وجهه بالاكتئاب ، مع لمسة حزنٍ . عضّ دافي شفته ، وغمغم كيارتان ، صحيح ، أنت في واقع الأمر لم تجانب الحقيقةَ .

ما الذي يُنسَب إلى عبارة «دمار العالم»؟

1

نشأ كيارتان في الرّيف إلى شمالِ البلدة ، في مزرعةٍ ترتفعُ عنِ الزّقاقِ البحريّ ما يزيدُ قليلًا على كيلومترٍ واحدٍ . كان صبيًّا وأمامه ترامَتْ أطرافُ البحرِ الدّؤوب في تغيير ألوانِه . تولّى إدارةَ المزرعةِ وهو لم يكَدْ يبلغُ العشرين من العمر بعد ، إذ كان أبوه قد فقدَ يدَه اليمنى بمنفاخِ التّبن ، ونتجَتْ عن ذلك ضوضاء مرعبةٌ . ومنذُ ذلك الحين لم يتمكَّنْ قطّ من معانقةِ زوجتِه بحرارةٍ كافية . انتقلَ الزّوجان إلى البلدةِ هنا ، وكلاهما شغلَ وظيفةً في معمل الألبان ، وفي الخريف تعملُ الزّوجةُ في المسلخِ ، تعمل بجدٍّ وكفاءة ، هي واحدةٌ من أولئك الذين يستحقّون أجرًا مضاعَفًا ، أمّا زوجُها الرَّجلُ المسنّ فدرجْنَا على أن نقولَ له أحيانًا : مدَّ لنا يدَ العون ، أو أنت اليوم ماهرٌ باستعمالِ إبهامَيك! نجدُ هذا مسليًا ، وكذلك يفعلُ هو ، في بعض الأوقات ، إنّما ليس دائمًا . أثبَتَ كيارتان قدرتَه على تولّي إدارةِ المزرعة بجدارةٍ فائقة بالنّسبة إلى حداثةِ سنّه ، ومنذُ صغرِه كان جسمُه يميل إلى البدانةِ ، وأصبحَ سمينًا بكلِّ ما في الكلمةِ من معنًى ابتداءً تقريبًا من سنّ البلوغ ، هذه طبيعةُ جسمِه فحسب ، تركيبتُه ، ولو أنّه في الواقع يفرطُ في الأكلِ ؛ الكعك في المساء ، وجيوبُ ملابسِه تكونُ دائمًا مكتظّةً بالبسكويت والشّوكولاتة أثناءَ جولاتِه في رعي الخراف . هذا مع أنّه في الواقع أفضل من أيّ راعٍ كان خلال تلكَ

الجَولاتِ . هو طبعًا لا يرهقُ نفسَه بالجري كثيرًا ، إذ يتعبُ بعد ثلاثة رقعٍ من العُشبِ أو بعد عشر خطواتٍ ، بيد أنَّه يتميّز بصوتٍ جهوري قويٍّ للغاية ، «رعديّ» أصيل ، يمكنُه به وحده أنْ يجليَ سفحَ جبلٍ بأكمله من الخراف . يصيح «هوه!» فتبدأُ الحصى بالانزلاق . أحبَّ أن يغني أثناء جمعِ الخراف ، وهذا كان لا بأس به ما دام يلتزمُ بالنّوتاتِ الواطئة . عند سماعِ أكثر نغماتِه عمقًا ترتعش رُكبُ النّساء ، لكن كلّما ارتفعَتْ طبقةُ صوته غدَتْ جوفاءَ مصطنعةً ، لدرجة أنَّها قد تستدعي المطرَ من سماءٍ زرقاءَ صافيةٍ ، وتجعل الكلاب تعوي ، وتُفسِدُ اللحمَ المدخّن على شرائح الخبز في أكشاك القهوة . كان كيارتان محبوبًا جدًا ، يشبهُ أمَّه ، يتمتَّع بروحٍ بشوشة ، وفي جعبته منجمٌ هائل من النّكات الفظّة . لا أحد شيّد سياجاتٍ بجمال سياجاته . درجَ أيضًا على تربية أفضل الثّيران في المنطقةِ ، وكان المزارعون يسعون إليهِ من مسافاتٍ بعيدةٍ ليستعيروها ، أو يحمِّلون بقرةً في عربةٍ ويأخذونها إلى مزرعةِ كيارتان ، حيث توضعُ تحتَ ثورٍ عمرُه ثلاث سنوات ، فيتمتمُ كيارتان بصوتٍ هامس «بول بول بول» ، وينهي الثّور مهمّته في غضونِ خمس ثوانٍ ، قضيبه مثل جزرةٍ هائلةِ النّمو . لكن ، لا داعي إلى الانشغال الآن بحياة الماشية الجنسيَّة ، هذا ممِلٌّ جدًا ، يدفع الثّور جسمه مرّةً ، مرّتين ، ثلاث مرّات ، تتدفق الرّغوة من فمه ، تجحظ عيناه ، ثمَّ ينتهي كلُّ شيء ، يعود الثّورُ إلى مرتعِه ليرعَى ، والبقرةُ إلى حظيرتها ، هذا بسيطٌ جدًا جدًا ، وهو ، بطبيعة الحال ، ليس كذلك بالنّسبة إلينا ، لسوء حظّنا ، أو ربّما يجبُ أن نحمد الرّبَّ على ذلك . اسمُ زوجة كيارتان آسديس ولديهما ثلاثةُ أطفالٍ .

لوقتٍ طويل ، بدا أنَّ الأحوالَ تجري على أفضل ما يمكن توقّعه بينهما

ومعهما ، كما لو أنَّ كيارتان وآسديس نفّذا خططَ الرّب وخططَ وزارة الزّراعة في تلك المزرعة التي يملكانِها . كيْفَ الزّوجان أساليبَ الزّراعة الخاصّةَ بهما مع روح العصر ، وكثيرًا ما تخيّلنا سياجاتِ كيارتان الجميلة تلمعُ تحت الشّمسِ في المستقبل البعيد ، كما أنّهما أنجبَا ذريّةً تخلّدُ ذكراهما ، وتركا بصمتهما في حياةِ المنطقة الاجتماعيّة . التحقَتْ آسديس بدوراتٍ تعليميّةٍ عن طريقِ المراسلة في المحاسبة ، اللغة الإنجليزيّة ، الألمانيَّة ، الأيسلنديَّة والرياضيَّات ، أرادَتْ أن تحاول توسيع آفاقِها قليلًا ، وفي بعضِ الأمسيات ، بعد أن يكون الأطفال قد أخلدوا للنوم ، وأخمد الظّلامُ مصابيح أبوابِ المزارعِ الأماميَّةَ ، اعتادَتْ أن تجلسَ إلى طاولة المطبخِ لتدرسَ ، ويكون كيارتان قد أطفأ التّلفزيون ، وجلس معها هناك بعد أن يجد شيئًا يطالعُه ، كصحيفةَ المزارعين الرّسميّة ، أو روايات «مَن المجرمُ» ، فالتّآزرُ لطيفٌ . بيد أنَّ جبلةَ المخلوق البشريّ هي ما هي عليه . مع ذلك ، يجبُ قبل المضي قدمًا ، الإقرارُ بما لا يقبل الشّك بأنَّ كيارتان أحبّ زوجتَه ، سمّاها شمسَه ، سمّاها زهرةَ الشّمس ، إشراقِي ، سمائِي ، وما قاله الشّاعرُ صحيحٌ حتمًا ، إنَّ الحبَّ هو العنصرُ الأقوى ، هو الطّاقةُ التي تحرّكُ عجلةَ الحياةِ وتمنعُنا من السّقوطِ على وجوهنا في العبثيَّة الرّماديَّة . لكن حتّى لو كان الحبّ يستطيعُ أن يغيّر كلَّ شيءٍ ، أنْ يزحزح بلادًا ، أن يشبك حياتَين مختلفتَين معًا ، ليس له أيّ سلطةٍ على أمرٍ أساسيّ للغاية مثل نداءِ الجسد ، مثل الرّغباتِ الشّهوانيَّة . المزرعةُ الأقربُ من ساومستاذر تُدعَى فالثوفا ، وهناكَ تعيشُ كريستن مع زوجِها وطفلَيهما وحماتِها .

في تلك الفترة تقريبًا ، أي خلالَ منتصَفِ تسعينيّات القرن ، أطلقَتْ كريستن لنفسِهَا العنانَ كي تنجرف نحو هوَسِ اللياقةِ البدنيَّةِ التي انتشرَتْ

في العالم الغربيّ مثل وعدٍ بالخلاص ، مثل مفاهيمَ جديدة ، وأساليبَ تفكيرٍ مبتكرة . تضاعفَتْ صالاتُ الرّياضةِ بسرعةٍ جمّة حتى تعذّر على النّاس إحصاؤُها . وسرعان ما أصبحتْ أعدادُها تفوق أعداد المدارسِ ، بل أكثر بكثيرٍ من أعداد الكنائسِ ، وهذا منطقيّ ، فتأثير مدرّبي اللياقةِ البدنيّةِ على حياتِنا أقوى بكثير من تأثير القساوسةِ ، الذين ، طبعًا ، أصبحَ زمانُهم في حالةِ تدهورٍ ، في حالة تقهقرٍ ، والذين لن تلبَثَ أيّامهم أن تنتهيَ ، مع ثيابِ الكهنوتِ السّوداءِ والابتهالاتِ الموجّهة إلى ربٍّ لم يرَهُ أحدٌ قطّ منذ ما يزيد على ألفَي سنةٍ ، ومع ذلك سنبقَى نستجدِيه ، بلا شكٍّ ، عندما نشعرُ باقترابِ النّهايَةِ . إنّها صدفةٌ مثيرةٌ ، على أي حال ، أنْ نأتيَ على ذكر الرّبّ وكهنتِه لأنّه فوق المدخل المؤدّي إلى صالةِ فالي الرّياضيّة ثمّةَ شعارٌ يقولُ «الجسدُ معبدُك» ، وأولئك الذين تلقّوا تدريباتٍ على ركوب الدّرّاجة الثّابتة هناك ، وكدحُوا لأربعين دقيقة عليها ، بعد ضبطِ سرعتِها على أقوى درجة يمكن أن تتحملها سيقانهم ، سيوافقُون حتمًا بأنّ التّعرّقَ وبذلَ الجُهد يطهّرَانِ عقولَنا وأجسامَنا جيِّدًا جدًا ، حتى يكاد يبدو لهم أنّ الشّعورَ الرّائعَ الذي يلي ذلِكَ هو حتمًا شعورٌ بالرّبّ . لأربعين دقيقةً ، يكون المرءُ خارج الزّمنِ والحياة ، لا شيء هناك سوى جهدِه ، سوى أنفاسِه ، وصوت فالي المُخدّر الآتي من مسافةٍ بعيدة ، ثمّ هذا الشّعور الرّائع الذي يبدُو أنّه يملأ الوجود بأسرِه . غير أنّ كريستن لم تكن قد قطعَتْ شوطًا في حملة لياقتها البدنيّة عندما ذهبَتْ إلى صالة فالي الرّياضيّة ، لم تكن بدينةً ، ولم تكن رشيقةً ، مجرّد زوجةِ مزارعٍ مالَتْ إلى شرب كأسٍ كامل من حليب البقر غير المبستَرِ وغير المقشود في المساء إلى جانب قطعة كعكٍ . لم يسبقْ لها أنْ مارسَت الرّياضةَ ، ولم تشدَّ عضلاتِها منذُ تخرّجِهَا في المدرسَة المتوسّطة في آكرانيس ، نوَتْ

أنْ تكمِل تعليمَها لتصبحَ ممرّضةً مساعدةً ، لكن مرَّت السَّنواتُ من غير أنْ تدرس شيئًا . لم تمارسْ تمارين شدّ البطْنِ على مدى سنواتٍ ، كانَتْ معدتُها مترهلةً ، رخوةً أكثر ممَّا ينبغِي ، ذراعاها مترهلتَين ، كما أنَّ جلدهما متدلٍ ، ثمَّ في أحدِ الأيّام قالَتْ كريستن لنفسها : يجبُ أن أحسِّنَ لياقتي البدنيّة . تفرّجَتْ على برنامج الرّياضَة في قناة التّلفزيون الثّانيةِ ، حاولَتْ تقليدَ ابتساماتِ النّاس البشوشةِ في الشّاشة ، من البديهيّ أنَّ النّاسَ ذوي اللياقة البدنيّة يبتسمونَ ، اشترَتْ لباس رياضةٍ ، وحذاء رياضةٍ ، «ابدأوا بالجري مسافاتٍ قصيرةً» ، قرأَتْ في إحدى المجلّات . وهكذا مارسَتْ كريستن رياضَةَ الجري عبر فناء المزرعة ، يمَّمتِ الأرضَ البورَ المنتشرةَ في الاتّجاهات كلّها ، انتشارٌ شاسعٌ يفصلُ بين مزرعتَي فالثوفا وساومستاذر ، مع عددٍ كبيرٍ من المنحدراتِ ، والتّلال ، والتّجاويف ، والخيولُ تسرح هناك طوالَ السّنة ، والخرافُ في الرّبيع وكذلك في أيّامِ الشّتاء المعتدلة . كم يبلغُ طول المسافاتِ القصيرَةِ ، فكّرت كريستن التي لهثَتْ قبل بلوغِها السّياج الذي لا يكادُ يبعدُ مئةَ مترٍ عن بيتها الرّيفيّ . اتّكأت على عمود سياج لتلتقطَ أنفاسَها ، وجثم كلبُها إلى مقربةٍ منها وهو يبصبصُ ذيلَهُ بسعادةٍ ، فرؤيةُ مخلوقٍ راشدٍ يجري بلا سببٍ ظاهرٍ أمرٌ جديدٌ عليه كلّ الجدّة . التفتَتْ كريستن لتنظر إلى الوراء ، مدركةً تمامَ الإدراكِ أنَّ زوجَها بيتور وأمَّه يراقبانِها من نافذة المطبخ وهما يهزّان رأسَيهما مستهجنَين تصرّفها . أطلقَتْ كريستن لسانَها بالسّباب ، عادَتْ منهكةً إلى البيت ، والكلبُ في أعقابِها وقد خاب أملُه . تظاهرَتْ بأنَّها لا ترى الابتسامةَ السَّاخرةَ المخفيّةَ بشكلٍ سيّئ المرتسمةَ على وجه حماتِهَا . ذهبَتْ لتغتسلَ ، استمنَتْ ، فعلَتْ ذلكَ بعزمٍ قويّ ، بل بعنفٍ متخيّلةً أنَّها مع رجلَينِ مجهولَين في صالةِ رياضةٍ ، ربَّما لتستسيغَ العودةَ إلى زوجِهَا وحماتِها في المطبخ ، ارتدَتْ

ثيابَها ، خرجَتْ ، مضَتْ إلى السّيّارة وقادَتْها إلى البلدةِ ، ركنَتْها خارجَ مبنًى أبيضَ ؛ خارج صالةِ فالي الرّياضيّة ، وقفَتْ أمام الجدار المواجهِ لموقفِ السّيّارات ، وتحت الشّارة التي خُطّ عليها شعارُ الصّالةِ الرّياضيّة ، رشّ مراهقٌ ما بدهانٍ أحمرَ حروفًا شامتةً تقولُ : عاشَ القضيبُ! دخلَتْ كريستن المبنَى ، تريثّتْ أمامَ المنضدَةِ المستديرَةِ التي صفّتْ تحتَ سطحِها الزّجاجيّ أصنافُ المأكولات الصّحيّة ، وأمامها في الثّلّاجة مشروباتُ الطّاقةِ . وعلى رفٍّ إلى الجدار كتبٌ عن التّنجيم ، وفوق الكتبِ عُلّقَتْ ورقةٌ بيضاءُ قياس أ 3 تعرضُ الإعلانَ التّالي :

يقرأ فالي ورقَ التّاروت ، قراءةُ شهرٍ بـ 6000 كرونر ،
قراءةُ ثلاثةِ أشهر بـ 10000 ، قراءةُ سنةٍ بـ 14000 ، قراءة
مدى الحياة السّعر بالاتّفاق (حسب عمرٍ وصحّةِ السّائلِ) .
ملاحظة : القراءاتُ لفتراتٍ طويلةٍ أقلّ دقّةً!

تقعُ صالةُ التّدريبِ بعد منضدةِ الاستقبَالِ ، وفوق البابِ شعارُ الجمنازيوم الجسدُ معبدُكم ! وتحتَ الشّعار علّق فالي مؤخّرًا نقشًا آخرَ بحروفٍ أصغرَ قليلًا من الشّعارِ الأوّل : تذكّروا أنّكم ستشعرون بخيرٍ، ما دامَتْ أجسادُكم بخيرٍ !

استقرَّ رأي كريستن على أنّها يجبُ ألّا تنتظرَ أكثر ، مشَتْ بتردّدٍ إلى صالَةِ التّدريبِ ، ثمّةَ مرايا بطولِ مترين تغطّي حيطانَها كلّها ، موسّعةً مساحةَ الغرفَةِ إلى حدٍّ كبيرٍ ، وجاعلةً من الصّعبِ بأي حال تقدير عددِ الأشخاصِ هُناك ، تقديرِ أيٍّ من الأجسادِ هي مجرّدُ انعكاسٍ في المرايا وأيٍّ منها حقيقيّ ، ومن التّلفزيون تأتي موسيقى إيقاعيّةٌ عاليةٌ ،

تصاحبُها مغنيةٌ شابّةٌ تنظرُ مباشرةً إلى الكاميرا ، تعابير وجهها تأملية مع مسحةِ حزنٍ . نهداها ظاهرانِ بوضوح تقريبًا ، نهدَان مشدودَان وفتيَّان . وما بين حينٍ وآخرَ تظهرُ خلفَها راقصتان ، ترتديان حمّالتَي صدرٍ ضيّقتَين جدًا وسروالين داخليّين ورديَّين بشريطٍ رفيع ، وكالمغنيَّة مكشوفتَي الصّدر تقريبًا ، نحن بلا أدنى شكّ نعيشُ في عصرِ الكشف . أولَتْ كريستن الشّاشة ظهرَها ونظرَتْ حواليها بحثًا عن فالي . في وقتٍ من الأوقات كان فالي مثلَ أي أحدٍ آخرَ هنا ، عملَ في شركةِ الكهرباء ، وعملَتْ زوجتُه في المصرف ، ربَّيا أطفالهما الأربعةَ إلى سنّ النّضوج . عائلةٌ عاشت في أجواء حياةٍ روتينيَّةٍ خالصة . ثمَّ طرأ شيءٌ ما على فالي وقال إنَّه قد أبصرَ النّور ، وهذا ما علّق عليه أحدُ الأشخاص بقوله ، لا شيء غريب في هذا - أنتَ تعملُ في شركة الكهرباء . لكن من الواضح أنَّ فالي لم يعنِ ضوءَ مصابيح الكهرباء ، بل ألمّحُ بذلك إلى النّور الذي ينبع من الدّاخل ويغيّرُ حياةَ المرء . بادئ ذي بدء ، أسّس الجمنازيوم الأوّل في البلدة ، في قبوٍ صغير مستأجَر ، يفتح أبوابَه بعد فراغِهِ من العمل باعتبار ذلك هواية لا أكثر . غير أنَّ فالي سرعان ما اعتنقَ روحَ العصر ، التّغييرات كانت وشيكةً ، وموجةُ اللياقةِ البدنيَّةِ دهمَتِ العالم الغربيّ ، مقالاتٌ ومقابلاتٌ في الصّحف والمجلّات وصفَتْ كلّها كم شعرَ النّاس بالارتياح بعد أن غدت أجسادهم رشيقة ، مع عناوينَ صاعقةٍ ومقنِعةٍ مثل «حياةٌ بمتاعبَ أقلّ» ، «أنا سعيدةٌ» ، «الرّياضةُ غيَّرَتْ حياتي» ، وهذا بطبيعة الحال له تأثيرٌ علينا ، وفضلًا عن ذلك مُنح فالي إعانةً ماليّةً كبيرةً من الولاية ليشتريَ البيتَ المطلي باللون الأبيض الذي بقيَ خاليًا من السّكّان منذ أنْ أصيبَ المستشارُ الهَرِمُ بنوبةٍ قلبيَّةٍ وخرَّ برأسِه فوقَ عصيدةِ الخوخِ المجفّف ، وانتقلَتْ زوجتُه إلى دار المسنّين ، حيثُ أقامَتْ

هناك علاقةً مع حبيبِها من الطّفولةِ - خيطُ التُقِط بعد أنِ انقطعَ منذُ خمسين سنةً . مُنحَتِ الإعانةُ الماليّةُ برعايةِ البرنامج الحكوميّ المتعلّقِ بالتَّنميةِ الحضريَّةِ والصّحّة ، تحْتَ شعارِ «صحةٌ أفضلُ ، مجتمعٌ أفضلُ» ، وعلى مدى السّنوات القليلَةِ الماضيَةِ ، فتحَ فالي صالتَه الرّياضيّة يوميًا من 7 إلى 9 صباحًا ومن 12 إلى 9 مساءً ، نشتَري منه وصولاتِ الانتسابِ السّنويَّةَ ، متأكّدين من أنَّ الحياة ستكون أفضلَ ، والسّماء ستكون أنصعَ ، والبلدة ستكون أكثر جمالًا إذا أحسنّا استخدام وصولات الانتساب هذه بمزيدٍ من الانتظام ، لكنَّنا نميلُ إلى التَّكاسل في الصّيف والخريف ، ولا وقتَ لدينا في كانون الأوّل ، والأفضل إذا استطعْنا أن ننخرِطَ في معمعةِ التّمارين خلال شهرَي كانون الثّاني وشباط ثمَّ مجدّدًا في الرّبيع ، حتَّى يتسنَّى لنا التّخلص من ملابسِنا صيفًا على الشّواطئ المشمسةِ ، وما عدا ذلك ، تجمع وصولاتُ انتسابِنا السّنوية الغبارَ ، ونبتسم مُحرجِين عندما نلتقي بفالي المتألق دائمًا بلياقتِه البدنيَّةِ ، المتفجّر بالصّحّة والسّعادة ، مع خصلاتٍ ملوَّنةٍ تخالطُ شعرَه الأشقر .

هل جئتِ للتَّمرين؟ يسألُها فالي وقد ظهرَ إلى جانبِها فجأةً ، كما لو أنّه انبثقَ من الأرضيَّةِ ، وذراعُه بعضلاتِها المفتولة تحيطُ كتفَيها ، نعم ، كنتُ أفكّر في الأمر ، تجيبُ كريستن ، لكنَّ فالي يسارعُ إلى إسكاتِها ، يقودُها إلى طاولةٍ في إحدى الزّوايا ويقول : التّفكير والتّردد مقترنان بالخسارةِ ، وقبل أنْ تعيَ كريستن شيئًا ممَّا يحدثُ ، تكون قد خلعَتْ سترتَها ، وبلوزتَها وجواربَها ووقفَتْ على الميزان . قاسَ فالي ضغطَ دمِها ، وطولَها ، وبلطفٍ تحسّسَ جسدَها ، كطبيبٍ تقريبًا ، وهو في أغلبِ الأوقاتِ يقولُ إنَّه قسٌّ وطبيبٌ في آنٍ واحدٍ .

2

وبدأَتْ أيّامٌ جديدةٌ .

أعدَّ فالي لكريستن برنامجَ هرولةٍ مفصَّلًا ، مشدّدًا على أن تجريَ مسافاتٍ قصيرةً في البداية ، ثمَّ تمشي قليلًا ، ثمَّ تهرولُ مجدّدًا ، وهلمّ جرّا . وهرولَتْ كريستن ، مع عصابةِ رأسٍ لامتصاصِ العرقِ ، بدلةِ رياضة ، حذاءِ ركض ، والكلبُ في أعقابها . هرولَتْ ، ركضَتْ ، مشَتْ ، اختفَتْ بين التّلال ، رشحَ منها العرقُ ، مرّنَتْ ساقَيها بمعدّاتِ تمرينِ فالي مع الموسيقى الإيقاعيَّةِ من التّلفزيون ورائحة عرقِ الأجسام الدّافئةِ ، هرولَتْ بعيدًا عن المزرعةِ ، مشحوذةً بالهمَّةِ أكثر من أي وقتٍ مضَى ، أكثر نشاطًا ، وأكثر سعادةً . هكذا يعيشُ المرء ، فكّرَتْ ، حتّى لو هزّ بيتور رأسَه متحوّلًا ، وفعلَتْ حماتُها الشَّيءَ نفسَه ، مردّدةً كلامًا مثل «تطرّفٌ ، وبلاهةٌ ، والحمد لله أنَّها قامَتْ بذلك بينما الأطفال في المدرسَةِ» غير أنَّ الكلبَ كان سعيدًا ، لا شيء يضاهِي الجريَ عبر الأراضي البورِ مع إنسانٍ ، هذا تقريبًا أروعُ من أن يُصدّقَ . إذا كان الجو لطيفًا ، جرَتْ يومًا بعدَ يوم ، وتغيّبَتْ عن استعمالِ أجهزة التّمرين ، إذ على المرء حتمًا أن يستفيدَ من فصلِ الصّيفِ ، ذلِك الصّيفُ القصيرُ جدًا بحيثُ إنَّ المرء قد ينامُ خلال مروره . وفي أحدِ الأيَّامِ بينما كريستن في الخارجِ تهرولُ صادفَتْ كيارتان .

كانَا بمنأًى عن أنظارِ مزرعتَيهما ، وبعيدَين جدًا عن مرمَى السّمعِ ، كان كيارتان قد خرج ومضى إلى السّياج الفاصلِ بين المزرعتَين ،

ليتحسّسَ كلُّ بقعة من مزرعتِهِ بجسمِهِ ، وليتفقَّدَ في الوقتِ نفسِه حالةَ السّياج ، جلبَ معهُ مرزبةً ومطرقةً وزرديّةَ تثبيتٍ ، وفي جيبِ سترته خمسون مشبكَ سياجاتٍ . التقَى بكريستن في بقعةٍ من الأرض طريّةٍ جدًا والسّياجُ قد بدأ يغورُ وينحني إلى الأمام ، بل حتَّى بدَا أنَّ جزءًا من طرفِه متغلغلٌ في الأرض كما لو أنَّهُ غارقٌ في تجويفٍ لا قاعَ له . كانَ يومًا معتدلًا ، سماءُ الصَّيف غائمةٌ جزئيًا ، نسيمٌ خفيفٌ ، ذبابٌ يطنّ ، وعناكبُ متسارعةٌ في كرّها وفرّها بين الأعشاب . حلّق طائرُ شنقبٍ في السّماء ، ثمَّ أطلقَ العنان لنفسِه حيثُ هبط محدثًا الدّندنةَ المميّزةَ بريشِ ذيلِه . كانت كريستن قدْ ربطَتْ سترةَ بدلتِها الرّياضيَّة حولَ خصرِهَا ، كاشفةً عن فانيلةٍ بيضاءَ ، والعرقُ يتصبّبُ منها . وكان كيارتان ينضحُ بالعرقِ أيضًا ، ويشعرُ بوطأةِ الحرارةِ من جرَّاءِ كدّه وهو يحاولُ إصلاحَ السّياج الغائر ، كانَ قد خلعَ قميصَه ، وسترتَه الرّقيقةَ وبلوزتَه وفانيلتَه ، وكلُّها ملقاةٌ على العشب . كيارتان بدينٌ إلى حدٍّ كبير ، وفوق حزام بنطلونِه تدلّت طبقاتُ الدّهن مثل غيومٍ متلاطمَةٍ . مضَتْ على كريستن وهي تهرولُ عشرون دقيقةً بلا توقّف ، وثيابُها قدِ التصقَتْ بجسمها ، وكانت قد خلعَتْ لتوّها حمَّالة الصدرِ الخاصة بالرياضة ، وطوتْها ثم حشرتها في جيبِ سترتِها ، شعرَتْ براحةٍ عظيمةٍ لمّا أحسَّتْ كما لو أنَّ نهدَيها أخذا يتنفّسان بارتياح عميق ، ولم تتوقّع قطّ أنْ تصادفَ في طريقِها أحدًا ، إذ من النّادر في الرّيف الأيسلنديّ أن يجتمعَ المرءُ بأحدٍ ، ربَّما يرى سيَّارةً تمرّ ، بضعةَ أناسٍ يقومون بأعمالٍ مختلفةٍ في مزارعِهم ، ولا شيء أكثر ، والآن هناك وقفَ كيارتان عاريَ الصَّدر ، تاركًا مرزبتَه تتهاوى من يدِه إلى أنِ ارتاحَ رأسُها

على العشبِ ، وقالَ الشَّيءَ الأوَّلَ والوحيدَ الذي تفتّقَ عنه ذهنُه : هذه أنتِ! نعم ردَّتْ كريستن ، وهي تحاول أن تواري أنفاسِها المتقطّعة : وهذا أنتَ ، أيضًا!

وقفَا صامتَين لمّا لم يسعفْهما التّفكيرُ في شيءٍ آخرَ يمكن أن يقولاه ، تفصلُ بينَهما مسافةُ أقلّ من عشرةِ أمتار ، فانيلة كريستن المضمّخةُ بالعرق بدَتْ مثل قفّازٍ شفّافٍ على نهدَيها . بذل كيارتان جهدًا كبيرًا جدًّا كي لا ينظر ، وهذا لم يكن كافيًا ، صعبٌ أن يسيطرَ المرءُ على عينيه ، وأسهل طبعًا أن يكونَ كلبًا وليس رجلًا ، فكلبُها وكلبتُه سرعان ما راحَا يتشمَّمانِ بعضهما بعضًا ، ويتبادلَان آخرَ الأخبار ، تشمّمَ كلبُ كريستن مؤخّرةَ كلبةِ كيارتان كما لو أنَّ لسانَ حاله يقول ، هذا شيءٌ أحبُّ أن أستكشفَه أكثر . حلّتْ كريستن عقدة سترةِ بدلتها الرّياضيَّة ، ونحّتها من على خصرِها ، لبسَتْها وأغلقَتْ سحّابَها إلى منتصفِه ، حاولتِ القيامَ بذلك ببطءٍ ومن دونِ اكتراثٍ لتخفيَ توتّرها ، أنا أهرولُ ، قالَتْ ضاحكةً ، شبهَ معتذرةٍ تقريبًا ، لأستعيدَ لياقتي البدنيَّةَ . نعم ، سأستعيدُها بالتَّأكيد! وهذا صحيحٌ طبعًا ، ينبغي على المرء أنْ يستمعَ إلى جسمِهِ ، أردفَتْ كريستن ، ثمَّ عضَّتْ شفتَها السّفلى واحمرّتْ خجلًا وهي ترنو إلى بطنِ كيارتان المتدلّي ، فما كانَ منه إلّا أنْ أطلقَ واحدةً من ضحكاتِه الطّفوليَّةِ العميقَة وقالَ ، ستأتِي عليَّ بالنّفعِ مرافقتُك والهرولةُ معك ، وصفعَ بطنَه المتدليّ الذي ترجرجَ تحتَ راحةِ كفّه ، وانتشرَ الاهتزازُ من هناك إلى خصرِه . ضحكَتْ هي أيضًا ، ولوَتْ أصابعَها وقد تحكَّمَتْ بها رغبةٌ ملحّةٌ مفاجئةٌ وسخيفةٌ في أن تتركَ أصابعَها تغوصُ في ذلِكَ اللحم المكتنز ، في أنْ تراهَا تختفِي وسطَ الشّحم المتراكم . ما عادَ لدى الكلبَين ما يتبادلانِه من أخبار ، أنَّ كلبُ كريستن بصوتٍ منخفضٍ وحاولَ اعتلاءَ كلبةِ

كيارتان . راقبهما البشريَّان وقد علا الابتسامُ وجهَيهما ، بيدَ أنَّ كريستن ما لبثَتْ أن سارعَتْ إلى تهدئةِ كلبِها وهي تقول ، لا بأس الآن ، وهذا ما ردَّدَهُ كيارتان وهو يتلمّسُ الأرضَ باحثًا عن مرزبتِه . فكّت كريستن سحَّابَ سترتِها ، تلكَّأت قليلًا ، ثمَّ نزعَتْها وأعادَتْ ربطَهَا حول خصرِها ، ابتسمَتْ لكيارتان وقالَتْ ، أشعرُ بحرٍّ شديدٍ وأنا أهرولُ . أصدّقُ ما تقولينَه ، أجابَ بحيويَّةٍ بينما رفعَتْ يدَه اليسرى المرزبةَ بسهولةٍ فائقةٍ ، وتركَها تستندُ إلى أحدِ أعمدَةِ السّياج ، ثمَّ وهو يُحكمُ قبضتَه على المرزبةِ بقوّةٍ أضافَ لا ريب في أنَّ الهرولةَ في مثل هذا الجو اللطيفِ عظيمةٌ . لكنَّ المشهدَ الجميل سرعان ما عاد ليواجهَ عينَي كيارتان ، فقد بدَا له كما لو أنَّ نهدَيّ كريستن امتدّا نحوَه ، بعدما التحمَا بفانيلتِها الرَّطبةِ ، وهذا أتاحَ لكيارتان أنْ يستشفَّ معالم حلمتَيها البُنيَّتين . نهرَتْ كريستن كلبَهَا المهتاجَ الذي عادَ إلى تشمّم مؤخّرةِ الكلبَةِ ، ثمَّ انطلقَتْ مهرولةً ونهدَاها يتأرجحَانِ ، استدارَتْ بعد بضعةِ أمتار ، رفعَتْ يدَها محيّيةً ، وصاحَتْ أهرولُ يومًا بعدَ يومٍ عندمَا يكونُ الجوّ هكذا ، لا شيء أقلّ سيفيدُ ، وبعدئذٍ اختفَتْ . تبعَها الكلبُ ، ولاؤه وطاعتُه أقوى من غرائزِه الجنسيَّةِ ، وهذا شيءٌ آخرُ يميّزُ الكلابَ عن البشرِ .

أرخَى كيارتان قبضتَهُ عن المرزبةِ وتركها تنزلقُ ، تدلّتْ ذراعاه على جانبَيه ، ونكسَ بصرَهُ ناظرًا إلى بطنِهِ الطّافح باللحم الذي استطاعَ أن يميّزَ كلَّ غرام فيه . أنا كتلةُ نفايات ، فكّر ، أنا بدينٌ كخنزيرٍ ، لماذا بحقّ الجحيم لم أضع عليَّ قميصِي ، واضحٌ أنّ نفسها اشمأزت من مشاهدةَ خصري المشوَّه هذا ، ولماذا بحقّ الجحيم فغرْتُ فمي كما فعلتُ من رؤية نهدَيها ، مثل شخصٍ منحرفٍ لعينٍ . تنهّد كيارتان ، ارتدَى قميصَه ، جلسَ على كومةِ عشبٍ ، حملقَ إلى الأمام ، وشعر بالجوع ، أطبقَ جفنَيهِ

واستعاد صورةَ كريستن ، ناضحةً بالعرقِ ، متلألئةً بفانيلتِها الرّطبةِ التي مطّهَا ثدياهَا البيضاوَان . فتحَ عينَيه فجأة ، وقد تصدَّى له الخوفُ من أنَّ كريستن ستخبرُ الأخرين كلّهم في المنطقة عن هذا ، كيفَ فغرَ فمَه أمامَ مرأى نهدَيها . وقفَ بتثاقلٍ ، جمعَ أدواتِه ، عادَ إلى البيتِ ، وأقسمَ ألّا يقومَ بأي إصلاح للسّياج في الأسبوع التّالي ، وقطعًا ليس بعدَ يومَين ، أنا أركضُ يومًا بعد يومٍ ، ولسان حالها يقول : لازِمْ بيتَك أيّها الرّجلُ الطّيّبُ .

بعد يومَين ، يقفُ كيارتان هناك في الموضعِ نفسِه ، في الوقت نفسِه . يغرزُ أعمدةَ السّياج ، يكدحُ بعزمٍ . ساقاه متباعدتان ، سترتُه منزوعةٌ ، ولا يكفّ عن التّطلع حواليه ، قلقًا ، متوترَ الأعصاب ، مضطربًا ، لا يعي ما الذي ألمَّ به . عُدْ إلى البيت يا أبلَه قبل أن تأتيَ ، قبل أنْ تجعل من نفسِكَ أضحوكةً . لكنَّه لا يذهبُ إلى أي مكانٍ ، وعندما تظهرُ يكون منهمكًا في سحب السّلك الشّائك وإحكام شدّه ، يتظاهرُ بأنّه لا يلاحظُها ، فهو رجلٌ مشغولٌ ، يفكّر ، والأملُ يحدُوه في أنّها ستتابعُ هرولتَها فحسب . تقفُ كريستن فجأةً حينما ترَاه . كان الجوّ في هذا اليوم أفضل من السّابق ، بالكاد أقلّ من سبعَ عشرةَ درجةً ، وكانت قد خلعَتْ حمَّالة الصّدر الرّياضيّة ، وحملتها بيدها اليمنى ، نسيجُ فانيلتها ملتصقٌ بجلدِها النّديّ . عمدت إلى استعمال حمَّالةِ الصّدر لتجفّف صدرَها ومعدتَها ، ورفعَتْ فانيلتها لتبرّد جسمَها ، وقد برزت حلمتاها قليلًا إنّما بشكلٍ واضحٍ في النّسيم الدّافئ . مرحبًا ، تقول ، لأنّه من الغباء أنْ تمرَّ به وتتابع هرولتَها ، يرفعُ رأسَه بدهشةٍ ، أوه ، هذه أنتِ ، ثمَّ يفقدُ السّيطرةَ على عينَيه لثانيةٍ ، لثانيتَين وربّما لثلاث ثوانٍ ، تاركًا إيّاهما تنزلقَان من وجهها إلى ثديَيها اللذين بدَا له أنّهما يصيحان ، لا بل يصرخَانِ ، يا

هذا ، ها نحنُ هنا! تبًا ، بئسَ الجحيم اللعين ، يفكّر كيارتان ، ثمَّ يقولُ من غير تفكيرٍ : أوه ، أيمكنُ أن تساعديني في تدبيس السّلكِ الشّائكِ هُنا ، نسيْتُ جلبَ الموتّر اللعين ، وأحتاج حقًا إلى يدٍ أخرى لأربطَ السّلك . أنا في الواقع لا أريدُ إفساد روتيني ، تردّ كريستن ، بنبرةٍ جافّةٌ تقريبًا . يتجمّدُ في أرضِه ، لا ، طبعًا لا ، آسف ، سأتدبّرُ الأمر ، لا داعي للقلقِ ، أراكِ لاحقًا ، لا مشكلة . لكنها عندئذٍ تهزُّ كتفَيها ، تقولُ ، لا بأس ، مشبكٌ واحدٌ لن يسبّبَ الضّرر ، وبعد ذلك عليَّ أنْ أعودَ إلى الجري . شكرًا جزيلًا ، يقول ، أنا حقًا أقدّرُ عزيمتكِ ، أعني ، حرصك على روتينكِ هكذا ، هذا أمرٌ عظيمٌ حقًا ، ثمَّ يلحف في شدّ السّلك بمزيدٍ من القوّةِ ، فيتذبذبُ قليلًا بينما تدقّ كريستن المشبكَ بالمطرقةِ ، بضع ضرباتٍ شبه حِرَفيّة . من زاويةِ عينِها ترى ذراعَيه النّحيلتين ، بطنَه المتدلّي ، وهو مبللٌ بالعرقِ ، تشعرُ بنهدَيها يتأرجحَان مع ضرباتِ المطرقةِ . إنَّه يحدّق بصدري ، تفكّر ، أدمغةُ هؤلاء الرّجال في أعضائهم الذّكوريَّة . كُفَّ عن الحملقةِ يا أبله ، يأمرُ نفسه . انتهَى شدّ السّلك ، يُفلتُه ، تناوله المطرقةَ ، تقول بنعومةٍ إلى اللقاء ، وهو يقولُ إلى اللقاء وشكرًا على المساعدة ، بصوتٍ عالٍ بلا أيّ داعٍ . تتسلّل من بين السّلك الشّائك وحافة السّياج ، تمشِي بضع خطواتٍ ، تلتفتُ لتنظرَ إليه ، تراهُ يريحُ يدَه على عمودِ سياجٍ وينظر إليها ، ناضحًا بالعرقِ وفي عينَيه وميضٌ . يبدو لها أنه لا شيء سوى جسد ، فتتركُ عينيها تتحرّيان جسمَه نزولًا ، بتأنٍ ، بلا خجلٍ ، كما لو أنَّها تمسّدُ جلدَه بهما ، يزدردُ ريقَه ، تهمّ بالانطلاق ، تنطلق ، تقف بعد بضع خطواتٍ ، تستديرُ وتنظرُ ، ثمَّ يطرأ عليهمَا شيءٌ ما . وبعدَ ذلكَ يحدثُ! يحدثُ انفجارٌ في داخلِهمَا يشلّ الأفكارَ كلّها ، يشلّ المنطقَ ، يمحو الماضي بأسرِهِ والمستقبلَ بأسرِهِ ، لأنَّه لا يبقَى أمامهما في

العالم سوى تلك اللحظة عينها . تندّ عن كيارتان صيحةٌ نصفُ مكتومةٍ ، يحاولُ محمومًا التسلق فوق السّياج ، يضغط يدَه على السّلك الشّائك ، يجرح نفسَه ، يتعثّر ، يفقد توازنَه ، يقعُ ويصدم ظهره بعمودِ السّياج ، يؤلمُه ذلك ، وتعلق ساقُ بنطلونه بالسّلك ، يتلوّى بشراسةٍ وتهوّرٍ عندمَا تدنُو منه ، عندما ترمِي نفسَها فوقَه ومن حنجرتها تنبعثُ أصواتٌ تتراوحُ ما بين العويل والهدير . أنا عالقٌ ، يلهثُ ، البنطلون الملعون ، لا تردُّ بشيءٍ ، تمدُّ يدَيها كما لو أنّها عمياء أو غارقة في عتمةٍ كليّة ، تتحسّس اليدان طريقهما في جسمِه نزولًا ، تبحث عن حزام البنطلون تحت لحمِه المتراكم الذي ترفعه ، تنحّيه جانبًا ، تعصرُه بملءِ يدَيها مرّتين بشدّةٍ بالغة تجعلُه يجفل ، أخيرًا تهتدي إلى الحزام ، تفكّه ، تحلّ أزرارَ البنطلون ، والسّحاب ، يرفعُ مؤخّرتَه ، يحاول مساعدتَها ، ظهري اللعين ، يئنُّ ، ثمَّ لقَدْ تحرَّرتُ ، كما لو أنّها غيرُ قادرةٍ على رؤيةِ ذلك ، كما لو أنّها لم ترَ فخذَيهِ السّمينتين بأوعيتِهما الشّعريّة المُدمّرة ، كما لو أنّها لم ترَ لباسَه الدّاخليَّ الأسودَ وقد انتفخَ ، تمزّقُ قميصَها ، وفي الحال يتلقّفُ نهدَيها مثل رجلٍ يغرق ، وهي تقبضُ على يدِه النّازفةِ وتلعقُ الدّم ، ينزلُ بنطلونَ بدلتِها الرّياضيّة ، يتدحرجان معًا على العشبِ ، وفي آنٍ واحدٍ يزعقانِ «ارحلَا» في وجه الكلبَين اللذين راحَا يقفزان من حولهما ، ضعْ بنطلونكَ تحتِي ، تلهثُ ، هذا العشب المنحوسُ يلتصق بمؤخرتي ، وكلمةُ مؤخرتي تلك تحرمُه من آخر ما تبقّى من ضبطِ النّفسِ ، يشدُّ ويمزّقُ سروالَهُ الدّاخلي ، ينبطحُ فوقهَا ، تقبضُ على كتلةٍ من لحمِهِ بملءِ كفّها ، تفتحُ ساقَيها على وسعِهما ، وتمتلئ بقضيبِهِ الضّخم . تحفّزُه بكعبَي قدمَيها ، تخبطُه بكلتَا يدَيها ، ورؤيتُهما من بعيدٍ قد توحي للنّاظرِ بأنّهما ربّما يتعاركَان .

ثمَّ انتهَى كلُّ شيءٍ .

يضعَان عليهمَا ثيابَهما ثانيةً وهما جالسَانِ على العشب . يفعلانِ ذلِكَ خفيةً تقريبًا ، وقدِ اتّقدَتْ شعلةُ النّدم عميقًا في داخل كلٍّ منهما ، خالجَتْهما مثل التباسٍ مُبهَم في بادئ الأمر ، مثل تموّجاتٍ صغيرَةٍ على سطح بحيرةٍ ملساءَ كمرآةٍ ، ثمَّ ما لبثَتْ أنِ ازدادتْ شيئًا فشيئًا ، وأخيرًا عكَّرَت السّطحَ بأكملِه . قالا إلى اللقاء من غير أنْ ينظرَ أحدُهما في عينَي الآخر ، ابتعدَ كلٌّ منهما عن الآخر بسرعةٍ ، وهما يفكّران أبدًا ، أبدًا مرَّةً أخرى . عندما عاد كيارتان إلى البيت لم يستطع التَّطلّع إلى آسديس وجهًا لوجه . أمَّا كريستن فأجلسَتْ بيتور على أحد كراسي المطبخِ وقصَّتْ له شعرَه بلطفٍ ، وتريَّثَتْ ما بين لحظةٍ وأخرى لتداعِبَ أذنَه ، وهو تركَ جفنَيه ينخفضَان .

هناك الكثيرُ ممّا نريدُه ، والقليلُ ممّا يمكنُنا فعلُه . مرَّ الصَّيفُ ، مع أشعَّةِ الشَّمسِ والمطرِ والرّيح والسّكينَةِ . أنا ذاهبةٌ لأهرول ، قالَتْ ، أنا ذاهبٌ لأمشي ، قال ، لألقيَ نظرةً على السّياج ، أو ربَّما لم يقلْ شيئًا على الإطلاق لأنَّه مزارعٌ وليسَ عليه أن يبرّرَ لأيّ أحدٍ أفعالَه عندما يقصدُ أيَّ مكان في مزرعتِه . فكّر في نهدَيها ، في مؤخّرتها ، فكّرت في كتفَيه العريضتَين ، في دفنِ يديها خلال لحمه الطّري الدّهنيّ . التقيَا دائمًا في البقعةِ نفسِها ، ورؤيتهما من بعيدٍ قد توحي للنّاظر بأنّهما ربَّما يتعاركان .

3

يجبُ ألّا يخطر على بال أحدٍ أنَّ هذا كان سهلًا بالنّسبةِ إليهما ، ففي كثيرٍ من الأحيان يُفسِدُ الشّعورُ بالذّنب مسرّاتِ الجسد إفسادًا كاملًا . كيارتان ، على سبيل المثال ، أحبّ زوجتَه ، ونحنُ جدّ متأكّدون من أنّنا سبقَ وذكرنَا ذلك . أنتِ شمسي ، قال لها في أغلبِ الأوقَاتِ . سمائِي ، زهرتي . خلال مرّتين جلس على العشبِ وأجهشَ بالبكاء بعدَ اختفاءِ كريستن عن مرمَى بصرِهِ . مع ذلك لم يتوقّفا عن اللقاء ؛ فنحنُ سيِّئون كثيرًا في السّيطرة على أجسادِنَا . جاء الخريف . وفي عدَّةِ مناسباتٍ وصل كيارتان إلى حافَّةِ الاعترافِ بكلّ شيءٍ ، سعى إلى أنْ ترافقَهُ آسديس في نزهةٍ طويلةٍ عند الشّاطئ ، في رحلةٍ طويلةٍ بالسّيَّارة ، وثرثرَ في تلك الأثناء بلا انقطاعٍ ، لكن مطلقًا لم يأت على ذكر ما أراد البوح به . لم ينمْ جيّدًا ، قلقلَ النّدمُ أحلامَه ، انبثقَ من مساماتِ جلدِه ، نامَ وإلى جانبِ سريرِهِ منشفةٌ ، نهضَ في هدأة اللّيل ، نزل إلى المطبخ ، أشعل الضّوء ، شرب كوب حليب ، تأمّل نفسه في زجاج النّافذة المعتم ، وفكّر ، يجب أن أضع حدًا لهذا ، فكّر ، يجب أن أخبر آسديس عن الأمر . أثّرت هذه الحالة على أعماله الرّتيبة اليوميّة ، في الحظيرة يحدّقُ بذهنٍ شاردٍ عبرَ النّافذةِ بينمَا تستنفدُ آلات الحَلْبِ ضروعَ الأبقار ، ما عاد يملكُ القدرةَ على متابعةِ أي برنامج أو فيلم في التّلفزيون له علاقةٌ بالخيانَةِ الزّوجية ، ولا حتّى عندما تكون آسديس قدِ استقرّتْ على الأريكةِ إلى جانبِه ، ومعها شوكولاتة ، ومشروباتٌ منعشة وفُشار ، إذ ذاك يتشنَّج كما لو أنَّ أحدًا

يشهرُ عليه مسدّسًا ، يعجز عن البقاءِ هادئًا ، يتمتمُ بعذرٍ ما ، ويلوذُ بالفرارِ إلى المرآبِ . قبل سنواتٍ قليلةٍ ، اشترى كيارتان سيّارةَ دودج إصدار سنة 1955 ، سيّارة متهالكة إلى حدٍّ ما ، كانت تقريبًا في طريقِها إلى أن تُنقلَ إلى مدفنِ الخردَةِ . ومنذ ذلك الحين صرفَ الكثير جدًا من السّاعات في المرآبِ يصلحُ الدّودج التي سرعانَ ما سترى أنَّ كرامتَها قد استُعيدَتْ بالكامل . لكن ، حتَّى تلْك السّاعات ما عادَتْ ذاتَ فائدةٍ ، في بعضِ الأوقاتِ قد يكتفي بالجلوس على أحد مقاعدها الخلفيّة والشّعورُ بالذَّنب يمزّقُ قلبَه مثل طائرٍ ضارٍ ، وقدْ يكونُ منحنيًا على المحرّك ، وفجأةً يفكّر في لسانِ كريستن ، ويسترجعُ الكلمَاتِ التي همسَتْ بهَا له .

غيرَ أنَّ آسديس ما لبثَتْ أنِ اكتشفَتْ كلَّ شيءٍ .

هي طبعًا خمَّنَتْ بأنَّ هناك شيئًا غير سويّ ، فقَدْ كانَ ذهنُ كيارتان مشتّتًا كثيرًا ، ويتصرّفُ بعصبيَّةٍ تفوقُ المعتاد ؛ غدا شحوبُه شديدًا ، وبدا متعبًا ، بل حتَّى كما لو أنَّه يتحاشَاها في بعضِ الأحيان . كانَتْ قلقةً . اقترحَتْ عليهِ أنْ يذهبَ ويرَى الطّبيبَ ، خشيَتْ أنْ يكونَ ذلك بسببِ السَّرطانِ ، اللوكيميا ، أو نوبةٍ قلبيّةٍ وشيكةٍ . لا ، لا ، طمأنَهَا ، لا أحتاجُ إلى الذّهابِ لرؤيَةِ الطَّبيبِ ، وهذا صحيحٌ بالتَّأكيد ، إذ ما من وصفاتٍ هناك تعالجُ الخيانة الزّوجية ، ليس من الممكنِ شراءُ عقاقيرَ تقضي على الشُّعور بالذّنبِ ، ليس بعد ، مع أنَّ العلمَ يواصلُ القيام بخطواتٍ جبارةٍ . لم يخبر كيارتان أحدًا عن علاقتِه الغراميّةِ خارج الحياة الزّوجيَّةِ ، لم يكن لديه أصدقاء يمكن أن يأتمنَهم على أسرارِه ، بينما كانَتْ لدى كريستن صديقةٌ مقرّبةٌ منها في البلدَة ، أولافيا وتُدعَى عادةً فِيا . ثمَّ في يوم ما في أوائل الشّتاءِ ، رأَتْ كريستن أنَّها ما عادَتْ قادرةً على ضبط نفسِها ، وأنَّ عليها ببساطةٍ أنْ تفشيَ سرَّها المحرَّم لأحدٍ ما ، وهكذا أخبرَتْ فِيا بكلِّ

شيء ، لأنّه كان من الصّعب جدًا ، بل المؤلم حتّى ، أنْ تُبقيَ ذلِكَ محصورًا في داخلِهَا ، فتحَتْ فمها وتركَتْ ما في جعبتِهَا ينسكبُ إلى الخارج . لتخفّفَ الحملَ عن كاهل ضميرِها . نعم ، هذا صحيحٌ بكلِّ تأكيدٍ ، لكن ربَّما أيضًا لتعلِنَ أنَّ حياتها أصبحَتْ تحتَوي على الدّفء واللون ، أنَّها ليسَتْ حياةً راكدةً ، أنَّها خاليةً من خمولِ الرّيف ، بل ربَّما جنحَتْ أيضًا إلى تنميق الحكاية قليلًا ، مضفيةً عليها مزيدًا من السّحر والتّشويق ، قالَتْ إنَّ كيارتان أحضر لها الأزهار دائمًا ، وأخبرتْها أنَّه يطلق عليهَا ألفَ لقبٍ تحبّبيّ ، أنَّه كان في غايةِ الرّقّة ، أنَّه كان شهوانيًا جدًا ، برّيًا . أغمضَتْ كريستن عينَيها ، كأنَّها تشدّد على كلماتِها ، ثمَّ فتحَتْهما ، فتحَتْهما على وسعِهما ، وضعَتْ يدها على يدِ فِيا وهمسَتْ : لا تخبري أحدًا بحقّ الرّبّ ، لا أحد أبدًا! طبعًا لا ، هل أنتِ مخبولةٌ؟ أجابَتْ فِيا ثمَّ راحَتْ تمطرُ كريستن بوابلٍ من الأسئلةِ كلّما اجتمعتا ، سألَتْ وسألَتْ ، ألحفَتْ في السّؤال عن أدقِّ التّفاصيلِ أيضًا ، بدَا هذا كما لو أنَّهَا أرادَتْ أنْ تأخذَ دورًا في ذلك الاتّصالِ الجسدي المحرَّم ، سألَتْ إلى أنْ باتَتْ تشعر بشهوانيَّةِ كيارتان الجامحَةِ ، وباتَتْ تتحسّسُ ثقلَ جسمِه الضّخم . وكلّما سألَتْ أكثر ، ازدادَ تلهّف كريستن لتقصّ عليهَا أخبارَها ، القَصّ بحدّ ذاتِه أصبحَ متعةً . أو أصبحَ إدامةً للمتعة .

كلامٌ كثير يمكن أنْ يُقالَ عن البشرِ . ففي معظم النّاس يمكنُ أنْ نجدَ الجمالَ والبذاءةَ معًا . الإنسانُ مخلوقٌ معقّدٌ ، هو شيءٌ أقربُ إلى المتاهة ، من السّهلِ الضّياعُ فيها إذا حاولَ المرءُ البحثَ عن تفسيراتٍ . في يوم ما لمّحت فِيا عن تلك العلاقةِ الغراميَّةِ أمامَ أحدِ أقربائِهَا . كانَا قَدْ درجَا على الالتقَاءِ بانتظام لاحتساء كوب قهوةٍ ، اسمُ قريبهَا راغنار ، ويُدعى راغي أو «راغي الصّحيفة الشّعبيّة» ، كان مهذارًا ، ولا شيء يمنحُه السّرور أكثر

من نبشِ القصصِ ونشرِها ؛ عن مشاكلِ الجيران ، عن متاعبِ النّاسِ الماليَّةِ ، إدمانِهم الكحولَ ، تعاستِهم . كانَ يمكنُ أنْ يبرعَ براعةً عظيمةً لو عمل مراسلًا لأي صحيفةٍ شعبيَّةٍ . ندمَتْ فِيا أيما ندم ، لعلَّ الحسدَ هو ما أطلقَ لسانَها ، فالشّيطانُ يجدُ دائمًا مكامِنَ الخللِ كلّها ، ندمَتْ ندمًا شديدًا من أعماق قلبِهَا على كلامِهَا ، نهشَها الاكتئابُ ، أرادَتْ أن تقطعَ لسانَها . لكن حتَّى أشدّ أنواع النّدم مرارةً لا يمكن أنْ يستردَّ ما سبقَ أن قيلَ ، فالكلماتُ تنطلقُ إلى العالم وتعيشُ حياتَها الخاصّة بها ، لا شيء يستطيعُ إيقافَها . أخبارُ علاقةِ كريستن وكيارتان الغراميَّة انتشرَتْ ببطءٍ ولكن بثباتٍ . والرّواياتُ ، من ناحيةٍ أخرى ، تُحوِّرُ وفقًا للأفواه التي ترويها ، هذه طبيعةُ النّاس ، لا أحد يروي أيّ قصَّةٍ كما سبق أنْ رويَتْ ، لكنَّ جوهرَ الرّواية ينتشرُ عمومًا بلا تغييرٍ ، وفي حالتِنا هذه ، انطلقَت القصّةُ كالتّالي ، بصيغٍ متنوّعةٍ متحفّظة : هناك علاقةٌ غراميّة بين كيارتان من مزرعة ساومستاذر وكريستن من مزرعة فالثوفا - وهي ، علاوة على ذلك ، علاقةٌ ناريّة .

بطبيعة الحال هبّت رياحُ الخبر تُجاه آسديس ، وإن لم يكن ذلك بصريح العبارة مثل : زوجُكِ يخونُك مع كريستن ، ويمارسَان الجنسَ مرّةً أو مرّتين في الأسبوع في الأرض البور بين مزرعتَيهما ، يتعاشرَان مثل كلابٍ مبتورةِ الذّيول مهما كانت حالُ الجو . لا ، ما وصل إلى سمعها كان أقربَ إلى تنويهٍ ، إلى تلميح ماكر . وأي شخص لا تساوره الشّكوك ، قد لا يكون لاحظَ شيئًا ، غير أنَّ كيارتان ، طبعًا ، لم يكن على طبيعتِه ، وفي بعض الأحيان خشيَتْ آسديس من السّرطان ، أو من فتورِ الشّغف ، ثمَّ يأتي من يقول لها ، نعم ، إنَّها مسافةٌ قصيرةٌ بين المزرعتَين ، أو هل تزورُكِ كريستن في أغلب الأوقات ، أو هل عرفْتِ أنَّ كريستن تسترجعُ

لياقتَها البدنيَّة ، وهل بدأ كيارتان يهرولُ أيضًا؟ - كلامٌ ما ضمن هذه الخطوط . فتبدأ آسديس في التّفكيرِ كيف أنَّ كيارتان في الشُّهورِ القليلَةِ الماضيةِ ، قامَ بالعديدِ من النّزهاتِ - وهذا في الواقع غيرُ عاديّ بالنّسبةِ إليهِ مطلقًا - ودائمًا يتّجهُ غربًا .

كنتُ أفضّل لو أنَّكَ مصابٌ بمرضٍ فتّاك ، فكّرت آسديس عندما نظرَتْ إلى كيارتان في ذلِكَ المساء ، كان جالسًا على الأريكة ، والتّلفزيون يعرضُ مسلسلًا دراميًا ، الأطفالُ نائمون ؛ ثلاثةُ أطفالٍ بعمرِ ثلاث سنوات وسبع وتسع . كأنْ يكونُ سرطان معدةٍ على سبيل المثال ، فكّرت ، هذا سيناسبكَ ، وسرطان قولون أيضًا ، أو سرطان عظام - ذاك سيكون الأفضل حتمًا . ومع مرورِ الوقتِ ، ما كانَ أي مخدّرٍ ، ولا حتّى المورفين قادرًا على إخماد حرقةِ ألمِها بما فيه الكفاية ، فقَدْ مزّقَ كيارتان أوصالَ كيانِها وعزيمتِها إلى أشلاء . نعم يا حبّي ، آنذاك ستستلقي هُناك في الفراش ، تصرخُ وتئنُّ ، تبكي ثمَّ تموتُ . وسأتولّى تمريضكَ ، ثمَّ أغدُو بعدَ ذلك قادرةً على التّفجّعِ عليك . تبتسمُ آسديس . ومن زاويةِ عينِهِ يلاحظُ كيارتان ابتسامتَها ويستولي عليه الاضطرابُ ، يجدُ صعوبةً في التّركيزِ على برنامجَ التّلفزيون ، يفقدُ خيطَ الحبكَةِ . أنا نوعًا ما لا أشعرُ أنّني بخيرٍ ، يقولُ أخيرًا ، لعلَّكَ مصابٌ بسرطانِ عظام ، تردُّ بلطفٍ . ينظرُ إليها متفاجئًا ، تعاينُهُ بتعبيرِ وجهٍ حنونٍ ، تعبيرٍ لا يتلاءمُ مطلقًا مع كلمتَي «سرطان عظام» . يهتزّ به البيتُ ، يميلُ بعض الشَّيء ذهابًا وإيابًا ، تتشبّثُ أصابعُ كيارتان بالأريكَةِ ، يحاولُ أنْ يبتسمَ ، يبدي ما يزيدُ قليلًا على تكشيرةٍ ، هيّا الآن ، ينجحُ في التّعليقِ ، أنا متعبٌ فقط . ينهضُ ، يجتازُ الغرفةَ ، والبيتُ الآن سفينةٌ مضطربة في بحرٍ هائج ، بيد

أنَّه يفلحُ في الوصول إلى غرفةِ نومِهِ ، يذهبُ إلى السَّرير من غير أنْ ينظّفَ أسنانَهُ ، من غير أنْ يتبوَّلَ ، من غير أنْ يتلوَ صلواتِهِ التي طبعًا لم يتلهَا منذ عشرين سنةً ، مع أنَّ الآن سيكونُ وقتًا مناسبًا حقًا ليبدأَ في فعلِ ذلك مجدّدًا . يضطجعُ كيارتان على السَّريرِ ، يحملقُ في السّقفِ ويفكّر : يا ربّي ، إنَّها تعرفُ ، إنَّها تعرفُ ، إنَّها تعرفُ! وهو في حالة ذعرٍ هائلٍ ، هو في حالةِ ارتياحٍ بالغٍ ، في حالةِ حزنٍ شديدٍ ، ومفعمٍ ببغضِ الذّاتِ ، إنَّهُ يكرهُ كريستن بكلِّ خليَّةٍ في جسمِه . تبقَى آسديس جالسةً في الطّابق الأرضيّ ، تطفِئ الضّوء لتتمكّن من رؤية الخارج ، وتنسَى إطفاءَ التّلفزيون الذي يغمرُ الغرفةَ جُزئيًا بوهجِهِ المائل إلى الزّرقَةِ ، الوهج الّذي بدأَ يشعّ على حيطان النّاس الدّاخليَّة ، ويغيِّرُ معالمَ مساحاتِهم الباطنيّة .

4

في بادئ الأمرِ لم تفعَلْ آسديس شيئًا .

ومرّتِ الأيّام .

بهدوءِ وتركيزِ عالِمِ الاجتماعِ راقبَتْ كيارتان ، متأكّدةً تقريبًا من ذنبِهِ ، إنَّما ليس مئةً في المئة ، بل خمسًا وتسعين في المئة ، أو ستًّا وتسعين ، وما زال الأملُ يحدوها في أنَّها كانت مخطئةً في ظنونِها ، وأنَّ ما ألمَّ بكيارتان شيءٌ آخرُ ، كآبةٌ ، شغفٌ متضائل ، سرطانٌ . لسوء الحظّ ، قليلةٌ هي الدّلائل التي كانت تشير إلى أيٍّ من ذلك . عادَتْ بتفكيرِهَا إلى تصرّفاتِهِ ، استرجعَتْ في ذهنِها اهتمامَهُ المفاجئَ بالمشي ، نزهاتِه المتكرّرةَ نحو الجهة الغربيَّةِ ، ارتباكَه الغريب قبل انطلاقِه ، بل

حتّى حلاقة ذقنهِ ، تمشيطَ شعره ، ثمَّ نزوعَه إلى العودة بمزاج غير مألوفٍ ، حزينًا أحيانًا ، خجلًا من نفسِه تقريبًا أحيانًا ، غاضبًا أحيانًا ، مبتهجًا بطريقةٍ غريبةٍ جدًا أحيانًا . تفاصيل أو لحظات لم تدركْها ، لم تلقِ لها بالًا من قبل ، بدأَتْ تصعدُ إلى السّطح الآن . عينا كريستن عندما رنَتْ إلى كيارتان في حفلةِ رقصِ منتصفِ الشّتاء ، يدُ كيارتان على خصرِ كريستن في الحفلةِ الرّاقصَةِ نفسِها ، صوتُ كيارتان المخنوقُ بطريقةٍ غير معهودَةٍ كلّما أتى على ذكرِ اسم كريستن ، ارتعاشُ يديه حينما قابلَا كريستن وبيتور في التّعاونيَّة . كنْتُ عمياءَ ، تفكّر آسديس ، كان هذا أمامَ عينَي طوال الشّتاء ، لكنَّني كنْتُ مستغرقةً كلَّ الاستغراق في دراساتي بحيثُ استغلَّ كيارتان الوضعَ . تفكّرُ آسديس ، تتذكّرُ ، ترتجفُ ، من الخوفِ ، من الألم ، وربَّما من الكراهيَّة ، تنظرُ من النّافذة وتحدّقُ مطوّلًا في الجِراء المرحَةِ التي أنجبَتْهَا كلبتُهم في كانون الثّاني ، أحدُ الجراء لديه نجمةٌ بيضاءُ على جبينِه ، تمامًا مثل الكلبِ في مزرعَةِ فالثوفا .

دلّ ذلك كلّه على شيءٍ واحدٍ .

تيقّنُها ازدادَ شيئًا فشيئًا من ستٍّ وتسعين في المئة إلى تسع وتسعين في المئة ، المقدار المئويّ الأخير المفقود كانَ الخيطَ الوحيدَ الذي أبقاها متدليةً على حافَّةِ الهاويةِ . إنَّما لا يمكن أن يدعمَ خيطٌ واحدٌ أي شخصٍ مدّةً طويلةً ، انهيارُ الحافَّةِ تحْتَ قدمَيه وشيكٌ ، والهاويةُ تجذبُهُ بشدَّةٍ . ليسَ هناكَ مرضٌ فتّاكٌ ، بل خيانةٌ زوجيّةٌ مقزّزةٌ فحسب .

الخيانةُ الزّوجيّةُ - خيانةُ المرءِ لشريكِهِ ، ممارسةُ الجماع ، أو إنشاءُ علاقةِ حبٍّ مع أحدٍ آخرَ غير الشّريك - هي ما تُنسبُ إلى عبارةِ «نهايةُ العالم» .

الآن ، كانَتْ آسديس هي التي ما عادَتْ قادرةً على النّوم .

تستلقِي في فراشِها وتحدّقُ في السّقفِ ، تنهشُها الحيرةُ والمشاعر المتناقضةُ بعنفٍ . تستلقي هناك وتستمعُ إلى أنفاسِ كيارتان العميقةِ التي يقطعُهَا شخيرُه غيرُ المنتظمِ بينَ حينٍ وآخرَ . سأطلبُ الطّلاقَ ، تقول آسديس في سرّها ، إنّه يسبّب لي الاشمئزاز ، لا ، أنا المخطئةُ ، كنْتُ أنانيّةً جدًا ، كنْتُ باردةً كثيرًا ، أقول له دائمًا ليس الآن ، لاحقًا ، الليلة ، غدًا ، ضقْتُ ذرعًا بالتبرّج له ، بارتداءِ ثيابٍ مثل فاسقةٍ هُنا في البيت . تستلقي في سريرِها ، عاجزةً عن النّوم ، والليل قد طغى على كلِّ شيءٍ . فكّرت ، لم أوْلِ بيتِي الاهتمامَ الّذي يجبُ أنْ أوليه له ، أهملْتُ الأطفال ، تركّزَتْ طاقتي كلّها وتركيزي كلّه على دراساتِي ، لا أفكّرُ إلّا فيها ، لا أفكُر إلّا في نفسي ، وها أنا الآن أنالُ عقابي . ما يتحتّمُ علينا هو أن نتعهّد علاقاتنا بالرعاية والتّنمية ، تفكّر . تستلقي على ظهرِها ، تتنفّسُ بعمقٍ ، السّماءُ حالكةُ السّواد فوق المنطقة الرّيفيّة . لا! الذّنب ليس ذنبي ، لا بأس ، ربّما قليلًا ، إنّما ليس أكثر . لا أريدُ منحه لذّةَ إلقاء اللوم عليّ لأنّه هو من خانَني ، خان أطفاله ، خان نفسَه . هو المذنبُ! أو لا ، أنا من يجبُ أن تُلامَ . نهضَتْ آسديس بهدوءٍ ، نزلتْ إلى الطّابقِ الأرضيّ ، خلعَتْ قميص نومها الأزرق ، وقفَتْ عاريةً في البهو وتأمّلت نفسَها في المرآة الكبيرة . ثدياها أقرب إلى الحجم المتوسّطِ ، كانا مرّةً مكتنزين ، والآن متهدّلين ، كأنّهما يعانيان من مشكلةِ البقاء مستيقظَين هذه الأيّام . محيط خصرِها خالٍ من أي تفاصيل مثل محيطِ خصرِ صبيٍّ ، لا منحنيات جذّابة مثيرة تؤجّجُ الرّغبةَ ، بطنُها قبيحٌ ، متجعّدٌ ورخو كثيرًا جدًا بعد ثلاث ولاداتٍ . نظرَتْ إلى جسدها ، مترهّلٌ من انعدام التّمرين ، أنا بشعةٌ ، قالَتْ لانعكاسِها في المرآة ، أنا لسْتُ مثيرةً .

هكذا مرَّتِ الأيّامُ ، وهكذا مرّتِ الأسابيعُ . ومزاجُ آسديس تأرجحَ

من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى ، كانَتْ سريعةَ الغضبِ ، نكدةً ، وأبقَتْ عينًا يقظةً ودقيقةً على زوجِها ، انتظرَتْ حدثًا يمكنُ أنْ يقضيَ على النقطة الواحدة في المئة الأخيرة ، انتظرَت الخيطَ الذي سينقطعُ ويدهورُها إلى الهاويةِ . وفي يوم حثَّ الخُطَى وانطلقَ غربًا .

قبل ذلك ، بقي يتسكّع في فناءِ المزرعةِ وقتًا طويلًا ، قلقًا بشكلٍ ملحوظٍ ، يواصلُ التَّطلُّعَ نحو البيتِ من غير أن يقدرَ على رؤيتِها عند نافذةِ غرفَةِ الجلوسِ ، من وراءِ الأزهارِ على عتبةِ النّافذَةِ . ثمَّ انطلق ، بخطواتٍ وئيدةٍ في البداية ، ثمَّ شيئًا فشيئًا زادَ وتيرةَ مشيهِ إلى هرولةٍ نشطةٍ قبلَ أنْ تحجبَه النّتوءاتُ والمرتفعاتُ والمنحدراتُ عن مرمَى البصرِ . هو في طريقِه إليها ، فكّرَتْ آسديس الواقفةُ أمامَ نافذةِ غرفةِ الجلوسِ ، يفوح عليها عبيرَ الأزهارِ بينما أخذَ الخدرُ ينتشرُ في جسمِها ببطءٍ . جلسَتْ ، ما عادَتْ قادرةً على البقاء واقفةً ، وساعةُ غرفة الجلوس حسبَتِ الثّواني ، حسبَتِ الدَّقائق ، تابعَتْ مرورَ الوقتِ بإخلاصٍ ، أوْلَتْهُ عنايتَها . استجمعَتْ آسديس قواهَا لتقفَ ، ذهبَتْ إلى درجِ الطابق العلوي ، تسمّعَتْ على أطفالها ، أكبرهم ، كولبرون ، كان في البيتِ يتعافى من الإنفلونزا ، وديليا أصغر أطفالها كانت تلعب بمكعَّبات الليغو في غرفةِ شقيقَتِها . عادَتْ إلى غرفَةِ الجلوس ، حضَّرَتْ شريطَ فيديو لديليا في حالِ نزلَتْ إلى الطّابق الأرضيّ ، إذ ليسَ بمقدورِها الآن أن ترعَاهَا ، خوفًا من أن تفقدَ السَّيطرةَ على نفسِها وتشرعَ في توبيخِها بلا سببٍ . تابعَتْ ساعةُ غرفةِ الجلوسِ القيامَ بواجبِها ، وحسبَتْ عشرين دقيقةً ، تيك تاك ، أعلنَتْ باستمرارٍ ، تيك تاك . جلسَتْ آسديس بلا حراكٍ على أريكتِها ، هادئةً ظاهرًا ، مدهشٌ كم هو قليلٌ ما يخبرُنا به الظّاهر . جلسَتْ هناك كما لو أنَّها تستذكرُ تصريفَ أفعالِ اللغة الألمانيَّة ، وصفاتِ قوالب الكعك ، حبكةَ

كتابٍ ، أو أيّ بقرةٍ ستكون التّاليةَ في الإنجابِ ، بينمَا في داخلِها كان كلُّ شيءٍ مقلوبًا رأسًا على عقب ، تتبّعَتْ كيارتان بذهنِها ، رأَتْ كلَّ شيءٍ بعينِ خيالِهَا ، ارتجفَتْ من شدة الكراهية التي طغت عليها ، بل حتَّى تملّكهَا حافزُ القتلِ على نحو واضحٍ وصريح ، كانَتْ يائسةً ، مغلوبةً بالحزن ، مغلوبةً بالغضَبِ ، وذاك كان في الواقع أفضلُ شعورٍ ، أمَّا الأسوأ منه فهو عندمَا أصبحَتْ رهينةَ قلقٍ مفاجئ جامحٍ انقضَّ عليهَا بالكاملِ واحتجزَهَا ، جاعلًا ذراعَيها تختلجان . ثمَّ ما لبثَتْ أنْ تجاوزَتْه ، انفجرَ مثل فقاعةِ صابون وخلَّفَ وراءَه شعورًا مريرًا بالخزي ، وازدراءً عميقًا لنفسِها . جلسَتْ هناك في يوم نيسان الصّافي المنعش ذاك ، الشّمس في كبد السّماء ، وساعة غرفةِ الجلوس تحتجزُ الوقت بكلتَا يدَيها . ثمَّ أقبلَ شخصٌ يقطعُ فناءَ المزرعةِ .

لقد عادَ!

لقدِ انتهَى من ممارسَةِ الجماع .

مرَّةً أخرى خانَ كلَّ شيءٍ كانَ جميلًا وصالحًا . كيفَ يملكُ القدرةَ على النّظر إلى أطفالِه من غير أنْ يرفَّ له جفنٌ ، من غير أنْ يحترقَ ويصبحَ رمادًا ، ينبغي أنْ تقتلعَ له عينَيه ، سيكون ممتنًا لها مع مرور الوقت . هبَّتْ واقفةً ، ذهبَتْ إلى المطبخ ، بدأَتْ تصنعُ عجينةَ خبزٍ ، وكانَتْ مشغولةً بها عندمَا دخلَ ، لم تجعلْ نفسَها تحتَ تصرّفِه ، تظاهرَتْ بالاستماع إلى المذياع أيضًا . أرادَ كيارتان التّحدّثَ إليها ، كان متحمِّسًا ، رغبَ في أن ينسِّقَ معها عطلةَ الصَّيفِ ، يجبُ أن نسافرَ إلى الخارج ، إلى كوبنهاغن ، تخيّلي هذا ، التّيفولي ومدينة الملاهي للأطفال! نعم ، وطبعًا استكشاف شارع إستغاد لك ، فكّرَتْ وهي تغرزُ يدَيها في العجينةِ ، ربَّما كي تمنعهما من الالتفافِ حولَ عنقِه . أسكتَهُ برودُ أسديس ، تراجعَ

إلى غرفةِ الجلوس ، عليَّ أن آخذَ حمّامًا ، تمتمَ ، وهذا ما فعله ، ذهبَ ليستحمَّ . غسل عن جسمِه رائحةَ كريستن ، تدفّقَ الماءُ الدّافئ على كتفَيه العريضتَين . عندمَا عادَ إلى المطبخ كانَتْ قدِ اختفَتْ ، اضطرَّتْ إلى الخروج ، قال له ابنُه كولبرن . إلى أين؟ لا أدري . قصدَ كيارتان غرفةَ الجلوسِ ، وقفَ أمامَ النّافذة ومعه المنظار ، ولم يلمح السّيّارة في أي مكانٍ ، ولا يمكن رؤية مزرعة فالثوفا من مزرعة ساومستاذر ، فالهضابُ والتّلالُ تحجب المشهدَ .

أُجلِسَت آسديس إلى طاولةِ المطبخِ في مزرعة فالثوفا ، كانَتْ كريستن قد عادَتْ للتو إلى البيتِ ، حماتُها لاورا تحضِّرُ القهوةَ ، بيتور مشغولٌ خارجَ البيت ، رجلٌ طويلٌ ، مستديرُ الكتفين ، نحيلٌ وأقربُ إلى الهزال ، بوجهٍ خشنِ الملامحِ ، جديّ نوعًا ما ، ومتحفّظٌ في الكلام دائمًا تقريبًا . بعضُ النّاس لديهم قناعةٌ بأنّهُ لا يسعى قطّ إلى محاولةِ تغييرِ مزاجِه . في الخارج ما زالَ ضوءُ نيسان أزرقَ ، بيدَ أنَّ المساءَ لن يلبثَ أن يحلَّ ، بألوانه الأكثر قتامةً . لم يسبق قطّ أنْ جرى أي تواصلٍ عميق بين المزرعتَين ، والمرءُ لن يدعوَ ذلك خلافًا ، لكنَّهُ أشبه بنوعٍ من الاستياء المتجذّر ، ورثَه كلٌّ من كيارتان وبيتور من آبائِهما ، والآباء من آبائِهم ، هي تلك السّخونة النّاجمةُ عن الاحتكاك الذي يتولّد أحيانًا بين الجيران في الرّيف . لعلّنا متآلفون كثيرًا مع العيش في عزلةٍ نسبيّةٍ ، بحيث لا نعرف كيف نتواصلُ مع الجيران بلياقةٍ ، لسْنَا معتادِين على مراعاةِ مشاعرِ الآخرين ، شيءٌ يمكن تسميته انعدامُ النّضوج الاجتماعيّ ، كامنٌ بعمقٍ في باطنِنا .

لاورا متفاجئةٌ من الزّيارة ، وكريستن فزِعةٌ ، جالسةٌ بتشنّجٍ بينما بدأ العرقُ يجفُّ على جلدِها ، تعكف لاورا على الاهتمام بإعداد القهوة ،

تُخرج هذا وذاك ممّا يتناسبُ مع القهوة ، وتتساءلُ في سرِّها عن سببِ الزّيارة ، تقولُ نعم جيّد ، عدّة مرّات ، تقولُ نعم لا بأس حقًا ، أيضًا ، تسأل عن الأخبار ، تسألُ عن الماشيةِ ، عن حصادِ التّبن ، عن حالةِ حقول الكلأ ، تجيبُ آسديس باقتضاب ، على قدر الأسئلة ، ولا تسترسل أكثر من ذلك ، وأحيانًا يخيّم الصّمتُ عليهنَّ ، وخلال تلك الفترات الثقيلة تهزّ لاورا كرسيّهَا بعصبيّةٍ . لا تلمس آسديس كوب القهوة ، كوب عامرٌ بالقهوةِ أمامَها ، سائلٌ أسودُ يبردُ ببطءٍ ، يتأجّجُ مزاج لاورا عندما تلاحظُ ذلك ، أهالي مزرعة ساومستاذر حثالةٌ ، تفكّر ، هم لا شيء سوى غطرسةٍ وخيلاء! فجأةً تتخلّى عن الدّردشَةِ المقتضبَةِ المؤدَّبةِ ، تصالِبُ ذراعَيها النّحيلتَين ، تزمّ شفتَيها المستدقّتين وتلوذُ بالصّمتِ . للحظَةٍ مديدَةٍ ، لا يمكنُ سماعُ ولا حتّى طنين ذبابةٍ في المطبخ ، فتعمدُ لاورا إلى رشفِ قهوتِها مصدرةً أصواتًا عاليةً ، بطريقةٍ مستهجنة تجعلُ الامرأتَين الأخريَين تسلّطان نظرهما عليها . تحشرُ قطعةَ بسكويت في فمِها بشيءٍ من التّردّد ، وتندمُ في الحال . تقضمُها بتأنٍ وحرص ، تحدّقُ كلٌّ من آسديس وكريستن إلى الأمام وتستمعان ، تمضغُ لاورا برويّةٍ على أملِ أن يكونَ ذلِكَ أقلّ جلبًا لانتباه المرأتين ، لكن وهي تحاولُ القيامَ بهذا تضطرُّ إلى المضغِ لما بدَا أنّه أبديّ ، بيدَ أنّها في النّهاية تبتلعُ ما في فمِها . ذلِكَ البسكويت قاسٍ جدًا ، وأدّى إلى اصطباغ وجهها الضّامر بحمرةٍ خفيفةٍ ، تمدُّ يدَها إلى فنجانِ قهوتِها ، تتناولُ رشفةً بلهفةٍ ، تبتلعُها ، تكحّ ، ومن جديدٍ تنظر إليها آسديس وكريستن ، ثمَّ يعودُ الصّمت . مدهشٌ كيف يمكن أن يحرّفَ الصّمت الوقتَ ، تتصرّفُ الدّقائق حينئذٍ بشكلٍ مختلف ، تبدو أنّها لا تريدُ أن تمرّ ، تصبح سماءً ساكنة . تستمع كريستن إلى ضرباتِ قلبِها الصّاخبة ، طبلٌ جهير يقرعُه أحدُهم بإيقاعٍ ملحّ حاسم : بم! بم! بم!

جلدُها ما زال يخزُها من الملح الذي خلّفه العرق ، تشمّ رائحة كيارتان تنبثق من عنقِها وتنتشرُ في المطبخ ، تشمّ رائحةَ القُبل ، رائحةَ الأنفاس ، رائحةَ العرق والمني . كانت قد طلبَتْ منه أن يفرغَ منيَه على بطنِها ، أنْ يفرغَه برائحتِه الثّقيلةِ الحلوة هناك . كنتِ تركضين؟ تُوجِّهُ آسديس سؤالَها إلى كريستن على حين غرّةٍ ، بطريقةٍ غير متوقّعة بتاتًا ، بحيث بوغتت المرأتان من سؤالِها ، إضافةً إلى أنَّ ذهولَ لاورا بلغَ حدّ مدّ يدها إلى قطعةِ بسكويت أخرى . إذ بدا كما لو أنَّ الصّمت ازداد كثافةً بسبب تلك الكلمات ، على الرَّغم من أنَّه كان كثيفًا بما فيه الكفاية . وفي قعرِه تجلسُ لاورا محتارةً أتمضغَ بسرعةٍ أم تمضغُ ببطءٍ ، محاولةً ، بلا فائدة أن تتركَ قطعةَ البسكويت تذوبُ تلقائيًا في فمِها ، يظهرُ على آسديس وكريستن أنَّهما تنتظرانِ منهَا إنهاءها ، ولذلك تقرّرُ مضغَها بسرعةٍ ، تقرّرُ أن تفرغَ منها ، فتعمِل فيها أسنانها ، تطحنها ، تتلمّظُ ، تبتلع ، وجبينُها راشحٌ بالعرق . عندئذٍ تقول كريستن : نعم . تقولُ نعم واحدة فقط ، بعد دقيقةٍ طويلةٍ أو دقيقتَين طويلتين من السّؤال .

آسديس : ولم تغتسلي بعد؟

كريستن : وصلْتُ إلى البيت الآن .

آسديس : يُستحسَنُ إذًا أن نسمحَ لك بالمغادرةِ لتغتسلي ، أنت على الأرجح تحتاجين إلى الاغتسال ، تحتاجين إلى تنظيفِ نفسك ، لا بدَّ من أنَّك عرقتِ كثيرًا من الجهدِ المبذول . تنفرجُ شفتا آسديس ، تكشفان عن أسنانِها ، أسنانٌ بيضاءُ ولكن ليست متراصَّةً باستقامة تمامًا . الفاسقةُ اللعينة ، تفكّر كريستن وهي تنظرُ إلى حماتِها التي جلسَتْ تحدِّقُ بسخطٍ في آسديس . صحيح ، أنا أبذل جهدًا عظيمًا في رياضتِي ، تقول كريستن عندئذٍ .

إذًا ، اذهبي واغتسلي .

توقّفت آسديس بين كلِّ كلمةٍ . كلُّ كلمةٍ منها مثل حجر انتزعَتْه من فمها ورصفَتْه في وسط طاولة المطبخ : إذًا اذهبي واغتسلي . تشخرُ لاورا ، تهمُّ بقول شيءٍ وهي تحدج آسديس بنظراتٍ غاضبة ، وتحدجُ فنجانَ القهوةِ الذي بقي ملآنًا على نحوٍ لا يمكن احتماله . غير أنَّ الزّائرةَ سرعان ما تنهضُ ، تدفعُ الكرسيّ إلى الوراء ببطءٍ ، وتقولُ بهدوءٍ ، تقول ببرودٍ : أتمنّى أنْ تكوني قدِ استمتعْتِ بذلك . تخرجُ من المطبخ ، تخرجُ من البيت . إنَّها مجنونةٌ ، تعلنُ لاورا بصوتٍ ثاقب ، قبل أن تضيفَ ، باستمتاعٍ كبير ، ساومستاذر حثالةٌ ، أولئك . . . ثمَّ تصمتُ فجأةً ، مذهولةً ، بل حتَّى فزعة تقريبًا عندما ترى كريستن تندفعُ نحو بابِ البيت الأماميّ ، تفتحه بعصبيَّةٍ ، وتزعق في وجه ضوء نهار نيسان المتضائل : أوه ، نعم ، استمتعْتُ بذلك ، استمتعْتُ بجنونٍ رهيب ، استمتعْتُ بكلِّ لحظةٍ ملعونة! آسديس الواقفة في فناء المزرعة إلى جانبِ سيَّارتها تلتفت لتنظرَ إلى كريستن . ثمَّ تقول مرحبًا بيتور ، هذا على الرّغم من أنَّ بيتور ليس في أي مكانٍ يمكن رؤيته . تصفقُ كريستن باب البيت .

5

بعدَ يومين ، عقب وقت الغداء بوقتٍ قصير ، تقول آسديس لكيارتان اذهبْ مع ديليا إلى البلدة ، إليك قائمة التّسوق ، وبعد ذلك اذهبْ واصطحِبْ بيرغفين وكولبرن من المدرسة ، وخذِ الأطفال ليروا جدّيهم . أيمكنكَ فعل هذا؟ أنا مضطرةٌ إلى البقاء في البيت لأدرسَ .

كان قد مرَّ يومان . يومان من الجحيم بالنّسبة إلى كيارتان الذي يواجهُ مزيدًا من الصُّعوبة البالغة في النّوم ليلًا ، يتسلّل نزولًا إلى المطبخ ، يُعدّ لنفسه شطيرةً ، يبتلع الحليبَ ، يأكل بعض الكعك المحلّى والليلُ الأسود يطالعُه من النّافذة . قليلٌ ما تقوله آسديس ، وهو ما زال ينتظرُ ، متوقّعًا منها في أي لحظةٍ أنْ تقول ، أنا أعرفُ كلَّ شيءٍ ، أو ، أنتَ لسْت إلّا كومةَ قذارةٍ مقيتة ، أو ، تقدّمتُ بطلبِ طلاقٍ ، أو ، إليك السّكين ، خذْهَا واقطعْ خصيتَيك . لكن عوضًا عن السّكين ، تسلّمه قائمة التّسوّق وترسله إلى البلدة . هو مقتنعٌ كلّ الاقتناع بأنّها تعرف ، أو في أدنى الأحوال تعتمل فيها شكوكٌ قويّة ، وبدأ يتوقُ إلى ردّ فعلٍ منها ، كأنْ تغضب ، كأنْ تصرخ في وجهِه ، بيد أنّه يجدُ نفسَه جالسًا وراء مقودِ السّيّارة فحسب ، ومعه قائمةُ التّسوّق في جيبِ سترته وابنتُه ديليا تقفزُ على مقعدِ السّيّارة . تتقدّم السّيّارة ببطءٍ منحدرةً نحو الطّريق الفرعيّ ، سأفاتحُها بالموضوع اللّيلةَ ، يفكّر ، بعد أنْ يكون الأطفال قد أخلدُوا إلى النّوم . سأعترفُ بكلِّ شيءٍ ، أنا نذلٌ ، نذلٌ سمينٌ حقير ، يستديرُ بالسّيّارة نحو الطّريق الرّئيسِ ، ثمَّ يتحوَّلُ إلى طريقٍ ثالث . آسديس قابعةٌ في غرفة الجلوس ، تستمعُ إلى صوتِ السّيّارة وهي تبتعدُ ، تستمعُ إلى صوتِ المحرّك يخبُو ، ثمَّ تنهضُ وتذهبُ إلى حجرةِ المؤن . تستخدمُ مقعدًا واطئًا لتصلَ إلى الرّفّ العلويّ ، تتناولُ مسدّسًا فرديَّ الطلقاتِ يُستعمَلُ لتوجيه الخِراف والحملان ، ثمَّ تتناولُ صندوقَ رصاصٍ ، تعودُ إلى غرفة الجلوس ، تلبسُ معطفها ، تنتعلُ حذاءها . يشيرُ مقياس الحرارة إلى سبع درجات مئويَّةٍ ، هناك نسيمٌ لطيفٌ في الجوّ ، والسّماء غائمةٌ جزئيًا وخاليةٌ من المطر ، مع أنّها تمطرُ فوق الجبال في المنطقة الجنوبيّة الشّرقيّة . الكلبةُ والجراءُ في فناء المزرعة ؛ جراءٌ في قمة السّعادة ، ولا شيء يشغلُ فكرها سوى

مطاردة ذيولِها الرّائعةِ ، تلك الذّيول التي لا يمكن أبدًا أن تمسكَها ، أو تجري هنا وهناك وتقفز فرحةً في الهواء . تلتقطُ آسديس الجرو ذا النّجمةِ على جبينِه ، فيبصبصُ ذيله ، ويحاولُ لعق وجهها ولا يستطيع ، فيكتفِي بلعقِ يدِها . تحملُه إلى حجرةِ غسل الملابس ، عبر المدخل المنفصل في مؤخّر البيت . تجثمُ أرضًا وهي قابضة على الجرو الذي يدفع أنفَهُ بحماسةٍ متشمّمًا أعلى كمّ معطفِها ، يا للصغير المسكينِ ، تقول وتدفعه ببطءٍ وحرص أرضًا وتطلقُ رصاصةً على مؤخّر رأسِه . الجراء لا تفكّر في الموت ، هي مخلوقاتٌ خليةُ البال وتعتقدُ أنَّ الحياةَ أبديَّةٌ ، وبعدئذٍ ينتهي كلُّ شيء . تذهب آسديس وتحضر الجرو التّالي ، أمَّا الثّالث فيبدأ بالقفز حولها ويئنُّ لأنَّه غير مسموح له هو الآخر أن يذهبَ معها . ينتظر عند الباب ، يخدشه ، ثمَّ يندفعُ بسرعةٍ إلى الدّاخل عندما تفتحُ آسديس الباب ، ينبح مرَّتين ، ربَّما ليسألَ يا هوه ، أين أنتم يا رفاق؟ وبماذا يمكن أن يجيبَ المرء ، ماذا يحدثُ للجراء الميتة ، أتذهبُ إلى مكانٍ ما بسعادتها التي يتعذّر كبتها؟ لم تفلح آسديس في إحكام قبضتها على الثّالث فورًا ، فرّ منها ، ظنّ أنَّ هذه ليست إلّا لعبةً ، فرّ بخفّة وسرعة ليتفادى قبضتها ، غير أنَّ رأسَه علقَ في فردة جزمة كيارتان الخاصَّة بالمشي . حرَّك رأسَه قليلًا عندما شعر بطلقةِ المسدَّس ، نبض قلبه بشدَّة ثمَّ ما عاد ينبض . استغرقَتْ آسديس وقتًا لتأسر الكلبة الأمّ التي اختبأَتْ في زريبة الأبقار ، تملقَتْها لتغريها بالخروج ، زحفَتِ الكلبةُ على بطنها نحوها وهي ترتعدُ وتئنُّ ، أنوف الكلاب حسّاسة جدًا وفي وسعها أن تشمّ رائحةَ الموت . بعد ذلك حفرَتْ آسديس فجوةً عميقةً ، ولم يكن هذا سهلًا ، فالأرض ما زالَتْ صلبةً بعد الشّتاء ، بيد أنَّ الكدح جيّد ، فهو يصفّي الذّهن . ثمَّ وقفَتْ تنظرُ فترةً من الوقت إلى الكلبة وجرائها في الحفرة ، حاولَتْ

ترتيب الجثث بشكلٍ أفضل ، سرحت بذهنها إلى التّفكير في شيء ما ، ثمَّ طمرَتِ الحفرة بالتّراب ، سوَّتِ السّطحَ بعنايةٍ ، مرَّةً تلو مرَّةٍ ، بعدئذٍ عادَتْ إلى زريبةِ الأبقار ومن هناك إلى قنّ الدّجاج الذي يقع بعد الزّريبة تمامًا ، انتزعَتِ الدّيك نصفَ النّائم من مرقده ، وحجزَتْه تحت ذراعها لتشلّ رفرفةَ جناحيه ، مضَتْ إلى المرآب وخرجَتْ منه ومعها منجلٌ صغير ، غيَّرَتْ طريقةَ احتجازها للدّيك ، قبضَتْ عليه من رقبتِه ، ثمَّ قذفَتْه بسرعةٍ على برميلٍ يقف قرب الزّريبَةِ ، وقطعَتْ رأسه . تراجعَتْ بضع خطواتٍ إلى الوراء وراقبَتِ الدّيك الذي أصبح بلا رأسٍ يفرفر في أنحاء فناء المزرعة ، خافقًا جناحَيه العقيمَين بينما راحتِ الحياة تنساب خارجةً من رقبتِه المبتورة . وفي النّهاية سقط ميتًا ، ولن يصفّق بجناحيه ثانيةً أبدًا في وجه الليل الحالك ليجلبَ شمس الصّباح من أسفل أعماق البحر ، لقدِ انبثقَ فجر يومِه الأخير على المزرعة . عادت آسديس أدراجَها إلى البيت ، غسلَتْ يدَيها بكثيرٍ من الصّابون ، شربَتْ كأس ماء ، ثمَّ اتَّصلَتْ هاتفيًا بذويها . نعم ، كيارتان والأطفال وصلوا الآن ، استطاعت سماعَ أصوات الأطفال في فناء بيت ذويها الخلفيّ ، فنقلَتِ السّمّاعة إلى أذنها اليمنى ؛ الأذن التي لا تسمع بها جيّدًا . أيمكن أن يبقى الأطفال معكَ ومع أمّي الليلة؟ لا ، لا ، أنا أحتاج فقط إلى مناقشةِ أمرٍ ما مع كيارتان ، قل له فقط أنَّ عليه الإسراع في العودة إلى المزرعة . أنهَتْ آسديس الاتِّصال ، خرجَتْ من البيت ، فتحَتْ باب المرآب ، جلسَتْ وراء مقود سيّارة الدّودج ، شغّلَتِ المحرّك ، فبدأ شريط «أعظم أعمال ألفيس بريسلي» يلعلع من آلة التّسجيل . رجعَتْ بالسّيّارة إلى الوراء ، ركنَتْها بين مرافق المزرعة والبيت ، أطفأَتِ المحرّك لكن تركَتْ ألفيس بريسلي يغنّي ، بل حتَّى رفعَتِ الصّوت ، « هناك شيءٌ واحد أعرفه ، أحببتُك

مثل طفل» ، انحنَتْ لتلتقط الدّيك الذي بلا رأسٍ ، وضعَتْه على مقعدِ السّائقِ ، رجعَتْ إلى البيت وحملَتْ مجموعةً من ثياب كيارتان التي كانت قد حضَّرتْها في وقتٍ سابقٍ ، إلى جانب بعض الألبومات التي تحتوي على رسائلَ وصورِ زفاف ، رتّبت تلك الأغراض بعنايةٍ على المقعد الأماميّ ، صبّتِ البنزين على المقاعد كافّةً ، صبَّته على السّيّارة بأكملِها ، ثمَّ جلسَتْ أرضًا متّكئةً بظهرها إلى إحدى العجلاتِ الأماميّة ، أغمضَتْ عينَيها للحظة ، عادَتْ وفتحَتْهما ، ومدّتْ نظرها تُجاه الطّريق .

يستغرقُ اجتيازُ الطّريق ما يقارب نصفَ السّاعة للعودة من البلدة في الظّروف الاعتياديّة . في لحظةِ ضغط كيارتان بعنفٍ على دوّاسة السّرعة ، والسّيّارة اندفعَتْ بقوّةٍ إلى الأمام ، ثمّ في لحظةٍ تالية ، استعرَتْ فيه مشاعر القلق فأبطأ من سرعة السّيّارة ، نقل تروس المحرك إلى أخرى أدنى ، وتقدَّم على طول الطّريق السّاحليّ بسرعةِ 40 كيلومترًا في السّاعة ، وخلال نقطةٍ ما ، أوقفَ السّيّارة وركنَهَا إلى جانب الطّريق ، ثمَّ خرج منها على عجلٍ ليتقيّأ ، انحنى وهو يستندُ بيده اليمنى على غطاء المحرّك ، حاول إخراجَ ما في جوفه ، لكنَّ شيئًا لم يخرج . ساومتساذر هي أوَّلُ مزرعةٍ تقع عليها عينُ المرء عند الالتفاف حول منحدرِ جبل كولافيال الذي ينبثقُ على شكلِ نصفِ دائرةٍ سحيقة وراء مجموعةٍ من تسع مزارع تشكّل المستوطنة التي دعيت كولابفيك في سجلّات التّاريخ الأيسلندي كافّةً . ومزرعة ساومستاذر لا تلبث ، على أي حال ، أن تختفيَ وراء منبسطاتِ الأرض الطّبيعيّة المحيطة بالمنطقة ، ولا تعود إلى الظّهور إلّا بعد أن يصبحَ المنعطفُ المؤدّي إلى مزرعة فالثوفا على مسافةٍ بعيدةٍ إلى الوراء . عند تلك المنطقة يلمح كيارتان دخّانًا يتصاعدُ . في بادئ الأمر يخطرُ على باله بعض الهراء

السّخيف ، إن حياتي تشتعل بالنّيران ، أو أي أفكارٍ أخرى ضمن هذه الخطوط ، وهذا ربّما ليس مجرَّدَ سفسفةٍ بالمعنى المجازي ، غير أنَّه سرعان ما يتبيَّن له أنَّ النَّار تشتعل في سيَّارة الدُّودج ، لا مجال للشكّ في ذلك - وليس هناك أي معنًى مجازيّ أيضًا . بالغريزةِ ضغطَ كيارتان على دوّاسة السّرعة ، فانزلقتِ السّيّارة جانبيًا وهو يقطع بها بطريقةٍ أسرع ممَّا ينبغي المنعطفَ الذي يقود إلى البيت ، ومع ذلك ألحفَ في زيادة سرعتِها وطار إلى البيت ، ضغط المكابح بعنفٍ وخرج . كانت آسديس قد أولته ظهرَها . تقدّم كيارتان بضع خطواتٍ وهو يحدّق في سيَّارة الدّودج المشتعلة بالنّيران ، في الدِّيك الذي بلا رأس ، ومن آلة التّسجيل تنبعث «أعظم أعمال ألفيس بريسلي» ، حدّق في الملابس والصّور ، ثمَّ وقف متسمِّرًا في أرضه ، وكان سيتخلّى عن أي شيءٍ ، عن خلاص روحه ، عن عشر سنواتٍ من عمره ، ليشعر بالغضب ، بل ليشعر بالهياج ، لأنَّ هذه التي تحترق أمامه كانت الدّودج العزيزة على قلبه . أمسيات شتويّة تفوق العدّ والحصر من العكوف على إصلاحِها صُرفَتْ عليها ، على امتدادِ سنتين ، هو وأغاني ألفيس بريسلي ، وفي بعض الأوقات مع ولديه كولبرن وبيرغفين ، وفي أحيانٍ أخرى مع آسديس وشراب الشّكولاتة السّاخن أو القهوة . غير أنَّه لم يشعر بأي غضبٍ ، في الواقع لم يشعر بأي شيءٍ ، ما عدا الخدر ربّما ، وتلتْهُ هاتان الكلمتان اللتان علقتَا برأسِهِ مثل طائرَين هامدَين : نعم طبعًا . ثمَّ بدأ يتقدّم ببطءٍ ، ببطء بالغ ، نحو السّيّارة المحترقة وآسديس ، وهو يرزح تحت ثقلِ كلّ كيلوغرام في جسمِه ، ثقل لا يستهان به . التفتت آسديس ، ربّما لا يفصل بينهما إلّا ما يقارب خمسة عشر مترًا ، أدارَتْ له جانبَها الأيسر ، وبدا أنَّ النّار ضخّمتها ، وسّعتها ، رفعَتْ ذراعها ، مدّتها إلى الأمام ، حينها رأى المسدس . والمسدسُ انطلق .

6

تسافر أي رصاصةٍ مسافةً بعيدة وبسرعةٍ ، حتى لو صوّبت من مسدسٍ بطلقةٍ واحدة ، يُستخدم في العادة لجمع الخِراف . هناك جزءٌ من ثانيةٍ من حيث تُطلق إلى أن تصيبَ أو تخطئ هدفَها . جزءٌ من ثانية ليس أكثر من فرقعةِ أصابع ، وفي الوقت نفسِه يمكنُ أن تصبحَ هذه المدّة طويلةً جدًا ، يمكن أن تمتدّ لتشملَ أيّام المرء كلّها . وهذا ما كانَتْ عليه الحال بالنِّسبة إلى كيارتان . رأى المسدَّس ، سمع الدّوي ، وبعد ذلك امتدَّتِ اللحظة إلى الخلود ، وفي وسط ذلك الخلود وقفَ متيبّسًا ينتظر رصاصةً . وسيأتي عليهِ يومٌ يسألُ فيه نفسَه آلاف المرّات ، في الليل وفي النّهار ، في النّوم وفي اليقظة ، وهو سعيدٌ أو حزين ، وهو مخمور أو صاح : أكانت تنوي القضاءَ عليه؟

7

بعد ما يقاربُ عشر دقائق منذ أن أطلقِت تلك الرّصاصة ، كانا يجلسَان إلى طاولةِ المطبخ . لم تعطِه آسديس أيَّ فرصةٍ ليعترفَ بما اقترفَه ، وهذا يؤلم حقيقةً . كان الاعترافُ سيخفّف من عذابِ ضميرِه ، الإقرار بالذّنوب له مفعولٌ مطهّر . فآسديس اكتفَتْ بأن تقولَ : أنا أعرف كلَّ شيءٍ ، ولن أسامحَكَ أبدًا على خيانتِي وخيانةِ أطفالِنا وخيانةِ حياتنا معًا . كان

كيارتان قد حاولَ أنْ يبدأ في الكلام ، لم يردْ أنْ يبرِّرَ أيَّ شيءٍ ، رغب فقط في الفضفضةِ ، ليقولَ إنَّه لم يستوعِبْ ماذا ألمَّ به ، إنَّه حاول مرَّاتٍ عديدةً أن يضع حدًا لتلك العلاقة ، إنَّه نذلٌ ، بل أبله لعين ، أراد أن يحكيَ عن لياليه المؤرقة ، عن اضطرابِ مزاجه ، أراد أن يقولَ لها إنَّ كريستن ليسَتْ شيئًا بالمقارنة معك ، يا إلهي ، إنَّها لا شيء على الإطلاق ، أنتِ أفضل منها بكثير جدًا ، يا لي من أحمقَ لعين كنتُ . هذه هي الأشياء التي أراد أن يقولَها ، بل ربَّما حتَّى أراد أن يبكيَ أيضًا ، تاق إلى البكاء من صميم قلبه ، احتاجَ إليه . أراد منها أن تصرخَ في وجهه ، احتاجَ إلى ذلك ، أراد منها أن تعنّفَه ، وكان سيقبلُ أي تعنيفٍ منها بطيبِ خاطرٍ ، ولن يحاولَ أنْ يدافعَ عن نفسِه . لن يقول كلمةً واحدةً عن انشغالِها المفرط جدًا بدراساتِها لدرجةِ أنَّها أهملَتْ كلَّ شيءٍ ما عداها ، وأنَّهما ربَّما لم يبذلَا جهدًا كافيًا ليحافظَا على علاقتِهما الزّوجيّة ، بل عوضًا عن ذلك سمحَا للزَّمن أن يمضيَ كيفما اتَّفق بكلِّ بساطةٍ ، وأنَّ الحبَّ نار ، والنَّار سرعان ما تخبو إذا لم تؤجّج . لكن لم يُسمح له بقولِ الكثير ؛ رفعَتْ يدها في وجهه فأخلد إلى الصمت . هناك بيتٌ جيّد معروض للبيع في البلدة ، قالت آسديس ، وهناك فرصةُ عمل متاحةٌ في المستودع ، سبق وتحدَّثت مع عمِّي ثورغريمر عن هذا ، الوظيفة لك إذا رغبْتَ فيها . استمَع كيارتان ، مذهولًا ، وجلًا تقريبًا ، في بادئ الأمر عجز عن قول كلمةٍ واحدة ، استقرّت في حنجرته كتلةٌ كبيرة قاسية . في النّهاية تنهّد ، وبصوتٍ فيه شيءٌ من الليونة قال : نبيع المزرعة؟ نعم ، ردّت آسديس . تلفّت كيارتان ينظر حواليه كما لو أنَّه يستنجدُ بأحدٍ ، كما لو أنَّه يأمل أنْ تقولَ الثّلاجة كلامًا ما ، أو إبريق القهوة ، أو المذياع ، أو الجدران ، أو ربَّما البيت بحدّ ذاته . لكن لا أحد هبَّ لنجدتِه ، وهكذا قال الشّيء الوحيد

الذي تبادر إلى ذهنِه : لكن ، لقد عشْنَا هنا حياةً بأكملِهَا .

نحن تطرّقنا إلى الحديث عن بيع المزرعة في أغلب الأحيان ، قالَتْ آسديس بهدوءٍ ، بقليلٍ من البرود ، قبلَ أنْ تعدِّدَ الأسباب كلّها التي سبقَ أن توصّلا إليها في السّنوات القليلة الماضية ، أنّه ليس هناك مستقبلٌ عظيم لمثل هذه المزرعة المتواضعة ، وعيشهما في قلقٍ لا نهائيّ خشية الفشل في تدبير أمور الحياة ، خشية عدم قدرتهما على تزويدِ أطفالهما بما هو أفضل ، وقضاء حياتهما بأسرِها وهما يكافحان . الزّمن يتغيّر ، وخلال بضع سنواتٍ ، خلال عشر سنواتٍ أو عشرين سنةً ، لن تصمد إلّا المزَارعُ الكبيرة فقط ، وثلاثة منها في أدنى الأحوال أكبر من مزرعتنا بأربعة أضعاف ، أولئك الذين يتمسّكون بعنادٍ بالمزَارع الصّغيرة يهدرُون عمرهم بالكدح المتواصل ، ولا يُمنّون إلّا بخيبات الأمل . يقضون حياتهم بالكفاح الدّائم والإحباط . أنت نفسك قلتَ هذا عدّة مرّاتٍ ، وكذلك أخوك أيضًا قال هذا في أغلب الأحيان . لكن ماذا عن أمّي وأبي ، بدأ كيارتان ، متلمّسًا الحجج ، متعلّقًا بقشّةٍ ، لا يمكن أن نفعل هذا بهما! حدَّقت آسديس في زوجها عبر طاولة المطبخ ، والأجواء هناك في المطبخ ازدادَتْ برودةً بعض الشّيء ، ثمَّ قالت ، هناك أمورٌ كثيرة ليس في وسعنا أن نفعلَها للآخرين ، ومع ذلك نفعل ولا يتغيّر شيء . نكّسَ كيارتان بصرَه ونظر إلى الطّاولة ، متمنّيًا ألّا يضطرَّ إلى رفع نظره ثانيةً أبدًا .

آسديس : لكن ، كما تعلم ، نحن لا نعيش من أجلِهم . ولا حاجة بنا إلى أن نعزوَ الرّهافة لأناسٍ لا يملكونَها ؛ يمكنُكَ دائمًا طبعًا الاحتفاظ بقطعةِ أرضٍ من أجل كوخ صيفيّ لهما ولأخيك . لكن هكذا سيجري الأمر : سأنتقلُ إلى البلدة ، وأنا أدعوكَ ، على الرّغم من كلّ شيءٍ لتأتيَ معي . لن أطلبَ منك هذا إلّا مرّةً واحدة . تنهّد كيارتان . ثمَّ خرج

ليخمد النّار المشتعلةَ في سيّارة الدّودج ، اشتعلَتْ تلك السّيّارة رويدًا رويدًا ، واحترقَتْ ، احترقَتْ حياته . وفقط ، بعد أن أخمد النّار ، ووقف هناك يحملق في بقايا سيّارته المحبوبة المتفحّمة لاحظ السّكون المنتشر من حوله ، لاحظَ كم كان كلُّ شيء هادئًا ، عندئذٍ تذكّر الجِراء ، تذكّر فرحها البهلواني بالحياة ، تذكّر الكلبة المتفانية . هم في الدّاخل طبعًا ، فكّر ، وتوجه إلى باب كوخهم ليخرجهم . كان قد وصل إلى هناك تقريبًا عندما خرجت آسديس من البيت ، نظرت إليه من عتبة الدّرج ، وسألته بأناةٍ : إلى أين أنت ذاهب؟ أريدُ إخراج الكلاب فقط . أنا . . . وسرعان ما تسمّر في أرضه لمّا رأى التّعبير الذي ارتسمَ على وجهها . أنا ، عادت وقالت ، لكنّها لم تكمل ، لم تحتجْ إلى أن تفعلَ ، اكتفَتْ بالنّظر إليه ففهم - فهم سبب السّكون وغياب الجِراء ، عرف ما الذي جرى . كيف يمكنُني أن أشرحَ هذا للأطفال ، فكّر ، بينما أخذَتِ المشاعرُ المعتملة في داخله تزداد تعتيمًا شيئًا فشيئًا .

وهكذا باع كيارتان الأرض ، باع كلَّ نصلِ حشيشٍ فيها ، كلَّ بقعة عشب ، وكلَّ تلٍّ يشرف على البيت ، باع الأماكن التي كان يختبئ فيها وهو طفل ، والمنظر المطلّ على الزّقاق البحريّ العريض مع جزره الكبيرة كلّها ، وجزره الصّخريّة الصّغيرة ، باع الماشية ، والمعدّات الآليّة ، ومرافق المزرعة ، ثمَّ غادروا ، انتقلوا . لكن ، كيف يودّع المرء جبلًا؟ كيف يودّع المرء بسط العشب وسويقات الحشيش والصّخور في فناء مزرعته؟

[لماذا عشْتُ ، تساءلَتْ عمّتنا وهي على فراش الموت ، فتحْنَا أفواهنا لنردّ ، من غير أنْ نعرفَ الجواب ، لكن بعدَ تساؤلها ذاك ماتَتْ . لأنَّ الموتَ ما زال يتفوّق علينا بخطوةٍ .

لقد رأينا اللّيل يهبطُ على الجبال ، وكُنَّا قد وقفْنَا في الخلاء بينما خالطَتِ الهواء رعشة خفيفة ، ثمَّ رفعَتِ الطّيور رؤوسها لتنظرَ ، وبعدئذٍ أشرقَتْ كرةٌ من النَّار في الشَّرق . لماذا نعيش ، أمِنَ الآمن أن نجيبَ عن مثل هذا السّؤال؟ ربَّما لا ، إذ هل لدينا أي مهامٍ أخرى في الحياة إلى جانب تقبيلِ الشّفاه وما يتبع ذلك؟ لكن في بعض الأحيان ، وعلى وجه الخصوص قبل أن يهيمنَ علينا النّوم في الليل بعد أن يكون النّهار قدِ انقضى بكلِّ ما فيه من بلبلةٍ ، عندما نستلقي في الفراش ، ونستمع إلى دمِنَا ، والظَّلام يشقّ طريقَه نحونا من النّوافذ ، نعم ، آنذاك يستيقظ فينا ما بين تارةٍ وأخرى ذلك الشكّ المربك بأنَّ هذا اليوم الذي انقضى مؤخّرًا لم يُستغلْ كما كان يجب استغلاله ، أنَّ هناك شيئًا كان ينبغي أنْ ننجزَه ، بيد أنَّنا ببساطةٍ لا نعرف ما هو . أتراكُم تفكَّرتم أبدًا في أنَّه على امتداد تاريخنا ، لم نحظَ بظروفٍ تضاهي بجودتِها ظروفنا الآن ، أنَّ الأفراد لم يحصلوا قطّ على مزيدٍ من الفرص كما هي الحال معهم اليوم ، فرص تمكّنهم من التّأثير على بيئتهم ، وأنَّ المساهمة في التّجديد ، والقدرة على التَّغيير لم تكن قطّ بمثل هذه السّهولة المتوافرة حاليًا ، ومع ذلك لم يكن هناك مطلقًا افتقارٌ للعزيمة مثل الافتقار لها في زمنِنا الحاضر – فكيف يُعقل ذلك؟ لعلَّ الجواب يمكن العثور عليه في سؤالٍ آخرَ – مَن هم الأكثر استفادة من هذا الوضع؟

لماذا عشْتُ؟ كان اسم عمَّتنا الرّاحلة بيورغ . وكانت قد تزوّجَتْ مرَّتين ، وأنجبَتْ ثلاثة أطفال . سقط زوجها الأوَّل من على قمَّة جرفٍ وهو يجمع بيض الطّيور البحريَّةِ . سقطةً بطول ثلاثين مترًا ، كان عمره أكبر قليلًا من العشرين . وبعد ستَّة شهور ولد ابنهما . زوج بيورغ الثّاني انقلبَتْ به الفان الرّوسيَّة الخاصَّة بالطّرقات الوعرة ، تدحرجَتْ أربع

مرَّاتٍ فوق المنحدر ثمَّ انتهَتْ في نهر ، بقي عالقًا خلف المقود ورأسه نصف مغمور بالماء الذي جرف حياته رويدًا رويدًا . كانت بيورغ في مقعد المسافر ، وكانت ساقاها مكسورتين ، لم تستطع أن تفعلَ شيئًا لزوجها سوى مراقبتِه وتكرار اسمه مرَّاتٍ كثيرة جدًا إلى أن تخدَّرت شفتاها . كانت في الخمسين من العمر تقريبًا آنذاك ، ماتَتْ بعمر التّسعين ، وفي بعض الأوقات قلنا إنَّها كانت نبتةً دائمة الخضرة ، لأن ، على الرّغم من موت الرّجلين اللذين أحبَّتهما ، بدا أنَّ احتفاءَها بالحياة وإيمانَها بها لا يتزعزع ، كلُّ شيءٍ كان يجرى بطريقةٍ أفضل في حضورها . ولذلك تشوّشنا قليلًا من ذلك السّؤال الذي طرحَتْه وهي تحتضر على فراش الموت . لكن لعلَّ سؤالَها ذاك لم يشِ بأي يأسٍ كامن في أعماقها ، لعلَّ بيورغ ما طرحته إلّا وفي نيّتها أنْ تجيبَ عنه هي ، غير أنَّ الموت جاءها . ما يعني أنَّنا سنعيش دائمًا ونحن غير متيقنين ما إذا كانت هناك ظلالٌ متوارية عميقًا في باطن بيورغ . لكن ، متى يكون في وسعِنا أن نعرفَ شخصًا آخرَ حقَّ المعرفة ، نحن في أغلب الأوقات لا نرى إلّا القليل جدًا ممَّا هو أكثر من السّطح ، سطح قد تحتجب تحته عوالمُ لا يمكن أن نتخيّلها إلّا في ما ندر . نحن لم يراودنا الشكّ قطّ في أنَّ اليأس كان ينهش هانز حينما كان بيننا ، لم نتخيَّل مطلقًا أنَّ مدير مؤسَّسة النَّسيج سيتحوَّل إلى فلكيّ ، ولم نعرف كذلك أنَّ كيارتان سيعاني كثيرًا في كبح شهواته الجنسيَّة ، وأن شخصًا وديعًا مثل آسديس كان قادرًا على قطع رأس ديك ، وإرداء الجِراء بالرّصاص . نحن لن ننسى أبدًا مرح تلك الجِراء . وكذلك لن ننسى أبدًا سؤال عمَّتنا بيورغ : لماذا عشْتُ؟ أيمكن أن تشكِّلَ هذه الحكايات عن الحياة والموت في بلدتنا والرّيف المحيط بها نوعًا من الجواب عن ذلك السّؤال ، وعن الالتباس الذي ينجمُ عنه؟

نحن نتكلَّم ، نحن نكتب ، ونحن نحدثكم عن أمور كبيرة وأخرى صغيرة لنحاولَ أن نستوعبَ ، لنحاولَ أن نضع أيدينا على شيءٍ ما ، بما في ذلك الجوهر بحدّ ذاتِه ، الجوهر الذي على أي حالٍ يبتعد عنَّا باستمرار ، ونعجزُ عن لمسه لمسَ اليد ، شأنُه شأن قوس القزح . تقول الحكايات القديمة إنَّ الإنسان غير مسموح له أنْ يسعى إلى النَّظر في وجه الرَّب ، وإنْ فعلَ فسيكون في هذا هلاكه . وبلا أي شكٍّ ، هذا هو نفسه ما نسعى إليه – السّعي إلى الحقيقة ، السَّعي بحدّ ذاته هو هدفنا ؛ الوصول إلى الغاية سيحرمنا من الهدف . وبالطَّبع ، البحث هو ما يعلّمنا أي كلماتٍ نستخدم لنصِفَ عظمة الكواكب ، وسكون السّمك ، لنصِفَ ابتسامةً ما وحزنًا ، نهاية العالم وضياء الضّيف . فنحن لدينا مهمَّةٌ ، بمعزلٍ عن تقبيل الشّفاه . لكن أتعرفون ، بالمناسبة ، كيف تقولون «أنا أتوق إليك» باللغة اللاتينيَّة؟ وكيف تقولونها باللغة الأيسلنديَّة؟]

مكتبة
t.me/t_pdf

في الغابة تعنّ للرجل أفكارٌ شتّى خصوصًا عندما يجري فيها نهر واسع

1

في أحد أيّام شهر شباط توقّفَتِ الحافلةُ الخضراء وهي تزفر بثقلٍ أمام التّعاونيّة ، فُتح بابُها ، ومنها ترجّل رجلٌ يلبس بنطلونًا بحمرة قانية بحيثُ بدَتْ ساقاه مطوّقتَين بألسنة اللهب . كان قد مضى ما يزيد قليلًا على أسبوع منذُ أنِ احترقَتِ اللمّبات وهبطَ الظّلام على دافي وكيارتان ، منذ أن كادَتْ أكياسُ محسّنات العلف تقتلُ كيارتان ، منذ أنْ شاهدَا السُّلَّم يسقط أرضًا ، وعانيَا كثيرًا في العثور على بضائعَ معيَّنةٍ في العتمةِ ، وشعرَا نوعًا ما بشيءٍ من الاضطراب .

بمعزلٍ عن سيغريذور والزّميلَين المتآزرَين ، لا أحد دخلَ المخزن ، علمْنَا عن زيارةِ بنيديكت بعد وقتٍ طويلٍ ، وقالَتْ سيغريذور أنْ لا شيء هناك يستدعي القلق ، حتّى وإنْ عجزَ المرءُ عن تمييز يدَيه أمام وجهِهِ ، كلُّ ما هنالك أنَّ ثمّة خلل في أسلاك الكهرباء ، وسيمي ينتظرُ وصولَ قطع الغيار من أقصى الجنوب ، وثمَّةَ رئيسُ عمَّالٍ جديد من المتوقّع ظهوره في أي لحظةٍ . ما من شيء مريب يجري ، قالَتْ ، وماذا يمكنُ أن يكون بحقّ الجحيم على أي حالٍ . لكنَّ الزّميلين استمرّا يعملان ببطءٍ في الظّلام ، وهذا مدمّرٌ للأعصاب ، ومن الصّعب إلقاءُ اللّوم عليهما لتفكيرِهما المتواصل في الأنقاض تحت الأرضيَّةِ ، ما علينا إلّا أنْ نكونَ صبورين معهما . لطالما كانَتْ سيغريذور مقنعةً كثيرًا ، نعم ، لا شيء غير عادي

يجري ، ما عدا أنَّ غودمندر ، هناك في البيت يشكو من قضيبٍ متقرّح ، فقد أصبحَتْ حياتُه الجنسيَّة فجأةً متقلّبةً وجنونية ولا يمكن التَّنبّؤ بها ، لدرجة أنَّه أحيانًا يستعصي عليه الانتظار إلى أن تعودَ زوجته إلى البيت ، وفي أحيانٍ أخرى يمكنُه بالتَّأكيد الانتظار ، كانَتْ بالنِّسبة إليه مثل الجوّ السَّيّئ .

لا شيء غير عادي يجري . كانت محقَّةً طبعًا ، عقلانيَّةً في تفكيرها على هذا النّحو ، لكن ، ماذا نعرفُ حقًا ، عندما يُقال كلُّ شيءٍ ويُنجَزُ كلُّ شيءٍ؟ في بعض الأوقات ليست لوجودِنا علاقةٌ كبيرة بالعقلانيَّة – لعلَّ ذلك كان أشباحًا فعلًا ، أناسٌ مرَّتْ عليهم مئتَا سنةٍ تقريبًا ، خرجوا الآن وسرحوا . أتعرفُون ما يعني هذا : إنَّه البرهان على الحياة بعد الموت . والحصولُ على مثل هذا البرهان ، ليس شيئًا يُستَهان به في الواقع . وقد يكون الأعظم من أي شيءٍ آخرَ . حينها لن يصعبَ علينا كثيرًا أن نعيشَ ، أن يصبحَ من المفجع استلقاؤنا على السّرير للنّوم في أحلكِ ليالي الشّتاء . وقدِ استغلَّت إليزابيت كلَّ ذلك لمصلحتِها ، بمهارةٍ وجسارةٍ عندما أعلنَتْ عن محاضرةِ الفلكيّ الشّهريَّة لشهر شباط ، ولَمَّحَتْ إلى أنَّه سيناقِشُ قضايا تتطرّق إلى الحياة والموت – آخِذًا بعين الاعتبار – الهوّةَ بين الاثنَين .

بالمقابل لقي هذا الكلام إقبالًا شديدًا واستثنائيًا جدًا أيضًا . جاءَت الأمسيةُ وبالكاد كان هناك مقعدٌ شاغر ، في الحقيقة بدا أنَّ معظم أهالي البلدة قد حضروا ، باستثناء أولئك الذين لم يستطيعوا مغادرةَ البيت لأسبابٍ صحيَّة ، أو لأنَّ لديهم أطفالًا صغارًا يجبُ الاهتمامُ بهم ، أو بسببِ برنامجِ تلفزيون يريدونَ مشاهدتَه ؛ كانَتْ هناك أيضًا شرذمةٌ من أهالي الرّيف ، كراعي الأبرشيَّةِ على سبيل المثال الذي جلس معتمرًا

قبّعة البيبسبول وساقاه متباعدتان . قدَّمَتْ إليزابيت القهوة ، الشّاي ، الكعك والمقبّلات ، كلّها لذيذة جدًا ، ساعدَتْها صبيَّةٌ من البلدة بعمر ثماني عشرةَ سنةً ، وكانَتْ سرعتهما ورشاقتهما في تقديم هذه المنعشاتِ للجمهور مدهشةً . لم يبد قطّ أنَّ القهوة فرغت من كوبِ أي شخص ، أو المقبلات من صحنِ أحدهم . انسلَّتْ إليزابيت بين النّاس حاملةً إبريق القهوة الذي بقي عامرًا أبدًا . وبعد دورةٍ واحدة أخرى بقميصِها الضَّيق ، بدأنا غريزيًا نفكّرُ في المسافة بين حلمتَيها ؛ ولماذا تلبسُ على هذا النَّحو؟ انتظر الفلكيُّ بصبرٍ عند المنصَّة ، بلا أي إشارةٍ تشي بالتَّوتّر العصبيّ ، ففي الوقت الحالي بات يشعرُ بالثّقة أثناء إلقاء محاضراتِه ، بقدرِ ما كان يشعرُ بها في ذروةِ أيّام مصنع النَّسيج الخوالي . أخيرًا ، خفضت إليزابيت من حدّة الضّوء ، فخفتتِ الثَّرثرة وقال الفلكيّ : الليلة أودُّ أنْ أتحدَّثَ عن تخومِ الكون المحتملة ، عن تخوم الوجود المحتملة .

ما عليكم إلّا أنْ تتخيَّلوا كيف صرَّتْ آذاننا .

عادةً ، قلَّةٌ قليلةٌ منّا كانت ستهتمُّ بصرف المساء على مثل هذه التّخمينات ، إذ لدينا أشغالٌ كثيرة لنستغلَّ بها وقتنا ، والدّراسات تبيّنُ أنَّ هذه الأنماط من التّأمّلات تُفضي إلى إدمان الخمور والإفراط في تناول العقاقير المنوّمَةِ وأدوية الكآبة . قال الفلكيّ إنَّ الإنسان لن يفهم الحياة أبدًا ، لن يستوعب أبعادها مطلقًا ، ولطالما كانت طبيعتُها تفوق قدرة تخيّلاتنا ، لكنَّها في الوقت نفسِه في منتهى الوضوح ، في منتهى البساطة لدرجة أنَّه لا طريقة هناك لاستيعابها . بدأَتْ رؤوسنا تلفّ وتدور من هذه الكلمات . جبهةُ الفلكيّ عريضةٌ ، عيناه تغيّران لونهما وفقًا للمشاعر التي تخالجُه . لغةٌ جديدة كلَّ الجدّة عليه جاءَتْه في حلم ، فكيف يمكن أن يجاريَ المرء رجلًا كذاك؟ في الحقيقة ، بالكاد فهمنا نصف ما انبرى

يقوله ، فضلًا عن الخذلان الذي منَتْنَا به إليزابيت بعدم نشرِها مقتطفاتٍ من المحاضرة في الكرّاسة . مع ذلك نحن نتذكّر هذا التّصريح الذي أدلى به : يُصرّ بعض الأشخاص على أنَّ الموتَ هو الاستمرار المباشر للحياة ، ولذا من الخطأ القول إنَّ النّاس يموتون ، هم ببساطةٍ يعبرون من أحد الأبعاد إلى بُعدٍ آخرَ . وبناءً عليه ، الموتى ليسوا موتى بمعنى أنَّهم رحلوا ، فهم ما زالوا كلّهم حولنا ، يحيطون بما نسميه الحياة ، كما تحيط السَّماء بالأرض . أو بكلماتٍ أخرى ، أولئك الذين يموتون ينتقلون إلى ما وراء تخوم الكون ، حيث الحياة المطلقة ، الحياة الأبديَّة عند هامش الفضاء ، الهامش الذي ما وراء حدود أبصارِنا . هذه طبعًا نظريَّاتٌ قديمة ، أضاف ملوّحًا بيده قبل أنْ يتابعَ الكلام عن دمدمةِ إشعاعاتِ المايكرويف الكونيّ . إشارةٌ ثابتة تنبعث من هوامشِ الكون وتشعّ في الاتّجاهاتِ كافةً . وهي على الأرجح انعكاسُ جلجلةِ الانفجار العظيم ، أو ربَّما رجعُ صدى المحادثات في العوالم الأخرى ، رجعُ صدَى دمدمةِ الموتَى .

على هذا النَّحو اختتم الفلكيّ محاضرتَه : دمدمة الموتى! لحسن الحظّ ، رفعت إليزابيت مستوى الضّوء ، وجلسْنَا حيث نحن صامتِين ، وأفكارٌ شتّى تحوم في رؤوسنا ، بينما انهمكَ الفلكيّ في جمع أوراقه ، ثمَّ شرب كوب ماءٍ ، وبعد ذلك أجال عينَيه في أنحاء الصّالة وقال : أي أسئلةٍ . سألنا وعلى وجههِ ارتسمَت ابتسامةٌ جدّ ماكرة حيّرت معظمَنا ، لكن ، ليس كلّنا ، هناك دائمًا بعض الأشخاص الذين يقودوننا خلال دروبِ العتمة . مرّر راعي الأبرشيَّة يده على وجههِ وتنحنحَ ، وهيلغا ، تتذكَّرون هيلغا ، المرأة التي تردّ على الهاتف ، وتقرأ نصوصًا عن علم النّفس بالإنجليزيَّةِ . أخذَتْ هيلغا نفسًا عميقًا وهمّتْ بالوقوف ، غير أنَّ بيرغفين

كان أسرعَ من الاثنين بالوقوف . يحمل بيرغفين اسم مدير التّعاونيّة المسنّ السابق ، ودرجْنَا على تسميته بيرغفين ج . ر حينما كان مدير التّعاونيّة بين ظهرانينا . وهو يشغلُ منصبَ مدير المصرف الزّراعيّ ، وهو أيضًا عضو في مجلس إدارة جمعيّة منتجات الألبان ، ومجلس المركز الاجتماعيّ ومجلس التّعاونيّة ، فنحن قليلون جدًا في العدد .

في وقت ما ، حلم بيرغفين بحياةٍ مع أوغستا العاملةِ في مكتب البريد ، غير أنَّ ذلك بقي حلمًا ، كما يحدث معنا غالبًا ، العالم يعجّ بالأحلام التي لا تتحقّق مطلقًا ، تتبخّرُ وتستقرُّ مثل النّدى في السّماء ، حيث تشدُّ رحالها إلى النُّجوم في اللّيل . لم يجرؤ بيرغفين قطّ على القيام بالخطوةِ الأولى ، وانتظرَتْ منه أوغستا أن يفعلَ ، رقصا معًا في حفلاتِ رقص البلدة ، تلامسَتْ أيديهما مرَّةً ، مرَّتين ، ثلاث مرّات ، لكن بعدئذٍ تزوَّج بيرغفين سيبا يونسدوتر التي كانَتْ آنذاك نحيلةً وقصيرة كوصلة خيط ، لكنَّها حيويَّةٌ جدًا وسريعة في كلِّ شيءٍ لدرجة أنَّ حضورَها أصابنا بالذّهول أحيانًا . في مساءٍ ما ، جذبت بيرغفين إلى ساحة الرَّقص ، كان ذلك في إحدى حفلات الرَّقص المرحة جدًا في البلدة ، مع الكثير من تعاطي المشروبات الكحولية . ورقصا معًا ، بينما راحَتْ أوغستا تطوف حول ساحة الرّقص بأحمر الشّفاه القاني مثل إشارةِ التّوقف ، رأَتْ سيبا ترقصُ على أطراف أصابع قدمَيها ، تضعُ راحةَ يدها اليمنى على نقرة بيرغفين ، تجذبُ وجهه نحو وجهها ، ثمَّ انفرجت شفاههما ، وتلاقى لساناهما ، كانت قبلةً طويلةً وشغوفةً ، وعادت أوغستا إلى بيتها بقلبٍ مكسور . تزوَّج بيرغفين سيبا ورُزِقَا أربعة أطفال ، ما عادَتْ سيبا نحيلةَ القوام مثل وصلة خيط ، هي حاليًا عريضة جدًا بحيث لا تكاد ذراعا بيرغفين تتمكّنان من الالتقاء وهما تحيطان بها ،

وهذا ، ربَّما ، بمفهوم معين ، لا يفعله أبدًا . والآن وقف ، لا تشوبه شائبة كحاله دائمًا ، ببدلتِه الزَّرقاء المقلّمة وربطة عنقِه الحمراء ، والسّنوات أضفَتْ عليه الوقار . وكذلك اكتسَبَ مزيدًا من الوزن ، إذ يبدو كما لو أنَّه يحمل كيس إسمنت في بطنه ، شابَ شعرُه في وقتٍ مبكر ، أولئك الذين لديهم شعرٌ شائب يفكّرون كثيرًا جدًا ، وبطريقةٍ مسؤولة ، والآن هبَّ واقفًا ، ألقى نظرةً حواليه ، حيَّا بعض الوجوه ، وأولئك الذين تلقّوا إيماءةً من رأسه شعرُوا بالفخر حقًا . حشرَ بيرغفين إبهامَيه تحت حمالتَي بنطلونه الخضرَاوين والعريضتَين ، شدّهما ، مرَّرَ إبهامَيه عليهما صعودًا ونزولًا لكنَّه لم يتنحنحْ ، لأنَّ رجلًا مثل بيرغفين لا يحتاج أبدًا إلى ذلك ، وهكذا بادرَ إلى الكلام فحسب . نعم فعلًا ، دمدمةُ المايكرويف الكوني ، قال ، أيمكنُ بأيّ صدفةٍ أن تشبهَ الدمدمةُ جلجلةَ النّقود عندما تعدُّها ماكيناتنا في المصرف؟ ابتسمْنَا ، ضحكْنَا بأصواتٍ خافتة ، قلنا إنَّ بيرغفين موهوبٌ بالتَّأكيد ، وبلمح البصر تصوّرنا ماكينةَ عدّ النّقود السّماوية الهائلة ، تحسب للموتى ما يضعونَه من ودائعَ في مصرف الخلود . واصلَ الفلكيّ الابتسام ، فهو وبيرغفين يعرفان بعضهما بعضًا خيرَ معرفة ، معرفة تعود إلى الماضي ، وكانا على وفاقٍ تامٍّ إبَّانَ عمل مؤسَّسة النّسيج ، ولم تنقصهما الاجتماعاتُ المهمَّة حينذاك ، أمسيات يقضيانها معًا ، يُدخّن فيها السّيجار ، ويُصبُّ الكونياك في أقداحٍ واسعة الفم . لطيفٌ أن يحتسيَ المرء الكونياك بينما يتّكئ المساء على النّوافذِ ، فالمرء عندئذٍ يشربُ نخب الظَّلام ، بيد أنَّ المشكلةَ الوحيدة التي كانت هي نزوع بيرغفين إلى الإفراط في الشّرب قليلًا . وحدثَ أن فقد سيطرتَه على لسانه ، وانتهى إلى الإسهاب في المجيء على ذكرِ زوجة صديقِه ، خصوصًا عن عينَيها ، وهذا ، على أي حال كان غفرانُه ممكنًا ، ففي

إحدى الرّوايات المشهورة ثمَّة نصٌّ يقول «في عينيك يكمن ضوءُ العالم ، وكذلك الظّلام» . مع ذلك ، مرّ عددٌ كبير نسبيًا من السّنين منذ أن جلسا معًا وسط ضباب دخان السّيجار الثّخين ، والآن ها هو بيرغفين يقول ، وهو يبتسم ويقلّب طرفه بين الجمهور والمنصّة : لا ، من المحتمل أنَّ هناك تفسيرًا آخرَ لدمدمة مايكرويفك الكونيّ ذاك ، مع أنّني أظنّ وبقوّةٍ أنَّ ما رصدَه علماؤك كان رجعَ صدى ماكينةِ خياطة الخلود . لكن ، بغضّ النّظر عن المزاح ، أردْتُ شكركَ على محاضرتك الغنيَّة بالمعلومات المفيدة ، يجب طبعًا أن أُكثِرَ من حضوري لأستمعَ إليك ، لأنفض الغبار عن خلايا دماغي قليلًا . أما وقد قلتُ هذا ، أودُّ أن أسمعَ ، لأشبعَ فضولي ، رأيك اليقيني ، عن ما يمكن أنْ أسميه حوادث هنا في البلدة ، مع أنَّ كلمة حوادث قد لا تكون الكلمةَ الصَّحيحةَ ، بل بالأحرى عن الإشاعات المتداولة ، كونها طبعًا ضربًا من ضروب البلاهة التي نسمح لأنفسِنَا بأنْ نعلق في شباكِها ، ومع ذلك ، أرغبُ ، لأشبعَ فضولي في أنْ أسمعَ تحليلًا علميًا عنها ، وأنا بطبيعة الحال أشيرُ إلى الحكايات عن المستودع ، وعن حلم لولا ، وكذلك عن قضيَّةِ اختفاء فينور ، وقضيَّة الرّاحل بيرغفين ، نعم ، سيكون من المثير سماعُ رأيك – رأيك العلميّ .

سكَتْ بيرغفين ، حشر إبهامَيه تحت حمَّالَتي بنطلونه وصوَّب عينَيه على خشبة المسرح . واجَهَ أحدهما الآخرَ ، هذان الصَّديقان السَّابقان ، وربَّما لأوَّلّ مرَّةٍ منذ سنوات ، أو منذ أن حاول بيرغفين إقناعَه ليتخلّى عن «ذلك الهراء» ، أي اللغة اللاتينيَّة والكتب القديمة المكلفة ، والتَّضحية بعائلته . من المحتمَل أنَّ بيرغفين لم يسامح صديقَه المقرّب قطّ لأنَّه أدار ظهره للرَّخاء ، لأنَّ ذلك القرار ، ذلك التّصرف ، أو أيًا ما يمكن أن يسمي المرء مثلَ هذا الجنون ، كان بلا مراءٍ معاديًا للمجتمع ، مدمّرًا له ،

ومتجاهلًا تمامًا قيمنا . منذ ذاك ، أصبحَتْ علاقتُهما قاحلةً ، وهي كانت أدنى حدّ ممكن من العلاقات في بلدة من أربعمئة روح . لعلَّ ما اعتبره بيرغفين أفدح جريمة هو طريقُة معاملة صديقه السّابق لزوجتِه ، كيف بحقّ الجحيم أمكنَكَ التّضحية بحياتك وبامرأة كتلك من أجل السَّماء ولغةٍ ميتة وكتبٍ عتيقة؟ بل حتى قال له بيرغفين يجبُ أن تفكّر في الحصول على مساعدةٍ ، تكلَّم مع عالم نفسانيّ ، مع معالج نفسِيّ ، هناك عقاقيرُ لمثل هذه الانحرافات ، وعلى هذا ردّ عليه رفيقُه القديم بسؤالِه ، أتعني أنَّ هناك عقاقيرَ من أجل الحياة؟ منذ ذلك الحين مرَّتِ السَّنوات ، والآن وقفًا يتبادلان النّظر في المركز الاجتماعيّ ، والصّمت يئزُّ من حولنا . أخيرًا فتح الفلكيُّ فمَه وقال : أنت تشيخ بشكلٍ لائق يا بيرغفين . دُهِشَ بيرغفين كثيرًا من هذا التّعليق بحيثُ جلس ، رنا إلى زوجته سيبا التي هزّت رأسَها موافقةً ، فتنهّد بهدوءٍ ونظر إلى المنبر ، وضع الفلكيُّ يدَيه على المنصّة ، شعرُه الشّائب عن بكرة أبيه ممشَّطٌ إلى الخلف ، سترتُه السَّميكة السَّوداء أضفتِ المزيد من الشّحوب على وجهه . مهما بلغَتِ السُّرعة التي تتقدَّم بها العلوم ، قال ، لن نفلح أبدًا في تحرير أنفسِنا من الخوف من الظَّلام ، وذاك الخوف قد يستفحل ويتعمّق ، لأنَّ الإنسان المعاصر – وأعني به سكّان المدن ، فنحن هنا بالكاد يمكن تصنيفنا أناس معاصرون – ما عاد يألف الظَّلام ، فقد أبيد بالإضاءة المفرطة ، بكهرباءٍ وافرةٍ أكثر ممَّا تستدعي الحاجة . ما عاد النَّاس يعرفون كيف يتعاملون مع ظلام الطَّبيعة ، ما عادوا قادرين على الاهتداء إلى طريقهم في العتمةِ . أخبرَني أصدقائي الأجانب العديد من القصص عن هذا ، وكيف يبدأ الأطفال بالبكاء عندما يجدون أنفسهم فجأةً وجهًا لوجه أمام ظلام الطَّبيعة . أتوقّع أنْ يدعوَ بعض الأشخاص هذا انحطاطًا . ولعلَّ

هذا ينطبقُ علينا أيضًا ، لا أحد تقريبًا هنا يخرجُ ويتجوّل في الأنحاء بعد هبوط الظَّلام ، وكما أعرفُ جيّدًا ، معظمُكم مقيدٌ بالتّلفزيونات ، بالحواسيب ، بالحياة الجنسيَّة ، أو بالجلوس نصف مغمورين بالماء السّاخن في أحواضِ الاستحمام . وكون الأمر كذلك ، أرى أنَّ ما أستطيع قولَه عن هذه الأشياء قليلٌ جدًا ، أعني المستودع ، وأولئك الاثنين ، فينور والرّاحل بيرغفين ، لكنَّني أذكّركم أنَّ فينور درجَ على أن يكونَ سياسيًا ومن طبيعة السّياسيّين أن يختفوا - يتبخروا - حالَما يتنحون من مناصبِهم ، ويفقدُون قوَّتَهم وتأثيرهم . الإنسانُ هو ما يفعلُه ، والسّياسةُ تتضمَّنُ القوَّةَ والسُّلطة ؛ جرّدوا أيَّ سياسيّ من هاتَين الصّفتَين ، ولن تحصلوا على شيءٍ متبقٍّ ، فلماذا نتفاجأ عندما يتبخّرون ويختفُون ، كما فعلَ فينور؟ أمَّا بالنّسبةِ إلى المستودع ، أنا لا أكادُ أملك شيئًا يمكن أن أقولَه ، ولم أناقش ذلك مع ابني ، ومن ثمّ لا أعرفُ إلّا القليل عنه ، بيد أنَّ بعضَ النَّاس يقولون إنَّ الوجود بأسره ذاتيّ ، أي أنَّ كلَّ ما يعتمل في ذهن المرء يصبحُ له وجودٌ بطريقةٍ تلقائيَّةٍ . إذا تقدّمنا خطوةً واحدةً إلى الأمام من منطلقِ هذهِ الفكرَةِ ، تغدو الأشياء حقيقيَّةً حالما تخطرُ لنا «هنا» ، تابعَ وهو ينقرُ بإصبعه على رأسه الذي شيَّبتْهُ الحكمةُ . وربَّما لا تتعدَّى الأشباح كونها حالةً ذهنيَّةً ، لكن كلّ حالةٍ ذهنيَّةٍ هي بمعنى من المعاني الواقعُ نفسُه ، والعكسُ بالعكس طبعًا . خلافًا لذلك ، هناك نظريَّاتٌ لا تفترض فقط وجودَ حياةٍ بعد هذه ، بل تقترحُ أيضًا أنَّ الفجوةَ بين عالم الموتى وعالم الأحياء جدُّ صغيرة ، بحيث لا يتطلّب الأمرُ سوى القليل من التَّغيير العرضي في أجواء جائشة شخصٍ ما ، كأن تتمزّقَ في داخله ، ربَّما ، السِّتارةُ الفاصلة بين العالَمين . مثل هذه الأمور سبقَ أن حدثَتْ ، أحيانًا من دون نتائجَ ، وأحيانًا بنتائجَ فظيعةٍ . هناك رواياتٌ قريبةُ العهد عن

قرًى جبليَّةٍ بأكملها في النيبال والبيرو هُجرَتْ بطريقةٍ غامضةٍ ، في المدن الكبيرةِ يختفِي النّاسُ كما لو أنَّ الأرضَ ابتلعتهم أو أنَّ السَّماء شفطَتْهم ، في إحدى قُرى ويلز أصيب بالجنون في ظهيرة يوم كلبٌ واحدٌ وستةَ عشرَ شخصًا وكلّهم يتمتعون بصحَّةٍ جيِّدةٍ . جلّ ما كانوا يفعلونه هو التفرّج على مباراةِ كرة قدم في حانةِ القرية . فما المانع من أنْ يحدثَ شيءٌ كهذا هنا؟ لكن ، ها أنا أَرى أنَّ إليزابيت تودّ قول كلامٍ ما ، ولذلك أتمنى لكم ليلةً سعيدةً ، قال ، بطريقةٍ جدّ مفاجئة . نزل من على خشبةِ المسرح وخرج ، سمعْنَا الباب يُغلقُ .

هذا بطبيعةِ الحال أثارَ حفيظةَ بعضِ الأشخاص .

يا لوقاحةِ ذلك المغرور ، بتصرّفه هكذا ، نأتي إلى هنا ، نجلسُ ، نستمعُ إلى هرائه الفلسفيّ وسخافاتِه العلميَّة ، ثمَّ عندما نشعرُ برغبتِنَا في طرح سؤالٍ ، يغادر . أولئك الذين تبقّوا من الحضور هبّوا واقفِين ليخرجوا ، خمشَتِ الكراسي الأرضيَّةَ ، تصاعدَت التَّنهّدات ، لا بأس إذًا ، قال أحدُهم ، وشخصٌ آخرُ قال ، تبًا للجحيم ، لكنَّه لم يكن يُشِر بكلامه هذا إلى خروج الفلكيّ غير المتوقَّع ، أو إلى وصف السّتارة الممزَّقة المقلِق ، أو دمدمةِ الموتى ، أو نهايةِ العالم ، إنَّما لأنَّ إليزابيت صعدَتْ إلى خشبة المسرح ، ذهبَتْ ووقفَتْ إلى جانب المنصّة ، لم تشأ أن تقفَ خلفَها ، لا شيء مسموحٌ له أن يلقي ظلالًا عليها ، إذ لا بدَّ لها من أن تكشفَ كلَّ شيء دائمًا ، تغوي العالمَ ، بل وتغوي السَّماء أيضًا ، لا عجب في أنَّ السَّماء تختبئ أحيانًا وراء الغمام . لكن ، اللعنة على الجحيم بسببِ طريقةِ تأنُّقها طوال الوقت ، طريقة دعمها لنفسِها ، ألف لعنةٍ على الجحيم بسببِ ما هي عليه . تلبس بلوزاتٍ ضيِّقةً ، وتنانير «دينم» ، وجواربَ سوداءَ مخرّمة كشبَاك الصّيد ، و . . . لمرَّاتٍ لا تُحصى يتبيَّن أنَّها لا تضع

حمَّالة صدرٍ . تتحرّك إليزابيت ، وبعضُنا يزدردُ لعابَه . هي تضعُ أحمر شفاهٍ فاتحَ اللون ، وكحلَ عينين خفيفًا ، ولعلَّ هذا ما حرَّضَنَا على التَّفكير في اللبوة أو النَّمر ، لا ، بل بالفهد ، وهناك وقفَتْ ، بحذاءِ أديداس أحمر تعارضَ مع طريقتها في ترتيب هندامها . تقاطيعُ وجهها ليست متناسقةً تمامًا ؛ عيناها السّوداوان متباعدتَان بعض الشَّيء ، كما لو أنَّ هناك مسافةً تُركَتْ لعينٍ ثالثة ، أنفُها مدبّبٌ بأرنبةٍ مرتفعةٍ وفتحتَين واسعتَين ، شعرُها داكنُ اللون وطويلٌ ، نقولُ داكن ولكن في الواقع بدا لنا أنَّه ازداد سوادًا مع مرور اليوم ، بل حتَّى تحوَّل إلى أسودَ حالك في الليل ، مع أنَّنا نجهلُ هذا حقًّا على وجه التَّأكيد ، تنام إليزابيت وحدها دائمًا ، تعودُ إلى بيتها من حفلات الرَّقص باكرًا ، هي التي تُحيِّرُ الرِّجال وتصيبهم بالجنون بنهدَيها ، وثمَّةَ من يقول أنا سأتخلَّى عن يدي اليمنى مقابل أنْ أراهما ، ويدي اليسرى مقابل لمسِهما ، لكن عندئذٍ كيف سأعانقها؟ تقف أمامَنا على خشبةِ المسرح ، مذهلةً بجنونٍ ، على الرَّغم من حذاء الأديداس المهترئ وتقول : هناك شخصٌ في طريقِه إلينا .

نعم ، شخصٌ ما في طريقِه إلى هنا . تواصلَتْ معه سيغريذور بعد استقالةِ ثورغريمر ، وهو سيتولَّى إدارةَ شؤون المستودع . أنتم تعرفونه كلكم ، رحلَ قبل ستِّ سنواتٍ مضَت ليغامرَ في العالم ، كما عبّر عن هذا بلسانِه . سيأتي غدًا ، وأنا وحدي سأرحّبُ به ، ولا أحد آخر غيري سيفعل .

2

في اليوم الذي تلا ما أعلنَتْه إليزابيت من على خشبةِ المسرح ، توقّفَتِ الحافلةُ الخضراء وهي تزفرُ بثقلٍ أمام التّعاونيَّةِ ، فُتح البابُ ومنها نزل رجلٌ يلبس بنطلونًا بحمرة قانية بحيثُ بدَتْ ساقاه كما لو أنّهما تتأجّجان بلهبٍ ساطع . كانت إليزابيت قد وقفَتْ تنتظرُ الحافلة في رياح شهر شباط الباردةِ ، محتميةً بمعطفٍ أخضرَ سميكٍ ، وقفّازين صوفيَّين برتقاليّي اللون ، جزمة رحلاتٍ سوداء وقبّعة فراء تشبه رأس دبدوب – ثمَّ تصل الحافلة ، يخرج منها بساقيه المشتعلتَين ، فتبادرُه بالقول : ها قد وصلْتَ . يبتسمُ الرَّجل ، يمسّد شاربَه الأنيق بإبهامِه وسبّابتِه ، لا ينزع عينَيه عن وجه إليزابيت ، يخرجُ سائقُ الحافلة الذي يلبسُ كنزةً ، يفتح أحدَ صناديق الحافلة الجانبية الخاصة بحفظ الأمتعة ، يحمل حقيبةً ، يضعُها أرضًا إلى جانب الرَّجل ، يودّعه بنقرةٍ خفيفةٍ من إصبعه على جبينِه ، ثمَّ تدبُّ الحافلةُ مبتعدةً وهي تشهقُ وتكحُّ ، لا سبب يستدعي منها التَّريُّثَ في البلدة ، المسافرون قليلون جدًّا وكلّهم نائمون . الرَّجل الذي تخلفه الحافلة وراءها نحيلٌ ، متوسِّطُ الطّول ، أطولُ من إليزابيت بحوالي عشرةِ سنتمترات ، أسودُ الشَّعر ، سلافي الملامح ، بأنفٍ دقيق ، وعظمتَي خدَّين عاليتَين ، وعينَين داكنتَين ، وفيه شيءٌ لا مبالٍ ، ربَّما في طريقةِ وقوفه . يرتدي معطفًا بنيًّا سميكًا هو بين المعطف والسّترة . نعم ، نحن نعرفُه ، لكن لم نرَه خلال هذه السَّنوات السّتة منذُ أن رحلَ

ليغامرَ في العالم ، بعد أن صرّح بأنّه سيغادر إلى الأبد ، تاركًا هذه المنطقة النّائيةَ اللعينة خلفه ، تسلّم عملًا في سفينة نظامية عابرة للمحيطات ، أبحر إلى أوروبا ، ترك السّفينة ، ساح من مدينةٍ إلى أخرى ، واشتغل بأعمال مختلفةٍ ليعيلَ نفسَه ، ثمَّ أبحر إلى أمريكا الجنوبيَّة ، حيث بقي هناك أكثر قليلًا من ثلاث سنوات ، وبعدها أبحر إلى الأمازون ، وخاضَ المغامرات . قضى وقتًا مع عالِم إنسانيَّاتٍ يدرس طبيعة السّكان المحليّين في أعماق الغابات المطيرة . ستّ سنواتٍ ، أرسل خلالها ثلاثَ بطاقاتٍ بريديَّة رديئة ، كلّها من أمريكا الجنوبيَّة ، ليسَتْ مرسلة إلى شخصٍ محدّد ، عليها فقط عنوان البلدةِ ، منه إلى الجميع هناك ، صعب أن نقول ما الأخبار التي حملَتْها عن حياتِه ، بدَتِ الكتابةُ اليدويَّةُ أقربَ إلى نملٍ مهروس . حتى أوغستا أعيَتْهَا الحيلةُ ، على الرَّغم من تآلفها مع الأشياءِ المبهمَة على اختلافها . وبما أنَّ البطاقات كانت لأي شخصٍ هنا ، ألصقَتْها إلى إحدى نوافذِ التّعاونيَّة ، وما زالَت معلَّقةً هناك إلى الآن وهو يترجّلُ من الحافلةِ . ثلاثُ بطاقاتٍ جنبًا إلى جنب ، الصّورُ تواجهُ الخارج ، تعاين البلدةَ والجبال عند الجانب الآخر من الزّقاق البحريّ ، والكتابة تواجه المتجر . وغالبًا ما تلكّأنا خارج التّعاونيَّة ونحن نحاولُ استشفاف معنى من النَّمل المهروس ، بل حتَّى قمْنَا بزياراتٍ خاصَّةٍ إلى التّعاونية كلّما حاصرَنَا السَّأم بأسلحته . الحالمون في البلدة فضَّلوا الوقوف في الخارج وتأمّل الصُّور ، ثمَّ يتركون أنفسَهم تمضي على غير هدًى في مدينةٍ غريبةٍ ، عند سفحٍ جبليّ تغطيه الأحراش ، تحت ضوءِ الأمازون الباهر ، من المسلي وكالحلم نوعًا ما أن يقفَ المرء هناك وقدماه مزروعتَان في وجودٍ خالٍ من الأحداث ، غالبًا في جوٍّ رديءٍ تقريبًا ، ثم يحدِّقُ في صورٍ أماكنَ مذهلةٍ ، في ألوانٍ زاهيةٍ قد بدأت تبهتُ مع الوقت ، إذ يبدو

له الضَّوء الدَّافئ والبطاقاتُ البريديَّة مثلَ إعلانٍ من السّماء . أمَّا بقيّتنا ، الذين لا يميلون كثيرًا إلى الأحلام ، فحاولوا بقليلٍ من الحظّ فكّ رموز الكتابة اليدويَّةِ ، كما نحاول أن نفعلَ طوال عمرِنا ، وبقليلٍ من النَّجاح أن نفكَ إشاراتِ السَّماء والأرض المعقَّدةَ . اغفروا لنا هذا الاستطراد . حسنًا ، لقد وصلَ ، اسمُه متاياس ، وهو يقف هناك ببنطلونه الأحمر . تبتعد الحافلة اللاهثة ويلتفِتُ ليعانق إليزابيت ، لا أحد سنحَتْ له الفرصةُ ليعانقَها خلال ستِّ سنواتٍ ، وهو أيضًا الوحيد هنا الذي عانقَها قبل ذلك ، ثمَّ رحل ، وما عرفْنَا قطُّ ما جرى بينهما . كانا ما زالا يتعانقَان عندما تخرجُ سيغريذور من التّعاونيَّة بعد أن كانَت جالسةً في مكتبها ، غارقةً في الحسابات أو من يدري ماذا غير ذلك ، فحاسوبُها يئزُّ دائمًا ، تصافح متاياس محييةً ، تهزّ رأسَها لإليزابيت . رؤيتُهما يقفان جدّ متقارِبَين ليسَتْ بالأمر البسيط ، هذا في الحقيقة أكثر ممَّا نستطيعُ تحمّله . تتكلَّم سيغريذور ، ويستمِع متاياس ، ينظرُ إليها ، يبدو أنَّه يوافقُ ، يقول شيئًا فتضحكُ سيغريذور ، ويبدو أنَّ إليزابيت تبتسمُ وتطرقُ بصرها ، ثمَّ تصافح سيغريذور متاياس ثانيةً ، تلقي نظرةً سريعةً على إليزابيت وتعود إلى التَّعاونيَّة ، إلى مكتبِها ، وتغلقُ الباب . يحملُ متاياس حقيبتَه القديمةَ المستهلكة ، ويدخلُ هو وإليزابيت إلى المتجر ، يجلسانِ ، يشربان القهوةَ ويتناولان الكعك المسطَّح مع لحم الحمل المدخَّنِ . تبدين بحالٍ جيّدةٍ على نحو استثنائيّ ، يقول متاياس .

ابتلعَتْ إليزابيت اللقمةَ التي في فمها ، ابتسمَتْ - أو ربَّما كشّرَتْ - وقالَتْ ، لطيفٌ منك أنْ تقول هذا ، وأنا مسرورةٌ جدًّا لأنَّكَ عدْتَ ، أنا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى حبيبٍ ، وإذا كنتَ الشَّخص نفسَه الذي عرفْتُه ، لدي إذًا ما أتطلَّع إليه . رجع متاياس بظهرِه إلى الوراء ، أراحَ يدَيه على مؤخّر

عنقه ، ومضَتْ عينَاه الدَّاكنتان اللوزيّتان ، ملامحُه السّلافيَّة منحت وجهَهُ لمسةَ غموض . تكلَّمَتْ إليزابيت برويَّةٍ ، كما لو أنَّها تعلّق على حالة الجوّ ، أو تطلبُ كوبَ قهوةٍ آخر ، سمعَتْ فيولا عاملةَ الصّندوق ، وبراندر عاملَ محطَّةِ الوقودِ ذلك بوضوح ، سمعا كلَّ كلمةٍ ، كانا واقفَين وراء منصَّة البيع ، أنا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى حبيبٍ ، كانت إليزابيت قد قالَتْ ، تبادلَتْ فيولا وبراندر النّظر ، فلعق شفتَيه .

لم تزحزح إليزابيت عينَيها السّوداوين عن متاياس الذي شرع يضحكُ ، ثمَّ توقّفَ فجأةً وعاينَها بنظرةٍ غريبةٍ ، ربَّما نظرة حزينة وسعيدة في آنٍ واحد ، ثمَّ هزّ رأسه وقال ، أنتِ لا تتغيَّرين أبدًا . نعم صحيح ، أنا ثابتةٌ دائمًا وأبدًا ، أنا فقط لا أظهِر هذا . لماذا لم ترحلي قطّ ، كما فعلتُ؟ هزّتْ كتفَيها ؛ قَدري هنا .

متاياس : نحن لا نعرف شيئًا عن القدر .

إليزابيت : لبثْتُ أنتظرُ إذًا .

متاياس : تنتظرين ماذا؟

إليزابيت : لا أدري ، وإذا عرفْتُ سأعلمُكَ . أحيانًا تعجبُني الحياةُ هُنَا ؛ إنَّها جميلةٌ ، هادئةٌ ، وتتيح لي التّواصلَ مع نفسي .

متاياس : لكنَّها منطقةٌ نائيةٌ لعينة .

إليزابيت : هذا يعتمدُ عليك ، على ما الذي تريدُه ، وما أنتَ عليه .

متاياس : المنطقةُ النّائيةُ هي منطقةٌ نائية ، ولا أي موقفٍ يمكن أن يغيِّرَ ذلك . لا يكاد يحدثُ شيءٌ هنا ، شتاءٌ بحاله يمكن تلخيصُه ببطاقةٍ بريديَّةٍ واحدة ، النَّاس هنا خاملون دائمًا ، وأولئك الذين يبحثون عن شيءٍ من النّشاط يرحلون ، وانتهينا .

إليزابيت : ليس إذا كنْتَ مكتفيًا ذاتيًا . وطبعًا ثمَّة ما يحدثُ هنا ،

الجو يتغيَّر دائمًا ، السَّماء تبدو أنَّها تتحرَّكُ ، وفي بعض الأحيان تبدو أنَّها تنحني قليلًا ، ومهما اختلفَت الأحوال لا شيء في الحياة يمكن أن يكون آمنًا ، الضَّوء لا يكون نفسه تمامًا هنا ، لكن في بعض الأوقات أشعرُ أنَّني أحتاج إلى إخبارِكَ عن آخر أيَّام بيرغفين ، مدير التّعاونيَّة القديم ، إضافةً إلى أنْ لا أحد سوى فينور آسغريمسون مَن حلَّ محلَّه .

متاياس : الوزير؟

إليزابيت : نعم .

متاياس : جاء إلى هنا؟

إليزابيت : نعم ، وبدأ يدوّنُ مذكَّراته ، لكنَّهُ لم يفلحْ في إنهائها ، اختفى ، أو ، على وجه الدّقة ، التحمَ بالمساء .

متاياس : النّاسُ لا يختفون ، هم يرحلُون . أظنّ أنَّ هذا ينطبقُ بصفةٍ خاصَّةٍ على وزيرٍ سابق .

إليزابيت : لديك الحقّ في آرائك ، لكن ما يحدثُ لا يولي آراءَنا إلّا القليل من الاعتبار .

يتنهَّدُ ماتياس : ما سنحَتْ لي أي فرصةٍ مطلقًا لأهزمكِ في نقاشٍ – وواضح أنَّ هذا لم يتغيَّر! آخر ما عرفته أنَّ مؤسَّسةَ النّسيج قد أغلقَت ، وأنَّ هناك أحلامًا مفعمةً باللغة اللاتينيَّة و . . .

إليزابيت : صحيحٌ كنْتُ سأتطرَّقُ إلى ذلك ، يجبُ أن تراه الآن!

متاياس : شاهدْتُ بيتَهُ من الحافلةِ .

إليزابيت : سماء اللّيل؟

متاياس : ماذا؟

إليزابيت : ندعو بيتَه «سماءُ الليل .»

متاياس : أوه ، طبعًا ، وتخلَّى عن كلِّ ما لديه من أجل الكتب .

إليزابيت : نعم ، لكن يمكنكَ القولُ إنَّه ظفرَ بحياةٍ جديدةٍ . استيقظ في صباح ما بنظرةٍ مغايرة إلى الحياة ، بحيثُ أصبح في الواقع شخصًا مختلفًا . نظر حواليه ولم يستطعِ الانتماء إلى أي شيء ، بدا كلّ ما حوله غريبًا عنه . بدا له أنَّ البيتَ ليس له ، ولا الأثاث ، ولا حتَّى زوجته ، فلماذا التعلّق بشيءٍ لم يسبق لك قطّ أن شعرت أنّه ينتمي إليك؟

متاياس : ألا يمكن القولُ إنَّ هذا متطرّفٌ بعض الشّيء؟ أتعنين أنَّه اختبرَ نوعًا من التّجلي؟

تمرّر إليزابيت سبَّابتها ببطءٍ على حافةِ كوب قهوتها ، يداها صغيرتان ، يراقب متاياس مأسورًا الإصبعَ وهو يتحرَّك ، ثم يقول : عندما بلغ تولستوي ، الكاتب الرّوسي ، الخمسين من العمر ، تغيَّرَتْ حياتُه بالكامل ، يمكنُنا أن ندعوَ ذلك ثورة ، بلا أي خوفٍ من المبالغة . كان أحد أعظم الكتّاب في العالم ، ألّف الحربَ والسّلام ، وآنا كارنينا . رجلٌ حيويّ ومتهوّر أيضًا ، استمتعَ بمعاقرةِ المشروب والمقامرة وكان صيّادًا شغوفًا مع دافع جنسيّ هائل ، هائل جدًّا ، كما شعرَتْ زوجته ، ثمَّ تغيَّرَ كلُّ شيءٍ في أحد الأيَّام . فجأةً بدت له إنجازاته كلّها ، أعمال حياته ، مجرَّد أشياءَ عابرةٍ ، حتَّى عائلته بدَتْ غريبةً عنه ، بدا له جسده بهيميًّا ، جلفًا جنسيًّا – وكان لا بدّ من أن يبدأ من جديدٍ ، يفتح صفحةً جديدة بخصوص حياته ، وكتاباته ، ولا شيء كان بعد ذلك كما درج أن يكون سابقًا .

ينتزع متاياس عينَيه عن إبهام إليزابيت ، ينظر جانبًا ويردف : حدث أن قرأْتُ مرَّةً روايةَ الحرب والسّلام .

إليزابيت : ربَّما يجبُ ألّا ندهش كثيرًا من مثل هذا التّغيّر الجدريّ ، إذ لو فكَّرتَ في تناقضات العالم كلّها ، سيكونُ عدم تكرار حدوث ذلك كثيرًا أمرًا لا يمكنُ تصديقُه . على سبيل المثال ، معظمنا يؤمنُ

بالرَّب والمسيح ، ونعلّق أهميَّةً كبيرةً على تعاليمهما ، نحفظُ عن ظهرِ قلبٍ الوصايا العشرة ، ونعرف أقوالًا معيَّنةً ذكرها المسيح - وإذا أمكنَنَا التّحدثُ عن جوهرٍ شائع لدى الحضارات الغربيَّة بأسرها ، فهو بالتَّأكيد تعاليمُ المسيح ، مع ذلك نعيشُ كلَّ يوم بيومِه ، كما لو أنَّنا ما سمعْنا به قطُّ . يعلنُ النّاس أنَّ الحياةَ مقدَّسةٌ والمسدَّسات بأيديهم . لو كانت هناك ذرةُ ذكاء في العالم لرحلْنَا كلّنا إلى ريكيافيك لدراسةِ اللاتينيَّة وخوض حياةٍ جديدة - ربَّما لنجعلَ الحياة من حولِنَا أكثر جمالًا .

ماتياس : يمكنُني إخبارُكِ قصصًا كثيرة جدًّا عن الغباء في العالم ، وآملُ أن تسنحَ لي الفرصةُ لأفعلَ هذا ، لكن ماذا عنه ، ماذا يفعلُ ، أو يجبُ أن أقولَ كيف يعيل نفسه؟

إليزابيت : نعم ، هو يلقي محاضرةً شهريَّةً هنا في المركز الاجتماعيّ ، ويُمنحُ عليها أجرًا من صندوق بلدان الشّمال الأوروبيّ ، لن تصدِّق كم يبلغ عددُ صناديق التَّمويل والمنح الموجودة لتدعم المجتمعات الصَّغيرةَ النّائيةَ .

متاياس : مرَّةً في الشَّهر ؛ إنَّه لا يكاد يستطيعُ أن يعيلَ نفسه من ذلك .

إليزابيت : لا ، هناك شيءٌ آخر أيضًا يشغلُ معظمَ وقته ، وهو ما تدور حياته حولَه ، حتَّى وإن لم يشرْ إليه ؛ وأظنُّ أنَّ النّاس هنا يعرفون القليل عن هذا أو ربَّما لا يعرفون شيئًا . هو ينتمي إلى نوعٍ من جمعيَّةٍ دوليَّةٍ ، ولا أستطيعُ تذكّرَ اسمها مطلقًا ، تعرَّفَ إليها بعد أن بدأ يدرس اللغة اللاتينيَّةَ مباشرة - هدفُها البسيط إنقاذُ أكثر السّمات أهميَّةً في حضارتِنَا من الانقراض . وهي جمعيَّةٌ فاحشة الثّراء ، مؤسَّسةٌ سريَّة تدعم أشخاصًا مثله ، وهو يتراسلُ مع عديدٍ من الآخرين الذين يسيرون

على نهجِه ، وفي السَّنة الماضية جاء اثنان منهم إلى البلدة هنا ، بطريقةٍ في غاية السّريَّة يجبُ أن أقول ، ولا أحد رآهما سوى أنا ودافي . شخصان مثيران للاهتمام ، أحدُهما امرأةٌ أربعينيَّةٌ من هنغاريا ، أعتقدُ أنَّها تحمل دكتوراه في الفلسفة ، وتحتلُّ مركزًا مهمًّا في جامعة بودابست ، متزوّجةٌ ولديها طفلٌ واحدٌ ، غير أنَّها أدارَتْ ظهرَها لكلّ شيءٍ مثل صاحبِنا الفلكيّ بالضَّبط ، ذكيَّة جدًّا ، سمراء البشرة كالغجر ، فائقة الجمال ، وأظنُّ أنَّ هناك شيئًا بينهما ، أو على الأقلّ هذا ما أتمناه .

ماتياس : ومَن كان الشَّخصُ الآخر؟

إليزابيت : كان رجلًا ألمانيًا ، نجمَ كرةِ قدمٍ سابقًا ، وكان في أيّامه مرنًا وحيويًا طبعًا ، أمَّا الآن فهو في غاية البدانة لدرجة أنَّهُ يجاهدُ ليتحرَّكَ - هذا بمعزلٍ عن لسانه الذي يحلو له أن يحرّكَه باستمرارٍ ، لسانٌ لا يكاد يتوقَّفُ عن الحركة . ولسوء الحظّ هو أبخر الفم ، بحيث جعلَني أريد قتلَ نفسي ، مدهشٌ كيف نجَت المرأةُ الهنغاريَّةُ من أنفاسه الكريهة خلال تلك الرّحلةِ الطَّويلةِ بالسَّيَّارة معه .

متاياس : وعن أي شيءٍ تحدَّثَ ، لاعبُ كرة القدم الألمانيّ هذا ، هل خاطبْتِه بالألمانيَّة؟

إليزابيت : أوه ، قليلًا ، ثمَّ بالإنجليزيَّة عندما خانتني لغتي الألمانيَّة . . . تطرَّق في حديثِه إلى أي شيءٍ وكلِّ شيء ، كما هو شائعٌ مع النّاس المُلسنِين ، يثبُون من موضوعٍ إلى آخرَ ، من الشَّرقِ إلى الغرْبِ في الجملة نفسِها ، لكنَّه عادَ دائمًا إلى مهمَّتِهم أو نشاطِهم الذي يزاولونه ، وهذا يتمحوَرُ حولَ إنقاذِ ما هو قابلٌ للإنقاذ من الحضارَاتِ المضمحلَّةِ . باختصارٍ ، هم يزعمونَ أنَّ حضارتَنا ، الحضارةَ الغربيَّةَ ، هي في مراحلِهَا الأخيرة ، و . . .

رفعَ متاياس يدَه اليُمنَى : أولئك الذين سافرُوا عبر أوروبا سيجدُون صعوبةً في مناقضتهم ، وأي إنسانٍ تفرَّجَ ، ولو قليلًا على التّلفزيون الأمريكيّ ، سيوافقُ حتمًا من صميم قلبِه - وأيضًا سيحتفلُ بهذه الحقيقةِ! غير أنّني لا أفهم حقًا ما الذي يتضمَّنُه عملُ الإنقاذِ هذا . . .

تأمَّلَتْهُ إليزابيت باهتمام ، كما لو أنَّها تريدُ تحسّسَ خطوط وجهه بعينَيها : هم يرون اللاتينيَّةَ أشبه بقرصٍ حاسوبٍ صلب ، يخزّن كلَّ ما هو مهمٌّ ، سأشرحُ لكَ هذا بطريقةٍ أفضلَ لاحقًا ، لكنَّني أحببْتُ المرأة الهنغاريَّةَ ، كانَتْ مفعمةً بالحياة لدرجة أنَّه من الصَّعب ألّا يجدَها المرء آسرةً . لم تعط الملابس أهميَّةً كبيرة ، مشَتْ هناك نصفَ عاريةٍ ، لم يبدُ أنَّ الألمانيَّ يهتمُّ ، بدا متبلِّدَ الشعور تُجاهَ ذلك ، وهذا ما لا نستطيعُ قولَه عن صاحبِنا الفلكيّ ، لحسن الحظّ كانت فائقة الجمال .

مال متاياس إلى الأمام قليلًا : أخبريني شيئًا ، أكانت هذه المرأة الهنغاريَّةُ أجملَ من أمّ دافي؟

عاينَتْ إليزابيت متاياس بنظرةٍ فضوليَّةٍ . لا أدري ، لا ، لا على الأرجح ، لكنَّها تتميَّزُ بذلك المظهر السّلافي ، الذي يبدو أنَّنا نحن الأيسلنديين لدينا ضعفٌ تُجاهه .

ابتسم متاياس ثمَّ قال : فكّرْتُ فيها أحيانًا وأنا في الغابة .

إليزابيت : فكّرْتَ فيها؟

متاياس : في الغابة تعنُّ للرَّجل أفكارٌ شتّى خصوصًا عندما يجري فيها نهر واسع .

إليزابيت : أفكّرْتَ فيَّ أنا؟

متاياس : نعم ، لكن اسمعي ، ينبغي ألّا تسلّطي عينيك على النّاس وأنتِ تتحدَّثين إليهم . معظمُ النّاس يشيحون بعيونهم خلال الحديث ،

ينظرون جانبًا ، إلى الأسفلِ ، وهلمَّ جرًا .

إليزابيت وقد شابكَتْ ذراعَيها ، ومن غير أنْ تزحزح عينيها عن وجهِه : أفعلْتَ ذلك غالبًا؟ وكيف؟

متاياس : سأجيبُ إذا حوّلْتِ عينيكِ بعيدًا عني قليلًا ، انظري إلى الخارج من النّافذة ، على سبيل المثال ، انظري ، هناك يمكنُكِ أن تري سماءَ الليل . هذا أفضل ، كنْتِ تخنقينني بهاتين العينَين!

إليزابيت : أأستطيعُ أن أنظر إليكَ الآن؟

متاياس : تذكّري فقط أنْ تحوّلي عينَيك عمَّن تخاطبينه ما بين تارةٍ وأخرى ، ربّاه ، أنتِ لم تتغيَّري!

إليزابيت : أفعلْتَ ذلك غالبًا ، وكيف؟

متاياس : غالبًا وكيفَ ماذا؟

إليزابيت : ما إذا كنتَ . . .

متاياس : نعم ، ما إذا كنْتُ قد فكَّرْتُ فيكِ ، مؤكَّدٌ قطعًا ، فكَّرْتُ في الرّزمة بأكملها ، الجسد والرّوح ، مع أنَّ ذلك اختلف من يوم إلى آخر . جاءَتْ أيّامٌ ، كثيرةٌ أحيانًا ، عندما بالكاد تذكَّرت أنَّ لأيسلندا وجودًا ، وذاك شعورٌ جيّدٌ لعين ، ثمَّ هناك أيّامٌ أخرى ، ربَّما الأصعب ، حينما ما دار في خلدي ، وأنا أفكِّرُ ، كان أنتِ – أعني ما استطعْتُ قطّ الهروب منكِ . لعلَّ ذلك قدري . لكنَّني واثقٌ من أنَّك تفضِّلين ألّا أخوضَ في التّفاصيل ،ليس الآن ، لأنَّها لم تكن أفكارًا جميلةً وساميةً في معظمها ، بعضُها كان في غاية البذاءة!

إليزابيت : أخالطْتَ الكثير من النّساء؟

تبادل براندر وفيولا النّظر .

متاياس : ستُّ سنواتٍ هي وقتٌ طويل . وأنا لسْتُ مخصيًا .

إليزابيت : هل احتفظْتَ بسجلّاتٍ عنهنّ؟

يحبس براندر أنفاسَه ، ترفع فيولا ذراعها ، ثمَّ تبدو كأنَّها تجهل ما يمكن أن تفعلَه بها ، ليس هناك زبونٌ جديد . لا تزحزحُ إليزابيت عينَيها عن وجه متاياس ، من الصَّعب قراءةُ وجهها ، هي بارعةٌ في إخفاء كلّ ما يعتملُ فيها وراء تعبيرِ وجهٍ فاتر ؛ عينَاها قاتمتانِ ولا يُسبر غورهما . تحدِّقُ مباشرةً في وجهه ، تنظرُ جانبًا مرَّةً أو مرَّتين لئلّا تبالغ في التَّحديقِ . ينظرُ متاياس عاليًا إلى السّماء . هل تحسبُ أعدادهنَّ الآن؟ تسألُه . يهزّ رأسَه نفيًا ، ينظرُ إليها ، يبتسمُ ويقول : في وسعي أن أحسبَ عددهنَّ كلّهنَّ إذا أردْتِ . بطريقةٍ تلقائية تميل فيولا إلى الأمام لتسمع أفضل ، دافعةً مؤخِّرتها ووركَيها إلى الوراء قليلًا . يجلسُ براندر ، يستمعُ ويمعنُ النّظرَ في مؤخِّرة فيولا . تسع نساء ، يقول متاياس أخيرًا ، جاعلًا براندر يطرفُ عينَيه . أكنْتَ معهنَّ في معظم الأوقات؟ أحيانًا نعم ، وأحيانًا لا . أحببْتَ أيًا منهنَّ؟ لا ، لسوء الحظّ لم أفعلْ . أي نساءٍ كنّ؟ ما أشكالهنَّ؟ يبتسم متاياس ، يبدو محرجًا ، حسنًا بعضهنَّ كنّ مجرّد وجوه ، كما تعلمين ، تقابلين شخصًا ثمَّ يجري ما يجري . يكشّر فجأةً ، يلقي نظرةً على فيولا وبراندر ويقول : مرّةً كنْتُ مع امرأة هنديَّةٍ ، تنتمي إلى قبيلةٍ تعيش في الغاباتِ المطيرَة ، وتواصلُها مع ما يُزعم أنَّه الحضارة قليلٌ . لويس ، أحد أصدقائي ، يدرسُ أساليبَ حياةِ هنود الأمازون ، واصطحبَني معه إلى إحدى القرى . بقينا هناك ليلتَين ، وفي الليلة الأولى استيقظْتُ وثمَّةَ امرأةٌ فوقي ، أحيانًا أعتقدُ بأنَّني حلمْتُ بذلك ، بيد أنَّها كانَتْ في كلِّ بقعةٍ منِّي بلسانها وأصابعها ولم أستطع المقاومةَ . هل عرفَ صديقُك؟ أظنّ هذا ، طبعًا لم يلمّحْ لي بشيءٍ مطلقًا ، مع أنَّنا نمْنَا في الكوخ نفسِه ، ليس بيننا ما يزيدُ على مترين . ألم تجدْ هذا محرجًا ، فِعل ما تفعله

أمامه ، أم كان ذلك أفضلَ بتلك الطَّريقة؟ أنتِ لا تفكّرين هكذا في الغابةِ المطيرةِ ، إنَّها مترعةٌ كثيرًا بالحياة والموت لدرجة أنَّها تغيّرك ، تغيّر القواعد ، نعم ، ربَّما في البداية انزعجْتُ إلى حدٍّ ما ، ثمَّ ما عدْتُ بكلِّ بساطةٍ أبالي . أكانَتْ جميلةً؟ لا أدري ، كان الظّلام حالكًا! وهي كانَتْ متلهّفةً مثل وحشٍ بريّ ، والقرار بيدها ، جاءَتْ ثمَّ اختفَتْ . لم أنَمْ أكثر من ذلك في تلك الليلة ، وفي اليوم التّالي راحَتْ نساءُ القريَةِ تضحكُ كلَّما رأينَني ، ضايقَني ذلك نوعًا ما . . . أرادت أن تكون فوقي ، يقول متاياس فجأةً ممعنًا النّظر مباشرةً في عينَي إليزابيت الغجريَّتَين ، قال لويس إنَّ هذا مألوفٌ لدى نساء الأمازون الأصليّات - لأنهنَّ بهذهِ الطَّريقة هنّ المسيطرات .

كان براندر قد وقفَ ، ربَّما ليرى متاياس وهو يتكلَّم ، لكنَّه انحنى ليخفيَ انتصابَ قضيبِه المُلّح ، أمَّا فيولا ، فنضحَ إبطاها بقليلٍ من العرق .

إليزابيت : طبعًا يُردْنَ أن يكنّ فوقَ الرّجلِ ، هذا أفضلُ بكثيرٍ . تلك كانَتْ سنواتٍ مشوّقةً بالنّسبة إليك .

متاياس : لا أدري ، أنا بالتّأكيد اختبرْتُ الكثير ، غيَّرْتُ أساليبي في التّفكير ونظرتي إلى الأشياء ، وهذا مهمٌّ ، لعلَّه الأهمُّ على الإطلاق . وها قد عدْتُ الآن ، سأتسلّم المستودعَ ، سأحصل على راتبٍ جيّدٍ ، وعلى وقتٍ فراغ وافرٍ لأستغلَّه باهتماماتي الخاصَّة ، إضافةً إلى عطلاتٍ صيفيَّةٍ كافيةٍ تتيح لي السَّفر إلى الخارج - إلى جانب حصولي على أميرتي . أنا لسْتُ أميرةً . أعرفُ ، لم أعنِ ذلك حقًّا ، أأنْتِ بأي حال ملكة؟ كفَّ عن التَّصرفِ بحمقٍ ، أنا ساحرةٌ ، وأنا من حصلْتُ عليك ، وليس العكس . على أي حال ، بينما كنْتَ بعيدًا في ترحالِك ، جرَتْ بعض الأمور هنا ، ذكرْتُ لك بعضها ، بمعزلٍ عن العلاقاتِ الزَّوجيَّةِ

غير الشّرعيَّةِ ، الانتحارات ، المبيعات القياسية للحبوب المنوّمة وعقاقير الكآبة ، نعم ، وأختي تذهب للسّباحة في البحر ثلاث مرَّاتٍ في الأسبوع في أي جو ، والرّجال يراقبونها بالمناظير ، وِكدي النّجم السّينمائي تزوَّج معلّمةً ، وبراندر يقتربُ كثيرًا جدًّا من الفوز ببطولة الشّطرنج الأيسلنديَّةِ عن طريقِ المراسلةِ ؛ أتراني أبالغُ يا براندر؟ لكنَّ براندر لم يردّ ، تراجعَ خطوتَين إلى الوراء ، وهذا جعلَه خلف منضدة بيع الحلوى ، أمَّا فيولا فانتزعَتْ صندوقَ ألواح شوكولاتةٍ مالطية وبدأت تعدّها . إنَّ براندر ، شرحَتْ إليزابيت لمتاياس ، يشارك حوالي ستّين شخصًا آخرَ في بطولة الشَّطرنج الأيسلنديّ عن طريق المراسلة ، في السَّنة الماضية وردَتْ مقالةٌ عن هذا في صحيفة «موركنبلاذيذ» الصّباحيَّة . تجري غربلةُ المتنافسين قبل استدعائِهم للمشاركة ، هذه ليست مباراةً للمبتدئين . خُصِّصَ لبراندر ثمانيةُ منافسين في الدّورة الأولى ، وإذا اختار الحجرَ الأبيض ، يبعث ثماني بطاقاتٍ بريديَّة تُظهر حركته الأولى ، ثمَّ ينتظر الرّدود . هذا يذكّرني بالأقزام ، قال متاياس . أي أقزام؟ مرحبًا صاح قزم ، وبعد مئة سنةٍ ، يأتيه ردّ قزم آخرَ : إيه مرحبًا! لا تستمع إليه يا براندر ، قالَتْ إليزابيت ، إن هذا مثيرٌ للاهتمام حقًّا ، المصرفُ الزّراعي ينسخ الألعاب على ثمانيةِ رقعِ شطرنج ، ويأتي براندر ليحرّكَ القطع كلَّما أرسل أو تسلّم بطاقةً بريديَّةً ، بينما نحن الآخرين نتفكّر في الحركات . يأتي النّاس من الرّيف خصيصًا ليدوّنوا الحركات الجديدةَ ، ولا أحد مسموحٌ له أنْ يزوّد براندر بالاقتراحات ، تحتَ طائلةِ العقوبَةِ بكونهِ غير مؤهلٍ - إنَّما هو في الحقيقة لا يحتاج إلى نصيحةٍ .

يتشمَّمُ متاياس سيجارةً ، لا يمكنُنا التّدخين هنا؟ هذا جديدٌ ، يقول ويضع السّيجارة على الطّاولة فتتدحرج مرَّتين ، ثمَّ يأخذ نفسًا عميقًا :

غالبًا ما فكّرتُ في الأمر ، أعني كيف ستكونُ رؤيتك مجدّدًا ، وما إذا ستكونين مختلفةً وكيف ، وهل ستسعدين برؤيتي ، وهل فكّرْتِ أنتِ أبدًا في هذا على وجه العموم ، وليس بدرجةٍ أقلّ كيف سأشعرُ أنا تُجاه الأمر . وجهُ براندر المستديرُ ، تضرّج بالحمرة قليلًا ، يظهرُ إلى جانب دولاب حلوى العرق سوس ، والحمرة تنتشرُ إلى جبينه وإلى قمّة رأسه نصف الأصلع . تمرّرُ إليزابيت يدَها على خدِّها ببطءٍ ، ثمّ تختفِي اليد في شعرِها الأسود . فكّرتُ أيضًا ، أردف متاياس ، بعد تحمّله تحديق إليزابيت والصّمت بضع لحظاتٍ ، فكّرْتُ كيف ستكون عودتِي إلى هنا ، إلى بلدتي الأمّ التي هي مكانٌ صغيرٌ جدًا ، وغير مميَّزٍ مطلقًا عندما يكون المرء في الخارج يجوب العالم ، لا بأس ، ربَّما يكفي الذّهاب إلى ريكيافيك ليدركَ ذلك ، وريكيافيك ليست بأي حالٍ مكانًا يستحقّ الذّكر . والآن أنتَ هنا ، تقول إليزابيت . صحيح هذا ما يبدو ، يردّ متاياس ويحوّل عينَيه نحو منصَّةِ البيع ، ينظر إلى براندر من غير أن يراه ، يجلس براندر إلى جانب فيولا ، فتعودُ عينا متاياس إلى إليزابيت ويقول : السّيطرةُ على المشاعر صعبةٌ ، وأحيانًا مستحيلةٌ ؛ رجعْتُ لأنْ لا شيء آخر غير هذا ممكن . يقول ذلك بهدوءٍ مطرقًا إلى الأسفل ، كما لو أنّه يخاطبُ الأرضيَّة ، ما عدا ذلك ، كيف هي الأحوال في المستودع ، يسأل ، بصوتٍ أعلى قليلًا ، أمس أشرتِ عبر الهاتف إلى أحداثٍ غير قابلةٍ للتّوضيح ، بل أيضًا لمحْتِ إلى شيء عن أشباح - وهذا ليس أمرًا تافهًا . . . قلتِ إنّ رجلين يعملان هناك ، دافي و . . . ما اسم الشّخص الآخر . . .

إليزابيت : كيارتان .

متاياس : صحيح ، دافي وكيارتان . أتذكّر دافي جيّدًا ، فتًى ألمعيّ ،

مثل جميع أفرادِ عائلتِه في الحقيقةِ ، ماذا يفعلُ هنا؟ لماذا لم يذهبْ إلى الجامعة؟ لقد ذهبَ ، ثمَّ عاد بعد سنتَين . ولم يرجعْ إليها؟ ليس بعد ، قال إنَّه فوَّتَ الحافلة . هناك حافلاتٌ أخرى . ليس دائمًا . وماذا بعد؟ عليكَ أن تسألَه بنفسِك ، لكنَّكَ تتذكَّر كيف كان دافي في طفولته ، ما زال كثيرًا جدًا على حاله ، رأسُه دائمًا يحلّق بطريقة ما في الغمام ، وأحيانًا النّاس أمثاله يتيهون بين ما نسمّيه الواقع وبين الخيال . وكيارتان هذا ، ماذا عنه؟ ما حكايته؟ ألم يكنْ مزارعًا هناك في منطقةٍ نائيةٍ في مكانٍ ما؟ صحيح ، في الوديان إلى الشّمال . ولماذا لم يبقَ مع خرافِه ، ما يضطرُّهم إلى أن يدفعُوا مقابلَ السَّكنِ؟ هناك قصَّةٌ كاملةٌ وراء ذلك ، تقول إليزابيت ، وتظهر عيناها كأنَّهما تتسعان . بابتسامةٍ واسعة تلتفتُ فيولا لتنظر إلى براندر الذي يحاول أنْ يردَّ الابتسامةَ ، لكن فجأةً تحتجزُه رغبةٌ جامحة في فيولا ، على الرَّغم من أنَّها لا تخطرُ أبدًا على باله وهو في بيتِه ، وحده مع يدِه ومجلَّاتِه الخلاعيَّةِ ، وخيالِه . براندر غيرُ متزوّجٍ ، ولا أحد يعرفُ ما إذا كان يومًا مع امرأةٍ ، ووركَا فيولا أعرضُ من أن يروقَا له ، وصدرُها ضخمٌ جدًا ، مفرطٌ في فرض نفسِه ، مفرطٌ في صلابته ، مفرطٌ في تسلّطِه ، مفرطٌ في إثباتِ وجودِه . لكن الآن تغيَّرَ كلُّ شيءٍ فجأةً . وهو يحدّقُ فيها . حكاية طويلة؟ يسأل متاياس ، فتهزُّ إليزابيت كتفَيها ، ربَّما تستغرقُ خمسَ عشرةَ دقيقةً ، لا بأس ، سآكلُ بينما ترويها ، يقولُ ، ثم يوجِّهُ حديثَه إلى فيولا ، فيولا يا ساحرةَ العينين ، يقول بلا مقدّماتٍ ، بصوتٍ أعلى قليلًا ، من غير أنْ يحوّلَ عينَيه عن إليزابيت ، اقلِي لي بيضتَين ، اخفقِي الصّفارَ بكميَّةٍ وافرةٍ من اللبن المخمّر ، ضعي البياض على شريحةِ خبز جاودار وتبّليه جيّدًا . نعم ، كالأيَّام الخوالي بالضَّبط ، تهتفُ فيولا بمرح وهي تعدّلُ

وقفتَها . على أملِ أنَّ البيضَ ليس قديمًا كثيرًا ، يردفُ متاياس وهو ينظرُ إلى يدَيه كما لو أنَّهما قادرتان على أنْ تكشفَا له كَمْ مضَى من الوقتِ .

تلتفتُ فيولا إلى العمل ، يراقبُها براندر تقلي البيض ، تخفقُ الصّفار مع اللبن الأبيضِ المخمَّرِ ، تقطعُ شريحةَ خبز ، يراقبُ ذراعيها المتينتَين القويَّتَين ، ثدييها الضّخمَين اللذين يتأرجحانِ بينمَا هي تخفقُ ، ساقَيها المنفرجتَين . أهذا هو الحبّ؟ يفكّر براندر ، واضعًا يدَه على صدرِه كأنَّه يهمُّ بحبسِ الدَّندنةِ المتصاعدة في قلبه . تخطُو فيولا من وراء منصَّة البيع ، حاملةً معها إبريق القهوة ، تبتسمُ لكليهما ، إنَّما توجّه لمتاياس ابتسامةً أوسع بعض الشَّيء ، ثمَّ تعودُ إلى مكانها ، لا يريدُ براندر أيَّ شيءٍ آخرَ ما عدا النّظر إليها ، ليس الآن فقط ، ولكن دائمًا ، لأنَّها أكثر جمالًا من الصّيف .

يعاينُ متاياس صحنَه ، يحملُ ملعقته ويتمتمُ بكلامٍ ما عن الجوّ .

إليزابيت : نعم ، يفكّرُ المرءُ للحظَةٍ فتمرُّ عشرُ سنواتٍ .

3

جلس براندر وفيولا وراءَ منضدةِ البيع بينما روَتْ إليزابيت لمتاياس حكايةَ آسديس وكيارتان ، ثمَّ انتهَتْ ، مع أنَّ الحكاياتِ لا تنتهي ابدًا ، فهي تستمرُّ كما يحلو لها مدّةً طويلةً بعد أن نضعَ نقطةَ الخاتمة ، هذا إلى جانبِ أنَّنا أبدًا لا نتلقف القصصَ كاملةً ، بل نستوعبُ فقط شذراتٍ منها ، ولا يبقى أمامَنا سوى أن نقنعَ أنفسنا بضرورة التَّسليم بتلك الحقيقة . رطّبت إليزابيت بلسانِها شفتَيها اللتَين لمعتَا قليلًا . اللسانُ عضوٌ عضليّ

في فم معظم الفقريّات ، يؤدّي دورًا مهمًا في عمليَّةِ الهضم ، زيادةً على أنَّه أحدُ أعضاء الإنسان الصّوتيَّة الرَّئيسةِ . مسَّدَ متاياس شاربَه الدَّقيق بإبهامه وسبَّابته من غير أنْ يحوِّلَ عينَيه السّوداوين عن وجه إليزابيت . عيناه صغيرتان لكنَّهما متفجّرتان بالحياة ، شعرُه كثيفٌ وأشعثُ ، ربَّما لم يمشطه قطّ . وما حالهما الآن ، سألَها ، هل غفرَتْ له ، أينامَان في غرفتَين منفصلتَين ، وماذا عن الأطفال؟ أنتِ لم تكملي الحكايةَ . بلى أكملْتُها ، قالت إليزابيت ، لكن هناك أشياء لا يمكن غفرانُها ، قد لا تُغفَرُ ، تقترفُ ذنبًا وأيَّامكَ لا تصبح نفسَها ثانيةً أبدًا . أنتِ قاسيةٌ . لا أنا واقعيَّةٌ . أينامَانِ منفصلَين إذًا؟ أستخلِص من آسديس أنَّها ما بين حينٍ وآخر ، تضطرُّ إلى الاستقرار على الأريكة . ليس غالبًا ربّما . نالَتْ شهادتَها عن طريقِ التّعلم عن بعد ، وأخذَتْ دوراتٍ تعليميَّةً مقدَّمةً من الجامعة في بيفروست ، وبدأَتْ بالعمل لدى زوج أختِي ، المفوَّض ، وهي الآن يدُه اليمنى . وماذا عن الأطفال؟ اندمجُوا في حياةِ البلدة ، لا يريدون أن يعيشُوا في مكانٍ آخرَ ، كلُّ شيءٍ في متناولِهم هُنَا ، ورفاقُ اللعب قاب قوسين منهم ، بالنّسبة إلى الأطفال هذا مهمٌّ ، لكنَّهم لن ينسوا الجِراءَ أبدًا . ولا أنا ، علّق متاياس ووقفَ ، ارتدَى معطفَه . معطفٌ بنيُّ اللون وثقيلٌ من الصّوفِ الخشنِ . إذا وضعْتَ قلنسوتك ستبدو مثل راهبٍ ، قالت . لا شيء أبعد عنّي الآن أكثر من فكرةِ العفّة ، قال شبهَ مبتسمٍ ، شبهَ معتذرٍ . هذا يناسبُكَ ، قالت وهي تنهض ، فتبادلَ براندر وفيولا النّظرات . لكن ، ماذا عن كريستن؟ استفسرَ متاياس ، كما لو أنَّه تذكّرها فجأةً ، نعم ، وزوجها المسكين ذاك؟ هزّت إليزابيت كتفَيها ، أتوقّع أنْ يكونَ كلُّ شيءٍ قد تغير بالنّسبة إليهما ، شعرَ بيتور بالذَّنب لإهماله لها ، وكريستن لامَتْهُ على فتورِه ، قالَتْ له أنت تبدأ بالشّخير حالما تضعُ رأسَك

على وسادتكَ ، بينما أستلقي إلى جانبِكَ وليس لديَّ سوى يدي ، لكن أخبرْني أتخافُ من الأشباح؟

متاياس : طبعًا أخافُ منها ، أعنِي أخافُ منها إذا كان لها وجودٌ ، أعني ، هي تجلبُ الموت معها ، وأنا أخافُ من الموت . لماذا تسألين؟

إليزابيت : لا بأس ، سيكون عليكَ أن تجرجرَ خوفكَ هذا إلى المستودع وتتعامل مع الأشباح هناك .

متاياس : أشباح! أمس قلْتِ إنَّ هذا يتعلّق بحثّ سيمي على القدوم ليصلحَ أسلاك الكهرباء .

إليزابيت : لا تلقِ بالًا لما أقوله .

متاياس : ماذا تعنين؟

ابتسمت إليزابيت ، وهذا شيءٌ لا تفعله كثيرًا كما لاحظنَا ، ابتسمَتْ ، شفتاها الحمراوان المكتنزتان انفرجتا لتكشفَا لمتاياس صفًّا من أسنانٍ بيضاءَ ، وثمَّةَ فجوةٌ صغيرةٌ بين القواطع ، واثنان معوجَّان في الفكّ السّفلي ، متّكِئ أحدهما على الآخر كأنهما ينشدان الدّعم . أحيانًا أقول أشياءَ لمجرَّد أن أجعل الأيَّامَ تمرّ ، أو لأغيّرها ، لأهزَّها ، لأصدمَ النّاس بتصريحاتٍ صارخةٍ ، أُعطي دفعةً محفزةً للسَّكينة المخيّمة علينا والمحيطة بنا ، أمَّا الآن فأنا ذاهبةٌ إلى البيت ، امضِ وتحدّث إلى الرَّجلين ، ستسرُّهما رؤيتك ، وسيتنفَّسان الصّعداء للتخلّص من عبء المسؤوليَّةِ الملقاة على عاتقهما ، وأعلمْنِي إذا صادفْتَ أيَّ شبحٍ ، سيكون هذا مريحًا جدًا ، حينها سنعرفُ أخيرًا أنَّ هناك حياةً بعد هذه الحياة ، ولن يبقَ سوى أن نكتشفَ كيف هي تلك الحياة ، مع أنَّه من الأفضل ربَّما ألّا نعرفَ سوى القليل عن ذلك قدرَ الإمكان . تظهرُ الحيرةُ على متاياس ، رنَا إلى إليزابيت ، ثمَّ ألقى نظرةً سريعةً نحو منضدة البيع حيث كان هناك

رأسَان ظاهران ، مع ما مجموعه أربع آذان ، مرَّرَ يده على شاربِه ، ابتلع ريقه ، بل بدا كمَنْ يلهثُ ليتنفّسَ ، ثمَّ قال بسرعةٍ وبصوتٍ خافت : تعرفين طبعًا أنَّني رحلْتُ بشكلٍ رئيسٍ بسببكِ؟ لم تجبْ إليزابيت ، اكتفَتْ بالنَّظر إليه بتينكَ العينين . عادَ وألقى نظرةً على منضدة البيع ، لعلّي أردْتُ أن أجدَ شيئًا أعظمَ منك . تخيّلْتُ أنَّ العودةَ عندئذٍ ستكون أسهلَ ، العودة إليكِ ، أعني . و؟ و . . . ماذا؟ أوجدْتَ ما تبحثُ عنه؟ لا . ومع ذلك عدْتَ . رفع متاياس يدَيه كما لو أنَّه في حالةِ استسلامٍ كامل . تأمّلَتْه للحظاتٍ طويلة ، ثمَّ قالَتْ رافعةً صوتَها قليلًا : عنديَ قميصُ نوم حريريّ أحمر وطويل ، هفهاف وشفافيتُه لطيفةٌ ، كاشفٌ جدًا ، لكنَّه يتركُ شيئًا للمخيّلة . سألبسُه بلا أي شيءٍ آخرَ . وبذلك التّصريح مضَتْ إليزابيت إلى الباب ، فتحَتْهُ وخرجَتْ إلى يوم شباط البارد ، والضّوءُ قد بدأ يتغيَّرُ ، كما لو أنَّ الهواء يزدادُ كثافةً ، تبعَها ، تجاوزَتْ موقفَ السّيَّارات ويممت بيتَها ، ووقفَ حيثُ هو يراقبُها . نهضَتْ فيولا وبراندر ، أسمعْتَ ما قالَتْهُ ، سألت . طبعًا سمعْتُ ، أجاب وهو يقاسي من صعوبةِ الوقوف ثابتًا ، ستتعرَّى له! ولا تهتمّ حتَّى بالتّكتم على ذلك ، غمغمت فيولا وهي تشيحُ بوجهِها عن عينَي براندر عندما رأَتْهما تمعنان النّظر فيها ، ثمَّ هزّت رأسها استنكارًا ، هاتان الشّقيقتَان لطالما كانتا غريبَتي الأطوار قليلًا ، قالت ، وهذا ليس مفاجئًا ، المرءُ لا يكاد يستطيعُ القول إنَّهما قد لُقّنتا آداب السّلوك . ازدرد براندر ريقَه ، ووجهه متضرجٌ بشيءٍ من الحمرة . فركَ مؤخّر رقبتِه ، حكّ حنجرتَه وقال بصوتٍ جدّي : لطيفٌ عندما تتعرَّى النّساء . نظرَتْ إليه فيولا متفاجئةً ، فأضافَ بهلع : ربَّما لا شيء أجمل من هذا في العالم بأسره! لم تقلْ فيولا شيئًا ، مشَتْ إلى طاولة إليزابيت ومتاياس وبدأَتْ تنظفُها ، أقبلَتْ سيَّارةٌ

نحو مضخَّةِ الوقود ، فحثّ براندر الخُطَى إلى الباب ، أمسَكَ مقبضَهُ وهو متلهّفٌ للخروج ليهدأ ، كانَتْ أذناه ساخنتَين بطريقةٍ غير مريحةٍ ، وبينما هو يفتحُ البابَ قالت له فيولا : اليوم يجبُ أن تكتفيَ بإلصاقِ أنفِكَ بخزّاناتِ الوقودِ يا براندر .

4

في الطّريق إلى المستودع ، تلكّأ متاياس لحظةً أمامَ نافذةِ التّعاونيّةِ ليلقيَ نظرةً على البطاقات البريديّةِ الثّلاثة ، ابتسم ، ربّما مسترجعًا في ذاكرته من أين اشتراها ، وأين كتبَ عليها ، ثمَّ تابع طريقَه ، نظرَ إلى يسارِه ، كانت إليزابيت قد وصلَتْ إلى المصرف الزّراعيّ ، ولن تلبَثْ أن تنحدرَ وراء مكتب البريد متتبعة دربًا مختصرًا إلى البيت ، وبعض الرّجال كانوا سيتخلّون عن ذراعِهم اليمنى ، وثلاثة أشهر من الصّحة ، وسيّاراتهم ، وحتّى كلابهم ليكونوا الذين مَن تنتظرُ قدومَهم .

تجاوزَ متاياس التّعاونيّة . بمشيةٍ مترنحةٍ لا مباليةٍ نوعًا ما ، بمعطفه الرّهباني ، توقّفَ عند الزّاوية ، ألقى نظرةً على الممرّ الذي يفصلُ التّعاونيّة عن المستودع ، أحيانًا يطلقون عليه اسم بيرلينغسند . حشرَ يديه في جيبَي معطفِه ، وقف هناك وفكّر . لطيفٌ أنْ يفكّرَ المرء ويداه في جيبَي معطفه ، إذ يحلُّ عليه نوعٌ من الصّفاء ، من الوداعة ، وأحيانًا من الكآبة أو الأسى ، وذاك الذي يقف على ذلك النّحو ، يسندُ كتفَه إلى حائط

بيتٍ ويفكّرُ ، ليس تابعًا لأي أحدٍ ، هو للحظات قليلةٍ حرٌّ . بعدئذٍ ، أخرج متاياس يدَيه من جيبَي معطفه واستمرّ في طريقه ، في الوقت نفسِه خرجَتِ امرأةٌ من التّعاونيّة وفي أعقابِها رجلٌ ، شاهدَا متاياس ينحنِي ، يلتقطُ حصاةً ويضعها في جيبِ معطفِه ، ثمَّ يقفُ ساكنًا ، بدا تائهًا مع أفكاره ، عاينه الرّجل والمرأة ، اسم المرأة روزا ، زوجة مزارع من الوديان الجنوبيَّة ، وهي عضو في مجلس الأبرشيَّة ، تعرف كيف تنظّم الأمور فيها وجعلها تنجح ، أحداثٌ معدودةٌ تجري في أبرشيّتها من دون إمرتها ، تجلسُ روزا في أغلب الأحيان على كرسي عند الحائطِ وتعزفُ بكمانِها ألحانًا حزينةً للدّجاج في فناء المزرعة ، تعزفُ للكلب وللأطفال ، وأحيانًا يأتي عجلٌ فضوليّ ليستمع . أمَّا الرّجل فيقيمُ في البلدة ، وهو ليس سوى دانيال البيطريّ الذي عالجَ ساق سيمي المكسورةَ بعد سقوطه عن حصانه . في بعض الأحيان تفوح رائحةُ الويسكي من دانيال ، وهو يحلم بروزا ، يكتبُ لها رسائلَ غراميَّةً ، وفي الليل يقرأها لنفسِه ولهرّته التي تبلغُ من العمر اثنتَي عشرةَ سنةً ، ثم يخرمُ ثقوبًا في الأوراق ويضعُها في ملفّ ، وهما خارجان لامسَ ظاهرُ يده معطفَها ، فسرى فيه تيَّارٌ كهربائيّ وأصبحَتِ الحياةُ جميلةً . يقف إلى جانب روزا ، يستمتعُ بسعادةِ اللّحظة ويراقب متاياس وهو يفتح بابَ المستودع ويختفي . في داخل المستودع كان كيارتان يتحدَّثُ على الهاتف ، محاولًا التّواصل مع سيمي ثانيةً ، فقد وصلَتْ قطع الغيار ويمكنه أن يباشرَ تصليحاته ، الآن سيُهزَمُ الظّلام . أمَّا دافي فكان جالسًا في مكانه ، كرسيّه مائل ، مؤخّر رقبته مستندٌ إلى الحائط ، عيناه نصفُ مغمضتين ، تنفّسُه كما لو أنَّه نائم . إنَّه أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر أنْ يقتربَ المرءُ كثيرًا من أحلامه ، فهي يمكن أن تضعفَه في وجه الحياة ، تستبدلُ إرادَتَه بأخرى ، وما الرَّجل بلا إرادة؟

5

كان الوقت قبيل المساء عندما دقّ متاياس باب إليزابيت ، لكنَّ أحدًا لم يأت ليفتحَ له ، تلفّتَ بلا جدوى بحثًا عن الجرس . يمكنُ أن يكون صوتُ أجراس الأبواب عاليًا جدًا ، وإذا لم يكن لدى المرء واحدٌ منها ، يستطيع التّظاهرَ بأنّه لم يسمع القرعَ على الباب ، يواصلُ الاستمتاع بالسّلام والسّكينة في حال لم يكنْ في مزاج يسمح له بالكلام . تردّدَ متاياس ، ثمَّ وضعَ يدَه على المقبض وفتح الباب ، كان الدّاخلُ معتمًا . لم يقل شيئًا ، لم يصِحْ مرحبًا ، هذا أنا ، بل دخل فقط ، خلع نعليه ، خلع قلنسوة الرّاهب ، قطع البهو ثمَّ رآها ، رأى إليزابيت .

مرَّتْ ثلاثةُ أيّام ، بلا أي علامةٍ أو لمحةٍ تُنبِئ عنهما .

لزم كيارتان السّرير في بيتِه ونام ست عشرة ساعةً متواصلةً ، نام نومًا عميقًا خاليًا من الأحلام ، جسدُه الضّخم استلقى على السّرير بلا حراك ، قفصُه الصّدري ارتفعَ وهبط مثل بحرٍ هادئ . اهتمَّتْ آسديس والأطفال بشؤونهم بصمتٍ . ونام دافي وقتًا طويلًا أيضًا ، لكن فقط لأنّه كان مدمنًا على الأحلام ، فالنّوم بالنّسبة إليه كهفٌ يزحف نحوه ويشعرُ فيه بالأمان . بعد فترةٍ قصيرة من استيقاظه ، ذهبَ ليزور أباه ، لم يسلك الطّريق المعتاد ، بل خاض خلال أوراق الأشجار المجروفةِ التي تغطّي الأرض البور . جلسَا ودردشَا فترةً طويلة ، في بادئ الأمر عن المستودع . هل شعرتَ بشيءٍ غير عادي ، سأل الفلكيّ ابنَه وثمَّة وميضٌ في عينَيه . نعم ، ردّ دافي بلا تردّدٍ ، أو على الأقل هذا ما أعتقدُه . . . ما أردْتُ أن

أعتقدَه ، بيد أنّني لا أدري كيف أصفُه ، ربّما كأنَّ أعصابي تبقى مشدودةً باستمرار كلّما دخلْتُ المخزن ، وتوقّعْتُ دائمًا . . . نعم ، توقّعت شيئًا ما . . . لكن ، حالما أعودُ وأنضمُ إلى الآخرين ، أشعرُ أنّني أبله . لعلّي كنْتُ في غاية التّلهف لأعتقدَ بأنَّ شيئًا غيرَ قابل للتّفسير قد يحدث ، بحيثُ تخيّلته ، كما تعرف ؛ الأشياء تصبحُ حقيقيةً بمجرّد أنْ تعتملَ في أذهاننا . حقيقية جدًا لدرجةِ أنَّ كيارتان شعرَ بها أيضًا ، و . . . لا ، تبًا ، اقرأ لي شيئًا يا أبي . لا أريدُ أن أستغرقَ في هذا أكثر الآن . عندئذٍ ، غادرَ الفلكيّ كرسيَّه بتثاقل ، قصدَ رفًا وتناول كتابًا مغلّفًا بجلدٍ بُنيّ ، وبدأ يقرأ برويَّةٍ اللغةَ شبه الميتة التي حكمَتِ العالم مرّةً ، وفعمَتِ الغرفة في هذه الزّاوية من الدّنيا . جلسَ دافي هناك ، منحنِيَ الكتفَين واستمعَ ، فهمَ القليل غير أنّه أبصر بعينِ خيالِه سورًا دفاعيًا مزوّدًا بفتحاتٍ ، ومدينةً مهجورةً تحوم فوقَها طيورٌ سوداء . من آنٍ لآخرَ ، رفع الفلكيّ عينَيه عن الكتاب وشرح النّص لابنِه ، وتبيَّن أنَّ موضوعَه ليس بعيدًا كثيرًا عن الصّور التي أوقدَتْها الكلماتُ اللاتينيَّةُ في ذهن دافي . عندما توقّف الفلكيُّ عن القراءةِ ، نهض وذهب ليحضرَ قنينة نبيذٍ أحمرَ ، نزعَ فلينتَها ، صبّ قدحَين ، وشربَا ، ثمَّ سألَه دافي : إذًا أتظنّ أنَّ النّهايةَ قريبةٌ؟

ألن يكون ذلك جيّدًا؟ ردّ أبوه مبتسمًا ، ابتسامةً عابثةً في الحقيقة ، ورفع قدحه نحو الضّوء ، على الأقل يبدو أنَّ العلاماتِ تشير إلى هذا ، لدينا أمثلةٌ في كلِّ مكان ، أينما التفتْنَا ونظرْنَا ، على صفحاتِ الصّحف ، وأغلفةِ المجلات البرَّاقة ، تفتحُ التلفزيون فتقفزُ نحوك من الشّاشةِ ، إنَّها في غاية الوضوحِ لدرجة أنَّنا ما عدْنَا نلاحظها . وماذا في ذلك ، استهلكَتِ الحضارةُ الغربيَّة وقتها ، لعديدٍ من القرون ، والآن ستحلّ غيرها محلّها . عظيم ، علّق دافي وهو ينظر إلى قدحه ، متعمّقًا بالسّائل الأحمر الغامق ،

اللون الأحمر الغامق يمكن أن يحوّل الأفكارَ إلى أحلام ، لا ، طبعًا ، عاد وقال ، أعني أنَّ هذا ليس عظيمًا ، أنا ببساطةٍ لا أستطيع زعزعةَ الشّعور بأنَّ الصّدفة تتحكّم بكلِّ شيءٍ ، أنَّ كلَّ شيءٍ ينبثق منها ، بما في ذلك مفهوم الهدف ؛ فالطّيورُ تواصل التّحليقَ عبر السّماء ، وما دامت الحال كذلك ، لماذا يجبُ أن يهمّنا أي حضارة تتربع على القمَّة؟ يهزّ أبوه رأسه ، تصوّرك هذا مثل حفرةٍ سوداء ، يقول وهو يسند ذقنَه بيده ، كما لو أنَّه يدعمه بطريقةٍ أفضل ، يدعم الحمولةَ كلّها التي يمكن أن تتسعَ في داخل الرأس الإنساني ، يفرغُ قدحه ، يعيد صبَّ المزيد من النَّبيذ فيه ، ثمَّ يقولُ وهو يعاينُ ابنَه بشرودٍ : أنا أجمعُ شظايا حضارةٍ تُحتضرُ . تحتضر؟ بل هي أقربُ إلى ميتةٍ ، أو بدأت تتعفنُ حيّةً – هذا يجعلُ منّي أشبه بجامعِ قمامةٍ . هذا ليس ما أراه يا أبي! بلى جامع قمامة ، يجمعُ العفنَ والكواكب ، ألا ترى أنَّها تركيبةٌ لطيفة جدًا؟ أتستمعُ لما أقوله؟ يسأل الفلكيّ فجأةً عندما لا يجيبُ دافي ، بل حتَّى لا ينظر إليه ، يكتفِي بالتَّحديق في الفضاء فقط ، حاملًا قدحَه الفارغ بيدَيه . ذات مرَّةٍ لم يكن هناك أيُّ شيءٍ في الدّنيا ما عدا أنفاسها ، فما أهميّة صخب العالم ، ما أهميّة ارتقاء أو سقوط العوالم الحضاريَّة؟ ما أهميّة الصّدفة أو الفراغ؟ إذا لم تكن لدى المرء شفاهٌ يقبّلها ، نهودٌ يداعبها ، أنفاسٌ تدغدغ أذنيه؟ أتمنى أن يكون عندي بيانو يا أبي ، يقول فجأةً ، باترًا أفكارَ الفلكيّ الكئيبةَ الجسيمةَ ، الغاضب في بادئ الأمر من تعليق ابنه غير المتوقّع ، بل السّطحي أيضًا . لكنَّ تعبير وجه دافي الحزين يقضي على انزعاجه ، ولعلَّه الآن يبدأ في التّفكير في المرأة الهنغاريَّة ، عندي هارمونيكا ، يقول ، وبعدئذٍ يجلسُ الأب والابن تحت نافذةِ السَّقف المشرفة على ضوء السّماء ، والمساء قد نثر النُّجومَ فيها ، وبينهما قنينة ويسكي ، وأنغام الهارمونيكا تطفو عبر

النّافذة ، تجد لنفسِها نجمةً ، تبحث عن امرأة .

[إنّنا نواصلُ إضافةَ قصصٍ جديدةٍ ، نجدُ صعوبةً في التّوقّف ، ولعلَّ السّببَ أيضًا يعودُ إلى أنَّ أولئك الذين يحكون عن الحياة ، يميلون إلى غزل خيوطٍ طويلة – وكلُّ ما نفعله هو بطريقةٍ أو بأخرى عراكٌ مع الموت . لقد ترجّل متاياس من الحافلة ، وبعد أيّامٍ قليلة أعيد فتح المستودع تحت إشرافه ، أكثر ترتيبًا ، أكثر تنظيمًا من أيِّ وقتٍ مضى . اللمبات تضيءُ في المخزن ، الرّافعة تندفع صعودًا ونزولًا خلال الممرّ الرّئيس ، حاسوب على مكتب متاياس ، نظام ماكنتوش ، خدمة الزّبائن سريعةٌ جدًا وكلُّ شيء يجري بيسرٍ ، لا شيء غير متوقّع ، لا وجود للأشباح ، لا شيء غير عقلاني . نحن بالتّأكيد أمعنّا التّفكير في حوادث مستودع البضائع ، ومرارًا وتكرارًا سألنَا دافي وكيارتان عنها ، بل سألنا بنيديكت أيضًا ، ولم نجرؤ طبعًا على الإشارة إلى هذا أمام سيغريذور ، غير أنّنا لم نقتربْ ولا بأي قدرٍ من التّوصل إلى تفسير . أكانَتْ كلّها إذًا من نسج الخيال ، ليسَتْ ببساطةٍ إلّا نتاج توتر أعصاب دافي وكيارتان؟ أم أنّها كانت حقًّا أشباحًا؟ هناك أمورٌ كثيرة لا نستوعبها ، إلى جانب حقيقة أنّنا نميل إلى طرح أسئلةٍ تمزّق ثيابنا وتتركنا نواجه العالم عراةً وغير محصّنين .

اتّضح أنَّ متاياس بارعٌ في تحويل ما نفترض أنّه واضحٌ وعادي إلى سخافةٍ ولغو . الأشباح ، يقول ، ماذا يمنعُ أن نعترفَ بوجودها؟ هناك أشياء كثيرةٌ منافيةٌ للطّبيعة أكثر من الأشباح ، ولدينا مثالٌ بيّنٌ : ملايين النّاس ، بل عشرات الملايين يعتقدون أنَّ الرّجالَ الأمريكيين متوسطي الأعمار هم نعمةٌ لبقيّة دول العالم – بينما هم في الواقع رجالٌ رجعيّون ، ضيّقُو الأفق وعدوانيّون ، عميان عن أدقّ خيوط الوجود ، خطرُون بالنِّسبة

إلى مستقبل الأرض الهشّ . لكن نحن بالمقابل ننشِد المدائح لهم ، عوضًا عن مناوئتهم .

هو في هذا منطقيّ للغاية .

وأنتم تعلمون أيضًا أنَّ العديد من النّاس هنا ، وبهذا نعني هنا في أيسلندا ، في هذه القطعة من الأرض تحت السّماء اللانهائيّة ذات الفم الفاغر ، لا يريدون شيئًا أكثر من أن يتيسرَ لهم الجلوس على أكتاف أولئك البشر ، وأن يشعروا بدفء أعناقِهم . أيمكنكم أن تفسّروا لنا هذا بطريقةٍ أفضل قليلًا ، نحن مشوَّشون ، الأرض قد رُكلَتْ من تحت أقدامنا ، الفراغ وحده يدعمنا ، وهذه ليست فكرةً مريحةً . أنتم تعرفون أيضًا أنّنا إذا واصلْنَا العيش كما درجْنَا أنْ نفعل في هذه العقود الماضية ، والآن نحن نتحدَّثُ عن الإنسانيَّةِ جمعاء - طبعًا نقوم أحيانًا بقفزاتٍ كبيرةٍ - أننا إذا لم نغيّرْ أسلوبَ حياتنا ، أسلوبَ حياتنا اليوميَّة ، ستكون في ذلك نهايتنا . سنحرمُ أنفسنا من الحياة . نحن الحكَم ، والجلّاد والمُدان المقيّد إلى الخشبة . مع ذلك نستمرُّ في حياتنا كما لو أنَّه لا شيء هناك بديهيّ أكثر من ذلك . هذا عقمٌ . أحيانًا نفكّر فيه ، نفكّر في التّصرفات العقيمة ، في وقائع عقيمة ، في أوضاع طارئة عقيمة ، في حياةٍ عقيمة .

لذا ، علينا أن نقولَها صراحةً ، ما زلْنا لم نحصلْ على تفسيراتٍ ملموسة لتلك الأيَّام في المستودع ، وربَّما لن نحصل على أي منها ، لعلَّنا نجدُها في أحلام لولا ، مع أنَّ القليل منّا مستعدُّون إلى الإقرار بذلك علنًا ، أو ربَّما هناك جوابٌ يمكن العثور عليه في رواية راعي الأبرشيَّة . على العموم ، جدّد سيمي وغونار النّظام الكهربائيّ بأسره في المبنى ، كانت الأسلاك القديمة مهترئةً تمامًا ، ومن حسن الحظّ أنّها لم تسببِ الحريق في وقت سابق ، ومنذ أن تقلّد متاياس زمام الأمور في المستودع ، ما عادت

أي بضاعةٍ توضع على الأرضيَّة فوق الأنقاض . علاوة على ذلك ، قام هو وكيارتان بخرقِ الأرضية نوعًا ما ، وغرزَا صليبًا ، فِعلُ ذلك جنونيّ قليلًا ، فمنظره يبدو مستحبًا في ضوء النّهار ، إنَّما أقل إراحة للعين بعد هبوط الظّلام ، حيث يبدو كما لو أنَّ هناك فجوةً تحته تنفتح على عتمةٍ لا نهائيَّةٍ . ولا أحد بدا أنَّه يمتلكُ الشّجاعة ليبقى في المستودع بعد الغسق – نحن ما زلْنا ببساطةٍ بعيدين جدًا عن إلحاق الهزيمة بالظّلام ، سواء كان في داخلنا ، أسفل منّا ، أو خارجنا .]

هناء

1

كيف يُعقلُ ، بالنّسبةِ إلى سائق شاحنةٍ أن يكونَ في منتهَى السّعادةِ بحيث لا شيء أبدًا يمكن أن يزعزعَ مشاعرَه؟

بعد أنْ أصلحَ سيمي وغونار أسلاكَ الكهرباء في المستودع ، كسرَ متاياس وكيارتان قسمًا من الأرضيَّةِ في المخزن وغرزا صليبًا ، ثمَّ قال متاياس بضعَ كلماتٍ ، بدا هذا كما لو أنَّه كان مقتنعًا بأنَّ كلماتِه قد عبرَتْ إلى ما وراء القبر والموت ، نحنُ بصراحةٍ لسْنَا متأكّدين ما إذا كان جدّيًا في ما أقدم عليه ، أو أنَّه مدفوعٌ بحسّ دعابةٍ مروّع ، غير أنَّه بعد ذلك أخبرَ الزَّميلَين المتآخيَين بالرّوح ؛ كيارتان ودافي أنَّ عليهما تكريسَ كاملِ انتباهِهما لتلبيَةِ حاجاتِ الزَّبائن ، ليضمَنَا شعورهم بالارتياح ، وأنَّهم بالتالي سيرغبون في العودة ولو للدردشةِ فحسب . النّاس ، قال لهما ، يجبُ أن يختبروا شعورًا بالسّكينة عندما يفكّرون فينا ، على هذا النَّحو ، يمكنُنا أن نساهمَ بنصيبِنا في المساعدة لتحسين أوضاع العالم . نحنُ بكلّ سرورٍ نؤيّدُ هذه الكلمات ، فبعضُ النّاس صاروا في الواقع يخترعون أيَّ عذرٍ ليتوقّفوا عند المستودّع ، وبنيديكت باتَ يظهر هناك مرَّتين في الأسبوع ، يلعب الشَّطرنج مع الرّفاق الثّلاثة ، وفي بعضِ الأوقات يدعوه متاياس إلى الغداء . على أي حالٍ ، في أوَّل يوم بالتّحديد بعد إعادةِ فتح المستودع طلبَ متاياس من ياكوب سائقِ الشَّاحنة أنْ يذهبَ إلى ريكيافيك ويجلبَ له بعضَ

الأغراض التي تركَها هناك ؛ أغراضٌ جمعها خلال سنواتِه السّتّ التي قضاهَا في التّرحال : تمثالٌ صغيرٌ من فرنسا ، رُتيلاءُ محنَّطةٌ من الأمازون ، وما إلى ذلك . ولعلَّ متاياس فكَّرَ في استئجارِ شقَّةٍ صغيرةٍ كبدايةٍ ، ليرى ما إذا كان يمكنُه تحمّلُ العيش هنا في البلدة ، لكنَّ إليزابيت قالَتْ له في وسعك أنْ تقيمَ معي طالما ما زلْتُ أحبُّكَ .

تزورُ إليزابيت المستودعَ بانتظامٍ ، وغالبًا ما تقضي وقتًا طيّبًا هُناك ، هي صديقةٌ حميمةٌ لجميعِ من فيه ، وتعرفُ عن دافي وهاربا ؛ هي الوحيدةُ التي تعرفُ . ودافي لا يعيرُ طريقتَها في ارتداءِ الثّياب الكثيرَ من الاهتمام ، أمَّا كيارتان فيفعلُ . البلوزة الصَّفراء ، يفكِّرُ ، الثّوب المخملي الأسود ، يفكِّرُ ، والشّعر المسدول على كتفَيها . على أي حالٍ هي أحيانًا ترفعُه وتعقدُه على شكلِ كعكةٍ ، وعندما تفعلُ ، من المحتمل أنْ يرضى كيارتان بالتّخلّي عن إصبعٍ ، أو إصبعين أو ثلاث أصابع ليحلَّ عقدةَ تلك الكعكةِ . متاياس لا يحتاجُ إلى التّضحية بأي إصبع ، إذ تدخلُ مكتَبه وشعرُها معقودٌ ، ثمَّ تبادرُ إلى القول حُلَّ عقدتَه ، فيفعلُ . شعرُ إليزابيت أسودُ وطويل ، جميلٌ وشيطانيّ ، يتهدّلُ على كتفَيها ، ويتهدّلُ بطريقةٍ يمكن أن تقتلَ رجلًا . بعد ذلك ، قد تتلفَّتُ وتنظرُ حواليها ، ثمَّ تعاينُ الأرضيَّةَ حيثُ ألصقَ ماتياس خريطةً كبيرةً لأمريكا الجنوبيَّة ، تغطّي الخريطةُ أرضيَّةَ المكتب كلّها التي تبلغ مساحتها اثنا عشر مترًا مربّعًا ، وتقول : متاياس ، أريدُ أن أفعلَها في البيرو . ويغدُو العالمُ في منتهَى الجمال لدرجة أنَّه يمكنُ أن يفجّرَ قلب المرء ، عندما تقولُ هذا بنبرةِ حبٍّ مقترنةٍ بالشَّغف . وقد تقولُ ذلك وهي ترتدي ثوبَها المخملي الأسود ، الثّوبَ الضّيق عند الخصر ، والمتّسع منه نزولًا ، ولا تلبسُ أبدًا

ثيابًا داخليَّةً عندما ترتديه ، وهو يعرفُ ذلك . فوق آريكيبا ، تهمسُ ، لأنَّ مدينة آريكيبا تقع إلى جانب أذنِ متاياس اليسرى وهو مستلقٍ على ظهرِه فوق الخريطة ، إنَّها في الجبال إلى جنوب البيرو ، على ارتفاع 2500 متر فوق مستوى سطح البحر ، وعندما يبدأ في الالتفات برأسِه ببطءٍ نحوَها ، تضمّ إليزابيت رأسه بيدَيها ، تميلُ عليه فيتهدَّلُ شعرُها عليهما معًا ويغطّي وجهيهما ، وتغمغمُ ، يا حبيبي ، حبيبي السّلافي .

أحيانًا تكون إليزابيت في طريقِها إلى الفلكيّ عندما تمرُّ بالمستودع ، وفي ذلك الشّتاء أحضرَ الفلكيّ لنفسِه حاسوبًا جديدًا فعّالًا ، ربَّما بمواصفات تفوق مواصفات أي جهاز حاسوب آخر هنا في البلدة ؛ في الواقع ، قد يتطلّب الأمرُ آلةً كهذه لاستيعاب السَّماء واللغة اللاتينيَّة ونهايةِ العالم وامرأة هنغاريَّةٍ . يومئذٍ ، قام ياكوب بإطلاق بوق شاحنته عندما مرّ أمام المنزل المكسوّ بالحديد المموَّج والحاسوب في شاحنته ، كأنَّه يعلنُ : لقد أحضرْتُ لكَ ما تنتظره . الآن يجبُ ألّا تخلطوا بين ياكوب سائقِ الشّاحنة وياكوب الآخر في البلدة ؛ السَّباك الذي عانى منذ سنواتٍ عديدةٍ من إصابة في العمل ، سببت له الإعاقة . وعاش منذ ذلك الحين على التعويضاتِ المعطاة له بسبب ما تعرّض له . على الرَّغم من أنَّ بعضَ الأشخاص يقولون إنَّ كسلَه هو الإعاقةُ الوحيدة التي يعاني منها ، إضافةً إلى رغبةٍ ملحّةٍ لا يمكنُه السّيطرةُ عليها في البقاء نائمًا ، والتّلهي بالأحاجي وألغازِ الكلماتِ المتقاطعة إلى وقتٍ متأخّرٍ ليلًا ، حيثُ يقضي فتراتٍ وفتراتٍ في التّعارك مع الألغاز الصّعبة ، أو يتجوَّل من منزلٍ إلى منزلٍ آخرَ طمعًا في كوبِ قهوةٍ ، وفي الثّرثرة ، وسماع آخر الأخبار . ياكوب السّباك رجلٌ جسيم جدًا ، ثقيلُ الوزن ، ذو وجهٍ عريضٍ حادّ الملامح ، وصوتٍ عميقٍ ويدين متينتَين ، من الممتع الاستماعُ إلى مثل ذلك الصّوت ، فهو مقنعٌ

ويبعث على الثّقة ، وكثيرًا ما شُجّع على التّرشّح إلى منصبٍ ما ، أو أن يتولّى مهمة مستضيف في التّلفزيون ، عندما نصافحُه تتحوَّل يداه القويّتان إلى رمالٍ تنساب بِحُريّةٍ من بين أصابعنا . أمَّا ياكوب سائق الشّاحنة فمختلفٌ أيما اختلاف عن سميّه ، فهو رجلٌ سعيد ، وحياتُه ذات معنًى وخاليةٌ من الظّلال . من الواضح أنّكم ستتساءلون كيف يمكن في وقتِنا الحاضر ، والرّائحةُ الكريهة تفوحُ من حضارتنا ، ونحن لا نكاد نجرؤ على ركوب طائرةٍ أو قطارٍ خوفًا من تعرّضِنَا لعمليات إرهابية ، والكاميرات تمسحُ شوارعَنا ، وأعدادٌ متزايدةٌ من النّاس المقتنعين بأنَّ لديهم أسبابَهم التي تدفعهم إلى التّصويت في الانتخابات ، بينما الدّيموقراطيَّة نفسها قد بدأتْ تنهار ، نعم ، ستتساءلون كيف يُعقل ، بالنّسبة إلى سائقِ شاحنةٍ أن يكونَ في منتهى السَّعادة بحيثُ لا شيء أبدًا يمكن أن يزعزعَ مشاعرَه؟

2

قليلةٌ هي الأشياء في الدّنيا التي يمكن أن تضاهيَ بروعتها قيادةَ شاحنةٍ .

لطالما كان ياكوب سائق الشّاحنة رقمَ واحد في البلدة منذُ سنةِ 1980 ، وحتى لو كانت قيادةُ شاحنةٍ كبيرة شيئًا مثيرًا ، وربَّما أكثر من مثيرة ، عندما يذهب إلى ريكيافيك ويعود منها ، فالأشدّ إثارةً بالنّسبة إليه كان استغراق ما يزيدُ على أربع ساعات للوصول إلى العاصمة . اليوم تستطيعُ السّيّارات العائليّة أنْ تفعلَ الشّيءَ نفسَه في غضون ساعتَين ، والشّاحنة في حوالي ثلاث ساعات ، على هذا النّحو تقلّص العالم ، على الرّغم من أنَّ المسافات بين النّاس لم تتضاءل . على أي حالٍ ، كان يجبُ

أنْ ترونا عندما عُبِّدَ الطّريقُ الجديد فوق شقّ وادي بريكان قبل ثلاث سنوات ، طريقٌ مستقيم وواسع ، عوضًا عن الدرب القديم ، ذاك الدّرب الضّيق الذي يلتفُّ ويتعرّجُ في صعودِه وهبوطِه ، بل حتّى يتحلّق حولَ نفسه ، غير مكترث على ما يبدو من تأخّر مَن يسلكونه عن وصولهم بسرعة إلى وجهتهم ، هذا إضافة إلى أنه يختفي تحت الثّلج في فصول الشّتاء – ياه كيف احتفلْنَا! أقيمَتْ حفلةُ رقصٍ في المركز الاجتماعيّ ، سكرْنَا ، وكانت شفاه النّساء حمراء ، والعشب طيّب الرّائحة . ياكوب كان الشّخصَ الوحيدَ الذي لم يحتفل . ويمكن القول إنَّ وترًا في قلبه قد انقطعَ ، لمَّا سلكَ الطّريق الجديدَ لأوّل مرّةٍ ، واجتازَ المنحدر خلال خمسَ عشرةَ دقيقةً عوضًا عن خمسين دقيقةً ، بينما الدّرب القديم يتعرَّجُ من أجل لا شيء على مسافةٍ أعلى من الجديد ، في منتصف عروجه إلى السّماء . لكنَّ ياكوب ليس من النّوع الذي يسمح للحزن أن يشيع الظّلمة في أيّامِه ، إذ بات يبطِئ قليلًا في قيادةِ شاحنته ، ونحن نكرّرُ هنا مرَّةً أخرى : قليلة هي الأشياء في الدّنيا التي تضاهي بروعتها قيادةَ شاحنة ، ولذلك ، سيكونُ إسراعُ المرء للوصول إلى وجهته غباءً خالصًا . ياكوب متيّمٌ برحلاته ، وبكلِّ ما يخصّ شاحنته ، يغادر البلدة ، مستمتعًا بليونة عجلةِ القيادة ، بشكلِ علبة التّروس ، بقوّةِ المحرّك العظيمة ، والأفضل من أي شيءٍ آخرَ عندما تمطرُ السّماء ، لأنّه ولا في أي مكانٍ آخر في العالم يمكن أن يجدَ المرء ذلك المزيج من المواظبة والمطاوعة أكثر ممَّا يمكن أن يجدَهُ في حركة ماسحات الزّجاج ذات الإيقاع المتناغم . عندئذٍ ، يجلس ياكوب في شاحنته بسعادةٍ جمّة ، الزّجاجُ الأماميّ يواجهه ، ويداه على المقود . في السّابق ، اعتادَ على القيام بثلاثِ رحلاتٍ في الأسبوع ، دروب متعرّجة ، منحدرات حادّة ، وأربع ساعات جيّدة طافحة بالهناء ، لكن

خلال السّنوات الأربعة أو الخمسة الماضية ، للتّعويض عن الطّريق الذي جرى تقصيره بشكلٍ بائس ، بعد أن أخمدَ الأسفلت الغبار ، وامتدَّ عبر هافالذير بنفقٍ تحت سطح البحر ، كان على ياكوب أن يقودَ شاحنتَه إلى ريكيافيك ويعود منها يوميًا ، فنحن نحتاج دائمًا إلى المزيد والمزيد من الأشياء لنعيش . المزيد من رزم البسكويت والمزيد من ماكينات المشي الثّابتة ، والجوارب الرّقيقة ، والتّلفزيونات الأحدث ، لم نعدْ نقنعُ بقراءة الصحف عندما يمرّ عليها يومان أو ربّما ثلاثة أيّام ، فالعالم يتغيّر كلّ يوم ، وصحيفةُ الأمس عديمةُ الفائدة تمامًا ؛ يمكن عندئذٍ ، ما دامت الحال هكذا ، أنْ يذهب المرء إلى المكتبة ويقرأ عن القرن التّاسع عشر . عجيبٌ كم جرى كلّ شيء هنا في الماضي بطريقةٍ أبطأ ، عندما نشاهدُ فيلمًا لهمفري بوغارت يعود إلى ستّين سنة خلَتْ ، نشعرُ أنّه في تلك الأيّام كانَتِ الدّقيقةُ الواحدة أطولَ بكثيرٍ ، وأنَّ فسحةً طويلة من الوقت مرَّتْ بين حدثٍ وآخرَ ، وكان المرء يسلكُ دروب الحياة بسهولةٍ ما عادَتْ متاحة له الآن ؛ حتى طلقات الرّصاص بدَتْ أبطأ . اليوم ، كلُّ شيءٍ يجري بوتيرةٍ أسرع . الأفلام والبرامج التّلفزيونية أصبحت تتميّز بمثل هذه الاقتطاعات المفاجئة ، والتغييرات السّريعة جدًا في المشاهد ، لدرجة أنّنا توقّفنا تقريبًا عن الطّرف بعيوننا خشيةَ تفويت أيّ شيءٍ ، وبالتّالي ماذا يفترض بنا أنْ نفعلَ بصحيفةِ اليوم السّابق؟ نفادُ صبرِنا يضاعِف من سعادة ياكوب ، فهو يقودُ إلى العاصمة خمسَ مرّاتٍ في الأسبوع ، وينطلقُ من البلدة باكرًا جدًا في الصباح والشّمس ما زالت نائمةً عندما نكون في الشّتاء ، والظّلام في منتهى الكثافة بحيث نشكّ أحيانًا في أنَّ الشّمس ما زالت تمتلك القدرة على انتشال نفسها ثانيةً من أعماق البحر ، والصّعود إلى الأعلى لتستقرَّ فوق الجبال الجليديّةِ ، لتوقظَ الجميل

والمؤلم في داخلنا . يتوجّه ياكوب جنوبًا إلى المدينة ، يفرغ شاحنتَه هناك مِمَّا يجبُ تفريغه ، ثمَّ يحمّلها بكلِّ ما لا نستطيعُ العيش من دونه .

في فترة الظّهيرة تقريبًا ينهي ياكوب تحميلَ شاحنتِه بالأغراض . يقودُ بعنايةٍ ، يشّق طريقَه خلال شوارع العاصمة ، يحاولُ تفادي الدّروب الرَّئيسة من باب الحياء الفطري ، يتوقّف خارج محطَّة الحافلات ، يضع لقمة في فمه ليسكت جوعه ، طعامُه المفضّل شرائحُ لحم الخروف ، يدردش مع سائقي شاحناتٍ آخرين ، بعض أولئك السّائقين يحالفُهم حظٌّ هائلٌ في قيادةِ شاحناتهم اثنتَي عشرةَ ساعةً للوصول إلى البيت ، وهذا شيءٌ في غاية الرَّوعة بحيثُ يحاول ياكوب جاهدًا ألّا يفكّر فيه . يشتمون السّياسيين ، يستخدمون عددًا كبيرًا من الكلمات البذيئةِ في وصف وزير المواصلات ، ولا يقتصدون في إدانةِ مدرّب كرة قدم معيّن ، يتحدّثون عن النّساء ، وفي أغلب الأحيان يتطرّقون أكثر إلى الحديث عن السّيارات ، يدردشون عن قطع الغيار ، أي مرآب تصليح أفضل ، لكنَّهم أبدًا لا يأتون على ذكرِ مداعبات ماسحات الزّجاج الأماميَّة ، بعضُ الأمور في هذا العالم يُستحبُّ ألّا تُقال ، وإلّا تفقد رونقها . بعد ذلك يعود ياكوب غربًا ، من وقتٍ لآخرَ يتوجَّب عليه انتظارُ بعض السّلع ، وبالتّالي يغادر لاحقًا والمدينة مغموسةٌ بغسق المساء الباكر . في مثل هذه الحالات ، عندما يصل إلى بورغارفيذر تكون العتمةُ مخيّمةً ، والظّلام الممتزجُ بالجبال ، تخرقُه أضواء شاحنتِه العلويّةُ السّاطعةُ التي تتقدَّم الطريق فتتبعها الشّاحنة . نعم ، علينا دائمًا أن نتبعَ الضّوء .

يتسلّم ياكوب راتبًا لقاءَ القيادة ، ومنه ، يدفع فاتورةَ الكهرباء ، أقساطَ شاحنته والبيت وأشياء أخرى مستجدّة . يشتري الحليبَ والخبز ، في الوقت نفسِه من السّخف في حالته التّحدّث عن العمل ، بالنّسبة إلى

ياكوب قيادة الشّاحنة هي أقربُ كثيرًا جدًّا إلى كونها أسلوب حياةٍ ، إلى كونها هدفًا ومتعةً . لكن إلى جانب هذه الأمور كلّها التي ذكرناها - أي مرونة عجلة القيادة ، شكل صندوق التّروس ، مداعبات ماسحات الزّجاج - يجب أن نضيفَ أيضًا آلة التّسجيل وأشرطة الكاسيت التي يشغّلها ياكوب عندما لا يكون هناك مطرٌ ، عندما تكون ماسحات الزّجاج الأماميّ نائمة والسّماء جافّة . زوجته إيغلو هي التي تسجّل له الأغاني ، مُدرجةً أروع أعمال غليفي أيغيسون ، وهيكور مورتهينس ، وأوزي من بير ، وإيلي فيلهالمسدوتر ، إضافة إلى ألفيس بريسلي ، والبيتلز ، وإذا تولّى أي شخص مهمَّةَ تفسير كلمة «هناء» لياكوب ، سيهزُّ رأسَه موافقًا ويسرح بذهنه إلى التّفكير في ماسحات الزّجاج الأماميّ ، والأصوات التي يصدرها جهاز التّدفئة في الشّاحنة ، ومشغّل أشرطة الكاسيت .

لن يخطر على بال أحدٍ أنْ يفكر ولا في أحلامه أن يتطفل على ياكوب ويسعى إلى الرّكوب معه في شاحنته ، لا إلى العاصمة ولا منها ، ولا يعود السّبب فقط إلى أنّه من النّوع الذي ليس بمستطاعه أن يرفضَ مطلقًا ، ولكن أيضًا لأنَّ زوجته إيغلو هي الوحيدة التي يتسنّى لها الرّكوب معه ، إنّما هي على أي حال زوجته ، ولا يحدث ذلك إلّا مرّةً في السّنة ، ويحلّ وقت سفرتهما هذه في حوالي 15 كانون الأوّل دائمًا ، وهذا جرى على امتداد السّنوات العشرة الماضية . تشغل إيغلو وظيفةً بعملٍ جزئيّ ، تجلسُ في البيت وتدخِلُ البيانات والأرقام لشركةٍ في ريكيافيك ، تنيرُ شاشة الحاسوب وجهها الممتلئ ، وبشرتُها السّميكة ، تحضّر صندوق غداءٍ لزوجها ، تغسل ثيابه ، تطبخ العشاء ، تجفّفُ الأطباق بعد أن يغسلَها ، تنظّف الأرضيَّة والحمَّام ، ومعًا يغيّران ملاءات السّرير ويعتنيان بالحديقة ، هما يكملان بعضهما بعضًا ، كما تكملُ اليدُ اليسرى اليدَ اليمنى . من

المريح جدًا التّفكير في أنَّ مثلَ هؤلاء النّاس ما زال لهم وجودٌ ، ما يعني أنَّ الضّوء لم يغب نهائيًا بعد عن الجنس البشريّ . تعضّ إيغلو كتف ياكوب اليمنى عندما تصل إلى النّشوة ، تغمض عينَيها ، يتّسع عالمها ، تُنتَزع من كلِّ اتصالٍ بالأرض وتعضّ كتفه بقوّةٍ ، من المتعة جزئيًا ، ولكن ليس بدرجةٍ أقلّ من خوفها الكامن عميقًا في باطنها من أن تفقدَه . ثمَّ يستلقيان بلا حراكٍ ، كالموتى ، بينما العالم يعيدُ جمع أوصاله معًا ، كلُّ جزءٍ في مكانه ، وهذا يتطلَّبُ الصّبر ، ثمَّ تسندُ رأسها بمرفقها ، تتناول قارورةَ مرهمٍ طبّي من على طاولة السّرير الجانبيَّةِ ، تفرك كتفَه بعنايةٍ بالمرهم ، بينما يحاول أن يقبّل وجهها . يفكّر ياكوب ، ولا يمتنع عن البوح بما يفكّر فيه أيضًا ، يقول لها أنتِ في غاية الجمال ، وهذا يجعلُها دائمًا تخجل ، مهما كان عدد السّنوات التي مرّت ، وهو أيضًا الرّجل الوحيد الذي قال لها هذا على الإطلاق ، هي قصيرةٌ ، ثخينة ، بل بدينةٌ ، برقبةٍ قصيرة ممتلئة ، وشعرٍ بلا لون تقريبًا ، يبدو في أغلب الأحيان مثل القشِّ الرَّطب ، نساءٌ مثلها لم يكنّ مطلقًا المسبّب لأيّ حربٍ ، صغيرةُ النّهدين وسمينةُ الفخذين ، لكنَّها تتميَّز بعينَين عسليَّتين يمكن بلا أي جهدٍ أنْ تذكّرا المرء بالبراري المنبسطة تحت أشعَّةِ الشّمس الباهرة . بعد أنْ ينتهيا ، تجري مثل بنتٍ صغيرةٍ إلى المطبخ ، تعودُ ومعها حليبٌ وعلبةُ بسكويت محشوّ بالشّوكولاتة . فينسى ياكوب نهائيًا ألَمَ كتفه ، ويقول كلامًا نفضّل ألّا نكرّره هنا ، جميلةٌ هي طريقته في قول ذلك الكلام ؛ كلامٌ متشابكٌ مع أنفاسه ، مع صوته ، مع عينَيه اللامعتين ، ولو وضعْنَا كلماتِه تلك على الورق ، فلن تفعلَ شيئًا سوى التّقليل من شأنه فقط .

الرّحلة المرتقبة إلى العاصمةِ هي الذّروة التي تتوّج السَّنة بالنّسبة إلى الزّوجين ، يشع وجهاهما عندما يزدادُ موعدها اقترابًا ، ومزاج

العديد منّا يغدو أكثرَ هناءً غريزيًا ، بل حتّى نبدأ بسدِّ الثّغرات بين الأيّام بتوقّعاتٍ فيها من الحماسة الشيء الكثير . الضوء الذي يتراقص حول رحلتهما في منتهى القوّة ، ولا بُدّ من أن يلاحظه الرّبُ . وعندما تنطلق بهما الشاحنة ، يستلقي الرّبُ على سريرِ الشّاحنة في المقصورة خلف المقاعدِ . يسدلُ سّتارةً ويأخذُ استراحةً من مزعجات العالم ، من ثرثرة الملائكة ، يستمعُ إلى همهمة المحرِّكِ ، وأزيزِ جهاز التّدفئة الواطئ ، ودردشةِ إيغلو وياكوب ، وربَّما يدندن بصوتٍ هامسٍ مع أوزي من بير ومع ألفيس بريسلي ، وإذا استيقظَتْ رغباتُ جسدَي الزّوجين ، عندما ، على سبيل المثال ، تقول إيغلو ، أرى أنَّ طريقةَ تعاملك مع ذراع التّروس مثيرةٌ جدًا ، ثمَّ تربّت فخذَ ياكوب اليمنى ، فينعطفُ بشاحنتِه عند أوَّل فرصةٍ ، مبتعدًا عن الطّريق السَّريع إلى دربٍ فرعيّ لا يطرقه أحدٌ إلّا في ما ندر ، حينئذٍ يخطو الرّب خارج تلك المقصورة ، يذهب إلى جانب الدرب ليتبوّل ، ثم يتسلى بالصّفير وإلقاء الحجارة ، بينما يستعمل الزّوجان سرير الشّاحنة الخلفيّ . وبعد ذلك تستمرُّ الرّحلة ، والضّوء على الجبال والطّريق والسّحب والخنادق وبيوت المزارع والأنهار وعليهما هما الاثنين في منتهَى الرَّوعة .

تيكلا والرجل الذي لم يستطع عدّ السّمك

1

كان واضحًا لنا ، ولوقتٍ طويل ، أنَّ أيّام مؤسّسة النّسيج قد ولّتْ ، وأنّه ربّما لم تكن هناك قطّ أيُّ أسسٍ حقيقيّةٍ تستندُ إليها عمليّةُ تشغيلِها ، بمعزلٍ عن رهانٍ بين سياسيّين ثملينَ ، وبمعزلٍ عن خلقِ سببٍ إضافيٍّ آخرَ لنا كي نصوِّتَ لصالح الحزبِ التّقدميّ ، هذا ، إلى جانب أنّنا ، ولأطولِ فترةٍ ممكنةٍ ، لم نفكّر مطلقًا أن نقوم بغير ذلك . وصحيحٌ أيضًا ، على أيّ حال ، أنّها ، تحت إدارةِ الفلكيّ ، وخلافًا لكلِّ قوانين اقتصاد السّوق – القليل جدًا يجبُ أخذه بعين الاعتبار – لم يحدثْ في يومٍ أنْ تدنّى مؤشّرُ سوق العمل فيها إلى الخطّ الأحمر . ثمَّ ظهرت تلكَ اللغةُ اللاتينيّةُ اللعينةُ في أحلامه وانبثقت في وجوده ، وأخذَتْ دورًا في حياتِه ، متبوعةً بالكواكبِ ، والسّماواتِ التي بينَها ، وبرسائلَ لا تُحصَى من جميع أنحاءِ العالم وهلمَّ جرًّا . إلى حدٍّ كبيرٍ كانَتْ في ذلك نهايةُ مؤسّسة النّسيج المتواضعة تلك ، سواء أُكتِبَ ذلك بحروفٍ كبيرةٍ أو لم يُكتب . لكنّكم تعرفون أنَّ كلَّ شيءٍ ينتهي ، حياة أيّ إنسانٍ وحياة أي أمّةٍ . وهكذا ، انتقلَتِ الماكيناتُ إلى بلدةٍ أخرى ، والشّمس أشرقَتْ على عقار مؤسّسة النّسيج الفارغ ، ونحن كلّنا أشحْنَا وجوهَنا تلقائيًا لننظرَ في الاتّجاه الآخر كلّما مرَرْنَا بالمبنى ، قليلةٌ هي الأشياء التي تماثل بحزنِها حزنَ مبنًى كان مرَّةً يضجُّ بالحياة ، يعجُّ بالهدف ، ثمَّ أصبحَ ينتصب خاليًا تمامًا ، هذا

مغمّ ، ببساطةٍ وصراحة ، لا أحد هناك ليتبوّل في مرحاضِه ، لا أحد هناك ليشرّع نوافذَهُ . اقترحَتِ الأيدي العشرة نقلَ مباريات لعب الورق من المركز الاجتماعيّ إلى مؤسَّسة النّسيج ، وأراد كيارتان وضع طاولةِ بليارد وطاولة بينغ بونغ في صالة الطّابق الأرضيّ ، للمساهمة في نفخ النّشاط في روح البلدةِ الاجتماعيَّة خلال الشّتاء الطّويل ، ودافي أشار إلى أنّنا نحتاجُ إلى مكتبةٍ محترمة ، بيد أنّه كان من السّخف نوعًا ما حصولنا على كلٍّ من مكتبةِ المدرسة ومكتبةٍ عامّةٍ تحت السّقف نفسِه ، وقال فالي إنَّ المبنى سيكون مثاليًا لافتتاح صالة جمنازيوم ، أمّا هيلغا فوافقَتْ مع كيارتان غير أنّها أرادَتْ إضافةَ الحواسيب ، وماكينات الألعاب ، والمجلّات ، ولا نقص كما بدَا في الأفكار . وبينما اكتفَى معظمُ النّاس بمحاولةِ تقبُّلِ تلك الأفكار ، دفَعَ غيرُهم الأمورَ خطوةً إلى الأمام . وفي أحد الأيّام وصلَتْ إليزابيت ومعها علبةُ دهانٍ ومطرقةٌ وعتلة وسلّم ، كان ذلك في أوائل شهر أيّار ، بعد أربعةِ شهورٍ من ترجّل متاياس من الحافلةِ ، وحاسوبُه يطنّ على منضدتِهِ في المستودع ، وكيارتان ودافي يوليان الزّبائن جلَّ اهتمامها ، وكلُّ شيءٍ جرى هناك بيسرٍ كما يمكنُ أن يكون اليسر . على الرّغم من أنّه ما من أحدٍ أرادَ أن يبقى في المكان بعد الظّلام . ثمَّ ها هي إليزابيت تقفُ أمام مبنى مؤسّسة النّسيج بمطرقتِها وعتلتِها وعلبةِ الطّلاء والسّلّم ، يوميًا في الصّباح وفي المساء نسمعُ ضجيجَ مطرقتِها ، مزعجةً أولئكَ الذين يقيمون إلى مقربةٍ من المكان وهم يتفرّجون على التّلفزيون . لم تقمْ إليزابيت باستخدام الطّلاء كثيرًا ، لأنّها أوكلَتْ هذه المهمَّةَ إلى يوناس . كيف تريدينَ منّي أن أطليَ الجدرانَ ، سألَها بصوتٍ جدُّ خافتٍ ، بحيثُ لاح أنّه يتنفّس أكثر منه يتكلّم . هذا راجعٌ إليك كليًا ، ردَّتْ ، أخرج يوناس يدَيه من جيبَي بنطلونه ، ابتسمَ مُطرقًا رأسَه تُجاه الأرض وبدأ

يعملُ . استغرقَ إنهاءُ المهمَّة الصّيف كلّه ، كان يظهر في السَّاعة السَّادسة صباحًا ، ووجنتَاه ما زالتا طريَّتين من أثرِ النّوم ، يأخذُه ثورغريم إلى هناك قبل السادسة صباحًا بقليل ، ويعيدُه إلى البيت في حوالي الخامسة . انكبَّ يوناس على العمل إلى المساءِ ، رائعٌ كيف يمكن أنْ يتحوَّلَ شيءٌ جامد كالجدار إلى شيءٍ مفعم جدًّا بالحياة ، غالبًا ما درجْنَا على التَّسكّع هناك نحسبُ أعداد الطُّيور المحلِّقة معًا بالآلاف المرسومة على الجدرانِ الخارجيَّةِ ، الذّهابُ إلى هناك لطيفٌ خصوصًا في الشّتاء عندما تفقدُ السّماءُ الطّيورَ ، عندما يعجزُ الوقتُ عن التّقدم خلال الظّلام ، والماءُ بالكاد يطاوعُنا ليتدفَّقَ من الصّنابير . بدَتْ تلك الطُّيورُ المرسومة على الجدرانِ في غاية الحيويَّةِ لدرجةِ أنَّ أحدَ قطط الجوار ، عفريتٌ صغير بفراءٍ مائل إلى الصّفرة ، حرمَنَا سابقًا من الطُّيور أكثر بكثيرٍ من اللازم ، لم يكفَّ عن التسلّقِ على جدرانِ المبنى في الأسابيع القليلةِ الأولى ، ويمكنُ أن يرى المرء بوضوح الانتفاخَ الذي خلَّفَه هذا في رأسِه ، ومُذاك ، لم يفلح مطلقًا في استعادةِ براعته السّابقة الفائقة في الصّيد – لا أحد يمكن أنْ يقولَ أنْ ليس للفنِّ تأثيرٌ على الحياة . وإليزابيت لوَّحَتْ بعتلتِها ، مدّت يدَها إلى منشارِها ، ووضعَتْ جانبًا مثقابَها . لكنَّ رؤيةَ امرأةٍ وحدها ومعها مثل هذه الأدوات كدّرَتْ بعض النّاس ، فمضوا إلى المبنى وسألُوها أترغبين في قليلٍ من المساعدة في ما تعملينَه ، مهما كان؟ طبعًا ، قالت ، يمكنُكم أن تخلعوا ثيابَكم ، أنا أبرعُ في العمل أكثر وحولي رجالٌ عراةٌ ، والأفضل أن يكونوا متهيّجين . نعم ، حتمًا ، قالَتْ ، أحتاجُ إلى مَن يساعدني الآن ، تبّتُوا لي السّلم . بالتّأكيد ، شكرًا ، قالت ، أعِدّوا لي بعض القهوة ، اذهبُوا إلى المتجر واشتروا لي صحيفةً . لكن طبعًا قالت بعضُ النساء إنَّها لا شيء سوى عاهرة مغرورة محمومة ، ماذا يفعلُ أولئك الرّجالُ وهم

يعرضُون عليها المساعدة ، معظمُهم متزوّجون ويواجهُون متاعبَ كافيةً في إنجاز واجباتِهم في بيوتهم ، مثل إصلاح مزاريبِ المطر ، تغييرِ قضبانِ التّزجيج ، وطلاء السّطح ، سيحسنون صنعًا إذا فكرّوا في مهامِهم المنزليَّةِ عوضًا عن التَّهافت إلى هناك وأدمغتُهم في أعضائِهم التَّناسليَّةِ ، وعيونُهم على حلمتَيها . في مطلق الأحوالِ قبلَتْ إليزابيت المساعدةَ من يوناس ، بينمَا تعهَّد سيمي التّمديداتِ الكهربائيَّةَ ، وأحيانًا جاءَتْ زوجةُ الفلكيّ السّابقة لتكلّم إليزابيت ، وفي أحدِ الأيَّام وصلَ بنّاءُ الآجر أوزبيورن الذي ندعوه أوزي ومعه عدَّةُ تطيين ، لم يبدُ أوزي قطّ حزينًا ، هو من أولئك النّاس الذين يجدون صعوبةً في رؤية أي شيءٍ ما عدا جانب الحياةِ المشرق ، ابتسامتُه لا تكاد تغيبُ مطلقًا من تحت قبَّعة البيسبول التي يعتمرُها ، تلك القبَّعة الثَّقيلة كثقلِ جرسٍ غارقٍ في الماء بسبب لطخاتِ الإسمنت المتيبّس على جميع أطرافِها . أنتِ حتمًا أحدثْتِ بعضَ التَّغيير المهمّ هنا ، قال لها وهو يضعُ كيسًا من الإسمنت في إحدى الزّوايا . صحيحٌ ، في جعبتي خططٌ كبيرة ، ردَّتْ إليزابيت . أخبرينِي ما هيَ وسأكون أكثرَ الرِّجال شعبيَّةً في البلدة . أنتَ هكذا مسبقًا ، مع ذلك سأخبرُكَ ، سأفتحُ مطعمًا – وبهذه الطّريقة عرفنا .

بالطَّبع كان من المتعذّرِ التَّوصّل إلى فكرةٍ أسوأ ، ارتفعَتِ الأيدي العشرةُ بترقّبٍ متلهّفٍ وتوقَّعَتْ إفلاسًا مؤكّدًا ، بينما قسمٌ منّا ، من الذين تاقوا إلى مزيدٍ من الحياةِ والحيويَّةِ ، تنهّدوا بيأسٍ ، فقد كانت هناك أفرانٌ ضخمةٌ في كلِّ بيت ، بعضُها جديدٌ تمامًا ، والنّاسُ امتلكوا كتبَ طبخ مكتظّة بالوصفات ، إلى جانب وصفاتٍ اقتطعوها من الصّحف ، أو نسخوها من المجلّات . رأوا أنه لم تكن هناك أيّ حاجةٍ لمطعمٍ هنا ، وفي وسع المرء ، على أي حال ، أن يشتريَ الهوت دوغ ، والشَّطائرَ المتنوّعة ،

والهامبرغر ، ورقائقَ البطاطس من المتجر ، ولا أحد استوعبَ كيف أقرضَهَا المصرفُ المالَ لمثل هذه الحماقةِ ، بماذا كان بيرغفين يفكّرُ . وكيف صادقَ سيبي على هذا ، اللعنةُ علينا إذا لم ينتهِ مشروعُ إليزابيت إلى الإخفاقِ ، إلى الإفلاسِ ، وخيبةِ الأمل ، والكآبةِ ، وفي النّهايةِ ستضطرُّ إلى الرّحيلِ عن البلدةِ بنهدَيها وطريقةِ مشيتها ، غمرَتْ هذه الأفكارُ الأيدي العشرةَ بالسَّعادة – وقد قيل إنَّ دموعَ أحدٍ ما ، هي ضحكاتُ شخصٍ آخرَ .

مهما يكن . . .

يومُ الجمعة ، في 4 أيلول 1998 افتتحَتْ إليزابيت مطعمَها . قبل أيّام قَليلة من ذلك أسندَتِ السّلّم إلى جدار المبنى ، صعدَتْ ومعها مثقابُها القويّ وبدأَتْ تقتلعُ الحروفَ القديمة التي بهتَتْ بسببِ العواملِ الجوّيّةِ : مؤسّسة النّسيج . كانَتْ لحظةً محزنة لنا ، بل حتَّى أوزي شعرَ فجأةً بثقلِ قبّعة البيبسول التي يعتمرُها . كانت إليزابيت قد علّقَتْ إعلانًا في المتجر ، يوضّحُ أنّه في ذلك اليوم المعيّن ، في ذلِكَ الوقت ، ستقومُ باقتلاع الحروفِ القديمة ، وستجعلُ يوناس يخطّطُ اسمَ المطعم على المبنى الذي كلّلت نشأتَه قنينةُ فودكا بين عضوَي برلمان قبلَ سنواتٍ . بفضلِ الإعلان تجمَّعَ حشدٌ صغيرٌ من النّاس خارجَ مؤسسة النّسيج ، ثمَّ ينبري أحدُهم لسؤالِها ، أهذا ضروريٌّ حقًا يا إليزابيت؟ ماذا؟ تردّ عليه متسائلةً . أعني أنْ تزيلِي هذه الحروف ، هناك شيءٌ محزنٌ جدًا في هذا ، لماذا تحتاجين إلى اسم جديد ، لماذا يجبُ أنْ يتغيَّرَ كلُّ شيءٍ؟ لأنَّ الأرضَ تدورُ ، تجيبُ قبلَ أن تعودَ إلى توجيه مثقابِهَا ، في تلك اللحظة يُقبلُ غايي على درَّاجتِه هابطًا التّل بأقصى سرعةٍ ، ومحكمًا تمسّكه بالمقود لأنَّ الإسفلتَ غيرُ مستوٍ وحياةُ الإنسان معرّضة للفناء .

2

يحملُ غايي شهادةً في القانون من جامعة أيسلندا ، أولئك الموهوبون في الثّرثرة ولكنَّ مواهبَهم الأخرى قليلةٌ يدرسون القانونَ . يقولُ أحيانًا ضاحكًا إنَّه أخُ أوزي . التحقَ بالمدرسةِ الثَّانويَّةِ في ريكيافيك ، وظنّنا أنَّه قد انتقل إلى هناك نهائيًا ، ولن يعودَ أبدًا إلّا للزّيارات ، وهذا ما ظنّه هو أيضًا . لكن ماذا يعرفُ أيّ شخصٍ؟ فتح غايي مكتبَ محاماةٍ في ريكيافيك ، كان دؤوبًا وفطنًا ، بعد ثماني سنوات أصبح لديه بطنٌ كبير وستَّة موظّفين ، ودارٌ مساحتُها 300 مترًا مربّعًا بأرضيَّةٍ من الخشب المزخرفِ ، وسيَّارةٌ ذات دفعٍ رباعي ، ثمَّ داهمَه سوءُ الحظّ فأغرق نفسَه بمعاقرةِ المُسكرات بلا توقّفٍ على مدى سنةٍ كاملة ،وهذا طبعًا جرى بوتيرةٍ سريعة . على الرّغم من ذلك بقيَتْ زوجتُه معه ، واسمُها غيرذر ، مع أنَّها لفترةٍ من الوقت كانَتْ قاب قوسين من هجرِه ،لديهما ولدان وانتقلا إلى البلدةِ هُنَا بعد إعادةِ تأهيله ، هذه حقًا ليسَتْ إلّا منطقةً لعينةً نائيةً ، هذا ما قاله غايي عن البلدة ، ومجرَّدُ قيادة السّيارة عبرها يجعلُكَ تنام ،لكنَّها مكانٌ جيّد لبناء الشّخصيَّة ، لاكتساب بعض السّلام والسّكينة . في بادئ الأمر أقامَتِ العائلةُ في قبو شقّة أوزي ، مساحتُه تسعون مترًا مربّعًا . ما المبلغُ الذي يجبُ أن أدفعه بدلَ إيجارٍ يا أخي ، كان غايي قدِ استفسرَ بتصميم ، لأن لا شيء يلسعُ المرء أكثر من الصَّدقة ، شغلَ وظيفةَ عاملٍ في شركةِ الكهرباء ، وزوجتُه عملَتْ بدوامٍ جزئيّ في معمل الألبان ، مع وعدٍ بعملٍ إضافيٍّ في المسلخ في الخريف ، وهذا بلا أدنى شكّ يحتاجونه .

مدهشٌ كم يمكن أنْ تبلغَ كميّةُ الكحول التي يستطيعُ المرء ابتلاعَها في سنةٍ ، وكم يمكن أنْ يصلَ حجمُ الدَّين الذي يراكمه المرءُ على نفسِه في المدّة عينِها

أوزي : تستطيعُ أن تدفع لي بحكايةٍ واحدةٍ كلَّ ليلةِ سبت ، بعد أن ننتهي من مشاهدةِ «ساعةُ الكوميديا» في التّلفزيون . يجب ألّا تستغرق الحكايةُ أكثرَ من خمسَ عشرةَ دقيقةً ، ويجبُ أن تسترعيَ اهتمامي طوالَ الوقت . لا تكُنْ سخيفًا يا أوزي ، علّق غايي . إذا لم تنجَحْ في استيفاء شروطِي سيكون عليك أن تدفعَ لي أربعين كرونرًا في الشّهر . أرفضُ القبول . لا بأس ، ما دام الأمرُ كذلك ، يجبُ ألّا تستغرقَ الحكايةُ أقلَّ من اثنتي عشرةَ دقيقةً ، لكن ، أكرّر ينبغي أنْ تستقطبَ انتباهي . هذا مُذلٌّ يا أوزي . طيّب ، سنتمسَّكُ إذًا بخمسَ عشرةَ دقيقةً . اسمعْ يا أوزي لقد دمَّرْتُ كلَّ شيءٍ ، ألقيته بأكملِهِ إلى الرّيح ، حطمْتُ العديد من الأشياء الجميلة ، عاقرْتُ المشروبَ مثل سمكة ، تصرَّفْتُ كأحمقَ ، كنْتُ فاشلًا حقيقيًا ، خنْتُ زوجتي ، ضربْتُ أولادي ، أقرُّ بذلك كلِّه ، لكن مع ذلك ، ليس عليك أن تعاملَني كأنّني متشرّدٌ ، أريد أن أبدأ حياة جديدة لا يكونُ فيها مكانٌ للصَّدقة . أسأت فهمي ، قال أوزي وهو ينظرُ إلى يديه الصّغيرتين الثّخينتين ، الخشنتَين من العملِ ، الجافَّتين والمشقَّقتين من الإسمنت . لم أسئ فهم أي شيء . أنا أريدُ أن أدفع بدل الإيجار ، ونقطة على السّطر . وأنت ستدفعُه عن طريقِ حكايةٍ تستغرقُ خمسَ عشرةَ دقيقةً كلَّ ليلة سبتٍ . أنا أسمّي هذا صدقةً ، قال غايي ، ولماذا بحقّ الجحيم تضحك؟ لسْتُ أضحكُ . حقًّا؟ لا ، كنْتُ أبتسمُ . وأنا أسمّيها ضحكةً ، ردَّ غايي بغضبٍ . لا بأس ، سمِّها ضحكةً إن شئْتَ ، غير أنَّكَ أسأْتَ فهمَ كلِّ شيءٍ ، كما ترى أنا في الثّانية والأربعين

من العمر ، أعيشُ وحدِي ، وقد عشْتُ وحدي منذ أنْ ماتَ أبي وذهبَتْ أُمّي إلى مأوى العجزة ، أجني مالًا وافرًا ، ولا ينقصُني شيءٌ ، بل حتَّى أمتلكُ أسهمًا ،لكنَّ المكانَ هُنا موحشٌ أحيانًا نوعًا ما عندما يحلّ المساءُ ، في العطل الأسبوعيَّة على وجه الخصوصِ ، إنّما ليس كثيرًا في الأيَّام الأخرى عندما أكونُ منهكًا من العمل . لكنَّ أمسياتِ نهاية الأسبوع هذه صعبةٌ ، بما في ذلك أمسياتُ أيَّام الجُمعة ، فهي تذكّرُني بالغرف الفارغة ، بكراسي المطبخِ الشَّاغرة ، وعقودُ الإيجار تتطلَّب التَّأكّد من أنَّ المستأجرَ لديه دخلٌ ما ، أو شركةٌ مناسبة . لم أعرفْ ذلك ، قال غايي . ما الذي لم تعرفْهُ؟ استفهم أوزي . أنَّك كنْتُ وحيدًا . لسْتُ وحيدًا ، أنا فقط أسأمُ في بعضِ الأمسيات أحيانًا ، وعندئذٍ أذهب عادةً للتَّنزُّه في أنحاء البلدة وأرى العائلاتِ مجتمعةً أمام التّلفزيون أو إلى طاولة المطبخ . تعبْتُ قليلًا من نزهاتي هذه وسينقذُني منها قبولُك بشروطِي .

استأجرَ غايي وغيرذر قبوَ الشّقَّة مدَّةَ سنتين تقريبًا ، وما لبثَا أنِ اكتشفا مدى صعوبة قصّ حكايةٍ تستغرقُ خمسَ عشرةَ دقيقةً ، وتجذبُ انتباه أوزي جذبًا كاملًا ؛ كانَت الحكاياتُ في بعض الأوقات مجرَّدَ هراءٍ ، غير أنَّها تحسَّنَتْ مع مرور الوقتِ . ثمَّ طالَتِ الحكايات ، أصبحَتْ شيئًا يتطلَّعُ إليه أوزي كلَّ نهاية أسبوع ، وكذلك غايي وغيرذر والأولاد أيضًا ، إنَّ الحياة فيها جوانبُ متألّقةٌ حقًا . ثمَّ في أحد الأيَّام انتقلَ أوزي إلى القبو وانتقلَت العائلة إلى الشّقّة ، ما عاد غايي يعمل في شركة الكهرباء ، كان عاملًا مثيرًا للضَّحك ، وصبرَ عليه زملاؤه بدافعٍ من رقّة قلوبهم ، ومراعاةً لمشاعرِ أوزي . في الوقت نفسِه ما انفكَّ النّاس يسألونه عن الأمور القانونيَّة ، عن أشياءَ فضّلوا ألَّا يزعجوا بها المفوّض غودمندر الذي لديه بين يدَيه ما يكفيه من المشاغل . وفي نهاية المطاف أقدمَ الزَّوجان على

فتح مكتبِ محاماةٍ ومحاسبةٍ هنا في البلدة ، وتسلّما مشاريعَ من أنحاء المقاطعة كافَّةً ، بما في ذلك ريكيافيك أحيانًا ، بيد أنَّهما لم يفكّرا قطّ جديًا في العودة والانتقال إليها ، وهذا لم يخطرْ أيضًا على بال ولديهما ، إذ من اللطيف أن يعيشَ المرء هنا ، كما ترون ، إنْ لم يكن لديكم أيُّ مأخذٍ على قلّةِ عدد النّاس . ففي أغلب الأحيان يمكن أن تبدوَ الحياةُ أكثر رحابة في الأماكن الأصغر . الكحولُ هو الظّل الوحيد في حياة غايي ، هو طبعًا لم يقربْه على امتدادِ تسع سنواتٍ ، لكن في بعض الأوقات يضطربُ أيما اضطرابٍ من تذكّره ، وحينذاك يذهب إلى الفراش ويقبعُ فيه أسبوعًا كاملًا وهو يحملق في السّقف ، بينما تتسلّلُ زوجته وولداه من حوله محاولين ألّا يصدروا أيَّ ضجيجٍ ، ونحن نبطِئ سيّاراتِنا عندما نمرّ قرب بيتِه . ذاك هو الظّل الوحيد في حياته ، لكن لن يلبث الأولاد أن يرتادوا المدرسة الثّانويَّةَ ، وسيتركون غرفَهم شاغرةً ، والغبارُ فيها لن يتطايرَ إلّا في ما ندر . والحياة ، من النّاحية الأخرى ، تبقَى في حالة حركةٍ دؤوبةٍ ودائمة أبدًا ، ولا يمكن أن يتراكم عليها الغبارُ – ثمَّ في أحد الأيّام يتحوّل كلُّ ذلك إلى ذكرى ، ويموتُ المرء .

3

يُقبلُ غايي مندفعًا على الطَّريق المنحدر الذي ينعطفُ نحو مؤسَّسةِ النّسيج ، ذلك المصنع الذي يوشكُ أنْ يتحوّلَ إلى مطعم . في الاندفاع بسرعةٍ ترويحٌ عن النَّفس ، لكنَّه يحكمُ تمسّكه جيّدًا بمقود الدَّرَّاجة لأنَّ الحياة ليست إلّا خيطًا ينقطعُ بسهولةٍ . إليزابيت تقفُ أعلى السّلّم ومعها

مثقابُها ، على ارتفاع ثلاثةِ أمتارٍ عن الأرض . إنَّهُ شهرُ آب ، الجوّ معتدلٌ نسبيًا ، ومن على سفوحِ الجبالِ والوديانِ الصّغيرة بما تحتويه من أطلالِ المزارع القديمة المتراكمة نجمعُ في الدّلاءِ التُّوتَ النَّاضج ، ومن حولنا آلافٌ من أنصالِ الحشيش التي توقّع إمضاءَها على الهواء . يكبحُ غايي درَّاجتَه بانزلاقٍ جانبيّ واثقٍ ، ثمَّ يدفعُها من بين حشدِ النّاس الذين وقفُوا ليتفرّجوا ، معظمُهم جاؤوا خلال استراحة الغداء ، والمزاجُ السّائدُ مغرقٌ في الجدّية ، فإليزابيت تنتزعُ قطعةً من الماضي . هي تلبسُ جينزًا أزرقَ ، وقميصًا قطنيًا غير محشورٍ بالبنطلون ، شعرُها الأسود متهدِّلٌ على ياقته . يتوقّفُ غايي أسفل السّلّم ، يتفحَّصُ الحروف التي أزالَتْها إليزابيت وقد سُندَتْ إلى الجدار متعبةً ومشوّشةً بعد أنْ فقدَتْ هدفَها ، والآن تنهمك إليزابيت بإزالةِ أوَّلِ حرفِ «س» ، يرفعُ غايي عينَيه ، يرى ظهرها العاري تحتَ قميصِها ، لكن لحسنِ الحظّ هي تلبسُ بلوزةً قصيرةً سوداءَ ، ولذلك يستمرُّ في المراقبة من غير تردّدٍ ، يستحسنُ دائمًا أن ينظرَ المرءُ إلى الشّخص الذي يتحدّث إليه ، وأيضًا من اللطيف النّظرُ إلى ظهرِ امرأةٍ شبه عارٍ – لا يكادُ يكونُ أي خطأ في ذلك . ماذا تنوين أنْ تفعلي بهذه الحروف ، يسألُها غايي وهو يرفعُ صوتَه ليطغى به على هدير المثقاب . في بادئ الأمر لا تقولُ شيئًا ، تنهي إزالةَ الحرف «س» ، تنزلُ ، تناوله الحرفَ ، وتعودُ إلى تسلّق السّلّم من جديدٍ ، لديها فكٌّ متينُ التّكوين ، لا فائدة من دخولِ مسابقةِ جمالٍ مع فكّ كذاك ، يسألُها غايي مرَّةً أخرى فتقول إليزابيت أخيرًا ، ما فكّرْتُ في الموضوع حقًا ، سأضعُها في المخزن على ما أظنّ . جيّدٌ ، أنا أودُّ شراءَها منكِ . تتوقّفُ إليزابيت عن إزالة حرف «ن» وتنظرُ إلى الأسفل ، تنظر مطوَّلًا بما يكفي لشعرِهَا أن يتطايرَ إلى الأمام ليخفيَ وجهها ، كما لو أنَّها انسحبَتْ فجأةً إلى مساءٍ مُعتمٍ ، تمسّدُ العتمةَ مبعدةً

إيَّاها عن وجهها وتقولُ ، الحرفُ بعشرةِ آلافٍ . بعشرةِ آلافٍ! يصيحُ غايي وهو ينظرُ باستهجان إلى النّاس من حوله ، هذه صفاقةٌ! اثنا عشر ألفًا ، تقولُ إليزابيت ، أوه هوه ، هوه! يصيحُ غايي وهو يرفعُ يدَيهِ معترضًا ، وبعد نصفِ ساعةٍ يحمّلُ أوزي الحروفَ بسيَّارتِهِ ويأخذُها إلى مكتب الزَّوجين حيث ثُبّتت إلى الجدارِ ، بينما جعلَتْ إليزابيت يوناس يتسلَّقُ السّلّم ومعه علبةُ طلاء ، وفي الأعلى خطّط الاسم الجديدُ على حائط المبنى بحروفٍ صفراءَ : تيكلا .

ثمَّ افتُتح المطعمُ .

بالطَّبع كان حدثًا عظيمًا ، إذ ما سبق أنْ حظينا هنا بمطعمٍ أو حانةٍ ، فقط متجر التّعاونيَّة ومقلاته ، ولا ضرورة إلى أنْ نرتديَ ثيابًا أنيقةً للذَّهاب إليه ، من النّادر جدًّا أن تستدعينا الصّدفة لفعلِ ذلك ، فهنا يمكن أنْ تمرَّ شهورٌ بحالها بين مناسباتِ الوفيَّاتِ وحفلات الرّقص ، ثمَّ ها هي إليزابيت تفتحُ مطعمًا . علَّقَتْ إعلانًا في التّعاونيَّةِ ؛ سيفتحُ مطعم تيكلا أبوابه يوم الجمعة ، 4 أيلول ، ودافي سيسلّي الضّيوف بالعزف على الهارمونيكا والكمان ، للحجز اتّصلوا بـ 434-1405 ، وأُتبع هذا الإعلانُ بقائمةِ الطّعام والنّبيذ . سرزْنَا بقائمةِ ألوان الطَّعام المقدَّمَةِ كثيرًا جدًّا : لحومُ عجولٍ ودواجنُ وغيرها ، مع أطباقٍ جانبيَّةٍ غير عاديَّةٍ ، وأحيانًا دخيلةٍ علينا ، لكنَّ قائمة النّبيذ هي ما أثارَتِ فينا الدَّهشةَ ، ففرعُ الولاية لم يمنحْنَا ترخيصًا لفتح متجرٍ كحولٍ هنا إلّا بعد سنتَين ، ولذا كان ارتيادُ المطعم وطلبُ النّبيذ حدثًا في غاية الطّرافةِ ، أصابنا الدّوار من فرط السّعادة ، اللعنة على الجحيم ، نحن الآن سنعاقرُ الخمرا! في الليلةِ الأولى ازدحم المكان ، بل حتَّى جاءَ عددٌ كبير نسبيًّا من سكّان الأرياف ، أناسٌ استحمّوا ، وضمخوا أنفسَهم بالعطر وكولونيا ما بعد الحلاقة ليخنقوا

الرَّوائح الكريهة التي تعلق بهم من بيوت الخراف وحظائر الأبقار. وجلسَ دافي على مقعدٍ عالٍ، وعزفَ لحنًا مرَّ الحلاوة بالهارمونيكا، وبخفَّةٍ داعب أوتارَ كمانه، لم نعرف أنَّه يحسنُ العزف على الكمان، أولئك الذين يعزفون على هذه الآلة لا ريب في أنهم يملكون قلوبًا أكبر من قلوبِ الآخرين. كان مساءً سحريًا. نامت الرّيح وراء الجبال، والنّجوم بدأَتْ تعودُ شيئًا فشيئًا بعد ضوء الصّيف الطَّاغي، في الرّبيع ننعمُ بتغريد الطّيورِ المهاجرة، ولكنّنا نفقدُ بريقَ النّجوم، وفي الخريف يحدثُ العكس تمامًا. أيّ الحالتين أفضل؟ تبدُو أغاريدُ الطُّيورِ في كثيرٍ من الأوقات منسوجةً من البهجة الخالصة، من ترقّبٍ متلهّفٍ، ولكن أيضًا من كآبةٍ تخيّم علينا وتعششُ في صدورنا، لكن من ناحيةٍ أخرى، نشعرُ بالعزلة ونحنُ نتأمَّلُ النّجومَ، فبريقُها مثل أملٍ بعيد المنال. بيد أنَّه في تلك الأمسية قلةٌ من النّاس فكَّرَتْ في الوحدة أو النّجوم، على الرّغم من أنَّ السّماء نشرَتْ لحافها من الكواكب، والفلكيّ مضى خارج البلدة، متدثّرًا بطبقاتٍ من الثّياب ليبقى دافئًا، ومعه ترمسُ قهوةٍ، جلس على صخرةٍ جليديَّةٍ وكتب رسالةً باللاتينيَّة، غامسًا قلمَه ما بين حينٍ وآخرَ بحبر الفضاء الأسود المنتشر بين النّجوم، بينما داعب ابنُه أوتار الكمان مثل عاشقٍ، بعضُ الحضور ابتلعوا لقمهم اللذيذة على عجلٍ ليهتفُوا برافو، وأولئك الذين كانوا أعمقَ خبرةً بأساليب الدّنيا ابتسمُوا ساخرين من قلَّةِ خبرتهم، لأنَّ المرءَ لا يصفّقُ للموسيقيين في المطاعم أو الكنائس - هذان المكانان بينهما قواسمُ مشتركةٌ كثيرة. ابتسمَ لهم دافي بحياءٍ وتابع العزف، وما بين آنٍ وآخرَ التفتَ ينظرُ إلى يسارِه حيثُ جلسَتْ هاربا إلى طاولةٍ مع زوجها وصديقَين، لكنَّ هاربا امتنعت عن مبادلته النّظر، كما لو أنَّ شفاههما لم تلتقِ مطلقًا، بغضّ النّظر عن أي شيءٍ آخرَ، يا

إلهي ، أنا مشتّت الذّهن ولا أقدر على التّفكير في شيء ما عداها ، قال دافي في سرّه ، ونشجَ كمانَه قليلًا ، لهثَ ، ثمَّ التفّ ذلك الكمان على نفسِه وانطلقَ بنغمةٍ تانغو أرجنتينيّ . فكّرَ دافي في شفتَيها ، في أنفاسِها ، كيف جذبَتْهُ نحوها ، كيف طوَتْ ساقَيها حولَ ساقَيه عندما ضاجعَها ، وهناك شبقَ في موسيقَى التّانغو . تهدَّلَ شعرُ دافي الأسود على جبينِه ، وتلوَّى الكمانُ ، رفعَتْ هاربا عينَيها ونظرَتْ ، أخيرًا نظرَتْ ، نظرَتْ حقًّا ثمَّ مدَّتْ يدَها إلى قدحِ النَّبيذِ وأفرغَتْهُ في جوفِهَا دفعةً واحدةً . تابعَ دافي العزفَ ومرّتِ الأمسيةُ ، داومَتْ هاربا على النّظر إليه وكلَّما فعلَت اهتزَّ وتران ، واحدٌ في قلبه وواحدٌ في كمانه . ثمَّ ما لبث أنْ أسدلَ الليلُ ستارَه وكان دافي وكمانه في بيتٍ ، وهاربا وزوجها في بيتٍ آخرَ حيث مارسا الجنسَ ، وهي فكّرت في دافي طوال الوقت .

4

تيكلا ؛ يبدو الاسمُ كأنَّه يشيرُ إلى نوعٍ من السّيارات ، مع أنَّ تيكلا ليسَتْ سيَّارةً بل بطلة عاشَتْ قبل ألفَي سنة ، دحرَتْ رجلًا حاول اغتصابَها ، لكن بما أنَّه كان رجلًا ذا نفوذٍ في عالمٍ يسيطرُ عليه الرّجالُ ، حُكم عليها بالموتِ وأُلقيت إلى لبؤةٍ شرسَةٍ ، تلكَ اللبؤةُ تحوَّلَتْ شراستُها فجأةً إلى وداعةٍ ورقةٍ حالما رأتْ تيكلا واستكانت تلعق قدمَها ، وعلى إثر ذلك أطلقَ سراحُ تيكلا ، فعاشَتْ في كهفٍ مدَّةَ اثنتين وسبعين سنةً ، والأرواحُ المحزونة سعَتْ إليها ، فأسَّست ديرًا . هذا كلُّه مذكورٌ في قائمة الطَّعام . ربَّما لو كانَتْ تيكلا تعيش في أيّامنا ، لدخلَت المعتركَ السّياسيَّ

وغيَّرَت العالم ، شرط ألَّا تكون السُّلطةُ قد غيَّرتْهَا أوَّلًا ، لأنَّ السّلطةَ ليس لها منازعٌ ، فهي تنشِدُ التَّهويدات لأشدّ المثاليّين تعصّبًا وتحوّلهم إلى أناسٍ موالين ، طيّعين كجِراءٍ ناعسةٍ ؛ على كلِّ حالٍ كانت تلك أمسيةً بديعةً لنا هنا في البلدة . رجعْنا إلى بيوتنا مُتخمين ، سُكارى وسعداء ، كان هذا أفضلَ إلى حدٍّ كبير من حفلات الرّقص ، لا فوضى ، لا شجار ، لا أحد يتقيَّأ ، كان ذلك كما لو أنَّ هناك شخصًا غير مرئي يرعانا . ذهبْنا إلى بيوتنا وتراجعْنا عن الأشياء السَّيّئة كلِّها التي سبق أن قُلْناها عن إليزابيت .

لكن ما يخفِيه الليل يكشفُه النَّهار . استيقظْنَا ورؤوسنا تقصفُ ، وضجيجُ برامج الأطفال في التّلفزيون يدمّرُنا ، ابتلعْنَا أدويةَ الصّداع ، قدَّمْنَا للأطفال طعام الفطورِ ، ووجدْنا وصولاتٍ مكرمشةً في جيوب ستراتِنا ، بتردُّدٍ تفحّصنا المبالغَ المزعجةَ فيها وتأوَّهنا . لم تظهرِ الأيدي العشرة في تيكلا ، الجحيم أقرب لنا من هناك ، أعلنَّ بأصواتٍ متناغمةٍ ، وباكرًا في صباح يوم الاثنين ذهبْنَ إلى مكتب المفوّضِ . قليلةٌ هي الأشياء في الدّنيا تلك التي تكون أجملَ من الصّداقة ، ولعلَّها ، هي ما تجعل العالم مكانًا صالحًا للسكنى أكثر من أي شيءٍ آخر . والصّداقة هي ما ربطَت الأيدي العشرة ووحَّدتها ، كانت قوَّةً نفّاذةً في البلدة ، وليس من الطّريف بأي حال أنْ ينتهيَ أحدٌ إلى خوض إشكالٍ معها . إنَّما قد لا تكفي الصّداقةُ وحدها دائمًا . إذ بعد بضعة أسابيعَ من الاجتماع مع المفوَّضِ ، كانت إحداهنَّ في بيتِها ، والوقت ليسَ مساء ، بل حتَّى كان يوم خميس مشرقٍ ، مع ذلك ملأَتْ حوضَ الاستحمام بماءٍ دافئ ، ثمَّ ذهبَتْ وأحضرَتْ سكّين مطبخ ، هذه السّكاكين حادّةٌ جدًا كما تعلمون ، دخلَتْ إلى الحوض ، وعلى الفور قطعَتْ شرايين رسغ يدها اليسرى ، ثمَّ

رسغ اليد اليمنى ، وجثمَتْ تراقبُ الدّم ينفرُ إلى الماء ، ولعلّها فكّرَتْ ، هذا إذًا لونُ الحياة . لحسن الحظّ ، صدفَ أنَّ زوجَها الذي يعمل لدى شركةِ الكهرباء عادَ إلى البيتِ أبكرَ من المعتاد وهو يعاني من فيروس معويّ . لماذا؟ سألَتْها صديقاتُها المصدومات . لا أدري ، أجابَتْ وهي تتأمَّل ضماداتِ رسغيها ، أنا ببساطةٍ لا أدري حقًا ، جلُّ ما أعرفُه حقّ المعرفة أنَّ ما أنقذَ حياتي كان فيروسًا معويًا . ثمَّ رفعَتْ رأسها وبدأَتْ تضحكُ ، ثمَّ كفّت عن الضّحك فجأةً وبدأَتْ تبكي ، بكاءً بلا حدود ، لكن كانَتْ هناك أربعةُ أحضانٍ تنتظرُها . بدا ذلك جميلًا ومؤثّرًا ، ونفضّل ألّا نفسدَ اللحظة بالقول إنَّ هناك بعضَ الأشياء في هذه الحياة لا يمكنُ أنْ يخفّف العناق من وطأة ألمِها . مع ذلك ، لم يكن يومُ الخميس ذاك والسّكّين المشؤومة قد برزَا إلى الوجودِ بعد ، حينما أرادَت الأيدي العشرة أنْ تهبَّ فورًا وتحثَّ الخطى إلى مكتب المفوّض مباشرةً ، مثل فرقة مغاوير ، مثل قوّات تدخُّلٍ سريع مخوّلة بالدّفاع عن الفضيلة المدنيّة . بيد أنَّ آسديس قالت : هو مشغولٌ الآن . لا يهمُّنا . أعرفُ ، ومع ذلك ما زالَ عليكنَّ أن تجلسْنَ وتنتظرْنَ . لن ننتظرَ ولا ثانية واحدة! هيّا ، هيّا الآن ، قالت آسديس ، فجلسْنَ حالًا ، إذ يُستحسن أنْ يأخذَ المرءُ حذرَه قربَ آسديس ، فهي قد حاولَتْ قتلَ زوجِها بمسدّسٍ فرديّ الطلقات يُستخدمُ عادةً للخراف ، وأضرمَت النّار في سيّارته ، وهي ذات تأثير كبير على المفوض ، ومن الأفضل كسبُها إلى جانب المرء لا ضدّه . وهكذا جلسَت الأيدي العشرة وانتظرَتْ . ما بينَ فينَةٍ وأخرى حشرَتِ المحاسبةُ موندا وجهَها الطّويل من فرجة باب مكتبها لتسترقَ النّظر إليهنَّ ، شعرُها الأشقر مضمومٌ على شكلِ كعكةٍ كالمعتاد ، وهو لم يفدْهَا بشيءٍ ، بل زادَ في طول وجهِها الذي كان طويلًا بما يكفي . غير أنَّ زوجَها سيغمندر يحبُّ

أن ترفعَ شعرَها ، فهو يعشقُ زوجته ، ويخشى أنَّها ستصبح لا تُقاوم إذا تركَتْ شعرَها الطَّويل مسترسلًا ، وبالتَّالي سيفقِدُها فورًا لمصلحة أحضان رجلٍ آخرَ أفضل منه . كانت ساعة الجدار تقتربُ من العاشرة عندما غادرَ زوجان من الرّيف أخيرًا مكتب غودمندر ، مزارعٌ وزوجته . المزارعُ طويلٌ ونحيلٌ وزوجته قصيرةٌ وعريضةٌ جدًا ، عندما وقفَا جنبًا إلى جنبٍ بدَيَا أقرب إلى الرَّقم 10 ، كانت الزّوجة تلبسُ ثوبًا باليًا قليلًا مطبّعًا بالأزهار ، عيناها تحت شعرِها البنيّ الأشعث بِركتان عميقتَان قاتمتان . انتظرَت الأيدي العشرة إشارةً من آسديس ، ثمَّ تقدّمَ الجمعُ إلى المكتب ، كان غودمندر جالسًا وراء منضدتِه ، وسرعان ما تنهَّدَ حالما رآهنَّ ، كما لو أنَّه بصددِ مواجهة قوى الطَّبيعة القاسية . نطالبُ ، قلْنَ بلا مقدّماتٍ ، أنْ تُعيّنَ فريقًا نزيهًا ليتحرَّى كيف تستطيعُ إليزابيت فتحَ مطعم في مبنى مؤسَّسةِ النّسيج ؛ ثمَّة شيءٌ ماكر يأخذُ مجراهُ هنا . لماذا تعتقِدْنَ ذلك؟ سألهنَّ بحذرٍ محاولًا الحفاظ على نبرةِ صوتٍ محايدة . نعم ، ألَا تعودُ ملكيَّة المبنى للولاية ، فلماذا يتسنَّى لها أن تستغلَّه على هذا النَّحو ، ألَا توجدُ أي قوانينَ تخصّ استخدام مثل هذه المساحات ، أيمكنُ أن يرقصَ أي أحد الفالس هناك مع كلِّ قمامتِه ، ومن أين حصلَتْ على المال ، يجبُ أن تُفضحَ قبل حصولِ مزيدٍ من الضّرر ، قبل أن توغلَ في الغوص أكثر .

وهو وراء منضدتِه ينظرُ المفوَّض إلى حاسوبِه ، يحرّكُ الفأرة لا إراديًا ، عطلةُ نهاية الأسبوع جاثمةٌ بثقلٍ في داخله ، هو وزوجته تناولا الطَّعام في تيكلا ثلاث أمسياتٍ متتابعة ، ثلاث أمسيات تشكّلُ ما مجموعه ثلاث قناني من النّبيذ الأحمر ، وكميَّة كبيرة من الكونياك ، إلى جانب الجعة ، وموسيقى كمان وهارمونيكا . كانَتْ هاربا غذيونز هناك في يومَي الجمعة

والسَّبت ، واللعنة على الجحيم ، كم تناسب شعرُها مع ثوبها الأحمر ، مدّ يدَه إلى كوب الماء وراقبَتْه النّساء الخمسةُ ، خمس نساء وعشر أيدٍ . وهذه الأيدي العشرة تتحوَّل إلى غابةٍ تعصف بها ريحٌ هوجاء كلَّما ذُكِر اسم إليزابيت . هيّا الآن ، قال أخيرًا ، منتزعًا ذهنه عن صورة هاربا ، عن جسدِها تحت الثّوب الأحمر ، وكيف تحرَّكت بطريقةٍ تشبه حركة السّنّور . لم يسبق له قطُّ أنْ لاحظ ذلك ، واحتاج إلى كميَّةٍ مضاعفةٍ من الكونياك أكثر ممَّا هو مناسبٌ له ، ليخمد اهتمامه المشتعل بها . هيّا الآن يا بنات ، هي دؤوبةٌ فقط . تقولُ دؤوبة! نعم ، دؤوبةٌ وواسعةُ الحيلة كذلك ، لا يوجدُ هناك شيءٌ غير قانونيّ في كون المرء واسع الحيلة ، ولا أحد حرّر صحيفة المقاطعة الرّسميَّة بالمهارة التي حرَّرتها بها ، هي . . . ها ، قاطعته الأيدي العشرة ، صحيحٌ هي دؤوبةٌ ، هذا مؤكّدٌ ، واسعة الحيلة بدفع ثديَيها في وجوه الرّجال وبعد ذلك تلفّ أولئك الرّجال حول إصبعها ، أنتم لا تفكّرون إلّا في أعضائكم التّناسليَّة وهي تعرفُ هذا ، تعرف أنْ لا شيء في عقولكم سوى الجنس . التّفكيرُ في الجنس ليس جريمةً ، قال مجازفًا ، وسرَتْ فيه رعشةٌ خفيفة ، خفيفة جدًا وهو ينطقُ بكلمة «الجنس» .

كيف استولَتْ على ذلك المبنى لتفتح فيه مطعمها؟ نريدُ إجراءَ تحقيقٍ .

هي أختُ زوجتِي .

نريدُ محقّقا نزيهًا من ريكيافيك .

أنتنَّ تضخمْنَ هذا أكثرَ ممَّا يلزم ، كما ترَينَ ، أنتنَّ تجعلْنَ من كومة ترابٍ جبلًا .

نريدُ على سبيل المثال محاميًا من مكتب مدقِّقِ الحسابات في الدَّولة .

هيّا الآن يا بنات .

لا بأس ، في هذه الحال سنرفعُ عليها دعوى بأنفسنا ، وعليكَ أنتَ أيضًا .

عليَّ أنا؟

بتهمةِ التّواطؤ .

تنهَّدَ المفوَّضُ ، ما عاد الصّداعُ يخبطُ رأسَه من الإفراط في الكحول ، تحوَّل ذلك الخبطُ إلى شيءٍ يشبه منشارًا مثلّمًا لا ينفكّ يعملُ تقطيعًا في صفيحةِ حديدٍ إلى نصفين . وهكذا استسلمَ لهنّ ، وبعدَ أسابيعَ قليلةٍ وصلَ آكيه .

5

في نهايةِ شهرِ أيلول يأتي آكيه إلى البلدةِ وهو يقودُ سيَّارةَ فورد إيسكورت جديدةً ، يقيم في منزل غودمندر وسولرون ، ويُخصّص له مكتبٌ إلى جانب مكتبِ المفوض ، رجلٌ متوسّط الطّول ، نحيلٌ ، حسّاسٌ ، جلدُه رقيقٌ جدًا حتى ليكاد يبدو شفّافًا ، يتأنّق دائمًا بثيابٍ أنيقة لا تشوبُها شائبةٌ ، ومعطفُه باهظُ الثّمن ، لا يكاد إلّا في ما ندر يرفّ عينيه ، في الأربعين من العمر ، ومطلّقٌ . يؤمنُ آكيه بالأرقام والانضباط في الحياة العمليَّة ، وقد طبّق هذه النّظريّة أيضًا على حياتِه الزّوجيّة : ممارسة الجنس مساء أيّام الثّلاثاء ، ومساء أيّام الأربعاء ، ما بين الثّامنة والثّامنة والنّصف هي الفترة التي يقضيها مع أطفالِه . على هذا النّحو كانَ كلُّ شيءٍ في حياته مقسّمًا إلى جداولَ ومنقوشًا على الصّخر ، لم يلقَ بالًا

لما يفكِّرُ فيه الآخرون ، لأنَّ أولئك الذين لا ينظّمون حياتَهم ستستنزفُهم الفوضى . في نهاية المطاف ما عادَتْ زوجتُه قادرةً على التّحمل أكثر ممَّا فعلت ، قالَتْ إنَّ تخطيطه أصبح هوسًا ، أصبح جوهرَ حياته ، كانت قد مضَتْ سنتان على طلاقِهما يوم قادَ سيَّارته إلى البلدة في يوم خريفي هادئ ؛ العشبُ قدِ اصفرّ ، والطّيورُ المهاجرةُ رحلَتْ ، طارت إلى الأفقِ ، وشاحنةُ المسلخ تنتقلُ من مزرعةٍ إلى مزرعةٍ ، حظيرتُها محليَّة الصّنعِ تقعقعُ على قاعدتِها ، فارغة عندما تغادرُ البلدة ، ومحمَّلة بحملان تثغو عندما تعودُ ، مع بعض الخراف الصّامتة وكبشٍ غاضبٍ أو كبشين ، بل ربّما مع مزارعٍ ما يرافقُ ماشيته . تشقُّ الشّاحنة طريقَها على المنحدر ، تتجاوزُ تيكلاً وتتوقف عكسيًا عند المسلخ ، يفتحُ البابَ رجلان يلبسُ كلٌّ منهما جلبابًا داكنَ الخضرة يصلُ طوله إلى الرّكبة ، يُنحيّان المشبكَ الحديديَّ من مؤخِّر الشّاحنة ، يفتحان حظيرتَها ويقودان الماشيةَ إلى بيت الخراف الذي يدعى أحيانًا غرفةَ الانتظار ، مع أنَّ الانتظارَ نادرًا ما يطول ، ثم تُقادُ الماشية واحدة في كلِّ مرَّةٍ نحو المزلقة المؤدّيةِ إلى منصّة الصّعق . المختصّ بالذَّبح ، مزارع هزيلٌ ، يتعاملُ مع الصّاعق بمهارةٍ وسرعةٍ ، وفي الطّابق العلويّ تنتظر أيدٍ متلهفةٌ للعمل . أحيانًا نفكّر في الحملان في بيتِ الخراف حيثُ المسلخ ، دافئة بالحياة ، تثغو ، تنظرُ حوالَيها بعيونها الزّرقاء ، وبعد يوم أو يومَين تصبحُ ذبائح مجمَّدة . تعيشُ صيفًا واحدًا ، صيفًا قصيرًا وعروقُها مفعمةٌ بالضَّوء ، ثمَّ لا يبقى أي شيء آخر ، يحطِّمُ الصّاعق جباهها ، فوق عيونها بينما نحن هنا ننتظر الشّتاء .

تدعو الأيدي العشرة آكيه إلى القهوة ؛ تحتفي به بثلاثةِ أصنافٍ مختلفةٍ من الكعك ، وفطائرَ بالقشدة ، نوعين من البسكويت ، وتورتة فاكهة ، يحكينَ عن البلدة ، البلدة بأكملها ، حياتِها ووفيَّاتها ، ليست

لدينا باحةُ كنيسة ، يقلْنَ ، ولا حتى كنيسة . آكيه رجلٌ وسيمٌ ، لا يمكنُ إنكار ذلك ، حليقُ الوجه بطريقةٍ جميلة ، وشعرُه بشقرته الكامدة مرجَّلٌ دائمًا . تدعوه صاحبات الأيدي العشرة إلى زيارتهنَّ في أغلب الأحيان ، ففي نهاية المطاف هو هنا بسببهنَّ ، يسألْنَه عن تحرّياتِه ، يحاولْنَ بلا جدوى تصيّد شيءٍ منه ، لكنَّ شفتَيه النَّحيلتين لا تنفرجان إلّا بشقّ النّفس ، ويصبح تعبيرُ وجهِهِ قاسيًا ، وعندئذٍ يفكّرن : ها ، إنَّ إليزابيت الآن في مشكلة! بعد وجود آكيه في البلدة مدَّة أسبوع واحدٍ فقط ، وشُربِ القهوة مرّتين مع الأيدي العشرة ، لم يكن بعد قَدْ تكلَّم إلى إليزابيت ، أو وطِئَت قدماه تيكلا ؛ واضح أنَّه يريدُ أوّلًا الاقترابَ من فريستِه بحذرٍ ، يجمعُ الأدلّة ، والبراهين والمادَّة اللازمة ، ليسبّبَ لها القلقَ ، مراقبًا تحرّكاتِها من مسافةٍ وهي تمشي عبرَ البلدة .

تمارسُ إليزابيت رياضةَ المشي ساعةً كاملة كلَّ صباح ، في مختلفِ الأحوال الجوّيّةِ ، حتى عندما يكون كلُّ شيءٍ معرّضًا لخطرِ الهبوب مع الرّيح . هي نوعًا ما مغاليةٌ في هذا ، يوضّح المفوّض مبتسمًا ، حيث هو واقفٌ مع آكيه أمامَ نافذةِ مكتب المفوّض ، يراقبان إليزابيت تمرّ ، متّجهةً إلى عتمةِ الصّباح خارج البلدة ، وشاحنةُ المسلخ الفارغة تقعقعُ أسفلَ الطَّريق ، ميممةً العتمة كذلك ، متشبّثةً بأضوائها الأماميَّة حتى لا تتيه ، وحافلات المدرسة تصلُ من الرّيف ، تفرغُ حمولتها من الأطفال ، ثمَّ تنطلقُ مغادرةً ، تاركةً البلدة تغرقُ في السّكون مرّةً أخرى . لا نشاط هنا ، ما يحدث في البلدة قليلٌ جدًا ، يقول غودمندر بنبرةٍ معتذرةٍ . يحدّقُ آكيه في المفوّض بعينَيه اللتين لا تطرفان أبدًا ، لونُهما أزرق فاتح ، وتشبهان الزّجاج المنفوخ ، أودُّ الآن أنْ أعملَ بسلام ، يقولُ ، فيبادلُه المفوّض التّحديق ويحتدُّ مزاجه ، يلمحُ حركةً في الخارج ، كيارتان ودافي يمشيان

الهوينى إلى العمل ، دافي في منتصف الشّارع ويداه في جيبَي بنطلونه ، يلبس سترةً جلديّة سوداء وجينزًا داكن اللون ، وجهُه شاحبٌ كشحوب الأموات تحت قبعته السّوداء التي أنزلَها فوق عينيه ، كيارتان يمشي على الرّصيف ، خطواتُه ثقيلة ، قدماه مفلطحتان قليلًا ، ربَّما بسبب وزنه ، بسبب كلِّ تلك الكيلوغرامات التي يُرغم هيكلَه العظميّ على حملها .

بتؤدةٍ تتألّق السّماء ، ينحدرُ غرابان نحو التّعاونيّة . عمّا قريب ستعود شاحنةُ المسلخ ، مستودعُها يضجّ بثغاء الضّيف الذي سيتحوّل إلى ذبائحَ مجمَّدة قبل انقضاءِ الأسبوع ، إنَّه يوم ثلاثاء . يغادرُ آكيه ، تتظاهرُ آسديس بالانشغال بحاسوبِها لتتجنَّبَ إلقاءَ التّحيّة عليه ، وبعدئذٍ تنهض لتتبعه بعينَيها ، تراه يتّجه صوبَ التّلّ ، يختفي وراءَه ، هناك ينسحب الزّقاق البحريّ من الليل . لقَدْ خرجَ ، تُعلنُ . عساه يتعفّنُ في الجحيم ، تردُّ موندا . أمَّا المفوَّض فيدخلُ إلى مكتبِه ، يقلّبُ باهتمامٍ الأوراقَ وثمَّة تقطيبٌ ينمُّ عن القلق بين عينَيه . يمرُّ آكيه أمام تيكلا ، في الدّاخل كلّ شيءٍ معتم ، يمضي إلى المسلخ ، يتفرَّج على الرَّجل المختصّ بالذَّبح وهو يعملُ ، وعلى الرِّجال الثَّلاث عند الحزام النّاقل الصَّغير الذي تظهرُ بدايته تحت منصَّة الصّعق ، وهناك صبيّ مراهقٌ وفي جيب سترته مشغّلُ أسطواناتٍ مدمجةٍ ، وفي أذنَيه قرعٌ مدوٌّ ، وهو يساعدُ في قلب المخلوقات عندما تسقط من على المنصَّة خلال تشنّجات رمقها الأخير ، وإلى الجانبِ الآخر منه رجلٌ طويلٌ مستديرُ الكتفين ، ستينيّ تقريبًا ، وثمَّة قطرةُ مخاطٍ متدليةٌ من أنفه المعقوف ، وهو يتولّى جزَ حناجرِ الحملان ، تاركًا دمَها ينفرُ نحو المصرفِ ، بينما يتدفّق الضّيف خارجًا من أجسامِها ، يقومُ الرَّجل الثَّالث بتعليقِ ساقِ كلِّ حيوانٍ بخطَّافٍ حديديّ والحزام النّاقل يحمل الجثث إلى الطَّابق العلويّ ، حيث تُحوَّلُ هناك إلى

ذبائحَ مجمَّدةٍ ، ثمَّ إلى طعامٍ . يذهب آكيه إلى بيت الخراف ، يطلّ على الحيوانات المجترَّة ، يبدو له اجترارها هذا كما لو أنَّها تمضغ اللبان ، مذكّرة إيّاه بلاعبي كرةِ القدم ، ينزلُ رجلان بجزماتٍ طويلة من الطّابق العلويّ ، يحيّيانه ، يردُّ بإيماءةٍ صغيرة ، يتّكئان على الحاجز الحديديّ ، يأخذان فترةَ استراحةٍ ، شابَّان في العشرين من العمر تقريبًا من الرّيف ، كلٌّ منهما معه خطّافٌ متدلٍّ من حزامه ، فجوةُ الخطّاف الخاصَّة بتعليق الحوافر تواجه الخارج ، إضافةً إلى مقابضَ ثلاثة سكاكين بارزةٍ من جرابٍ عند الورك ، يُسمَعُ وقع شاحنةِ المسلخ وهي تقتربُ ، يتّكئ آكيه على الحاجز الحديديّ ، يتركُ يدَه الرَّقيقة النَّاعمة تتدلّى ، يشمّها حمل بحذرٍ ، ينظرُ في عينَي الحمل ، يستمعُ إلى ضجيج الصَّاعق المكتوم ، وإلى الارتطام عندما يخرّ الحيوان على الحزام الناقل ، ويفكّر ، هناك مسافةٌ صغيرةٌ جدًا بين الحياة والموت ، بين الصّيف والشّتاء . يحاولُ أنْ يستزيدَ من التّفكير في هذا ، يريدُ أنْ يفكّرَ أكثر لكن لا شيء يخطر له ، يعدُّ الرّؤوس في بيت الخراف ، ثمَّ يغادر ، يراقبُه العاملان وهما يضحكان ، المرء يضحكُ كثيرًا في سنِّ العشرين ، لا شيء يمكن أن يخذلَه في تلك السّنّ ، والمسافة في أغلب الأحيان تكون طويلةً جدًا بين الحياة والموت لدرجة أنَّ في محاولة قياسِها مضيعةً للوقت . ينحدر إلى الشّاطئ ، يجلسُ على صخرةٍ كبيرة عند رأس الشّاطئ ، أمواجٌ صغيرة تأتي تذهب تأتي تذهب تأتي تذهب تأتي تذهب ، والبحرُ مُخدّر . يمرُّ وقتٌ لا بأس به وآكيه لا يفعل شيئًا سوى التّحديق ، هو ليس في هذا العالم ولا في آخر غيره ، لا يكاد يكون له وجودٌ ، ربَّما أكثر بقليلٍ جدًا من عينين فالتحتي الزّرقة تراقبان الموج يأتي يذهب يأتي يذهب ، من عينَين تشبهان الزّجاج المنفوخ . فجأةً يختلج شيءٌ في رأسه ، فكرةٌ ربَّما أو شعورٌ . يتذكّر أنَّ اليوم هو الثلاثاء ،

وفي جدوله الأسبوعيّ ، ما بين التّاسعة والنّصف والعاشرة مساء أيّام الثّلاثاء ، هناك علامةٌ «إكس» كبيرةٌ ، هذا يعني أنّه وقت الاستمناء ، وهو يمارسه عادةً بالنّظر إلى المجلّات الخلاعيّة الأمريكيّة المصقولة . لديه أيضًا كتابان من تأليف أنياس نين . كان القيام بذلك مربكًا قليلًا في غرفة ضيوف المفوّض مساء الثّلاثاء الماضي ، ولكن أيضًا مثيرًا نوعًا ما ، كان يمكنه سماع سولرون وهو يستَمْنِي ، وقد بدا له أنّها تتحدّث على الهاتف ، ولديها صوتٌ رخيم . سيكون هذا لطيفًا الآن ، يفكّر آكيه ، يباعدُ بين ساقيه بعض الشّيء ، يستدعي في ذهنه فصلًا من أحد كتب نين ، «دلتا فينوس» . لا ، لن يكون ذلك لطيفًا ، يفكّر بحزنٍ ، ليس هناك تبدّلٌ في مشاعره ، ولا أي إشارة بالانتصاب . يتفحّص سطح البحر الذي يمتدُّ في ثلاثة اتّجاهاتٍ ، وفي أحد تلك الاتّجاهات يندمجُ مع الجزر المتعرّجةِ التي تكشطُ الأفقَ . سيكون من المسلّي إذا استطاعَ عدَّ السّمك ، أو الدّموع المتدحرجة على وجهِه ، نزولًا إلى خدّيه المهزولين من دون أن تعتريه أي مشاعر ما عدا الخدر المنتشر في داخلِه ، كما لو أنَّ عينَيه تمتلكان إرادةً خاصّةً بهما ، كما لو أنَّ الدّموع تفرُّ منه بمحض إرادتِها . مثل جرذ في سفينةٍ غارقةٍ ، يفكّر بمرارةٍ . هناك يجلس على تلك الصّخرة . لا يستطيع عدّ السّمك . لا يستطيع عدّ دموعه . ويفكر : لماذا أنا حيّ؟

في ذلك المساء تعشّى في تيكلا . موسيقى هادئة من مشغّل أقراصٍ مُدمجة ، ربّما هي سلسلةُ آلاتٍ وتريّة رباعيّة تعزفُ موسيقى ملحّنٍ ميتٍ منذ زمنٍ طويل ، وأمامَه طبقُ معكرونة ، وقنينةُ نبيذٍ أحمر . عدّة مرّات في المدرسة الثّانويّة ، في أواخر السّبعينيّات ، ثملَ من المشروب ، حينما كان هناك القليلُ من الأشياء الأخرى باستثناءِ سيفن أب وكحول مقطّر وفودكا وكوكاكولا ، أمّا النّبيذ الأحمر ففي الأفلام والسّفارات فقط ، أي

شعورٍ بالنَّمالة سيخلّفه السُّكر ثانيةً ، فكّر آكيه ، تفحّص قائمةَ الطّعام ، دقّق في قائمة النّبيذ ، ولعلّها ذكرى تلك الأيّام البعيدة الجريئة ما ألهمته ليطلب قنينةً كاملة ، ليس نصف قنينة ، ولا قدحًا ، لكن ربّما يعود السّبب إلى أنه لم يستطع عدّ السّمك الذي يسبح في الماء ولا عدّ الدّموع النّافرة من عينَيه ، في الأحوال كلِّها ، كان قدْ شربَ نصفَ القنينة قبل أنْ يصلَ إليه ما طلبه من طعام . بعد قدحَين بدأ يرمشُ ، مثلنا كلّنا ، بعد ثلاثة أقداح راحَ ينظرُ حوالَيه ويومئ برأسِه للزّبائن الآخرين ، هناك خمسة زبائنَ إضافةً إليه ، كان الطّبيب أوربيورن يجلسُ قرب النّافذة . مع القدح السّابع دعا إليزابيت إلى طاولته وقال ببطءٍ شديد ، بحذرٍ شديد ، ونوعًا ما كما لو أنّه احتاجَ إلى انتشالِ كلماتِه بيديه ، أعرفُ القليلَ عنك ، ثمَّ تقيَّأ فوق الطّاولة ، فوق الطّعام ، وفوق الأرضيَّة ، والقليل منه تناثرَ عليها ، على بلوزتِها الخضراء . حملقَ آكيه في القيء مذهولًا ، ثمَّ رفعَ عينَيه نحو إليزابيت وقال : أنا لم أستطعْ عدَّ السَّمك .

6

ربَّما لن يكونَ من المبالغة القول إنَّه من تلك اللحظة فصاعدًا ، سار كلُّ شيءٍ بطريقةٍ خاطئة مع آكيه ، الرَّجلُ الذي لم يستطعْ أن يحسب عدد السَّمك ولا عدد دموعِه ، وهذا ما أدّى به إلى أن يفقد سيطرتَهُ على حياتِه . تعشَّى في تيكلا كلَّ ليلة ، في بادئ الأمر ظنَنّا أنَّ هذا قسمٌ من تحرّياته ، فإليزابيت كانت غامضةً ومعقّدة ، واكتشاف حقيقتها سيستغرق وقتًا ، لعلَّ آكيه اعتقدَ ذلك أيضًا ، فخداعُ النّفسِ هو واحدٌ

من أقوى نزعات البشر . زادَ استهلاكَه للكحول بسرعةٍ واضطرادٍ ، في المساء الخامس أنهَى قنينةَ النَّبيذ الأحمر ، في المساء السَّابع ما عاد يتقيَّأ ، ثمَّ أضاف الكونياك ، ومشى متثاقلًا في طريقِ عودتِه إلى بيت المفوَّض في حوالي السَّاعة الواحدة ليلًا ، وذهب إلى العمل في الثَّامنة والنّصف صباحًا ، متحفّظًا أكثر من المعتاد ، أغلق على نفسِه في مكتبه ، وأمكن سماعه في أغلب الأحيان يعملُ على حاسوبِه . مع ذلك لم يبدُ مثل رجلٍ عالقٍ في دوّامةٍ سحيقة الانحدار ، بل كانَ أكثر ترتيبًا ، معصومًا أكثر من أي يوم مضى عن الخطأ ، تناول طعامه بذلك الأسلوب الرّصين الهادئ ، بحيثُ أثار فينا الشّعور بأنّنا مثل الخرقاء المغفّلين في حضرةِ رجلٍ من النّبلاء . طبعًا لم تغبْ عنّا ملاحظةُ أنّه عاقرَ الخمرَ بلا وعي تقريبًا كلّ مساء ، غير أنّنا اعتقدْنَا أنَّ هذا يعودُ إلى السَّأم وقد وجد نفسَه هنا ، في قلب الرّتابة ، مفتقدًا السّينما والمسرح والحفلات الموسيقيَّة ، مفتقدًا دندنةَ الحياة . بالتَّأكيد لدينا هنا المسلخُ الذي يعمل على قدمٍ وساق ، وعروض أفلام كِدي ، لكن ما كلّ هذا بالمقارنة مع الدّم الذي يجري في عروقِ المدينة ، والعتمةُ قد بدأتْ تكتسح الأيّام ، والليالي طالت بينما بدأ الشّتاء يقترب جاذبًا خلفه عربَته السّوداء . قلقَتِ الأيدي العشرة على آكيه ، عرفَتْ أنّه ليس من الجيّد بالنّسبة إلى الرّجال الشّرفاء أن يكونوا على تواصلٍ دائم مع إليزابيت ، خصوصًا إذا عاقروا الخمر ، وهي أكثر قدرةً على حبك المؤامرات من الشّيطان بحدّ ذاته .

لكن ماذا نعرفُ نحن؟ لا شيء قطعًا .

بعد تسعةِ أيّام من إخفاق آكيه في عدِّ سمك البحر ، يجلسُ إلى طاولته في تيكلا ، كان قد اتّصل بريكيافيك ، قال إنّه يحتاجُ إلى أخذ إجازةٍ مرضيَّةٍ ، إنّه قلبي ، وسأرسل لكم التّقرير الطّبي . ونحن الآن في

ليلة الخميس ، قبل أسبوع بالضّبط من دخولِ امرأةٍ هنا في البلدة إلى حوض الاستحمام حاملةً سكينَ مطبخٍ حادّة ، وثمَّة كومةٌ سميكة من الأوراق على طاولة آكيه . هل ألّفتَ روايةً ، تسألُه إليزابيت ، على وقع هذا السّؤال تنفرج شفتا آكيه المستدقّتان ، محوّلتان وجهه إلى ما يشبهُ وجه وحشٍ كاسرٍ ، يضع يده الرّقيقة على الكومة ويقول : هذا عنكِ . تقريرٌ مفصّلٌ عن شخصيّتك ، عن نشاطاتِك ، كلّك هنا ولا يمكنُكِ أن تهربي ، أتودّين قراءته؟ ترجع بظهرِها إلى الوراء ، تتناولُ رشفةً من النَّبيذ الأحمر إنتاج فوغيا في إيطاليا ، تمسكُ نصف كومة الأوراق ، تقرأ لعشر ثوان على الأكثر ، وتقولُ ، هذا كلّه أرقام . طبعًا سنكونُ في حالةٍ يُرثى لها من دونِ الأرقام ، يقول ، الأرقام تجمع كلَّ شيءٍ معًا . تهزّ رأسها نفيًا ، أنتَ في المسارِ الخطأ ، أنا مصنوعةٌ من كلمات صِرف ، ماذا تحبّ أن تأكلَ؟

إنَّه مساء الخميس ، وكِدي يعرضُ فيلمَ إثارةٍ ممتازًا في المركز الاجتماعيّ ، لذلك ليس هناك سوى بضعة أشخاص في تيكلا ؛ آكيه وأوربيورن وأربعة غيرهما فقط . أوربيورن من زبائنِ تيكلا المنتظمين ، يعيشُ وحده ، ولطالما عاشَ وحده ، يضعُ ربطةَ عنقٍ حمراءَ في المساء ، وعطر ما بعد الحلاقة على وجهه السّمين ، يبدو مشتَّتَ الانتباه أحيانًا ، ومهما اختلفَتْ أحوالُه يبدو أشبه بدبٍّ حزين . يجلسُ دائمًا عند نافذة الزّاويةِ ، وإلى حدٍّ ما ، يمسك الظَّلام الخريفيّ بيدٍ ، وقدح الويسكي باليد الأخرى ، لطيفٌ أنْ يشعرَ المرء بقليلٍ من الانتشاء ، إنَّهُ أحد أفضل الأحاسيس في هذا العالم ، إذ يتغيَّرُ المشهد في داخل المرء قليلًا ، تأخذُ الأشياء فيه طبيعةً مختلفةً عن المعهود ، ويتحرَّكُ النّاس بطريقةٍ مختلفةٍ . حاول أوربيون أن يجذبَ آكيه إلى الحديث ، فهما يشتركان بعديدٍ من

الرّوابط ؛ كلاهما خرّيجُ جامعةٍ ، كلاهما هنا في البلدة ، وكلاهما في الأربعين من العمر ، أولئك الذين تتقاربُ أعمارُهم تزداد أكثر فأكثر الرَّوابطُ المشتركةُ بينهم مع مرور السِّنين ، وعندما نبلغ الأربعين ، يصبحُ الماضي أحدَ أكثر الأجزاء استحواذًا على حياتنا . ما سبق قطّ أنِ انفتَحَ آكيه على أحدٍ ، لكن في مساءِ هذا الخميس بالتحديد سلكَ منعطفًا آخر ، كان قد أحضر معه تلك الكومة من الأوراقِ وها هو يجلسُ مراقبًا إليزابيت وهي تختفي في المطبخِ ، ويبدو خائبَ الأمل جدًا بسببِ لا مبالاتِها ، تعتم الأمسية ، يستقرُّ الظّلام فوق البلدة ، فوق أسطح البيوت . كان آكيه قد أنهَى قنينتَه من النّبيذ الأحمر ، وشرعَ في معاقرة الكونياك ، ثمَّ يبادر إلى الجلوس قرب أوربيورن الذي يغلقُ كتابه ، رواية بالإنجليزيَّة للمؤلِّف الفرنسيّ أندريه غيد ، يعرضُ عليه آكيه الويسكي ، اجعلِيها أربعةَ أضعافٍ يقول لإليزابيت ، من غير أنْ يبعدَ عينيه عن أوربيورن ، يشربانِ نخبًا ، يحتسيان . آكيه في حالةٍ غريبة جدًا ، يريد أن يتحدَّثَ ، الكلماتُ تتدفَّق من فمه ، أين كنتَ عندما قُتل جون لينون؟ ما هو برأيك المكتوب في هذه الأوراق ، ها؟ أتظن أنَّه من الممكن عدّ السَّمك ، وماذا عن الدّموع؟ هل سبق لك أن زرْتَ ميلان؟ متى كانت آخر مرَّةٍ ضاجعت فيها امرأةً؟ أيمكن أن يعيشَ المرء في هذه البلدة؟ ما هو برأيك المكتوب في هذه الأوراق؟ يحاول أوربيورن الإجابةَ عن كلِّ شيءٍ لكنَّه غالبًا ما يتأخّر كثيرًا ، وآكيه لا ينتظر ، يندفع قدمًا في الكلام ، ولا يتوانى إلّا عندما يتحدّث أوربيورن عن موت لينون ، مع ما يشبه الكتلة في حنجرته ، الرَّصاصة التي أصابَتْ شبابي ، يقول ، والرَّغبة في البكاء تتأجَّج فيه ، في إحدى يديه قدح الويسكي ، وفي الأخرى الظَّلام الخريفيّ ، الظَّلام الذي ينشر نفسَه فوق البلدة ، يغطّي السّماء ، يمتدُّ بعيدًا نحو الفضاء . الدّموع ،

يقولُ لاحقًا في ذلك المساء ، بل في الحقيقة ليلًا ، تكون أحيانًا لغة الألم . يحدّق آكيه في أوربيورن ، يرفع قدح الكونياك إلى شفتيه ، يتجرّعه دفعةً واحدة ، كميّةً مضاعفة من كونياك «ريمي مارتن إكس أو» ، يختنقُ ، يكحُ ، ينهضُ ، يسمّرُ عينيه على أوربيورن إلى أن يستقرَّ العالم تحت قدميه ، ثمَّ يخرج إلى الظَّلام ، يترك كومة الأوراق خلفه على الطَّاولة ، فيمدّ أوربيورن يده إليها . يبقى آكيه صاحيًا طوال الليل ، يجلسُ في غرفة جلوس المفوَّض ويشرب نبيذ سولرون وغودمندر ، لا ريب في أنَّه قد ولد ليعاقر الخمر ، فهو يمتلك موهبةً حقيقيَّةً في هذا الحقل ، وعلى الرّغم من أنَّ مستوى النَّبيذ في القنينة ما فتئ ينخفضُ باطرادٍ ، يتكلَّمُ بوضوحٍ تقريبًا عندما ينزل غودمندر بعد السَّاعة الثَّالثة صباحًا ، ويجلس قبالة ضيفه ، يتثاءبُ ، يتريَّثُ إلى أن يفارقَ النّومُ جسمَه كليًا ، يصبّ لنفسه جرعةَ ويسكي ويقول : أراك جالسًا هنا تعاقر الكحول . غريبٌ كم نحن بارعون في قول ما هو واضحٌ ، لكن يجب ألّا ينخدع أحد ، فوراء الكلمات هناك ربَّما أسئلةٌ أكثر عمقًا . وآكيه يفهمُ ذلك ، يعرفُ أنَّ غودمندر يسأله في الواقع لماذا يجلسُ هنا ، أي أحداثٍ في حياته ، أي ألم ، أي استياءٍ ، أي يأسٍ وضعه في تلك الأريكة ، مرَّرَ له القنينةَ بينما اللّيل مخيّمٌ في الخارج ، يستمدُّ قوّته وظلامه من أعماق الكون . مهما اختلفت الأحوال ، يردّ آكيه وهو يثبّتُ زرَّ كمِّ قميصه ، يبقى كلُّ شيءٍ فوضويًا ، ثمَّ يضيف بنبرةٍ تلقائيَّةٍ ، لم أستطعْ أنْ أحسبَ عددَ السَّمك . يبقى غودمندر جالسًا مع ضيفه بينما الليلة تمرُّ ، يشربان ، آكيه يشربُ أكثر بكثيرٍ ، يتحدَّثانِ قليلًا لكن يلعبان الشّطرنج ، ما الفوضويّ؟ يسأله غودمندر ، ليتَني أعرفُ فقط ، يجيبُ الآخر . وعندما تنزل سولرون حوالي السَّادسة صباحًا ، تجدُ آكيه نائمًا على الدّيوان ، وغودمندر غافٍ

على الأريكةِ ، قطعُ الشَّطرنج متناثرةٌ هنا وهناك على الطَّاولة بينهما ، وثمَّةَ قنينة ويسكي ، وقدحان ، والقمر يتدلَّى واطئًا في السَّماء الغربيَّةِ نصفَ المعتمة ، أصفر وفي الوقت نفسِه ليس أصفرَ ، وعلى الأغلب يظهر كأنَّه على حافَّةِ السُّقوط ، الصّقيع فقط هو ما يبقيه متماسكًا . تُدثّر سولرون آكيه ببطانيَّةٍ ، توقظ غودمندر ويصعدان معًا إلى غرفةِ نومهما ، إذ ما زالَتْ هناك ساعةٌ قبل أن يوقظا الأطفال ، ويمكن أن يفعلَ المرءُ أشياءَ كثيرةً خلال ساعةٍ كاملةٍ في الفراش ، تنبري سولرون إلى القول : فلنبقِ أيدينا متشابكةً إلى أنْ يسقط القمرُ .

حينما استيقظ آكيه كان وحدَه في البيت ، والنّهار قد ولجَ من خلال نافذةِ غرفةِ الجلوس ، قطعُ الشَّطرنج ما زالَتْ ملقاةً هنا وهناك على الطَّاولة ، أمَّا قنينة الويسكي فاختفَتْ ، لكن كانت هناك ورقةُ ملاحظةٍ : تناولْ أيَّ شيءٍ تريدُه ، ويُفضَّلُ أن يكونَ شيئًا من المطبخِ ، أنصحُكَ باللبن والخبز . لا يمكنُني بالضّبط أن أحرمك من معاقرةِ نبيذِنا ، فأنْتَ شخصٌ بالغ ، لكن سيكون سخفًا منكَ أنْ تفعلَ ذلك ، ما عدا هذا تصرَّفْ كأنَّك في بيتِك . سولرون .

قرأ آكيه الملاحظة وهو يزمُّ عينَيه من الصّداع ، ترنَّحَ إلى الحمام ، اغتسَل ، تناول الفطور ، قرأ الملاحظةَ مرَّةً ثانيةً ، ثمَّ أعادَ قراءتَها عشرَ مرَّاتٍ ، تصرّفْ كأنَّك في بيتك ، لماذا تبدُو بعضُ الجُمل مثل الخناجر ، ولماذا تخترقُ الخناجرُ الجلدَ بسهولةٍ ، لماذا لا يتحمَّلُ القلبُ تعرّضَه للطَّعنِ؟ وهكذا قضَى مساء يوم الجمعة بأكملِه في تيكلا ، أكلَ القليل وشربَ الكثير ، تفوَّهَ ببضع كلماتٍ ، انطوى على نفسِه كليًا ، غير أنَّه سألَ ما إذا يمكنُه المبيت عند إليزابيت ، وعن هذا السّؤال أجابت ، عندي

شخصٌ ينامُ معي ، والوضعُ بيننا ساخنٌ جدًا ويمكن أن يؤدي بكَ ذلك إلى الاحتراق . على أي حالٍ سُمح لآكيه أنْ ينامَ على حشيّةٍ في طابق المطعم العلويّ ، كان القمرُ في النّافذة ، كان وحيدًا في السّماء ، وهو وحيدٌ هنا على الأرض ، ومساء يوم السّبت عاقرَ كميَّةً هائلةً من المشروب . جلسَ إلى طاولةٍ قربَ النّافذة ، كانَت السّماء غائمةً ، ثمَّ تفرَّقَت الغيوم وظهرَ القمر ، شعاعُه الأبيض تسلَّلَ عبر زجاج النّافذة وامتزجَ بقدحِ آكيه من الكونياك ، ما المذاقُ الّذي يجبُ أن يسفر عنه هذا؟ فكّر آكيه ، وأفرغ قدحَه في جوفه . القمرُ له مذاقٌ عجيب فكّر ، ولمّا استيقظ وجدَ نفسه في غرفةٍ غريبةٍ ، على سريرٍ ضيّقٍ ، وامرأةٌ عاريةٌ إلى جانبِه ، وهو كان عاريًا أيضًا .

مكتبة
t.me/t_pdf

7

ربَّما نحن نولدُ من جديد كلَّ مرَّةٍ نفتح فيها عيوننا ، ما قد يعني أنَّ شيئًا على الأرجح يموتُ فينا كلّما أغمضناها . يستلقي آكيه هناكَ فترةً طويلةً مطبقَ الجفنين ، ينتظرُ الاستيقاظ من هذا الحلم الذي رأى فيه نفسَه مضطجعًا في غرفةٍ غير مألوفةٍ إلى جانب امرأةٍ عاريةٍ . فتح عينَيه وأغلقهما ثانيةً ، فتحهما وأغلقَهما إلى أنْ أدركَ أنَّ هذا ليس حلمًا . لا بأس إذًا ، هذا ما هو الأمر عليه ، يستلقِي هناكَ ، في غرفةِ نومٍ غريبَةٍ ، على سريرٍ ضيّقٍ ، وامرأةٌ تتنفّسُ إلى جانبه ، في وسعِه أنْ يشمَّ رائحة جسمها ، كلاهما مضطجعٌ على ظهره ، متلاصقان بسببِ مساحةِ السَّرير الضَّيقة . أنا ميتٌ ؛ أيعني هذا أنَّ الأبديَّةَ هكذا؟ لم تكنِ الغرفةُ كبيرةً ،

وفي وسعه أن يرى من الحائط إلى الحائط من غير أنْ يحرّكَ رأسَه ، تراءى له أنَّها عِليّةٌ ، لا شيء غريب فيها سوى أنَّ العالم هو ما يتّكئ عليها من الأعلى وليس السَّطح . فيها أريكةٌ مبطّنةٌ بالية ، مجموعةُ رفوفٍ ملكيَّة النّسق عليها صورُ أناسٍ وحيوانات ، ثلاثةُ آنية مزخرفةٌ بالأزهار ، صندوقٌ أو علبةٌ مُزيَّنة بالرّمل والأصداف ، خزانة ملابس ضيقةٌ وطويلة ، ذاك كلُّ شيء ، علمًا بأنْ لا شيء آخر يمكن أنْ يتَّسعَ هناك ، لكن ، خارج النّافذة انبسطَت السّماء الزَّرقاء . شعر بقليلٍ من التّحسّن بعد استيعابه لمحيطِه ، بعد رؤيته أنَّ كلَّ شيء في مكانِه المخصَّص له ، على الرّغم من أنَّه ما زال منزعجًا جدًا . كانت المرأةُ مستيقظةً ، أمكنَهُ معرفةُ ذلك من تنفّسها . تنحنح آكيه ، وواضحٌ أنَّه قد روعها ، لمحَهَا من غير أن يميّزَها من زاويةِ عينه ، بدا له أنَّ ذراعَيها متصالبتَان ، أين أنا ، سألَها ، صوتُه مستحيلُ التَّمييز أجشٌّ ومرهقٌ . في كالفاستيذر . صوتٌ ضعيف بالنّسبة إلى امرأةٍ ، فكّر آكيه . أهذهِ مزرعةٌ؟ نعم . أمم ، وأين البلدة؟ كانا مستلقيَين بلا حراكٍ مطلقًا ، وهو يحدّقُ في السَّقف . ثمَّ حدثَ أنْ رفعَتْ ذراعَها بعيدًا عنه ، الذّراع اليمنى ، أشارَتْ بها وقالَتْ ، هناك ، وحينما فعلَتْ ذلك زكمَتْ أنف آكيه رائحة جسمها النّفّاذة والكريهة تقريبًا . تقلَّبت معدته ، تصبَّبَ عرقًا ، لا تتقيَّأ ، فكّر ، تبًا ، لا تتقيَّأ! نجحَ في احتواء القيء ، وسألَها بعينَين مغمضتَين ، كم تبعدُ البلدة عن هنا؟ تبعدُ البلدة سبعةً وعشرين كيلومترًا ، بما في ذلك الطَّريق الفرعيّ . لم تتكلَّم بصوتٍ غير واضح كليًا ، لكنَّها حتمًا لم تحرّك شفتَيها كثيرًا ، إن لم يكن مطلقًا . أي طريقٍ فرعيّ؟ الطَّريق المؤدِّي إلى المزرعةِ . أهو طويلٌ؟ سبعمئة وثمانية وعشرون مترًا . اجتاحَ جسم آكيه تيَّارٌ رقيقٌ ، كان من اللطيف جدًا أنْ يحوّلَ النّاس بيئتهم إلى أرقامٍ دقيقة ، غير أنَّها

عندئذٍ عادت ورفعَتْ ذراعها ، حكّت رأسَها ، فأغلقَ عينَيه بالغريزةِ ، انتظرَ كي تخمدَ الرَّائحةُ الكريهة ، ثمَّ عادَ وفتح عينيه وسألها بتردّدٍ : ماذا جرى ليلة أمس؟ كيف وصلْتُ إلى هنا؟ سادَ صمتٌ طويلٌ ، المرأة تنفَّسَتْ فقط ، وهو انتظر ، بعدئذٍ سألته ، ماذا تتذكّر؟ فكّر مليًا ، حاول أن يسترجعَ أحداثَ الليلة السَّابقة . نعم ، كنْتُ جالسًا في تيكلا أشربُ الكونياك ؛ هذا صحيحٌ ، وشاهدْتُ القمر يبزغ من بينِ الغيوم . . . ثمَّ استيقظْتُ هنا . ما يعني أنَّك لا تتذكّر أيَّ شيءٍ بعد ذلك ، أعني بعد أنْ شاهدْتَ القمر؟ لا ، أجابَ وزمّ شفتَيه ، فكّر ، سأتقيَّأ إذا رفعَتْ ذراعها مجدّدًا ، ألا تستحمّ أبدًا؟ لا بأس الآن ، قالَ وهو يتنهّد ، بقيَا مستلقيين هناك بعضَ الوقت ، هي تحدّقُ في السَّقف كما لاحظ عندما التفَتَ برأسِه بضعةَ ميليمترات ، ورأى وجهَها الممتلئ الفجّ ، أنفَها العريض ، فمَها الناتئ ، إلَّا إذا كانت شفتَاها مكتنزتين ، ريّانتين ومكتنزتين . لا بأس ، قال من جديد ، أخبريني فقط كيفَ وصلْتُ إلى هنا ولماذا . ثمَّ أحكمَ تشبّثه بطرفِ السَّرير ، لأنَّ العالم بدا فجأةً أنَّهُ أخذَ يتمايل ويترنَّح بشكلٍ مثير للقلق ، كما لو أنَّ هذا العالم يريدُ التَّخلّص منّي ، ومضَت الفكرةُ في رأس آكيه . قالت إليزابيت إنَّها ستكونُ فكرةً رائعةً إذا ذهبْت معنا نحن الاثنين . معكما أنتما الاثنين؟ معي ومع أخي . أيعيشُ هنا هو أيضًا؟ نعم . أيوجد أي أحدٍ آخر غيره؟ لا .

في هذه الآونة ، شُغّل مذياعٌ في الطَّابق الأرضيّ تحتهما ، كما لو أنَّ الشّقيق أراد تأكيد وجودِه – هو على الأرجح شخصٌ مهذّب ، لأنَّ المذياع شُغّل بصوتٍ منخفضٍ . إذًا كنْتُما في تيكلا ليلةَ أمس؟ لا . أوه؟ كنّا في الخارج . ماذا كنتما تفعلان هناك ، تمرّان فقط؟ لا ، أردنا أن نرى مَن كان في تيكلا وماذا يجري فيه ، من السّهل جدًا أنْ ترى ما في داخل المطعم

مساءً . أكنْتُما تنظران وأنتما في سيَّارتكما؟ نعم . مدَّة طويلة؟ لا ، ربَّما لخمسٍ وثلاثين دقيقةً ، قبل أن تخرجَ إلينا إليزابيت . من جديدٍ شعر آكيه بتيَّارٍ من العافية يتدفّق خلال جسمِه ، الآن بسبب دقَّتها في التّوقيت . خرجَتْ إليكما إليزابيت؟ نعم ، في بادئ الأمر ظنّنا أنَّها ستطلب منّا الرَّحيل ، شغِّل السّيّارة قلتُ لأخي يني . يني؟ أذاك أخوكِ؟ نعم . وبعد ذلك؟ لا ، انتظِر ، واجهْنَا مشكلةً في تشغيل التّويوتا فورًا ، ولم تشتغل إلّا بعد أنْ أصبحَتْ إليزابيت أمامنا ، حينها منعتُه من الانطلاق ، رأيت أنَّ ذاك سيكون تصرّفًا وقحًا . وبعد؟ فتحَتْ إليزابيت البابَ من ناحيتي ، ولم تكن غاضبةً أو أيَّ شيءٍ من ذلك ، بل دعَتْنا إلى دخول المطعم ، وأرادت أيضًا أن تقدّم لنا العشاء! وهكذا دخلْتُما؟ لا ، ليس في الحال ، أخبرتُها أنَّنا لا نعرف شيئًا عن الجلوس في المطاعم ، فقالت ، لا بأس ، أعتقدُ أنَّكما تعرفان كيف تجلسان هنا في سيَّارتكما . طبعًا ، أجبْتُها . إذًا أنتما تعرفان كيف تجلسَان إلى طاولةٍ في مطعمي ، قالت ، فأدركْتُ في الحال أنَّها محقّةٌ . ومن ثمَّ دخلْتُما ، حثّها آكيه على المتابعة عندما ما عادَتْ تنبسُ بكلمةٍ لعدَّةِ لحظات . لا ، بل بالأحرى أنا وحدي دخلْتُ لأنَّ يني رفضَ ، هو ليس اجتماعيًا مثلي . لا بأس ، دخلتِ وحدكِ إذًا ، كرّر آكيه ، محاولًا ألّا يتنفَّسَ إلّا من فمه عندما رفعَتْ ذراعها مجدّدًا وهبَّتِ الرَّائحة نحوه . نعم ، وأكلْتُ ضلع حملٍ ، مع أنَّني كنْتُ قد تناولْتُ عشائي ولا أشعر بالجوع ، بيد أنَّ ذلك كان لطيفًا جدًا من إليزابيت ، وكان مذاقُ اللحم جيّدٌ جدًا . تهيأ لي كما لو أنَّني لم أذقْ قطّ من قبل لحم حملٍ ، ربَّما ما يقوله عنها بعض النّاس صحيحٌ . ماذا يقول بعضُ النّاس؟ أنَّها تمتلكُ قوى سحريَّةً ، ثمَّ هناك ذلك الرَّجل من المستودع يعزفُ على كمانه . كان ذلك ممتعًا وحضاريًا أيضًا ، وقد تنفَّست

الصّعداء تقريبًا لأنَّ يني لم يدخلْ معي لأنَّه لا يطيقُ عزف الكمان ، يقول إنَّ الموسيقى النَّاتجة عنه متعجرفةٌ لعينة ، أمَّا أنا فأحبّ الموسيقى على اختلاف أنواعها . سكتَتْ ، وأخذَتْ نفسَين سريعَين . وأنا ما زلْتُ آنذاك أجلسُ عند النّافذة؟ نعم . وكنتُ . . . أوه ، كيف أقولُ هذا؟ هل كنتُ ما زلتُ واعيًا؟ أعتقدُ ذلك ، كنْتَ تحتسي الكحول فقط ، غير أنَّني لم أنظر إليك كثيرًا ، أضافت بنبرةٍ معتذرةٍ ، بحذرٍ تقريبًا ، الأمرُ فقط هو أنَّني لا أشرب النّبيذ الأحمر إلّا نادرًا جدًا ، وقد أعادَتْ إليزابيت ملءَ قدحي ، فسرى في داخلي شعورٌ جميلٌ ، كان الجلوس هناك وتأمّل ما حولي في غاية الرَّوعة و . . . سكتَتْ وحبسَتْ أنفاسَها ، شعر أنَّها بطريقةٍ أو بأخرى تنتظر إذنه أو موافقتَه لتتابع ، فقال : نعم ، نبيذ أحمر ، فعادَتْ تتنفّس ثانيةً وقالت ، كان هناك أناسٌ كُثر ؛ كان الطَّبيب هناك بربطةِ عنقِه المضحكة تلك ، ورفيق إليزابيت بلباسِه الغريب ، جلسُوا معًا وأحيانًا دردشُوا بأصواتٍ عالية جدًا منعتْني من سماع الكمان جيّدًا ، في الوقت نفسِه كان الاستماع إليهم طريفًا ، سمعتهم يتحدَّثون عن . . . وأنا ، متى أظهر أنا في الصّورة؟ قاطعها آكيه ، ثمَّ شبه ندم فورًا ، أغلقَتْ فمها ، وللحظاتٍ مديدةٍ ما عاد يُسمع في الغرفة سوى صوت الرّيح والمذياع ، أخيرًا قالت بصوتها الضّعيف ، أنا أثرثرُ كثيرًا ، في أغلب الأحيان يوبّخني يني على ذلك . أنا آسفةٌ . فما كان منه إلّا أن قال بذلك الصّوتِ الغريب ، الأجشّ والمرهق ، إنَّها وقاحةٌ منّي أن أقاطعَكِ . فابتسمَتْ ، رأى ذلك من زاويةِ عينِه ، تهلّل وجهُها ، حاول بالغريزة أن يستديرَ ليراها على نحوٍ أفضل ، فصرّ السّرير وتوقّف المذياع عن اللعلعة . ماذا أنا فاعلٌ ، فكّر ، وهمدَ في منتصفِ استدارته ، تركه هذا لا مستلقٍ على ظهره ولا على جانبه – كان السَّرير ضيقًا للغاية لدرجة أنَّ التحرّك فيه مستحيل

تمامًا . مع ذلك تسنَّى له الآن أن يستشفَّ ملامحها بطريقةٍ أفضل . تشنّجت ، كانت قابضةً على اللحاف بكلتَا ذراعيها ومرفقاها ملتصقان إلى جانبَيها ، لم يرَ سوى رأسها وعنقها وقسم من صدرها ، نظر إليها متفحصًا فحاولَتْ شدَّ اللحاف نحو الأعلى والرَّائحة هبّت ثانيةً ، تركها آكيه تهبُّ عليه وتصرَّفَ كما لو أنَّ لا شيء هناك غير طبيعيّ ، لم يملك خيارًا آخرَ ، رفعَتْ عينَيها ونظرَتْ إليه . عيناها رماديّتان مرتابتان وخائفتان قليلًا ، شعرُها أشقرُ كامد وقصير ، وبدا أنَّ المشط نادرًا ما اقتربَ منه ، بشرتُها خشنةٌ ، أنفُها عريضٌ وشفتاها ممتلئتان - بكلمةٍ أخرى ، فمها لم يكن ناتئًا حقًا - على خدَّيها وحول عينيها طبقةٌ خفيفةٌ من مسحوق التّجميل ، وهذا لم يناسبْها . أنا آسف ، قال مرَّةً أخرى ، آسفٌ لمقاطعتكِ ، أودُّ فقط أن أعرفَ كيف انتهت بي الحال إلى هُنا . نظرَتْ إلى الأسفل فما عاد يرى سوى جفنَيها . قالَتْ إليزابيت إنَّه يجدر بك أنْ تأتيَ معنا أنا ويني . وماذا قلتُ أنا؟ لا أدري ، رطنتَ بالإنجليزية فقط ، وأنا لسْتُ ماهرةً كثيرًا في فهمها . ثمَّ ماذا؟ خطر لي أنَّ اصطحابك معنا إلى هنا كان فكرةً جيّدة ، أمَّا يني فقال أنْ لا داعي لذلك ، لكن لا أنا ولا إليزابيت ألقينا بالًا إلى ما قاله . وبعد؟ اضطرَّ يني إلى حملكَ إلى البيت ثمَّ إلى غرفتي هنا في الأعلى ، بينما عكفتُ على تنظيف السّيّارة . نظّفتِ السّيارة؟ لقد تقيَّأتَ فيها . أوه . لا بأس ، لا تهتم . وهل أردتُ النّوم في هذا السّرير؟ احمرّت خجلًا ، نظرَتْ إليه ، ثمَّ راحَتْ عيناها ترفرفان في أنحاء الغرفة كأنَّهما تبحثان عن شيءٍ تتمسَّكان به ، عاد المذياع في الطَّابق الأرضيّ يشتغل ثانيةً . نحن عاريان ، قال أخيرًا . على الرّغم من أنْ لا حاجة هناك مهما كانت للإشارة إلى ذلك ، فازدادَ تضرّج وجنتَيها بالحمرة ، تحوَّل لون طبقةِ مسحوق التّجميل إلىورديّ ، وعيناها تنقلتَا هنا

وهناك لتتحاشى النّظر إليه ، حاولَتْ ترتيب اللحاف بطريقةٍ أفضل ، حاولت أن تشّدّه إلى الأعلى أكثر ، حاولت أن تلتصقَ بالحائط ، عادَت الرَّائحة بمجرَّد أنْ حرّكت ذراعيها ، ثقيلة ، عدوانيّة ، لكن فيها شيء من الحلاوة أيضًا ، إلّا إذا كان قد بدأ يعتاد عليها ، التقط لمحةً من شعر إبطها الأسود ، وهو ما سبق له قطُّ أن رأى شعر إبط أي امرأةٍ من قبل . هناك استلقيا ، نكسَ بصره وتأمَّلها ؛ عيناها الرَّماديّتان لم تتوقفا عن التَّنقل بسرعةٍ ولا لجزءٍ من ثانية ، قبضت على اللحاف بإحكام شديدٍ وبشيءٍ من الرّعب ، حتَّى ابيضَّتْ مفاصل أصابعها . ثمَّ سألها آكيه : ما حجم مزرعتك هذه؟ راوده الأمل في سماع شيء يتعلّق بالأعداد ثانيةً ، فالأعداد لا تستطيع الفرار من المرء مثل البشر ، وهي ليسَتْ خفيّةً مثل الكلمات . فقالت : ثلاثمئة وثمانية عشر خروفًا ، ستّ عشرةَ بقرة ، عِجلة واحدة ، ثوران بعمر سنتين وحقوق صيد سمك في النّهر . عدّدَت كلَّ ذلك بهدوءٍ ، بسلاسة ، بل حتَّى نظرت إليه وهي تحكي . صوتُها ضعيفٌ ، وعيناها الرّماديّتان تتحرَّيان وجهه . تشبّث بالأعداد ، قبض عليها بقوَّةٍ ، أغمض عينَيه ، ترك رأسَهُ يغرق ، فقدَ القدرة على حمله ، جبهتُه ارتطمت بشيءٍ أرقّ من العالم ، كتفُها ، وتحت الكتفِ إبطها . ثلاثمئة وثمانية عشر خروفًا ، ستّ عشرةَ بقرةً ، عِجلة واحدة ، ثوران بعمر سنتين ، حقوق صيد سمك في النَّهر ، جبين يسترخي على كتف ، وحواسُه أُشبِعت بالرَّائحة التي فاضت من إبطيها ، ثقيلة ، عدوانيَّة وحلوة ، وفكّر ، ريكيافيك عاصمة أيسلندا ، ثمَّ فكّر في شقَّته الصَّغيرة في حي بينغهولت في ريكيافيك . مساحتُها 3,92 مترًا مربّعًا . طبقًا للمعايير الدّولية (إيزو 31–0) ، الفواصل في الأرقام العشرية قد تُكتب في مكانٍ واحد فقط ، بين العدد الصَّحيح والكسر العشري . 92,3 مترًا مربّعًا ،

أريكةٌ جلديّة ، كرسيّان متماثلان بمساندَ يدين ، طاولةٌ زجاجيّة مستديرة ، تلفزيون 32 إنشًا ، ستّ وعشرون قناةً تلفزيونيَّةً ، هناك دائمًا ما يمكن متابعته في التّلفزيون ، لكن عندما يطفئه يبقى وحدَه ، لا شيء سوى صورته تنعكسُ على الشاشة . وحده . العددُ واحد في الأرقام الرُّومانيّة هو«I أو i» وهو أصغرُ الأعداد الصَّحيحة ، رجلٌ واحد ، أسبوعٌ واحد ، يومٌ واحد ، واحدٌ زائد واحد ، واحدٌ فرديّ ، مرّةً فقط ، مرَّة واحدة ، مرَّة واحدة وليس مرَّتين ، وإذا طُرح العددُ واحد من واحد لا يبقى إلّا الصّفر ، والصّفر لا شيء . لماذا نعيشُ ، فكّر وجبهته على كتفِ امرأةٍ ، لكنَّه ما عاد قادرًا على التَّفكير في أيّ شيءٍ يمكن أن يفكّر فيه . اكتفى بالاستلقاء هناك وجبهتُه على كتفها ، أنفُه عند إبطها تقريبًا ، قرب رائحة جسمها النّفاذة ، كلاهما في ذلك السّرير ، السّماء في المدى ، بل أقرب قليلًا ، والأقرب منها نعيق غراب يمكن سماعه ، وأقرب منه صفير الرّيح ، بل صوت المذياع أقرب ، أمَّا الأقرب من كلِّ شيءٍ فهو تردُّد أنفاسها ، أنفاس حذرة خجولة ، لم أعرفْ أنّ الأنفاس يمكن أن تكون خجولةً ، لم أعرف أنَّه يمكن أن يكون هناك صفرٌ كبير بما يكفي ليبتلعَ الوجود ، لم أعرف أنَّه يمكن أن تكونَ هناك رائحةُ جسم نفَّاذة كهذه ، لم أعرف قطّ أنَّ هناك مثلَ هاتين العينين الرّماديّتين ، رفعَ رأسَه بصعوبةٍ ، رفعه أعلى ، عاليًا جدًّا ، بحيثُ استطاع أن يرى وجهَها والعينَين الرّماديّتين . قال الشَّيء الوحيد الذي خطر على باله ، عيناك رماديّتان ، عندئذٍ بدأ يشعرُ بالانتصاب ، ببطءٍ شديد ، بحذرٍ تقريبًا ، ولكن بتصميم ، والعينان الرّماديّتان توسّعتا ، كان قد نسيَ كم من الرَّائع أن يشعرَ برجولتِه وهو إلى جانب جسدٍ دافئ ، رفعَ يده ، أمسكَ اللحاف وراح يدفعه جانبًا ، في بادئ الأمر قاومَتْ وتشبَّثَتْ به بقوَّةٍ ، وبمجرَّدِ أن أفلَتَ قبضته أخذ اللحاف يندفعُ نزولًا ، رأى

نهدَيها الصَّغيرين بحلمتَيهما الورديّتين اللتين اشتدتَا لمَّا طوقهما بشفتَيه ، للحظة فقط ، ثمَّ راقب اللحاف وهو يتابعُ نزولَه إلى أنْ حطّ على الأرضيَّة . لديها وركان عريضان ، وفخذان ممتلئتان ، وقالت ، لم يسبق لي قطُّ أن كنتُ مع رجلٍ . كم عمركِ؟ ستّة وثلاثون . وأنا ما سبق لي أنْ كنْتُ مع عذراء من قبل ، قال ، وهو يفكّر في غشاءِ بكارتها . لم يعدْ هناك ، همسَتْ ، كما لو أنَّها قرأَتْ أفكارَه ، استخدمْتُ أشياءَ من قبل ، فقدتُ عذريّتي وأنا في الثّامنةَ عشرَ من عمري ، عندما استخدمْتُ فرشاة شعري للمرَّة الأولى . فرشاة شعركِ؟ ما زالت عندي ، قالت بنعومةٍ ، نعومة بالغة حتَّى لا تكاد تكون مسموعةً ، ثمَّ حرّكت يدَها يتأنٍ وحذرٍ شديد ، كما لو أنَّها توجّهها نحو حيوانٍ خجول ، وأغلقَتْ راحتها على عضوه ، عصرَتْهُ بقوَّةٍ ، وأغمض اَكيه عينيه . اسمي فاني قالَتْ وتنهّدَت . أنا اَكيه . أعرف . . . السّرير يصرّ كثيرًا يا اَكيه .

هرب يني من البيت عندما بدأت تتأوَّه ، ذهبَ إلى حظيرةِ الخراف ، جلسَ هناك ينتظرُ بصبرٍ ، غامر بالعودة إلى البيت بعد نصفِ ساعةٍ ، وشرع يعدُّ العجينة من أجل الفطائر .

[ليس ألطف من الاستيقاظ باكرًا هنا في البلدة . أولئك الذين يعيشون على مقربةٍ من البحر ، يطلُّ عليهم سطحه المتماوج أبدًا من نوافذ غرف جلوسِهم ، ويمكن أن يقفُوا في الشّرفة ومعهم كوب قهوةٍ ، وربَّما يكونون حفاةً ، يستمعون إلى بربرةِ بطِ العيدر المبحوحة قليلًا ، وتعقيبات النّوارس الخشنة ، ويتأملون جبَاه الغيوم الرّماديَّة التي تبقى هاجعةً في السّماء السَّاكنة ، البحر لا يكاد يتحرّك ، مجرَّد أمواج صغيرة تجرفُ معها بضعةَ

أحجار نحو أعماق البحر ، ثمَّ لا تلبث تلك الحجارة أن تعود إلى الظّهور على السَّطح لتتنفَّس . آنذاك ، لا ضرورة للتَّفكير في أي شيءٍ ، فالمرء موجودٌ فقط ، يستمعُ ، يرحّبُ بالدّنيا ، يرحّبُ بالصَّباح الصَّموت ، وقوى العالم تتحوّل إلى غبارٍ في مثل تلك اللحظات .

ينهضُ متاياس في وقتٍ مبكّر ، وحده فقط مع كوبِ قهوته ، وسيجارة ، والبحر النّائم ، وبطّ العيدر والنّوارس ، والسّماء الساكنة . إليزابيت نائمةٌ ، وهو في الخارج يملي عينَيه من البحر ، يعودُ ويدخلُ البيت ويراقبُها وهي نائمةٌ ، تتنفَّسُ ويمعنُ البحر في جذبِ الحجارة عميقًا في الماء ، ينحني ماتياس فوق إليزابيت ، يمسكُ شعرها بيدِه ، ويتركُه ينزلقُ من بين أصابعه ، شعرُها الأسود ، أسود كالليل . عندما تكونُ نائمةً يغدو كلُّ شيء أكثر سلاسة ولكن أيضًا أكثر تفاهة . يمضي إلى غرفة الجلوس ، يعثرُ على قصاصةِ ورقٍ ، يخطّ لها كلامًا ما ، يفعل هذا أحيانًا ، تستيقظُ بعد ذهابه إلى العمل وتجدُ الملاحظة الصّغيرة ، ربَّما في صحن الزّبدة ، في درجِ لوازم المائدة ، في فردةِ حذائها ، أو مكتوبة بقلم التَّعليم على مرآةِ الحمَّام : أفعلُ شيئَين في الحياة - أتنفّس وأفكّر فيكِ . تنظيفُ آثار قلم التَّعليم من على المرآة يمكن أن يستغرقَ وقتًا ، لكن لا بأس لأنَّ الرَّسائل المهمَّة ، تلك التي تحتوي على ضرب من الحقيقة ، على نوعٍ من الجوهر ، الجميلة في يأسها ، يجب ألّا تُسلَّمَ بطريقةٍ تسمحُ بأن تمحى بسهولةٍ . أفعلُ شيئين - أتنفّس وأفكّر فيكِ . هذا حقيقيّ للغاية ، وفي الوقت نفسِه مجرّد هراء ، أو على الأقل مبالغة مُحبّبة . فماتياس يفعلُ أمورًا كثيرةً ، يهتمُّ بالمستودع ، وهو وسولرون روح الحياة الاجتماعيَّة في البلدة ، هناك دائمًا نشاطٌ من حوله ، وأحيانًا يتسلَّم رزمًا خاصَّةً من صديقه ذاك ، عالم الإنسانيَّات والذي قد يأتي لزيارتنا عمَّا قريب ، ستميّزونه حالما

يظهر ، يقول متاياس : لويس أسودُ البشرة ، ودائمًا يعتمرُ قبّعةً سوداء كبيرة ويلبس سترةً صفراء . أحيانًا يسأله أحدٌ ما ، وأنت سعيدٌ لأنّك عدْتَ إلى هذه البقعةِ النّائيةِ؟ وعن هذا السّؤال يجيبُ : يمكن تقريبًا أن يعتادَ المرءُ على أي شيءٍ لعين ، المنافي للمنطق يصبح وضعًا طبيعيًا ، والعكس صحيح .

هو في أغلبِ الظّن مصيبٌ ، فنحنُ يمكن أن نعتادَ على أي شيءٍ ، على الأحلام باللغةِ اللاتينيَّة والأشباح . الفلكيّ يعيشُ حياتَه خارجَ نطاق حياتِنا اليوميَّة ، هو وحده والسّماء ، هو وحده والليل ، هو وحده ورسائل لا تُحصى باللاتينيَّة تأتيه من أنحاء العالم . لطيفٌ أنَّ يكون لدينا في البلدة شخصٌ غريب الأطوار ، فهذا يشحنُ وجودَنا بالحياة ، لكن لعلّه ليس غريبَ الأطوار حقًا ، إنَّما هو الوحيد صاحب التَّفكير العقلانيّ ، مع حسّ بالمسؤوليَّة وفطرةٍ سليمةٍ . بيد أنَّنا لا ندري ما يمكن أنْ نقولَ عن ابنِه ، ابنه الذي حطّم كمانَه على رأس زوج هاربا ، بعد أنْ لكمَ الأخيرُ دافي مرَّتين وأطاح به أرضًا . جرى هذا في تيكلا ، وإليزابيت كانَتْ قدِ اندفعَتْ ملوّحةً بمقلاةٍ عندما ضحَّى دافي بكمانِه ، والآن علينا أن ننتظر ونرى ما سيحدثُ . هل ستتركُ هاربا زوجَها من أجل دافي مصطحبةً طفلَيها معها ، هل سيكونُ دافي قادرًا على تحمّل هذه المسؤولية ، وهل سيكونُ قادرًا على التَّحمل إذا لم تشأ أن تكونَ معه وبالتَّالي ترحلُ ، مفسحةً المجال لصدفةٍ من الصّدف كي تجرفَها بعيدًا عن البلدة ، أم تراه سيكتفي بجلبِ كمانٍ جديدٍ لنفسِه؟ الحياةُ مفعمةٌ بالأسئلة ، لكن ليس بالأجوبةِ . من النَّاحيةِ الأخرى ، جيّدٌ أنْ يستيقظَ المرء باكرًا في البلدة ، يستيقظ على عالم مألوف حيث كلّ شيء تقريبًا في مكانِه ، والحصى والحجارة تُجرَفُ إلى أعماق الماء ثمَّ تعود إلى الظّهور على السّطح لتتنفّس .

يسلك متاياس الدَّرب نفسَه إلى العمل . صعودًا على المنحدر بعد تيكلا ، بعد مكتب المفوض ، والمركز الاجتماعيّ ، ومكتب البريد ، وهو يرتدي معطفَه الرّهباني ، وهناك في بيتهما هي نائمة تتنفَّس ، شعرُها بلون الليل تقريبًا . عندمَا يغطّي متاياس رأسَه بقلنسوةِ المعطفِ ، يشبه الرَّاهب ، أو ربَّما يشبه قردًا ، بسبب مشيته المتبخترة . يظهر في المستودع قبل نصف ساعةٍ أو ثلاثة أرباع السَّاعة من وصول دافي وكيارتان ، يشعلُ الضَّوء في مكتبه ، وفي منطقة الاستقبال والمخزن ، اللمبات هناك تسطعُ على الصَّليب والأرضيَّة المكسورة في الزّاوية الشّماليَّة الشّرقيّة ، يذهب إلى تلك البقعة ويقول مرحبًا ، يردّد بضعَ كلماتٍ عن الجو والسّياسة ، عن أي شيءٍ ينبض في قلبه .

بعد فترةٍ قصيرةٍ من تسلّمه العمل في المستودع ، علّق متاياس خريطةً كبيرة تتضمَّن العالم في قاعة الاستقبال ، وقال إنَّها تذكّرنا بأنَّنا جزءٌ من كلٍّ ، ونحن نستمتعُ بالنَّظر إلى تلك الخريطة ، غير أنَّه من المذهل كم تبدو أوروبا صغيرة ، سويسرا على سبيل المثال لا تكادُ تبدو قابلةً للتَّمييز ، على الرّغم من احتوائها على بحيراتٍ وجبال شاهقة . جاء غايي إلى المستودع ومعه خريطةُ أوروبا ، خريطةٌ جميلة وواضحةٌ ، وطلب أن تُعلّق إلى جانب خريطة العالم – لإعادةِ الأمور إلى نصابها ، كما صاغَ كلماته . لكنَّ ماتياس تجاهلَ طلبَه وعوضًا عنها علّق خريطةً كبيرةً تمثّل مقاطعتنا . لكن ، ليس العالم فقط ومنطقتنا ما ينتظرنا في المستودع ، إذ على منضدةِ البيع توجدُ كومةُ بطاقاتٍ بريديَّةٍ اشترَتْها إليزابيت بكميَّاتٍ كبيرةٍ عندما أمضَتْ هي ومتاياس عطلةَ صيف في ألمانيا وجمهوريّة التّشيك . يشجّعُ متاياس ودافي وكيارتان الزَّبائن على أخذِ بطاقةٍ إلى البيت وعرضِها في مكانٍ بارز ، على الثّلاجة مثلًا . البطاقاتُ البريديَّةُ متماثلةٌ كلّها ، صورةٌ

ملوَّنةٌ تُظهر قرودَ الثَّلج اليابانيَّة مغمورة إلى أعناقِها في ينبوع حارّ ، ورؤوسُها فقط فوق الماء . تلجأ القرودُ إلى ذلك الينبوع عندما تتدنَّى درجة الحرارة ، تكمنُ هناك أيَّامًا ، لا يظهرُ منها سوى رؤوسِها ، وحوالَيها من جميع الجهاتِ عواصفُ وصقيع ، الجوعُ وحده يضطرّها إلى الخروج من الماء ، ثمَّ تعودُ إلى دفءِ الينبوع حالما تملأ بطونها . لا يسأمُ متاياس أبدًا من توضيح أنَّنا في الواقع مثل تلك القرود ، الاختلافُ الوحيد هو أنَّنا لا نحتاج مطلقًا إلى الخروج بحثًا عن الطّعام ، فوسائلُ الرَّاحة متراكمةٌ من حولنا ، وتقريبًا تكاد تطمر رؤوسنا . في أحد الأيَّام ظهر الفلكيّ في المستودع وأخذ عشرَ بطاقاتٍ بريديَّة ، مفصحًا أنَّه يريدُ إرسالها إلى زملائه في الخارج ، سيكونُ من المشوّق أن نعرف ماذا كتبَ للمرأة الهنغاريَّة ، ترى كيف نقولُ أرغب فيك باللاتينيَّة؟ ضحك الفلكيّ كثيرًا لمَّا رأى صورة القرود ، إنَّه لأمرٌ جيّدٌ أن يضحكَ المرء ، وأحيانًا يتعذَّر وصف كم هو جيّد . بيدَ أنَّ الحياة تمضي في كلِّ اتّجاه ، ثمَّ تنتهي في منتصف جملةٍ ، وفي بعض الأوقات لا يكون هناك شيءٌ أفضل من الاستيقاظ باكرًا في الصَّباح ، والاكتفاء بتأمّل سطح البحر والسّماح للزَّمن أن يمرّ .

البحر ، وكوب قهوةٍ ، وبربرة بطِ العيدر ، وحجارة الشَّاطئ تُجرف نحو أعماق الماء ، ثمَّ تصعد إلى السَّطح لتتنفَّس . أفعل شيئَين - أتنفَّس وأفكّر فيكِ . ما زالَتْ في جعبتنا حكايةٌ أخرى أخيرة لنرويها ، أو بالأحرى ، مصيرٌ معيَّن لنتتبعه إلى نهايته ، أحداثٌ وقعَتْ في الرَّبيع والصّيف قبل أنْ تقتلعَ إليزابيت حروفَ مؤسَّسة النَّسيج ، وقبل مجيء آكيه إلى البلدة . نحن لم نهتمَّ بذكر هذه الحكاية وفق ترتيبها الصَّحيح ، أو لم نقلق حيال ذلك . حكاية واحدة أكثر ثمَّ هي النّهاية . . . أو ربَّما لا . . .]

أي نوع من عالم قذر سيكون هذا من دونها

1

ثوريذر طويلة ومتينة البُنية ، هي تردّ على الهاتف في العيادة الصّحيّة ، ترحّب بالمرضى ، توزّع الأدوية في الصّيدليّة ، تنظّم مواعيد الطّبيب أوربيورن ، تلطّف أجواء الممرّضة غوذريذر التي تعاني من النّزوع إلى الاستسلام للكآبة ، إلى الانغماس في اليأس – ومن ثمَّ لا تكاد تقدر على مواجهة أيّامها . تتمتع ثوريذر بطبيعةٍ مشرقة ، بنوعٍ من الفرح العميق أو ضياءٍ يبدو أنّه يتنسّم من خلال جلدها . دفءُ ثوريذر وومیضها الباطني أيقظ فينا أكثر من مرّةٍ الأمل بأنَّ الحياة ليسَتْ في نهاية المطاف بغيضةً ولعينة ، وأنَّ هناك شعاعَ أمل في هذا الوجود . أحيانًا تضحك ثوريذر بصوتٍ عال جدًا ، تضحك بشدّة ، وعندما نسمعها ترتعش أحشاؤنا .

لكنْ وراء الضّحك ، في باطن ذلك الضّوء والدّفء كلّه توقٌ متأجّج لم يعثر قطّ على ملاذٍ يؤويه . هي في الخامسة والثّلاثين ، أطول بقليل من 180 سنتيمترًا ، ضخمة التّكوين من غير أن تكون بدينةً ، بعض الرّجال يشعرون بالحرج من الرّقص معها بسبب طولها ، لعدَّة سنواتٍ عاشت بهاجس التّفكير في الابتعاد عن البلدة ، في الرَّحيل ، لتلاحق ذلك التّوق المضطرم الباطنيّ الذي بدأ يبقيها مستيقظةً في الليل ، بل حتى يعكّر صفو بهجتها . ففي النّهاية هذه بلدةٌ من أربعمئة روح فقط ، إضافةً إلى حوالي خمسمئة روح في الرّيف المحيط بها ، واحتمالات العثور على زوج ،

على رفيق ، على شريك حياة ، بالنّسبة إلى امرأةٍ طويلة وقويّة في الخامسة والثّلاثين ليست عظيمةً جدًا . قضت ليلتَين مع الطّبيب أوربيورن في بيته ، وقضى هو ليلةً في بيتها ، وتلك لم تكن علاقةً عميقة ، مجرّد وسيلةٍ لملء الوقت ، لملء الوجود . رقصَتْ مع بنيديكت ، قبّلته مرَّةً ، كان ذلك في حفلة رأس السّنة ، وفرقة «الأبناء الطّيبون» تعزف معتليةً خشبة المسرح ، ولاحقًا اجتمعا في التّعاونيَّة وتبادلا بضع كلمات ، وكذلك جلست خلفه في أحد عروض أفلام كِدي في شهر شباط . ثمَّ في إحدى أمسيات شهر آذار الغائمة والممطرة ، في حوالي السّاعة الحاديةَ عشرةَ تقريبًا ظهرَتْ ثوريذر فجأةً أمام باب بيت بنيديكت .

كانَتِ الدّنيا غارقةً في الظّلام ، ورذاذ المطر الكثيف أخمد ضوء مصابيح المزارع المجاورة ، وكان بنيديكت وكلبه وحدهما في العالم ، وقد تخلّيا عن متابعة برامج التّلفزيون المسائيَّة ، ولا ميل لأيٍّ منهما للكتب ، ولا شيء أثار اهتمامهما في المذياع ، ولا فائدة من الزّحف إلى السّرير والنّوم ، إذ بدا أنَّ المطر قد ابتلع رغبة بنيديكت في النَّوم بكلِّ ما فيه من نعمة متجدّدة . كانا يجلسان في غرفة المعيشة ، الكلبُ منبطح على الأرضيّة ، يراقب في الحقيقة سيّده وهو يفرك يديه ، ربَّما يفركهما ليشعر بدفءِ حياته . وفجأةً سُمِعَ صوت سيَّارةٍ تقترب . مصابيحُها الأماميَّة شبه خفيَّة وسط الرّذاذ الثّخين ، لكنَّها سيَّارةٌ ، سيَّارة من بين الأشياء كلِّها ، سيَّارةٌ حقيقيَّة تشقّ طريقها نحو المزرعة ، في هذه السّاعة المتأخّرة من المساء ، وأيّ سيَّارة تنبئ عن وجود إنسان ، تدلُّ على حياةٍ من لحم ودم ، على حياة من دفءٍ وصوت . قفز الكلب على قوائمه ، قام بنيديكت ببطءٍ ، تسلّل خفية إلى المطبخ ، استرق النَّظر إلى الخارج ، أيّ سيَّارة هذه؟ سأل بصوتٍ هامس ، لكنَّ الكلب لم يجب ، بل سارع إلى الوقوف أمام الباب ، يريد الخروج

ليدقّق في هذا الظّرف الطّارئ ، يتشمّم عجلات السّيارة ، يترك علامته عليها وما إلى ذلك . خدش الباب برفقٍ ليجذب انتباه سيّده إلى حقيقة أنّه يحتاج إلى فتحه ، بيد أنَّ بنيديكت بقي حيث هو يسترق النّظر من النّافذة ، لم يذهب فورًا ليفتح الباب ، أولئك الذين يفتحون أبواب بيوتهم للآخرين هم في الواقع يعلنون أنَّ منازلهم ، أنَّ بيوتهم متاحةٌ للعالم الخارجيّ . إنّ النّاس عجيبون ؛ قد يشعرون بالوحشة تنهشهم ويتوقون إلى الرّفقة ، ثمَّ عندما يأتي إليهم شخصٌ ما ، تبدو الحال كما لو أنَّ كلَّ شيءٍ ينقلب رأسًا على عقب بالنّسبة إليهم ، ولا يرومون ، أكثر من أي شيءٍ آخر ، سوى الانطواء على أنفسهم وتركهم وحدهم - هذا على الأقل ما شعر به بنيديكت . وقف أمام نافذة المطبخ وراقب ثوريذر تقترب من البيت وبيدها حقيبةُ ثياب بُنيَّة صغيرة! غمغم بنيديكت بكلام ما بينه وبين نفسه . طرقَتِ الزّائرة الباب ، ونبح الكلب . آمل أنّي لمْ أوقظْك ، قالت ثوريذر مبتسمةً عندما فتح الباب أخيرًا ، لكن ليس إلى آخره . نظر بنيديكت من فوق كتفها إلى الخارج ، تركَ عينيه تتيهان في الرّذاذ القاتم ، كان الأمر كما لو أنّهما لم يرقصَا قطّ معًا ، كما لو أنّها لم تمعن في الاقتراب منه ، ولم تلصق جسدها بجسده مطلقًا ، ولم تلامس شفتاها أذنَه اليسرى . أتسمح لي بالدّخول؟ سألَتْه ثوريذر وهي تنظر إلى الكلب كأنّها تطلب الإذن منه ، متوقّعة على الأرجح ردًا إيجابيًا من تلك النّاحية ، فالكلاب عمومًا تتقبّل الزّيارات بحسن نيّةٍ . راقبها الكلب بعينين بُنيّتين مرحتين وبصبص ذيله بحيويّةٍ ، تبًا ، اللعنة على هذا المخلوق الاجتماعيّ ، فكّر بنيديكت وهو يحدِّقُ في حقيبة الثّياب من غير أن يعرف ما يجدر به أن يقول أو يفعل ، متفاجئًا من ظهورها على هذا النّحو ، لم يجرؤ على الابتهاج من مرآها ، شبه متأكّد من أنّها ما

جاءت إلّا بدافع الشَّفقة ، أو لعلّها في الواقع تنتمي إلى طائفةٍ دينيّة ما ، وحقيبتُها تلك مكتظّة بكراريس الدّعاية . كنْتُ في طريقي إلى السّرير الآن ، قال أخيرًا ويده على مقبض الباب ، في حين راح الكلب ينظر إليهما تباعًا ، مقلبًا الأمر في رأسه ، ووجهه يضجّ بالسّعادة ، ولسانُه متدلٍ من إحدى زاويتي فمه ، ثمَّ جرى إلى فناء المزرعة ليتشمّم العجلات . بنيديكت الذي شعر أنَّه بلا حول ولا قوّة راقب الكلب بنظرةٍ منزعجة ، اسمح لي أن أدخل لعشر دقائق ، قالت ثوريذر ، وسأغادر بعد ذلك إذا كانت هذه رغبتك .

بنيديكت : حقيبة ثيابٍ من أجل زيارة لا تستغرق سوى عشر دقائق؟ أخمّن والحال هكذا أنَّكِ ستحتاجين إلى شاحنة نقلٍ إنْ كنْتِ تنوين البقاء .

*

فم ثوريذر واسعٌ نوعًا ما ، وشفتاها ممتلئتان . كان الرّذاذ المنهمر قد بلّل شعرها الأسود القصير ، تترك حقيبة الثّياب في الخارج ، وعلى مهلٍ تخلع جزمتها الجلديَّة التي يصل طولها إلى الرّكبة ، مقاس 42 . الأشياء التي تضاهي بجودتِها كوب قهوةٍ في المساء قليلةٌ جدًا ، تقول موجّهة كلامها إلى ظهر بنيديكت وهي تتبعه عبر الرّواق . بابُ المطبخ هو الأوّل بدءًا من جهة اليمين ، غير أنَّه يتحاشاه ويتقدّم إلى غرفة المعيشة . فهذه الغرفة رسميَّةٌ أكثر من المطبخ ، يفكّر بنيديكت ، أسهل ليحافظ على مسافة جيّدة بينه وبين الزّائرة . غرفة المعيشة ليسَتْ فسيحةً كثيرًا ، أو جديرةً بالملاحظة ، ولا يجلس فيها عادة إلّا ليتفرج على التّلفزيون ، أو ليستمع إلى الموسيقى أو حتى ليجلس هناك ساهمًا ، يخاطب الكلب ، أو يطالع

مجلَّة «جيلنا» . في الغرفة كنبةٌ بُنيّة ، أريكتان متماثلتان ، آلةُ تسجيل ومكبّرات صوت ، خزانة من خشب الماهوغاني كبيرة وقديمة وفوقها صفٌّ من منحوتات تمثّل أشكال مجموعة من الحيوانات ؛ خيول ، خراف ، كلاب ، فقمة وثعلب ، معظمها متآكلة وباهتة ، كانت أمُّه قد شغلت وقت فراغها بنحتها قبل ثلاثين سنةً ، ثمَّ ماتَتْ ومات أبوه الذي لم يعمّر طويلًا من بعدها . هكذا تجري الأمور في بعض الأحيان . هذه إذًا غرفة جلوسك ، تقول ثوريذر وهما واقفان جنبًا إلى جنب هناك . تجتلي الغرفة بعينيها كما لو أنَّها تفكّر في شراء البيت ؛ طول بنيديكت أقلّ قليلًا من 190 سنتيمترًا . تجلس ثورذير على الكنبة . ألن تجلسَ هنا أنت أيضًا؟ تسأله بلطف . لا ، يقول قبل أنْ يجلس على الأريكة أمام التلفزيون موليًا ثوريذر خدّه الأيسر ، ويتحتم عليه إذا أراد أن يراها أن ينظرَ إليها جانبيًا . لا تقلق ، تقول ثوريذر ، لن أبقى طويلًا ، قلتُ عشر دقائق فقط ، وعمومًا أنا أحافظ على كلمتي ، إنَّها عمليًا هوايتي المفضّلة . تبتسم . أسنانُها قويَّةٌ ومستقيمة ، شفتاها حمراوان ، لكنَّه لا يرى هذه الأشياء إلّا خطفًا من زاوية عينه ، غير راغبٍ في النّظر إليها وجهًا لوجه ، فقد تخطِئ الظّن وتعتقد أنَّه مهتمٌّ بها ، إضافةً إلى أنَّه نادرًا ما يسمح لعينيه أن تنظرا إلى الجانب بسبب أنفه البارز أمامه مثل إعلانٍ مهمّ . هو في بعض الأحيان يكرهه ببساطة ، يكره ذلك الأنف ، وإذا أبقى عينيه ثابتتين أمامه ، لا يكاد يلاحظه ، لكن حالما ينظرُ يمينًا أو يسارًا يراه ، أحمر ، في غاية القبح والضّخامة . لهذا يحرص بنيديكت دائمًا تقريبًا على توجيه عينيه إلى الأمام فقط ، وبسبب ذلك ، ومنذ وقتٍ مبكّر جدًا ، ذاع صيته بكونه إنسانًا واثقًا من نفسه ، عاقد العزم وقويّ الإرادة .

ثوريذر : أنت لا تتردّد كثيرًا إلى العيادة الطّبية .

يعود الكلب من المطر، إذ كان بنيديكت قد ترك الباب مواربًا قليلًا. الكلاب لا تهتمّ كثيرًا بالأرضيّات الخشبيّة، وهي لا تستطيع أن تجعلَ مخالبها تنكمش. يسمعان تك تك تك من الرّواق، ينصت البشريّان وينظران نحو الباب، ومنه يدخل الكلب، هو أسود الفراء وفي سنوات عمره الأولى. الكلاب غير مقيّدة بقواعدنا في التّصرف، لا تبالي بمجاملاتنا التي تميل إلى تعقيد حياتنا. يتقدّم من ثوريذر ويتشمَّمُ من فوق جواربها الرّقيقة أصابعَ قدميها، ثمَّ يرفعُ رأسه نحوها وينتظر أن تربّته. وبنيديكت خائب الأمل كثيرًا من تصرّفات كلبه. لا يقولان شيئًا. يبقيَان صامتَين. تركّز ثوريذر انتباهها على الكلب، وبنيديكت يواصل التّحديق إلى الأمام فحسب، والآن ما عاد في وسعه أن يتخيّل ما هو أفضل من الجلوس وحده مع كلبه، وربَّما يعدّ القهوة ويلعب الورق. ها قد مضَتْ عشر دقائق، يزلّ لسانه فجأةً من دون تفكيرٍ، كما لو أنَّه يخاطب جهاز التّلفزيون، مع أنَّ مخاطبة التّلفزيون ستكونُ حتمًا عديمة الجدوى، جهاز التّلفزيون ليس لديه أيّ اهتمام بنا وبالاستماع إلينا، من الجيّد أن نتذكّر ذلك قبل أن نشغله. لا بأس إذًا، لا داعي إلى أن أنتظرَ مدّةً أطول، تقول بمرح مطلق، تمسكُ رأس الكلب بيديها، تمنحُه قبلةً، تنهض، والكلب يتأمَّلها كما لو أنَّه على استعداد كامل ليهبها حياتَه. أكان هذا سيّئًا للغاية، تسأل مبتسمةً وهي تنظر في عيني بنيديكت، فيرى أسنانها من بين شفتَيها المنفرجتَين، الشّفتين اللتين همستا في أذنه اليسرى. شفتَاها حمراوان، أمَّا عيناها فصافيتا الزّرقة تحت شعرها الأسود. تخرج ثوريذر إلى الرّواق ويتبعها الكلب، وبنيديكت يتبع الاثنين، يلعنُ الكلب، يلعن عيني المرأة، يلاحظ ساقيها الطّويلتين، يمكن أن يرى هذا بوضوح عندما تنهمك في انتعال جزمتها الجلديّة

الطَّويلة . ساقاها طويلتان لكنَّهما ليستا سمينتين كما كان قد توقَّع بالنّسبة إلى امرأةٍ بمثل ذلك الطّول . أنا تقريبًا لا أتوعّك أبدًا ، يقول بنيديكت ، ويستغرق منها الأمر بضع لحظاتٍ لتدرك أنَّه يجيب عن تعليقها السّابق . أنتَ محظوظ ، تقول وهي ترتدي معطفها الأخضر ، ترتديه بسرعةٍ ولكن برزانة ، شعرُها أسودُ ومعطفها أخضر . ثمَّ للمرَّة الثّانية تنظر في عينيه ، مرَّة أخرى تطالعه العينان بزرقتِهما الصّافية . أتمنّى لكَ نومًا هانئًا ، تقول ، ثمَّ تخرج إلى رذاذ المطر ، وتمشي صوب سيَّارتها . حقيبتكِ! يهتفُ وهو يلكز الحقيبة بإصبع قدمه الكبير المختفي تحت جوربه الصّوفي . سآخذها معي في المرَّة القادمة ، تقول ثوريذر من فوق كتفها . وما سبق قطّ ولا في أي يوم أن رأى بنيديكت امرأةً بمثل طولها تغادر بيته الرّيفي . يراها تركب السّيّارة ، يسمعُ محرِّك السّيّارة يدور ، ويدرك أنَّ الأوان قد فات لقول أي شيء ، يبقى وحده مع حقيبتِها ، يراقب السّيّارة وهي تبتعد ، يراقب مصابيحها الخلفيّة الحمراء تختفي في الظَّلام ، وسط رذاذ المطر الكثيف ، وهو واقفٌ عند مدخل بيته ، وكلبه في فناء المزرعة .

2

نحتاج كلّنا إلى الذّهاب وزيارة الطّبيب من وقتٍ لآخر ، أو الذّهاب إلى الصّيدليّة ، إن لم يكن لأنفسنا ، فلاصطحاب أطفالنا ، من أجل المراجعات المتعلّقة بالصّحة والتّنمية ؛ حيث تؤخذ أوزان الأطفال ، وقياساتهم ؛ فنحن نبدأ في تصنيف أنفسنا من البداية ، نحدّد مواقعنا ضمن السّياق العام ، نحوّل أنفسنا إلى نقاطٍ في الرّسوم البيانيّة ، نُقارَن

مع المعدلات الوسطيّة ، نُلقّح حماية من كلّ شيء تقريبًا ما عدا الحزن والإحباط والموت . لم ينجبْ بنيديكت أطفالًا ، وهو الأمر الذي يندمُ عليه ، فأولئك الذين لديهم أطفالٌ يمكن أن يشيروا نحو السّماء ويقولوا لأطفالهم ، هذه الزُّهرة ، ذاك المشتري ، وبما أنّه نادرًا ما يصاب بمرضٍ ، هو نادرًا ما يذهب إلى العيادة الصّحيّة حيثُ يكون لثوريذر ذلك الحضور القويّ . لقد رقصَ معها في حفلة ليلة رأس السّنة ، وهمسَتْ بكلام ما في أذنه اليسرى ، وبعد ذلك ظهرَتْ في فناء مزرعته تحت رذاذ مطرٍ قاتمٍ جعل العالم يتيه عن نفسه . جاءَتْ ورحلَتْ ولم ير في حياته قطّ امرأةً بمثل طولها تخرج من باب بيته . لا ، مطلقًا! قال بنيديكت لكلبه في الرّبيع ، عندما بدأ الضّوء يمحو الخطّ الفاصل بين النّهار والليل ، والنّجوم قد بهتَتْ رويدًا رويدًا واختفَتْ ، وأقبلت آلافٌ من الطّيور المهاجرة تحلّق خارجةً من الأفق ، ويوناس يتسكّع في الأرض البور ومعه دفتر ملاحظاتِه ، ثمّ ينزل إلى الشّاطئ حاملًا منظاره ، وألوان الأعشاب بدأت تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى خضراء - وبنيديكت ، بنيديكت اتّصل هاتفيًا بزوجته السّابقة! اتّصل بها في تمام السّاعة الرّابعة صباحًا ، لا رياح تصفرُ ، والعالم بدا أنه آخذٌ في التّوسع . كان في فناء مزرعته تحت السّماء المشرقة ، وكان قد أسند ظهره إلى السّكون ، وراقب الحملان تولد ، أحضر لنفسه جعةً وفجأة وجد نفسه مخمورًا ، دخل بيته وذهب إلى غرفة المعيشة ، استمع إلى الموسيقى ، استمع إلى «الجبال تعهدتنا بالرّعاية» من تأليف إيغو خمس مرّات على الأقل وبصوتٍ عالٍ جدًا ، عاد وخرج إلى السّكون ، أيجدر بي أن أتّصل بلوا؟ سأل كلبه الذي لا يملك أي رأي محدّد بخصوص هذا الشّأن . أوكي ، لا بأس ، سأتّصل بها إذًا ، قال بنيديكت بعد نصف ساعةٍ . كان متفاجئًا من عدم وضوح صوته على الهاتف ، مع أنّ الأفكار

المتدافعة في رأسه كانت في غاية الوضوح ، لكنَّ الكلمات تبدَّدت عمليًا من على لسانِه أو غدت مشوّشةً ، غدت ضبابيّةً مثل ندف القطن . إضافة إلى ذلك لم تكن هي التي ردّت على الهاتف ، بل ردَّ رجلٌ ما ، طبعًا هي الآن تعيش مع أحدهم ، وقد اختار بنيديكت أن يتناسى هذه الحقيقة ، لكنَّ هذا الرّجل ، ثمَّ لوا من بعده ، الرّجل على وجه الخصوص أشار عدَّة مرَّات إلى أنَّهم في منتصف الليل ، وأنَّه قد أيقظهم ، حينها نظر بنيديكت إلى كلبه وهزّ رأسه ، لأنَّه من الحمق بمكانٍ أن يفكّرَ أي مخلوق في النّوم الآن والضّوء يتدفّق من السَّماء ، والأعشاب تتحوَّل إلى خضراء في كنف السّكون . إلّا أنَّه لم يقل هذا في بادئ الأمر ، قالَ فقط إنَّ ولادة الحملان تجري بسلاسةٍ . جيّد ، أجابت لوا ، سماع ذلك لطيفٌ يا بنيديكت . الجوُّ هنا بديع الجمال ، قال بعد ذلك ، غير قادرٍ على كبت ما يختلجُ في داخله أكثر من ذلك ، وقد وقف أمام نافذة المطبخ ، لأنَّ سلكَ الهاتف طويل بما يكفي ، والباب مشرّعٌ حتى يتسنَّى لليل أنْ يدخلَ بلا معوِّقات ، بابي مفتوحٌ على وسعه ، قال ، ليتني أستطيع إزالة السّقف من بيتي ، من ذاك الذي فكّر في وضع سقوفٍ على البيوت ، على أي حال ، عندما يكون الليل . . . هكذا ، قال ، وبيده اليمنى قام بعمل حركة كاسحة في الهواء لتأكيد وجهة نظره ، وحدث أن وجد نفسه راضيًا كثيرًا عن تلك الحركة فكرَّرها . لسوء الحظّ لم تكن لوا معه لترَاها ، هناك صوتُها فقط - يمكن أن يكون الليلُ مخادعًا جدًا - وعدمُ وجود لوا أمامه يجعل حركةَ يده الرّائعة تلك عديمةَ الفائدة عمليًا ، بل بلا أيّ فائدةٍ على الإطلاق ، ولوا سألته ، أأنْتَ سكرانٌ يا بنيديكت ، ثمَّ أجابت هي عن سؤالها : نعم ، أنتَ سكران . لا ، ليس أكثر من صفيحتي جعة أو ثلاث صفائح ، قال بهدوءٍ ، متجنّبًا بعنايةٍ النّظر إلى صفائح الجعة التي كدّسها

على شكل برجين قرب حوض غسيل الأطباق ، ستّ صفائح سعة كلٍّ منها نصف لتر ، وأيضًا متحاشيًا التّفكير في جرعة الفودكا التي تناولها لتروق له فكرة الاتّصال بلوا . بنيديكت عزيزي ، قالت لوا ، أو بالأحرى صوتها ، لأنَّ الشّخص الذي يتحدَّث معه المرء عن طريق الهاتف هو حتمًا ليس حاضرًا هناك بالكامل . عيناه لا تكونان مرئيَّتين ، ولا أريجه ، وأيضًا يفتقد إلى كتلة جسم ، وفقًا لقوانين نيوتن . حدَّق بنيديكت ، لم تكن الليلة مشرقة تمامًا كما تراءى له ، كلبُه نائمٌ ، والسّماءُ نأَتْ بنفسِها قليلًا بعيدًا عن الأرض ، خلّفتها وحدَها في الفراغ ، الأرضُ التي ما انفكّت تستدير ببطءٍ شديد ، وحدها في الفضاء ولا شيء تتمسّك به . بعدئذٍ ما عاد هناك أيّ أحدٍ على الهاتف ، باستثناء بنيديكت ، هو طبعًا ما زال يحمل سمَّاعةَ الهاتف ، أمَّا ذهنُه فكان قد شرد ، أقالت إلى اللقاء ، أقالا أي شيءٍ آخر؟ نعم ، قالا كلامًا ما ، لكنَّه لم يتذكّر ما هو ، قالت لوا نَمْ جيّدًا وهو في الغالب أجاب نعم سأفعل ، غير أنَّه بالتّأكيد لم يذهب إلى الفراش ، سريره لم يكترث بالحصول على رفقةٍ في تلك اللّحظة . مضى إلى الخارج ، جلس متّكئًا إلى جدار بيته في الفناء ، شعر ببرودةِ الليل تحطّ على جلده ، كانت الأرض مبقعةً ، نصف خضراء ونصف بنيّة ، نظر باهتمام إلى قنينة الفودكا ، وبعد ذلك استيقظ عصرًا تقريبًا حيث كان قد جلَس سابقًا ، عند الجدار ، متيبسًا ، مقرورًا ، ينهش البردُ جسمَه حتى العظام ، ما عدا ظهره الذي كان كلبه قد انبطح عليه ، استيقظ من حلم ، رأى أنَّ أحدًا ينهال على وجهه تقبيلًا ، يغرقه بقبلاتٍ لطيفةٍ حلوةٍ ، وحاول جاهدًا ألّا يفيق من نومه تمامًا ، حاول أن يشقّ جفنَيه قليلًا ليرى وجه مَن يقبّله ، ليعرف لِمَن تعود تلك الشّفاه ، لكنَّه سرعان ما استيقظ وفتح

عينيه جيّدًا ، ووجد نفسَه مستلقيًا على الأرض قرب جدار بيتِه وقرب كلبه ، والمطر ينهمر على وجهه .

3

يجبُ ألّا يخطر على بال أحدٍ أنَّ الأمور جرَتْ دائمًا على هذا المنوال مع بنيديكت ، لا ، لا ، لطالما مرّت عليه أسابيعُ وهو مجرَّد مزارع عادي فحسب ؛ رجلٌ منهمك بعمله ، مستغرقٌ في تشييد السّياجات وتصليحها ، تركيزه متمحورٌ على خرافه ، ولا شيء آخر شغل فكره سوى مزرعته ، وعلى السّماء أن تُسمِع ألحان هارمونيكتها الحزينة لشخصٍ آخر غيره . تطلَّع دائمًا إلى العودة إلى البيت في المساء ، حيث يجلس أمام التّلفزيون ، يشاهد برنامجًا جيّدًا ، أو فيلمًا مشوّقًا ، يستمع إلى المذياع ، يضع شريط تسجيلٍ أو أسطوانة . إذ من اللطيف أن يبقى المرءُ وحده ، هو وكلبه فقط ، فالحياة عندئذٍ تغدو سهلةَ الانقياد كثيرًا ، يذهبُ إلى البلدة ، يتسوّق ، يعرج على المستودع ، وغالبًا ما يبقى هناك فترةً ، حيث يلعب مع الآخرين الشّطرنج ، مباراة شطرنج بين أربعة رجال ، وأوّل من يربح ثلاثين جولةً يصبح البطل ، والجائزةُ قنينة ويسكي ، وعلى الفائز أنْ يبدأ الشّرب في منتصف النّهار ، في منتصف الأسبوع ، في المستودع . وعلى ما يظهر يبدو أنَّ مباراةَ البطولة ستكون بين بنيديكت ومتاياس . نادرًا ما يفوز كيارتان ، ودائمًا تقريبًا من باب الحظّ المطلق ، أمّا دافي فيمكن أن يكون مهاجمًا شرسًا وخطرًا ، لكنَّه سيّئ حينما تطولُ اللعبة ، واستدراجُه بإطالة اللعبة هو أفضل تكتيك لمواجهته ، إذ بعد تحريك

حجارة الشّطرنج عشرين مرّةً ، يفقد تركيزه ويسترسل في أحلامه . تلك أوقاتٌ طيّبة لهم كلّهم ، إضافةً إلى أنّنا في فصل الصّيف . جاءت ثوريذر لزيارة بنيديكت في شهر آذار ، وتركت عند عتبة باب بيته حقيبةَ أمتعة بنيّة صغيرة ، ثمَّ اختفت تحت رذاذ المطر الضّبابيّ مع مصابيح سيّارتها الخلفيّة الحمراء . أدخل بنيديكت الحقيبة إلى البيت ، ليس من أجل أيّ سببٍ آخر ما عدا الاحتفاظ بها سليمة ، كما أخبر كلبه الذي فتح فمَه ليخرج لسانه ، ثمَّ تركه يتدلّى ، عريضًا وأكثر ليونةً من أن ينطق بأي كلمة . ثمّ عادت ثوريذر ، كان ذلك في شهر نيسان ، لسنا حقًّا نروي هذا بالتّسلسل الصّحيح ، ظهرت في ضوء يوم سبت أزرق . والصّقيع قد وصلَ السّماء بالأرض ، وهذه المرّة لا مجال أبدًا لأنْ تختفي ثوريذر وسط غلالة الضّباب . كان بنيديكت قد توقّع أن تعود ، لكن بالتّأكيد لم يكن ينتظرُها . نعم ، لا بأس ، بلى فعل في الواقع ، ودرج على أن يرمق الحقيبة كلّما ارتدى معطفه أو خلع حذاءه . كلبُه أيضًا شمّها في أغلب الأحيان وهو يعاين سيده بنظرةٍ فضوليّة ، لكن بنيديكت تظاهر دائمًا بأنّه لا يفهم ، ولذا امتنع عن قول أي شيء . ثمَّ إذا بها تظهر في ضوء النّهار الأزرق ، وكثير من النّاس رأوا ذلك عندما قطعَتْ سيّارتُها التّويوتا الحمراء الطّريقَ متّجهةً إلى مزرعته . كان بنيديكت متأكّدًا من هذا ، لكنّه قال لكلبه ، ولماذا بحقّ الجحيم أهتم بما يرونه . طالت هذه الزّيارة أكثر من الأولى ، إنّما ليس على تلك الدّرجة من الطّول . ربّما استغرقَتْ نصف ساعة ، ولم يقولا شيئًا ، ولم يفعلا شيئًا يستحقُّ أن نذكرَه ، كان لديه في الثّلاجة قالبُ كعك من التّعاونيّة ، تناولت شريحة منه ، واحتسيا القهوة ، دردشَا عن هذا وذاك ثمَّ غادرَتْ . كلاهما مستاءٌ بعض الشّيء . كان يجدر بالضّوء الأزرق الجليديّ أنْ يعرض عليهما ما هو أكثر ، فكّرت

ثوريذر وهي تنطلقُ بسيّارتها ، وبنيديكت شعر بالسّخط ، من غير أن يدري على وجه التّحديد لماذا ، خرج إلى الحظيرة التي بدَتْ بطريقةٍ ما مهجورة ، رتّب بعض الأشياء فيها ، اشتغل بجدّ عظيم على أمل أن يترك النّهار شيئًا مرئيًا خلفه . وعندما ذهب في المرّة التّالية إلى المستودع قوبل بثلاثة وجوهٍ مبتسمة ؛ الأخبار هنا تنتشرُ بسرعةٍ بالغة .

كانت الزّيارة الثّالثة في شهر أيّار ، قُبيل المساء ، طقسٌ بارد ، مطرٌ منهمر ، وكلُّ شيء لا يعدو كونه مستنقعًا عظيمًا ، وإخراج النّعاج مع الحملان مستحيلٌ ، على الأخص النّعاج التي على وشك الإنجاب . ولم يكدْ بنيديكت يصدّقُ أذنيه عندما أخذ كلبه ينبح خارج بيت الخراف ، وبعد ذلك بفترةٍ وجيزةٍ فُتح الباب ومنه دخلَتْ ثوريذر بطولها الفارع وعليها سترةٌ مَطريّة وجزمة متينة خاصّة بالمشي في مثل هذه الأجواء ، لأنَّ الجوَّ لم يكن قطعًا مناسبًا للجزم الجلديَّة . اجتاح بنيديكت شيءٌ من الغضب في بادئ الأمر ، على الرّغم من أنّه لم يرغب في الاعتراف ، لنفسه أو لكلبه ، بأنّه كان يترقّب زيارتها الثّالثة ، وتخيّل أنَّ هذه الزّيارة ستأخذُ مجراها في يوم رائق ، تحت سماء صافية ، إذ من الأسهل التّحدّث إلى النّاس الذين لا يعرفهم المرء حقّ المعرفة وهو وسط الأعشاب لا بين الجدران ، وإذا لم تجرِ الأمور كما ينبغي يمكن دائمًا التّمسّك بعمودِ سياج . لكن ، هناك وقفَتْ ، والمطر يطرق بقوّةٍ على ألواح الحديد المتموّجة التي تكسو المبنى ، حافظ الكلب على رفقتها في حين واصل بنيديكت العمل ، فهو رجلٌ مشغول ، كما يمكنها أن ترى . ولا يستطيع التوقّف ولا للحظة . وهكذا تشاغل قدر الإمكان بأي شيءٍ وقعت عليه يداه ؛ جزئيًا ليستوعبَ انزعاجه ، وأيضًا لأنّه لا يفهم نفسه حقًا عندما يتعلّق الموضوع بهذه المرأة التي جلسَتْ على إحدى سكك عنابر طعام الماشية ، والتفتت

تخاطب الكلب ، تاركةً خروفًا يتشمّم أصابعها ، ومبتسمة . طبعًا فكّر فيها ، وتساءل ما الذي تسعى إليه ، ما الهدف من زياراتها ، أهي ببساطةٍ مهتمّة به؟ بدا له أنَّ ذلك مستبعدٌ جدًا ؛ مزرعته ليست كبيرة كثيرًا ، والنّهر الذي يجري خلالها لا تكاد تسبحُ فيه ثلاث سمكات في اليوم ، وهو مرارًا وتكرارًا تفحَّص نفسه بدقّةٍ أمام المرآة ، عاريًا أحيانًا ، ورأى كم هو طويلٌ ونحيل ، عظم ترقوتيه في غاية البروز ، وتفّاحة آدم أكبر بكثيرٍ من رقبته الهزيلة ، وغالبًا ما تراءى له أنَّها تعيش حياةً خاصّةً بها ، مثل قارضٍ صغير أو شيء ما . شفتاه رقيقتان ، وعندما يضحك يبدو كما لو أنَّه يزمجر ، ثمَّ هناك أنفه ، ربّاه ، أيّ شيءٍ في العالم يمكن أبدًا أن يسوّغ مثل هذا الأنف! عندما لم تكن ثوريذر تنظر مدّ يده وتحسّسه - تيقّن أنَّه ملأ راحة يده ، ويدا بنيديكت ليستا بالتّأكيد صغيرتين . من المستبعد حتمًا أن يكون مظهرُه قد جذبها ، هي طبعًا قبّلته في حفلة رقص رأس السّنة ، بيد أنَّ ذلك لم يعنِ أيَّ شيء بشكل خاصّ ، كانا قد عاقرا المشروب المُسكِر ، وهي قالت شيئًا عن عينيه ، لكن على الأغلب لأنَّها وجدتهما حزينتين . من غير الممكن أن تكون شخصيّته ما جذبها . زوجته لوا لم تكفّ عن التّذمر منه ، لأنَّه لا يبذل لها إلّا القليل من نفسه ، ويمكن أن تمرّ أيّام بحالها من غير أن يكون له حضور في البيت ، ثمَّ يأتي المساء ، ولوا قد حضّرت له عشاءً طيّبًا وتريد أن تدردشَ ، لكن لا تكاد تكون هناك كلمة واحدة يمكن انتزاعها منه ، فهو لطالما تحصّن بالصّمت ، دسّه تحت رأسه واستخدمه كوسادةٍ . أنا نكِدٌ ، فكّر بنيديكت ، وثوريذر ليست من النّوع الذي لديه نقطة ضعف تجاه النّكدين - لا ريب في أنَّها جاءت إلى هنا بدافع الشَّفقة ، ولا شيء آخر . ثارت ثائرة مزاجه ، الشّفقة مقرفة ، يفضّل أن تكرهه ، هذا أكثر صدقًا . يمسك عتلةً ، على الرّغم من عدم

قيامه بعمل يستوجب استخدام تلك الأداة . تقف ثوريذر ، تتقدَّم نحوه ، طريقتها في المشي رائعة ، يزعجه الاعتراف بذلك ، تتقدَّم مباشرةً بلا جهد ، بسهولة ، أنتَ بالتَّأكيد مشغول جدًا ، تقول مع ابتسامةٍ ، تقول بتفهّم ، أولئك الذين يملكون مثل تلك الأسنان البيضاء المستقيمة يجب ببساطةٍ أن يبتسموا دائمًا . يرفع يده ناسيًا أمر العتلة ، يمسكها بطريقةٍ تبدو كأنَّه ينوي ضربها بها ، يسارع إلى وضعها على الأرض بشيءٍ من الرّعب ، لماذا أتيتِ ، بدافع الشَّفقة؟ يسألها بنبرةٍ فظّة ، وأيضًا بمرارةٍ غير ضروريّةٍ ، لم يقصد أن تخرج منه الكلمات على هذا النّحو ، لكن ، وهو يطرح عليها سؤاله ، بدا له أنَّ أحدَ عروقه قد انفتح في داخله . كفّت عن الابتسام ، بدت خجلةً ، مذنبة ، أو لا ، هذا تعبير وجهٍ مختلفٌ ، يشدّد بنيديكت قبضته على غضبه ، يقول ، باذلًا الجهد في محاولةٍ منه لمحو المرارة من صوته ، لا أطيق الشّفقة . أكرهها ، ومن الأفضل لك أن ترحلي ، وخذي تلك الحقيبة البُنيّة معك ، إنَّها عند الباب ، ثمَّ يعود ويمدُّ يده نحو العتلة كما لو أنَّه بذلك يؤكّد كلماته ، لكن ماذا يتهيَّأ له أنَّه سيفعل بتلك العتلة اللعينة ، لا بأس ، ليتمسّك بها فقط إلى أن تغادر . لكنَّها لا تُظهر أي بادرة تدلُّ على الرَّحيل ، ما زالَتْ واقفةً هناك أمامه ، فارعة الطّول وبشعر صبيانيّ قصير ، ومتماسكة . وفي وسع بنيديكت أن يشعرَ بحضورها ، لسوء الحظّ ، يبدو له هذا مثل ضغطٍ طفيف على جلده ، يغضّ طرفه وينظر إلى العتلة . لعلّي جئت إلى هنا بدافع الشّفقة على نفسي ، تقول ثوريذر بهدوءٍ كامل ، ليته فقط يستطيع التحدّث هكذا ، بمثل هذا الاتزان ، يحوّل عينيه فجأةً من العتلة إلى وجهها ، النّظر إلى وجه امرأة أكثر إشاعةً للراحة من النّظر إلى عتلة . هو مذهول ، ليس من الاختلاف بين وجه امرأة وعتلة ، بل من كلماتها ، يكاد يهمّ برفع

يده ليمسك رقبته من الخلف ، كما يفعل كثيرًا عندما يرتبك ، ثمَّ يتذكّر العتلة ، أنا حقًا لا أدري ماذا أفعل بهذه العتلة ، يقول بصوتٍ محرج .

هكذا جرَتِ الزّيارة الثّالثة .

على الرّغم من المطر المنهمر والرّيح ، خرجا من بيت الخراف وسارا بتؤدةٍ إلى البيت الرّيفي ، تبادلا القليل من الكلام في هذه الأثناء ، فالكلمات في مثل هذه الحال إمَّا من الصَّعب العثور عليها أو لا حاجة لها ، لم يكن بنيديكت متأكّدًا كليًا ، لكنَّه شعر أنَّ المشي إلى جانبها لطيف ، واجتاحه بعض الخوف من هذا الشّعور ، مع أنَّه أفلح في سؤالها عن سبب جلبها حقيبة الأمتعة البنيَّة الصّغيرة في زيارتها الأولى . أنا أتمتّعُ بحسٍّ فكاهيّ عجيب ، أجابت ، هذا إضافةً إلى أنّني أردْتُ القيام بشيء . . . بشيء غير عقلانيّ ، بشيء سخيف ، لأنّني في بعض الأحيان أعتقد أنَّ هذا هو التّصرف الوحيد الذي يمكن أن يفعله المرء ، وضّحت ثوريذر ، قبل أن تقول إلى اللقاء فجأةً ، بلا أي كلمةٍ أخرى تفسّر ما عنته . ابتعدت ، ولم يبقَ هناك إلّا ابتسامتها تحت المطر ، وشعرها الأسود الصّبياني . وبعد ذلك اختفَتْ . آنذاك فقط انتبه بنيديكت إلى أنَّه نسي إخبارها بعزمه على السَّفر إلى لندن بعد أسبوعين ، لكنَّه اكتفى بهزّ رأسه وقال لنفسه ، للمطر ، أو لكلبه : كما لو أنَّ ذلك يهمّها .

مرَّ أسبوع ، مرَّ أسبوعان ، هكذا تمرُّ الأيَّام ، يمرّ الوقت ونحن نكبر في السّنّ ، أو كما يقال في قصيدة ، أيَّام تأتي أيَّام تروح ، ثمَّ نموت . فقط في وضعنا الرّاهن هذا ، ليست الأمور دراميَّةً كثيرًا أو شاعريَّةً ؛ تأتي الأيَّام ، تروح الأيَّام ، وبعد ذلك يسافر بنيديكت إلى لندن . لعلَّكم متفاجئون لأنَّ هذا المزارع الوحيد ، صاحب الأنف الكبير والمتقوقع على نفسه ذاهبٌ إلى

لندن ، وتتساءلون لأي سببٍ ، وماذا عن خِرافه ، ماذا عن كلبه ، وهل يذهب القرويّون السّذج أمثاله إلى ما هو أبعد من ريكيافيك ، أو على أكثر تقدير إلى أوسلو؟ لا بأس ، كما ترون ، تصل أشياء كثيرة في البريد ، ونحن متأكّدون من أنّكم على علم بهذا . تقوم فيغديس من بروساستاذر بتوزيع البريد في منطقة بنيديكت ، هي إحدى جنود مشاة أوغستا ، مع أنّه من السّخف أن ندعوهَا جنديّ مشاة . توزّع فيغديس البريد بسيّارتها اليابانيَّة «إس يو في» وتستمع إلى المذياع ، وعندما تسلك طريقها بين المزارع تقود السّيّارة ببطءٍ شديد وتتسلّى بالاستماع إلى قصّةٍ في المذياع ، أو إلى حكاية من شريط تسجيل ، وهي تقضم حلوى عرق السّوس الزّرقاء التي تستهلك منها ثلاث علبٍ في اليوم لتبقى بمنأى عن التّبغ . وحدث أن تركَتْ فيغديس نشرةً من وكالة سفريّات في صندوق بريد بنيديكت ، وهذا طبعًا ليس شيئًا فريدًا ، أيّامنا مكتظّة بنشرات وكالات السَّفر الجميلة ، شواطئ مشمسة ، مناطق البحر الكاريبي ، مدن كبيرة ، كلّها تسقط في صناديق بريدنا ، تذكّرنا بتنوّع كوكبنا ، تجلب لأيّامنا الرَّتيبة ألوانًا مشرقة ، تعدنا بسماء جديدة مقابل بطاقات الائتمان التي نملكها ، ومن الصَّعب مقاومتها على المدى الطّويل . في بادئ الأمر لم يخطر مطلقًا على بال بنيديكت أن يتفحّص النَّشرة ، وضعها من غير أن يقرأها في حمّالة الصّحف ، ثمَّ بعد يومين ، والوقت يتقدَّم بفتور ، مجرجرًا نفسه بمشقَّة تحت سماءٍ رماديَّة ، مثل شيخ هرم عاجز أدرك أنَّ زمنه بات قصيرًا . ألقى بنيديكت نظرةً على ساعة حائط المطبخ ، وراوده هاجس بأنّها لن تلبث أن تتوقّف وتفسح المجال إلى الأبديَّة بلا جهد . أبديَّة ستكون مثل هذا : هو جالس إلى طاولة المطبخ ، ولا رفقة معه سوى كلبه ، وكلبه نائم . عندئذٍ فقط لاحظ النَّشرة في حمّالة الصّحف ، بين نسخ مقروءة من صحيفة الصّباح

اليوميَّة . على الغلاف كُتبت كلمات «مدن العالم الرّائدة» ، وهي وفقًا للنشرة يبلغ عددها اثنتي عشرة مدينة ، طبعًا لم يأت ذكر ريكيافيك فيها ، ناهيك عن بلدتنا بما أنَّها ليسَتْ مدينة ، ولا ريكيافيك كذلك ، بالمعنى الدّقيق للكلمة . تفحّص بنيديكت المدن ، تريّث عند لندن ، تتعذّر معرفة السّبب ، فهو لا يهتمّ بكُرة القدم وإلَّا لكان هذا تفسيرًا معقولًا جدًا . حدّب ظهره فوق النَّشرة ، دقّق النَّظر في صورتَي شارعين من شوارع المدينة ، أحدهما شارع أوكسفورد ، والثاني سوق مفتوحة في الهواء الطّلق ، وفيه امرأةٌ أو شابَّةٌ تمسك بيدها قطعة فاكهة . من المحتمل أنَّها إجاصة ، تمتمَ بعد أنْ جلبَ عدسته المكبّرة ، وهي ربَّما في الخامسة والعشرين من العمر ، ليس أكبر بكثير ، شعرها أشقر ، معقود على شكل ذيل حصان بطريقةٍ مبهجة للعين ، تراءى له أنَّها فتاة لعوب ، تلبس فانيلة بيضاء وشورت دينم أزرق ، وتنتعل صندلًا بلا جوارب . ركبتاها منمنمتان «مثل القُبل» ، تعبير وجهها رصين ، وكتفاها حسنتا الشّكل ، وبدت كما لو أنَّها تنتظرُ أحدًا . ربَّما تنتظرني أنا ، غمغم بنيديكت وهو جالس إلى طاولة المطبخ . لبث يُملّي عينَيه من هذه المرأة أو الشَّابة بضعة أيَّام ، بوساطة العدسة المكبّرة أو من دونها ، ثمَّ حجز تذكرةً عن طريق الهاتف ، رحلة تستغرق خمسة أيَّام ، من يوم الثّلاثاء إلى يوم الأحد .

4

ينطلق بنيديكت في السّاعة الثّالثة من صباح أحد أيَّام شهر حزيران ، والمطر هو الشَّيء الوحيد الذي ما زال صاحيًا . يقف كلبه في فناء المزرعة

يراقب السَّيَّارة تبتعد ، إحدى أذنيه متدليةٌ ، غير قادر على فهم سبب عدم مرافقة سيّده والذّهاب معه . ينظر بنيديكت في المرآة الخلفيَّة ، لا يمكن أن يصطحب المرء كلبه إلى لندن طبعًا ، يفكّر ، حتى ولو كان الكلب سيستمتع بذلك ، لا يمكن أن تجولَ عينا كلب بُنيّتان من الرّيف الأيسلنديّ في قلب لندن . كان بنيديكت قد ملأ أوعيةَ كلبه بالماء والطّعام ، وسيهتمُّ به هيمير وغوستا اللذان يعيشان في الجوار ، ولا يبعدان عن بيته إلا مسافةَ مزرعة واحدة فقط . يقود بنيديكت سيَّارته عبر المزارع المستغرقة في النّوم ، تقوم ماسحات الزّجاج الأماميّ بعملها من غير أنْ يوليَها بنيديكت أيّ انتباهٍ ، يقود سيَّارته خلال البلدة ، نحن كلّنا نغطّ في نوم عميق ، والأحلام تخيّم على سقوف بيوتنا . لا يسلك بنيديكت الطّريقَ الأقصر ، عوضًا عن ذلك ينعطف نحو دار التّمريض ، يخفِّف من سرعة سيَّارته وهو يمرُّ ببيت ثوريذر ويقول بصوتٍ عال ؛ أنا في طريقي إلى لندن ، سأغيب مدَّة خمسة أيَّام ، ثمَّ يُقلع بسرعةٍ كبيرة ، وتكون سرعته قد وصلت إلى 90 كيلومترًا في السّاعة عندما يتجاوز بيت الفلكيّ الذي ما زال ربَّما مستيقظًا حتى ولو أنَّ النّجوم ستكون مستعصيةً على الرّؤية من وراء قطرات المطر والضّوء .

أمام بنيديكت ما يزيدُ قليلًا على ساعتين يمكن أن يقضيهما في السّوق الحرَّة ، يتسكَّع من متجرٍ إلى متجر ، يشتري بعض الأشياء بطريقة عشوائيّة ، للتَّظاهر بشكلٍ أساسيّ أنَّ لديه ما يحتاج إلى فعله . ثمَّ يجلس ليتناول شطيرةً ، ويشرب قدح جعة ، يخرج بطاقةً بريديّة من حقيبته ، ينظر للحظة خارج النّافذة إلى الأرض المستوية شبه الجرداء ، نديّة من رذاذ المطر الذي تعمل فيه الرّيح تقطيعًا ، يعود ويمدّ يده إلى حقيبته ويخرج قلمًا ، يكتب : ها أنا أجلس هنا . نقطة . ينظر مطوّلًا

إلى تلك الكلمات ، تلك الكلمات الغبيّة . واضح أنّه جالسٌ ويكتب بطاقةً بريديّة ، فلماذا الإشارة إلى ذلك؟ ها أنا أتنفّس ، يضيف ، على سبيل الدّعابة . نقطة . ثمَّ يمزّق البطاقة البريديَّة إلى نصفين . أيّ سخافة هذه ، كتابة بطاقة بريديَّة ، لأي سببٍ ، ولِمَن؟ يرجع بظهره إلى الوراء ، يرشف جعته ، ينهض ، يذهب ويشتري بطاقةً أخرى ، أحيانًا يُقدِم المرء على تصرفات معينة من غير أن يدري لماذا ، يعود ويجلس ، يفكّر للحظاتٍ طويلة ، يعاين الطّبيعة غير المضيافة ويكتب : أنا كما ترين في طريقي إلى لندن ، يفكّر بضع لحظات أكثر ، يضع علامة تعجّب بعد هذه الكلمات ، ثمَّ يندم فورًا ، هذا بطريقةٍ ما يجعل الجملة ضيّقة الأفق ، كما لو أنَّ الذَّهاب إلى حيث يذهب آلاف الأيسلنديين سنويًا حدث عظيم . يشخر ، ينهض ، يسرع ليشتري بطاقة بريديَّة أخرى ، يكتب اسمها ، ثمَّ ، أنا كما ترين في طريقي إلى لندن . نقطة . من دون علامة تعجب . بعد ذلك يحتاج إلى أن يورد تفسيرًا ، فيكتب : العالم في غاية الاتّساع . نقطة . ثمَّ بعد مزيد من التّفكير العميق يغيّر النّقطة إلى فاصلة : وبطبيعة الحال يجدر بي أنْ ألقيَ نظرةً على جزء منه . هذا حسنٌ ، يميل بظهره إلى الوراء ، راضيًا أخيرًا ، يرشف جرعةً كبيرة من الجعة ، لقد أجهد نفسه ، وها هو يشعر بتأثير ذلك بعض الشّيء ، وهذا شعورٌ لطيف أيضًا ، يقرأ الجملة ثانيةً ، أسلوبها في غاية الطّلاقة ، عالميَ الأفق ، وهو على أيّ حال قد سبق له أنْ سافر إلى الخارج مرَّتين ، إلى دبلن أوَّلًا ، ثمَّ خلال إحدى العطلات إلى «أرض مشمسة» - تلك ليستْ سفرةً إلى مكان محدّد في الواقع ، بل إلى شاطئ ، وفندق . كانت سفرةً رهيبة ، الشّمس لا تطاق ، وثرثرة رفاق السّفر المتواصلة أسوأ من كلّ شيء ، نعم ، سافر مرَّتين ، وفي كلتا المرَّتين مع مجموعة أناس من منطقته .

أمَّا هذه المرّة فهو يسافر وحده ، وهذا جيّد ، على الرّغم من أنَّه يفتقد كلبه . الجملة التّالية : يوجد في لندن جسر البرج ، وكذلك مبنى البرلمان المشهور ، وأشياء أخرى لا تحصى ، هناك الكثير ممَّا يمكن رؤيته . نقطة . تُمزّق البطاقة البريديَّة إلى نصفين . ما عادت أمامه سوى خمس وأربعين دقيقةً قبل انطلاق رحلته ، فرغَتِ الجعة التي يشربها ، ماذا بعد يمكن أن يُقال ، ومن جديد : لماذا يكتب بطاقة بريديّة؟ لأيّ غاية ، ما الحقّ الذي يخوّله إرسال بطاقة بريديّة لها ، أهو يشير ضمنًا إلى أنَّه يملك الحقّ ليطالب بها؟ ثمَّ فجأة يتذكّر أوغستا ، يتخيّلها تتفحّص ما هو مكتوب في البطاقة ، وهل ثمّة شيءٌ يُقرأ من خلالها؟ هذا كاف بالنّسبة إلى أوغستا لتتطرّق إلى الحديث عن الموضوع مع الآخرين ، كما تفعل عادةً في مثل هذه الحالات ، كما لو أنَّ عينَيها مرّتا عن طريق الخطأ بين الجمل ، فيبدو الأمر كأنَّها لم تقل شيئًا قطّ ، وبالتَّالي يصل الخبر إلى النّاس فجأة ، من غير أن يملكوا أدنى فكرة كيف . لا . مستحيل أن يُفسّر ما كتبه باعتباره رسالة ذات مغزى ، لا – لكن تبقى الحقيقة أنَّه هو بنيديكت كتب لها بطاقةً بريديّة ، إلى ثوريذر ، وهذا قد يكون كافيًا . يطلق لسانه بالسّباب همسًا ، ينحني على الطّاولة ، يريح جبينه بيده ، تلك الأفكار القلقة التي تعتمل في رأسه جعلته يرشح بالعرق ، وليست أمامه سوى مدّة قصيرة وغير مريحة من الوقت حتى يحين موعد رحلته ، يكتب ، من غير أن يمعن التّفكير مليًا بالكلمات ، نعم ، من دون أي تدخّلٍ منه : سأبقى في لندن إلى يوم الأحد . أيمكن أن تسجليَ لي برنامج «ساعة الكوميديا»؟ هه ، لقد تمادى الآن وأفسد الأمر ، أي غبيّ هو يمكن أن يكون؟ أوّلًا لأنَّه جعل ذلك يبدو كما لو أنَّه لا يستطيع أن يواصل العيش في هذا العالم إذا فوّت حلقةً من «ساعة الكوميديا» ، وثانيًا لأنَّه كان يقول ، بل مقترحًا

بشدّة ، أنَّ هناك شيئًا بينهما . وهذا في غاية السّخف ، فهو لا يملك أيّ حقٍّ ، ولا رغبة لديه في اقتراح شيء كهذا ، إنّه ليس إلّا مجرد أبله ، مع أكثر بقليل جدًا من نصف ساعة قبل انطلاق رحلته الجويّة . عليه أن ينهي هذا بطريقةٍ ما ، تبًا ، طبعًا الحل الأمثل هو أن يمزّق البطاقة ، إنَّه الشّيء الوحيد المعقول الذي يمكن القيام به ، ومع ذلك لا يفعل لأنَّه لا شيء سوى مغفّل ، ثم إنّ على المرء أن ينهي ما بدأه ، هكذا تجري الأمور . أنْهِ ما بدأته إذًا ، بسرعة ، أنقِذ ما يمكن إنقاذه ، اكتب شيئًا حكيمًا ، مترابطًا ، لا علامات تعجب ، ونقطة واحدة فقط : من الجيّد أن يسافرَ المرء ، يمكن أن تكون أيسلندا محدودة جدًا - أو أيجدر به أن يكتب تحدّ من نطاق المرء . لا ، الكلمة حسنة كما هي ، حسنة للغاية . ينظر بنيديكت حواليه راضيًا عن نفسه ، راضيًا جدًا ، بحقّ الجحيم ، لقد تفوّق على نفسه هذه المرّة ، سيرى النّاس الآن أنَّه ليس قرويًا ساذجًا انعزاليًا . عشرون دقيقةً حتّى إقلاع الطّائرة . عشرون دقيقةً! يقفز بنيديكت ، يتلمّس كيس المشتريات المعفاة من الضّرائب ، يتناول البطاقة البريديّة ، يضعها على الطّاولة ، يخربش عنوانها تحت اسمها ، حروف اسمها مكتوبة بطريقة أنيقة ، مستقرّة باطمئنان ومكتوبة بالتّرتيب الصّحيح ، ولن تذهب إلى أي مكان ، أمّا الحروف في عنوانها فتبدو ، على أي حال ، مثل مجموعة أناس مصابين بمرض عصبيّ ، ولا أي حرف في الاتجاه نفسه ، وما زالت الخاتمة مفقودة ، اللعنة على كلّ شيء! عسى خيرًا ، يكتب ، ويتبع الكلمة بفاصلة ، والآن يتردّد من شدَّة الضّغط ، لا يحضره شيء ، فيكتفي بإضافة اسمه ، يفعل ذلك بعجالةٍ كي لا يكون اسمه سهل القراءة ، الآن لا أحد سيعرف من أرسل البطاقة ، لا بأس ، هذا جيّد ، لقد أفسد الأمر على أعين الفضوليين . يندفع خلال أروقة

المطار ، يكاد يطيح أرضًا بثلاثة سيّاح يابانيين أمام منصّة مكتب البريد ، يلقي البطاقة على المنصّة ، يُتأتئ بكلام غير مترابط ، ينثر عملةً معدنية إلى جانب البطاقة ، ينطلق مندفعًا من جديد ، ينجح أخيرًا في الوصول إلى طائرته ، قلبه متسارع وهو يتصبّب عرقًا ، لكن ما ينتظره قريبًا بعد ذلك : السّماء الزرقاء .

تمتاز لندن بأعدادٍ هائلة من السّكّان ، الفرق بين عدد سكّانها وعدد سكّان بلدتنا شاسع ، وأبنيتها أكبر ، لبعض تلك الأبنية تاريخ مغرق في القدم . نحن لدينا هنا متحف خاصّ بالمنطقة ، جرّار من سنة 1936 ، أدوات زراعيّة من العشرينيّات ، غليون عمره مئة سنة ، وأشياء أخرى مشابهة . أمّا في لندن فيمكن أن يطّلع المرء على تاريخ العالم ، كالمومياء التي بعمر 4.000 سنة ، بل حتى فيها أيضًا مصنوعات يدويّة قديمة من زمن الإمبراطوريّة الآشوريّة ، حكمت لندن العالم مئات السّنين ، والرُّومان شيّدوا طريقًا هناك هو الآن أحد أكثر شوارع التّسوق ازدحامًا ، هناك تنوّع كبير جدًا في شوارع لندن ، ووصف يوم واحد يقضيه المرء في استكشافها سيتطلّب عدّة كتب . يجلس بنيديكت في حانةٍ وبيده قدح جعةٍ كبير ، يتفرّج على النّاس يمرّون ، نهر الحياة الغزير ذاك ، يفكّر في ضخامة المدينة ، في تاريخها ، وفي المومياء ، يشرب جعته ويشعر بالانزعاج من كيف أنّ هذا كلّه ؛ المومياء ، الجمّ الغفير من النّاس ، وتاريخ المدينة ، ليس سوى هراء ، تافه جدًا بالمقارنة مع امرأة واحدة في بلدة صغيرة ، في منطقة بعيدة عن كلّ شيء ما عدا الشّتاء الأبديّ والظّلام الخانق ، أرضها ستكون غير صالحة للسّكن بتاتًا لو أنّ تيّار المحيط الدّافئ ذاك لم يتدفّق من حولها . يفكّر بنيديكت للحظة في ذلك التّيّار ، تيّار الخليج ، ويشعر تقريبًا أنّه قاب قوسين من ذرف دمعة امتنان له ، إذ أين ستكون ثوريذر لو لم يكن

لدينا تيّار الخليج؟ أي نوع من عالم قذر سيكون هذا من دونها ، أي نفع سيكون للمومياء والتّاريخ والنّاس أجمع والسّماء الزّرقاء؟ هل سيكون ذلك الـ توني بلير ، على سبيل المثال ، قادرًا على مواصلة الابتسام كما يفعل ، ألن يفضِّل الانكفاء والاكتفاء بالاستلقاء في سريره فقط؟ يكتب بنيديكت بطاقةً بريديّة ، ويرتعش قلبه وهو يكتب : من دونك ستفقد المومياء المصريّة أيّ معنى لها . يعتدل في جلسته ، يقرأ الجملة ، يضطرُّ إلى إغماض عينٍ ليرى جيّدًا من خلال بخار الجعة ويضيف : لحسن الحظّ ، نحن لدينا تيّار الخليج ، وإلّا فلن تكوني موجودةً ، وتوني بلير لن يبتسمَ ابتسامته العريضة ثانيةً أبدًا ، «المخلص لكِ» ، بنيديكت . ثمَّ بعنايةٍ يشطب المخلص لكِ . المرء يحتاج إلى أكثر من ستَّة أقداح جعة ليكون قادرًا على كتابة المخلص لكِ ، المخلص لك عبارة قد تتطلَّب عشرة أقداح جعة على الأقل ، نعم ، المخلص لكِ عبارة مخصّصة لعشرة أقداح جعةٍ . ينظر بنيديكت إلى الرَّجل عند الطَّاولة المجاورة ، الطّاولات هنا متقاربٌ بعضها من بعض كثيرًا ، هذه هي الحال في المدن الرّائدة ، ففيها الكثير من النّاس ، وعليهم كلهم أن يجلسوا في مكان ما . الرّجل عربيّ ، قصير وريّان الجسم ، يلبس بدلةً أنيقة جدًا ، هي على الأرجح مصنوعة من الحرير ، ولهذا الرَّجل يقول بنيديكت : في آخر المطاف ، ليسَتْ هناك حاجةٌ لقول الكثير ، ما يهمّ هو كيف يستخدم المرء الكلمات المناسبة ، تمامًا مثل ما يحدث خلال جمع شتات الخراف ، عندما يركض البلهاء بلا توقّف في كلّ اتّجاه ، عوضًا عن عدم الإفراط في الرّكض ، والانطلاق في الاتّجاه الصَّحيح . يحاول أن يتحدّثَ بالإنجليزيَّة ، لكن لغته الأيسلنديَّة تواصل شقّ طريقها إلى المقدمة ، دافعة جانبًا الكلمات الإنجليزيَّة . مع ذلك يهزّ العربيّ رأسه موافقًا ، ويجيب بخليط من الإنجليزيَّة والعربيَّة .

يجرّ بنيديكت كرسيَّه إلى الطَّاولة الأخرى ويقول ، اسمها ثوريذر . يقول العربيّ ماذا ، ويكرّر بنيديكت ، إنَّها ثوريذر . وبعد ذلك يخبره أنّها فارعة الطّول ، بعينين زرقاوين رائعتين . يخبره عن جزمتها الجلديَّة ، الضَّوء الذي يشعّ من داخلها ، ينظر العربيّ في عيني بنيديكت ، يستمع باهتمام ، ثمَّ يخرج صورةً لامرأة عربيَّة ، ينظر بنيديكت إلى العربيّ بإمعان ، ويهزّ رأسه متفهّمًا . وهكذا يمضي النَّهار ، ويمضي المساء أيضًا . عند منتصف الليل تقريبًا يعانق بنيديكت العربي ، كلٌّ منهما يشعر بغصّة لاضطرارهما ارتياد طريقين مختلفين . يتبادلان العناوين ، يعطي العربيّ بنيديكت ربطة عنقه . في اليوم التَّالي إنَّها السّماء الزّرقاء مرّة أخرى .

5

بعد أربع وعشرين ساعة من جلوس بنيديكت في إحدى حانات لندن ، ليس بعيدًا جدًا عن المومياء المصريَّة ؛ نُصب الحياة التّذكاريّ ذاك الذي يعود إلى أربعة آلاف سنةٍ ، كان يقف في فناء مزرعته ، كلبه ملتصق به ولسانه متدلٍ من السّعادة الخالصة ، لم يكن حواليهما شيءٌ سوى الهواء . وفي وسع بنيديكت أن يركض مسافةً طويلة من غير أن يلتقي بأي شيءٍ ما عدا الهواء ، هذا بديع ، في لندن بالكاد كان قادرًا على مدّ يده من غير أن تصطدمَ بشخص ما ، الحشود أحيانًا غفيرةٌ للغاية بحيث يكاد يكون من المستحيل على المرء أن يستدير . وهذا جعله يتساءل ما إذا كان الأوكسجين هناك كافيًا في أشدّ الشّوارع ازدحامًا ، في بعض اللحظات عانيتُ من صعوبة التنفّس هناك ، قال لكلبه الذي رفع رأسه ونظر إليه

وفهم كلَّ شيء . ابتسم بنيديكت ، لكن عندئذٍ تذكَّر البطاقات البريديَّة التي أرسلاها ، هو والعربيّ ، ثلاث بطاقات على الأقل ، وفي إحداها أتى على ذكر تيَّار الخليج والمومياء ، ومهما حاول جاهدًا لم يستطع أن يسترجع في ذهنه ماذا كتب في البطاقات الأخرى ، وهذه البطاقات لن تلبث أن تصل إلى البلدة ، وستتحرَّك شفتا أوغستا الحمراوان فوق الكلمات ، ذاك الذي يكشف عن عواطفه ، يعرّي دخيلة نفسِه أمام الملأ ، ذاك الذي يخطّها على بطاقةٍ بريديّةٍ ، هو مجرَّد أحمق ؛ لقد بدأت أبدو مثل نجم أغاني بوب أو مثل شاعر ، قال بنيديكت لكلبه ، هيَّا تعال ، لنذهب إلى العمل ونحاول إخراج هذا اللغو من رأسينا .

ثمَّ حدث ما حدث ، إنَّ أيدينا ترتعش قليلًا ، ماذا يمكن أن نقولَ غير أنَّ الوقت كان صيفًا .

كان ذلك شهر حزيران ، حتى بالنّسبة إلى المومياءات المصريَّة ، الخراف في سفوح الجبال مع الحملان وكلّها ترعى الأشنة الأيسلنديَّة وتروي ظمأها من الجداول ، ثمَّ بعد ذلك يأتي عليها الخريف ، وتتحوَّل إلى ذبائح مجمّدة ، تنتهي في الشّوّاية ، في الفرن ، ونأكلها من غير أن نملكَ أدنى فكرةٍ عن ماذا سيحصل لذاك الذي يمنح عيونها مثل هذا الصّفاء . على مضض تجاسر بنيديكت ليطأ بقدميه البلدة ، لولا أنَّ الضَّرورة بطبيعة الحال اقتضت منه الذَّهاب إلى هناك . ركن سيَّارته خارج المستودع ، وبصوتٍ واطئ سأل زملاء العمل الثّلاثة ما إذا صدف أن سمعوا شيئًا عن بطاقاتٍ بريديّة ، واتّضح أنَّهم في الواقع قد فعلوا . تبًا ، دمدم بنيديكت ، وغدا في غاية البؤس . كان كيارتان يتحرّق شوقًا لإغاظته ، لكنَّه إزاء ما اعترى بنيديكت من غمّ قرّر ألّا يفعل ، بل حتى ذهب إلى التَّعاونيَّة من أجله واشترى له البقالة . في هذه الآونة تسلّى

دافي وبنيديكت بلعب الشّطرنج ، وأشار متاياس إلى أن التّعاونيّة ستفلس قريبًا . آمل أن يحدثَ هذا بأسرع ما يمكن ، فكّر بنيديكت ، حينها سينسى النّاس هنا بطاقاتي البريديّة . وبعد ذلك ماذا سيحدث ، يسأل دافي وهو يرفع عينيه من على رقعة الشّطرنج ، سيتولّى أمرنا بعض المحتكرين . أوه ، يقول دافي وهو يهزّ رأسه ، سبعون سنةً من تاريخ التّعاونيّة ثمّ تصل إلى نهايتها . أمّا بنيديكت فلا يقول شيئًا ، لأنّ سبعين سنةً ليست إلّا ومضةً بالمقارنة مع المومياءات المصريّة . يجب أن تذهب وتراها ، يقول كيارتان بعدما يعود حاملًا أكياسًا عامرةً بالبقالة ، لكن بنيديكت يهزّ رأسه ، يقول لا ، ويعود إلى بيته ، إنّه لا يجرؤ ، ولا على جنّته ، مستحيل أن يذهب ويزور ثوريذر ، لقد كشف عن حقيقة نفسه ، هو أعزل كليًا ، وإذا كان سيقابلها في أي مكان ، ينبغي أن يحدثَ ذلك في البيت في فناء مزرعته ، على الأقل هناك يمكنه أن يدعمَ نفسه بعمودِ سياج . وثوريذر جاءت لزيارته في يوم غائم .

تقف هناك في فناء المزرعة ، مرتديةً جينزًا أسود وبلوزة حمراء ، وتنتعل أيضًا جزمتها الجلديّة ، مدهشٌ كيف يتناسب شعرها الأسود مع كلِّ شيء آخر ، مع الغيوم ، وضوء النهار ، ومرور الزّمن . بنيديكت منهمك في طلاء بيته ، يحمل بيده فرشاة الطلاء ، يضعها جانبًا ، ربّما ليتسنى له أن يتأمّلها ، ها هي الغيوم هناك في الأعلى ، ماذا دهاه؟ لماذا يفكّر الآن في الغيوم؟ جميع أعمدة السّياجات على أرضه مستقيمة كاستقامة السّهم ، هذا إمّا نتيجة هوس ما ، أو بدافع الطّموح من ناحيته ، إذ من المريح أحيانًا التّفكير في أنّ بعض الأشياء في الحياة يمكن أن تنتصب مستقيمة هكذا ، لكن لماذا التّطرق إلى الحديث عن أعمدة السّياجات الآن ، يكفي أنّ السّماء أشدّ زرقةً من ضوء النّهار . السّماء الزّرقاء على وجه

الخصوص تتناسب جيّدًا مع الجزمات الجلديَّة والشَّعر الأسود ، لا بدّ من أنَّ مريم المجدليَّة كانت تنتعل جزمة جلديّة عندما رآها المسيح أوَّل مرَّةً ، وهو بلا شك كان مضطرًا إلى التّفكير في أعمدة سياجات أيّامه ليبقي رأسه مرفوعًا . أتظنين أنَّه كانت هناك جزمات جلديّة في أيَّام المسيح ، يسألها بنيديكت . طبعًا ، من السّخف بمكان طرح مثل هذا السّؤال ، تقول مبتسمةً ، تلك الأسنان يمكن حتمًا أن تدغدغني برفق ، يفكّر . أشكركَ على البطاقات البريديَّة ، تقول أخيرًا وهي تقترب منه . في بادئ الأمر كان يفصل بينهما فناء مزرعة بحاله ، والآن لا تفصلهما إلّا بضعة أحجار ، كانت قائمتا الكلب الأماميّتان على وركيها ، ويدها اليمنى على رأسه . هل وصلتكِ أربعة من لندن ، يستفسر بتردّد ، ثلاثة ، تقول من بين ابتسامة أكثر اتساعًا ، أكنتَ مخمورًا؟ تسأله مع ضحكة صغيرة ، لكنَّه للحظة مديدة لا يقول شيئًا ، يكتفي بالنَّظر في عينيها ، إذ ما مومياء عمرها 4000 سنة بالمقارنة مع هاتين العينين النّابضتين بالحياة؟ ثمَّ يقول ، نعم كنت مخمورًا جدًا بحيث نسيت أمر أوغستا . هي بالتَّأكيد لم تغضّ النَّظر عن تلك البطاقات البريديَّة . كانت لكِ وليست للبلدة ، يقول . أكنتَ ستكتب مثلها وأنت صاحٍ؟ نعم ، يجيب بلا تلكؤ ، على الرّغم من أنَّه لا يتذكّر ماذا كتب بالضّبط . تقترب ثوريذر بضع خطوات أكثر ، تقترب كثيرًا حتى ليكاد يعتقد المرء أنَّهما في مدينةٍ رائدة مزدحمة ، أو محشورين في مصعدٍ مكتظّ بالنَّاس ، وليس في فناء مزرعة ومن حولهما مثل تلك المساحة الكبيرة التي لا داعي لها . نعم ، يكرّر ، فتقترب منه أكثر ، إنَّ نفَسها الدّافئ المائل إلى الحلاوة يمكن أن يذيب بسهولةٍ طبقة جليد غرينلاند ، مسببًا ارتفاع مستوى سطح البحر وإغراق الكثير من النّاس ، في ريكيافيك على سبيل المثال ، وفي أكرانيس ، وعلى الأرجح

في إيزافيرذر التي لا تعدو أن تكون أكثر من بصقة رمل في منتصف الزّقاق البحريّ . لن أتنفّس أبدًا صوب طبقة جليد غرينلاند ، تعِده . أيمكن ربَّما أن تقتربي أكثر ، يسألها بارتباك ، نعم ، أنتِ متأكّدة ، يسألها بنبرةِ شكٍّ ، فتجيب بالاقتراب منه أكثر ، قريبًا جدًا بحيث استطاع الإحساس بفخذيها ونهديها . مضى وقتٌ جدّ طويل منذ أن تحسّس النّهود ، يجنح به التّفكير إلى المومياء المصريّة ، لكن ولا حتى موت مومياء عمرها 4000 سنة قادر على إنقاذه ، هي ملتصقة به بشدّة ، وهي حتمًا يمكنها أن تشعرَ بما يطرأ عليه ، وهذا ما يحدث ، وبسبب ذلك يريد أن يقولَ إنَّه آسف ، إلّا أنَّها تحكم ضغط جسمها بجسمه أكثر ، فيلهث بنيديكت ، والسّماء ترتعش والوقت يمرّ ، يمرّ على الأرجح ما يقارب أربعة آلاف سنة . ثمَّ تتحرَّك مبتعدةً عنه ، تتراجع خطوتين إلى الوراء ، مخلّفة إيّاه وهو يشعر بعدم الارتياح من المسافة المفرطة التي طوَّقته . سأعود غدًا ، تقول ، ألا يمكن أن تبقي الآن ، يسألها . لا ، سندع ليلة أرقٍ واحدة تمرّ . لا ، ليس علينا أن نفعل ذلك لأنَّني لا أطيق صبرًا . بلى يمكنك أن تفعل ، وغدًا سآتي في شاحنة نقل أمتعة ، تقول ، وبعد ذلك تركب سيَّارتها ، تشغّل المحرّك ، تنزلُ زجاج النّافذة وتقول : سننجب أطفالًا طوال القامة .

وماذا يتحتم علينا أن نقول؟ يبدو الغد أحيانًا في غاية البعد لدرجة أنَّ أربعة آلاف سنة ليس شيئًا إذا قورنت به ، الغد في كثير من الأحيان لا يأتي ابدًا . تقود ثورذير سيّارتها عائدة إلى البلدة ، بنيديكت والكلب يقفان ويراقبان إلى أن تختفي السّيّارة ، ثمَّ يبدأ بنيديكت - وكلبه - في قطع فناء المزرعة قفزًا . ويدخل بعدئذٍ إلى البيت ، يبحث عن عنوان العربيّ ، يذهب ويحضر قاموس الأيسلنديّة والإنجليزيّة وينهمك في كتابة

رسالة ؛ صديقي العزيز ، أستطيع الآن أن ألمس السّماء! من الجيّد أن يكتب المرء رسالة وهو سعيد ، لكن من ناحيةٍ أخرى ، يمكن أن تكون قيادة سيّارة خطرة وهو في مثل هذه الحال من العواطف المتأججة ، إذ يكون مشتّت الذّهن كثيرًا ، يفتقر إلى التّركيز ، وفي منتصف الطّريق بين مزرعة بنيديكت والبلدة تفقد ثوريذر انتباهها وتجنح بسيارتها خارج الطّريق في مكان سيّئ للغاية ، عند منحدر سحيق . هناك تتدحرج السّيّارة ثلاث مرّات . في قاع المنحدر الحصويّ تقبع صخرة هائلة الضّخامة ، تشكّلت عبر القرون من الرّيح والمطر ، كانت صخرة عاديّة جدًا عندما كانت المومياء حيَّةً ومفعمة بالرَّغبات في مصر ، أمّا الآن ، بعد أربعة آلاف سنة ، تشكل على قمة تلك الصّخرة شيء يشبه سهمًا حادًا وهائلًا . تحطمت السّيّارة على رأس تلك الصّخرة التي اخترقت النّافذة من جهة السّائق ، وعندما يصطدم رأس بشريّ بصخرة ، فالرّأس هو ما يلقى المصير الأسوأ . في قعر المنحدر وقفت تلك الصّخرة طوال الوقت ، بانتظار أن تقتل أحدًا فحسب . استغرق بنيديكت وقتًا طويلًا ليقتلعها ، بدأ بفأس ، بمجرفة ، بعتلة وسيّارته في الأعلى حيث الطّريق ، ثمَّ ما لبث أنِ اضطرَّ إلى الذّهاب ليحضر جرّاره مع رافعتِه ، بدأ باكرًا في الصّباح ، وكان الوقت يشارفُ منتصف الليل عندما نجح في انتزاع الصّخرة ؛ الصّخرة التي راحت تهتزُّ بعض الشّيء في عربة نقل القشّ القديمة عندما ذهب بها إلى البيت . وصل ارتفاع الصّخرة إلى صدره ، وكانت مشهدًا بارزًا جدًا هناك في فناء المزرعة حيث وقف مرَّة هو وثوريذر ، وطوال ذلك الصّيف ثمَّ الخريف من بعده ، والشّتاء بحاله كان بنيديكت في فناء المزرعة ، في أي فصل وجوّ ، يخبط الصّخرة بمطرقته الضّخمة ، أحضر نظّارة واقية لئلّا يخسر بصره ، مع أنَّه لم يحتج إلى عينيه كثيرًا ، فقط ما يكفي لأنْ يلقيَ على الصّخرة

نظرة ، وكان من المريح خبطها بالمطرقة ، من المريح تكسيرها ، من المريح الشّعور بشظايا الحجارة تتناثر في كلِّ اتّجاه ، ومن المريح أن تخدش الشَّظايا وجهه وذراعيه . هذا كان تقريبًا الشّيء الوحيد المريح ، وهو في الوقت نفسِه ليس مريحًا بصفةٍ خاصّة . ثمّ أقبل الرّبيع ، حطّ على الأرض وانبسط في السّماء ، تراجع الصّقيع رويدًا رويدًا من على الأرض ، عادت الطّيور ، ازداد حجم الشّمس وما عادت الصّخرة في فناء المزرعة ، فقد حطّمها إلى فتات . اتّكأ بنيديكت إلى جدار بيته ، وقف هناك هو وكلبه ، وفي غرفة الجلوس حقيبة أمتعة جلديّة بُنيّة اللون ، والحقيبة تنتظر اليد التي كانت الأرضُ تحوّل طبيعتها إلى شيء آخر بتأنٍ . اسم الكلب كولير . لا أحد هناك سوى بنيديكت وكولير . الكلاب تشيخ أسرع ممّا يشيخ النّاس ، في غضون سبع سنوات لن يبقى هناك إلّا بنيديكت ، ثمّ ماذا بعد؟

مكتبة
t.me/t_pdf

رُشّحت روايات **يون كالمان ستيفنسن** ثلاث مرّات لنيل جائزة مجلس الأدب الاسكندنافيّ، ونالت روايته «ضياء الصّيف ثم يُقبل الليل» جائزة الأدب الأيسلنديّ سنة 2005.

في سنة 2011 مُنح جائزة بير أولوف إينكويست المرموقة. وهو ربّما يتمتّع بشهرةٍ أوسع بسبب ثلاثيته: جنة وجحيم، حزن الملائكة، وقلب الرّجل. وروايته ليس للسّمك أقدام، أدرجَتْ ضمن قائمة «مان بوكر» الدّوليّة سنة 2017.

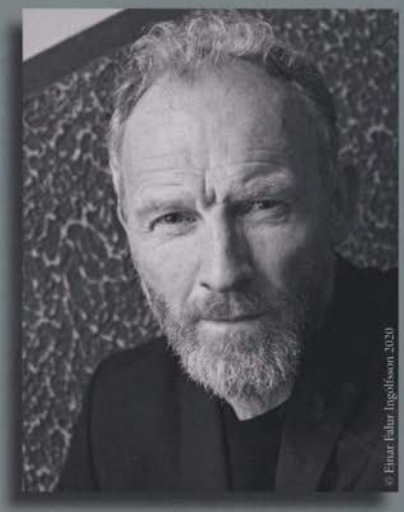

ISBN 978-91-88863-32-4
9 789188 863324

دار المنى